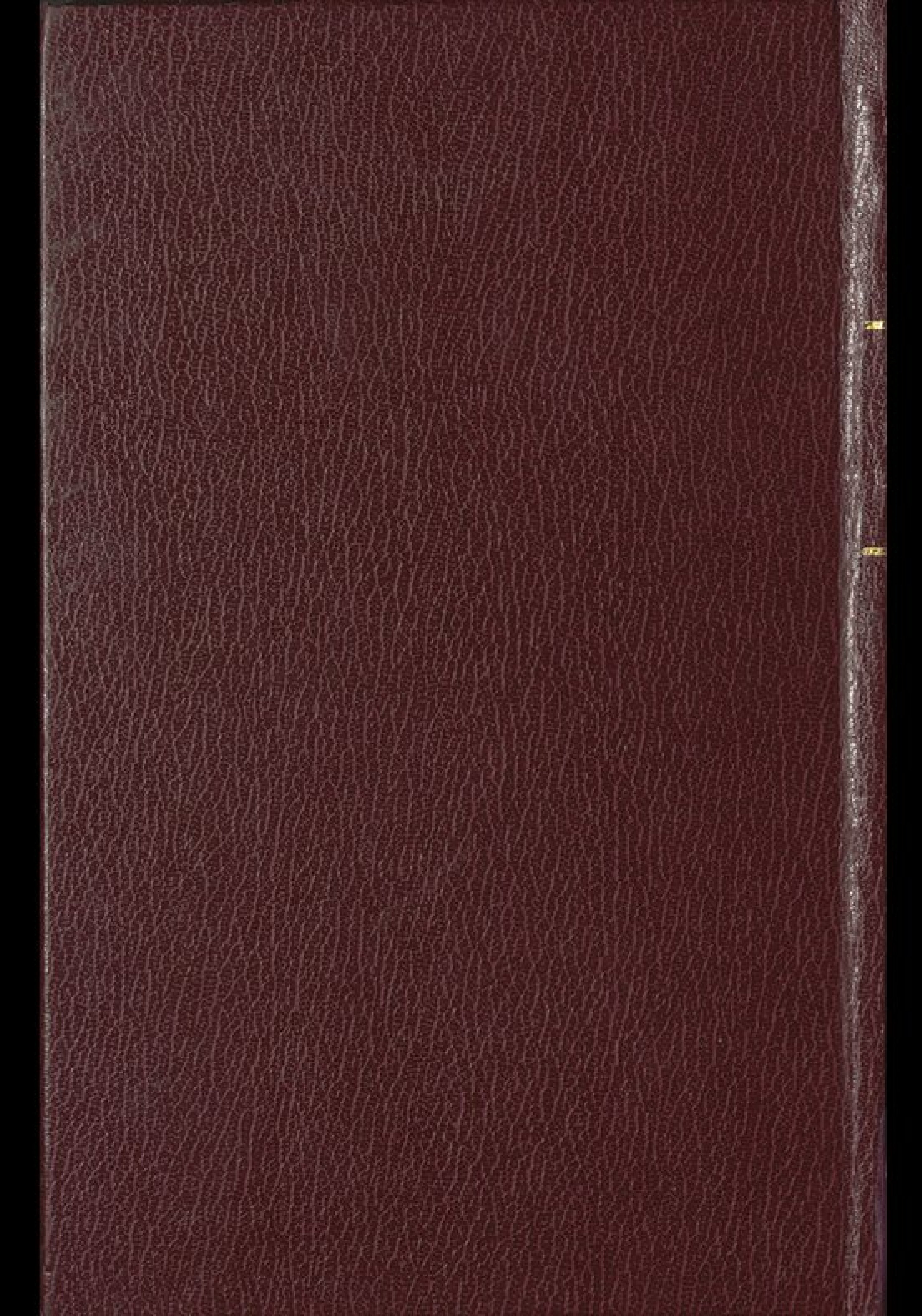
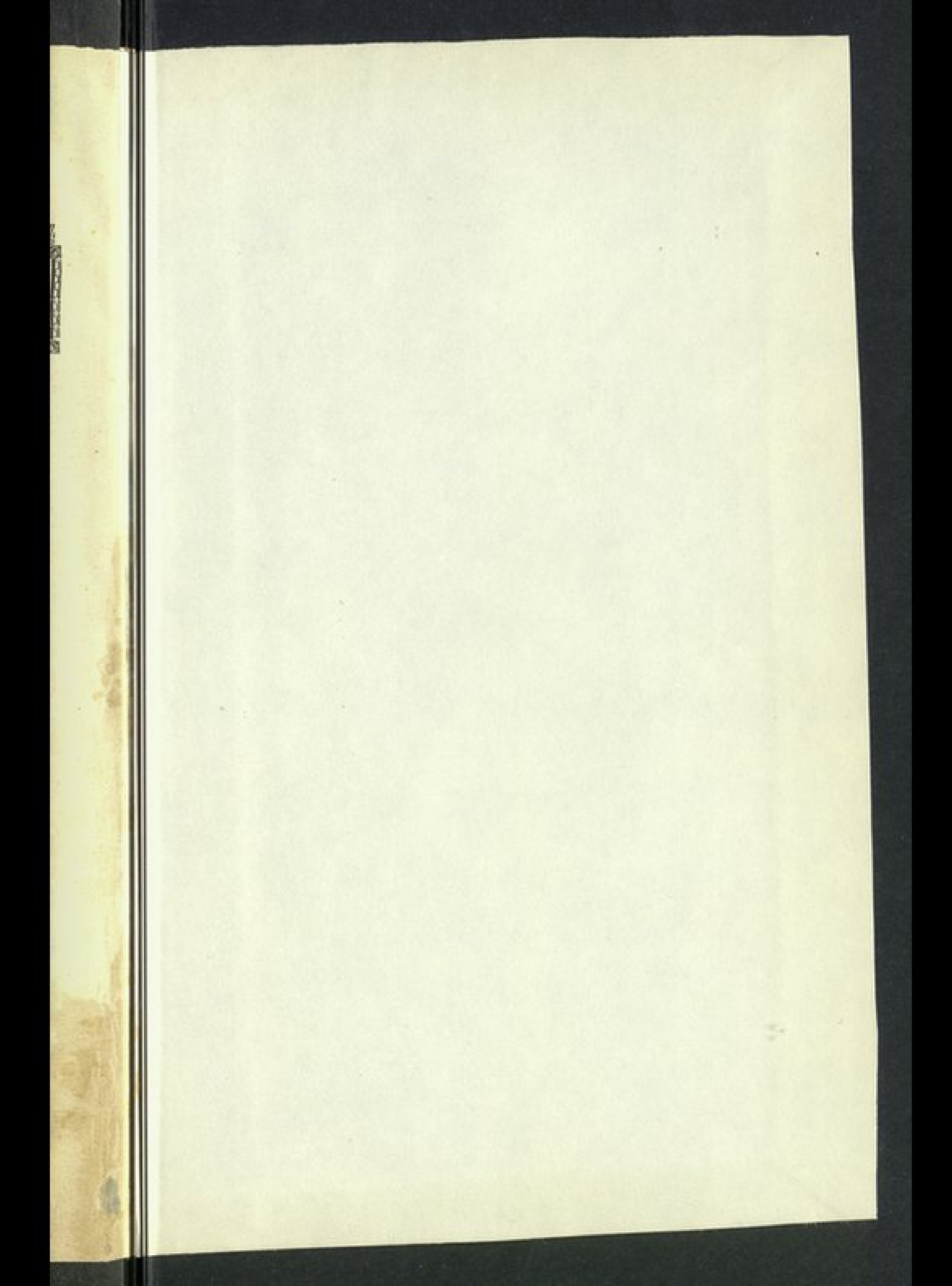
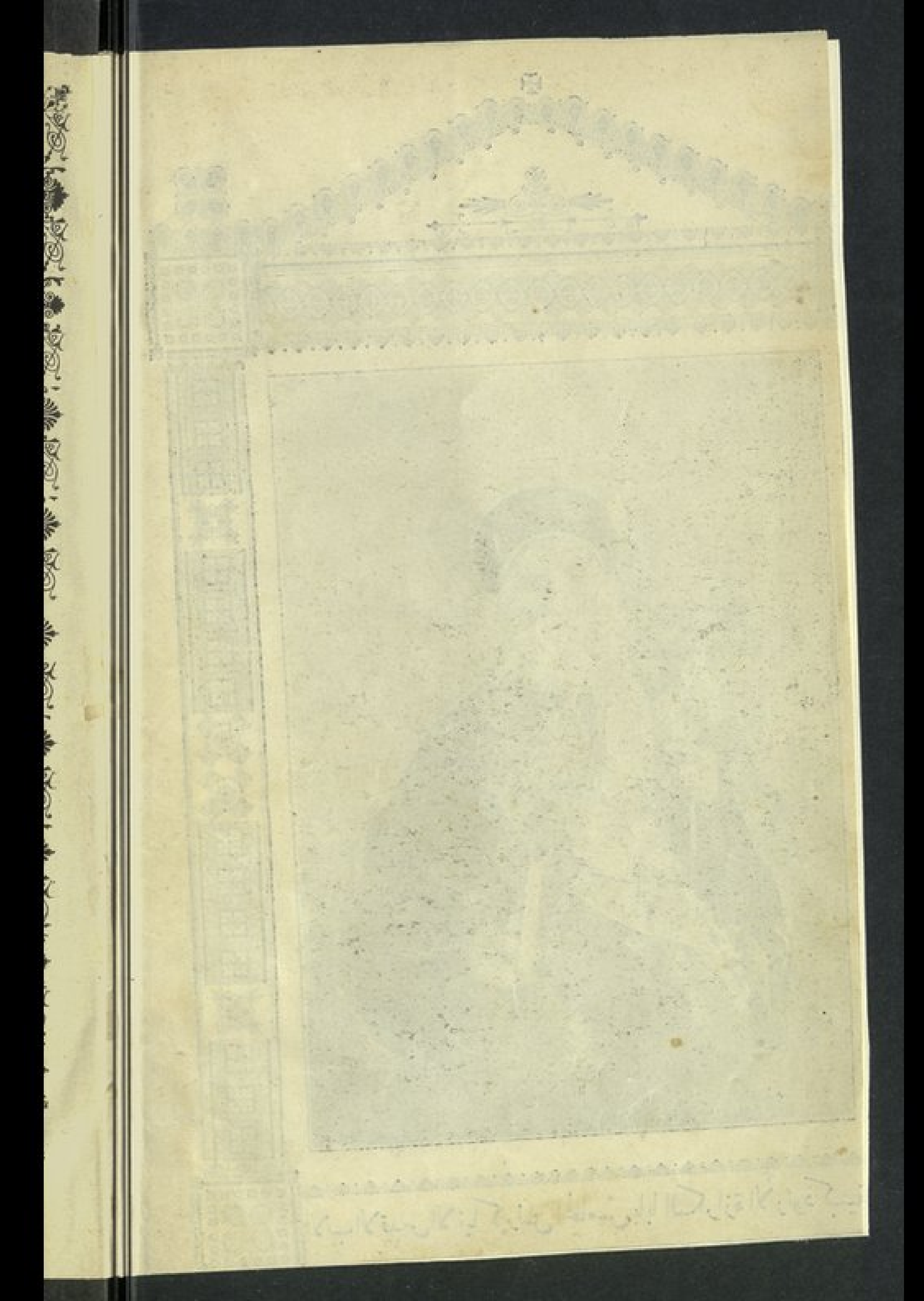


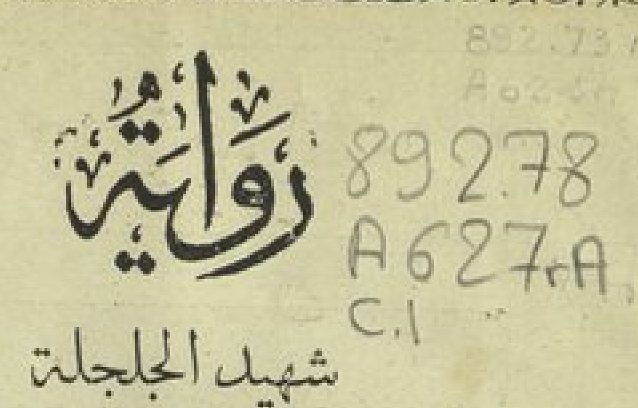

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY





الاب الاقدس الانبا كيرلس الخامس بابا الكرازة الأرثوذكسية





شهيد الجلجلة

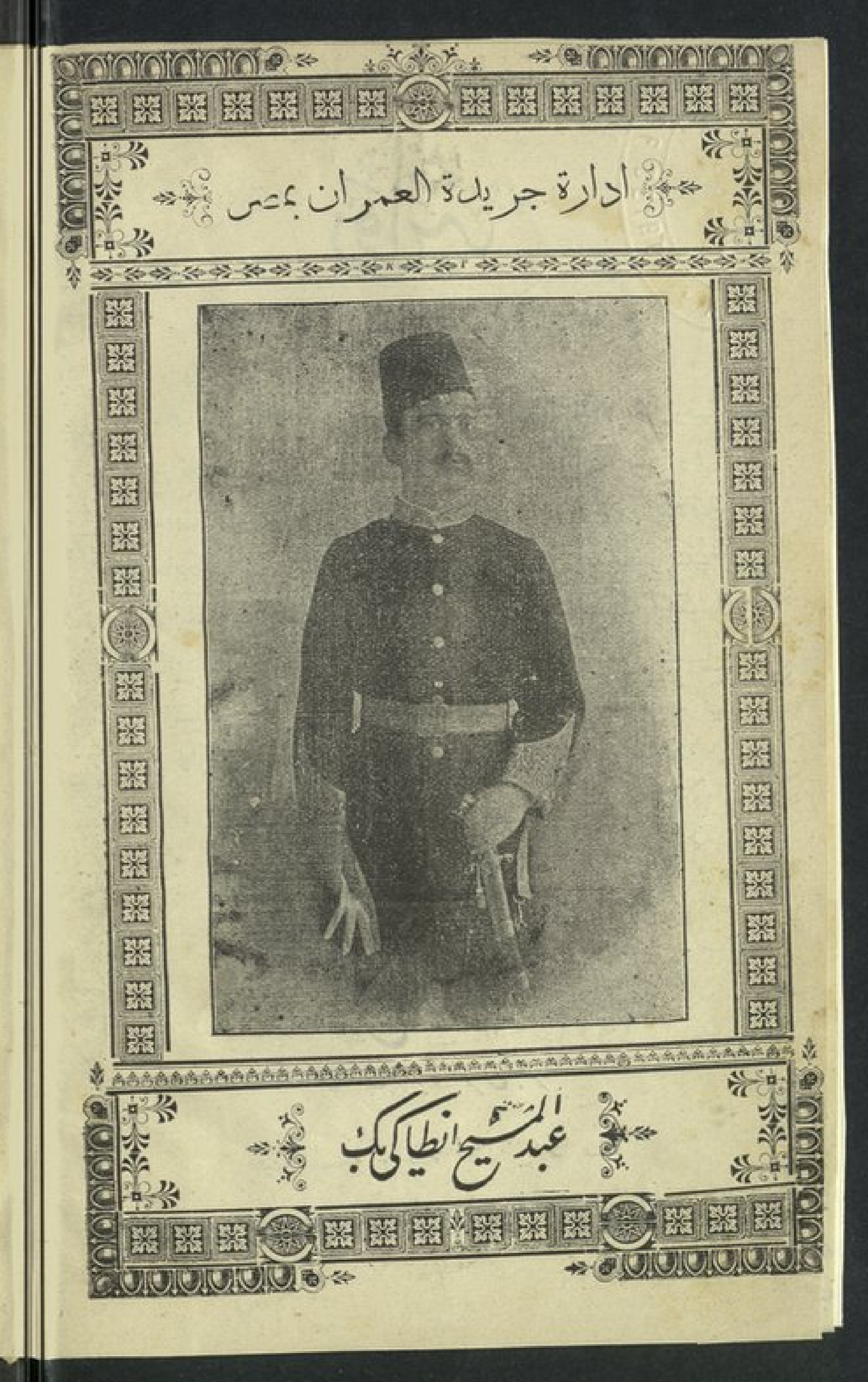
هي الحلقة الثانية من روايات تاريخ النصرانية الاكبر وفيها تاريخ ثلاث وثلاثين سنة لليهودية وعلائقها مع الرومانيين وهي السنوات التي قضاها السيد المسيح له المجد علي الارض مع الافاضة في حادثة الصلب وتمثيلها للعيان حتى يخال للقاري انه حاضر بنفسه تلك الحوادث وقد جرّ البحث الى ذكر مدينة انطاكيه وعظمتها وهيكل دفنه وكيف كانوا يتهتكون فيه باسم العبادة مع تفصيل الحروب البحرية التى كانت تجري وقتئذ كل هذا باسلوب غرامي أدبي لا تخجل العذراء من تلاوته في خدرها والولد في مدرسته

تأليف الفقير اليه تعالى

عبد المسيح انطاكي بك

صاحب جريدة العمران بمصر

قيمة النسخة الواحدة ثلاثون غرشاً صاغاً


ادارهٔ جریدهٔ العمران بمصر
عبد المسیح انطاکی بک



تقدمة احترام

حضرة الماجد الوجيه

أرفع اليك حفظك الله وأبقاك نسخة من روايتي «شهيد الجلجلة» وهي الحلقة الثانية من تاريخ النصرانية الاكبر التي ذاع ذكرها في العالمين قبل ان تظهر لعالم الوجود بشكل كتاب مستقل بنفسه وعلى ما أعهد بك حفظك الله من الفضل في عالم الفضل لا أشك انك تتكرم بقبول هديتي هذه التي أنفقت في سبيل وضعها المال العزيز والتعب الكثير حتى جاءت على غاية مايرام حاوية من الفكاهة ما يرغب في مطالعتها ومن الفائدة ما يغني عن مطالعة العدد العديد من شتات التواريخ العربية والافرنجية وأملي أن تنال من لدنك القبول وهذا كل المأمول والسلام

من اخيك

صاحب العمران

عبد المسيح انطاكي



غرضنا من هذه الروايات

نعرض اليوم على الرأي العام الحلقة الثانيـة من تاريخ النصرانية الاكبر باسم شهيد الجلجلة وهي تابعة لرواية فتاة اسرائيل التي انتشرت بسرعة بين القراء الكرام

ولقد ذكرنا في تلك الرواية ان الغرض الاكبر الذي نرمي اليه في هـذا المشروع العظيم هو التأليف بين قلوب المسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم والتوحيـد بين آرائهم ولا اقرب من التأليف بينهم عندما يرون بالبرهان الاشهب انهم على دين واحدلم يختلفوا في جوهر من جواهره وهذا يتضح اكثر باكثر من الحلقات التالية واهمها الثالثة التي بدأنا بوضعها باسم رواية الاناء المصطفى . والرابعـة التي ستكون باسم بيعة الديماميس حنئذ يتضح للمسيحيين عموماً ان المسيحية لم يكن فيها شيء من كل هذا الذي نسميه افتراقاً بالرأي او افتراقاً بالمذهب وكل آت قريب

عبد المسيح انطاكي

رواية شهيد الجلجلة

هي الحلقة الثانية من تاريخ النصرانية الاكبر تتبع الحلقة الاولى المعنونة برواية فتاة اسرائيل وستضم مباحثها حياة السيد المسيح والوسط الذي عاش فيه وأعماله ومعجزاته الى صلبه فقيامته فصعوده لحلول الروح القدس على التلاميذ في علية صهيون في قالب فكاهي روائي غرامي أدبي وسيمثل أدوارها الغرامية كل من قدر له ان يعيش الى هذا العهد من ابطال روايتنا الاولى فتكون كنتمة لها مع ان قاري تلك الرواية يقدر ان يكتفي بها كما تقدر قاري هذه الرواية ان يستغني عن تلك

ورأينا ان نرفع روايتنا هذه تقدمة حقيرة الى اكبر رئيس في البيعة المسيحية وأعظم حبر في الكنيسة ساكن الفاتيكان الاب الاقدس البابا بيوس العاشر حتى اذا أتيح لهذه الرواية من ينقل محتوياتها الى قداسته يرفع يمينه الطاهرة ولا شك ويبارك هذا المشروع الذي ما أقدمت على وضعه الا لايقاف قومي أبناء اللغة العربية على حقيقة التاريخ المسيحي لازالة ما في نفوسهم من النفرة المسببة عن سوء الفهم

هذا واكرر هنا ماسبق وقلته في فاتحة روايتي الاولى من أني مستعد أن أتلقى بكل سرور انتقادات المنتقدين على كتاباتي توصلاً الى الحقيقة التي أسعى اليها واني لاستحي من الحق اذا عرفته ان لاارجع اليه



﴿ تقدمة الرواية ﴾

مولاي الاب الاقدس قطب الحكمة البابا بيوس العاشر خليفة بطرس الصياد والحبر الاعظم للبيعة الكاثوليكية المالك سعيداً

أتجرأ ان أرفع لسدتك الرسولية روايتي هذه « شهيد الجلجلة » وهي الحلقة الثانية من سلسلة روايات اشتغل في وضعها في تاريخ النصرانية الاكبر حتى اذا وفقت بمن ينقل لسدتك الرسولية بعض محتوياتها وان الغاية القصوى من وضعها ازالة كل شقاق وخلاف من نفوس المسيحيين بادرت أعز الله سلطانك فرفعت يمينك الطاهرة وباركت هذا الشاب المندفع في خدمة امته والذي كفر بنفسه وحمل صليبه وتبع خطوات سيده غير وجل ولا هياب مع علمي بماوراء مشروع كهذا كبير من العقبات الكؤود التي دون اجتيازها خرط القتاد وشق النفس وعرق القربة

وبما انك أيها الاب الاقدس قد برهنت للعالم أجمع منذ ارتقائك الى السدة الرسولية البطرسية انك رجل فوق التقليد وأسمى من ان تنال بحكم العادة فلا عجب اذا صدرت هذه الرواية برسمك المحبوب واسمك الكريم ووضعتها تحت حمايتك ورعايتك وأملي ان أرضيك بمحتوياتها بالروح ولو كان بينها وبين سدتك الرسولية حجب من اختلاف اللغة يمنعك عن معرفة ما سيكون فيها ولكن يكفي انه مطابق لما جاء في الانجيل الشريف والنصوص الرسولية والتواريخ الصحيحة مع ترجيح ما يحكم به العقل وتصادق عليه الروية في كل ما اختلف به الرواة وشط عند ذكره المؤرخون

واني أسأل الله ان يديم ذاتك المقدسة كما أسأل من سدتك العليا الدعاء والبركة الرسولية لي وللعائلة واني المسيحي المخلص

صاحب جريدة العمران

مصر في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٤ — عبد المسيح انطاكي

ــ(الفصل الاول)ــ

« انطاكيه »

في صباح أحد أيام الربيع كان الناس يتنقلون أفواجاً أفواجاً من المدينة الشرقية العظيمة التي بناها انطويوخوس العظيم أحد قوّاد الاسكندر الى ايكة دفنه التي غرسها الاله ابلون لنفسه وجعلها مقراً لنزهته وترويحاً لكربه وفضلها على جبل اولمبوس . كان الناس يذهبون الى هذا الفردوس الارضي وهم يقولون « خير للانسان ان يكون دودة تأكل ورق التوت في دفنه من ان يكون ضيفاً للاقيال والملوك » الى هذه الجنائن الغناء كان يذهب الفيلسوف الشكس والاديب الحازم والشاب الطائش والمرأة الحسناء والكاهن العابد الكل كانوا يذهبون في صباح ذلك اليوم الى ايكة دفنه لحضور احتفال ديني جميل في هيكل ابلون المقام على تلك الايكة الجميلة البهجة . الناس في صباح ذلك اليوم كانوا يهجرون المدينة العظيمة التي بناها محبو الاله ابلون ومعشوقته اكراماً له ولها . ان الذي يمر في شوارع انطاكية وخلواتها وأروقتها كان يرى الوف الاوف من التماثيل وجميل الآثار كما كان يرى من أمائر الثروة والترف والجمال والجلال مالا وجود له في مدينة أخرى من عواصم الارض لذلك العهد الا في روميه أم المدن

ان المدينة مسورة بسور عظيم يشهد بالبراعة للمعلم شريوس رئيس المهندسين الذين بنوه والقسم القريب من المدينة قد بناه السلوقيون الاولون وقد صار جزءاً من الصخر الذي بني عليه لمرور ثلاثمئة عاماً على بنائه وفي

القسم الذي على الجبل المشرف على المدينة اربعمئة برج وكل برج فيه صهريج ماء عذب يستقي منه الجنود وأهل المدينة أحياناً

ان القلعة التي في أعلى جبل سابيوس يقيم فيها فرقة من الجند الروماني على الدوام وذلك تأييداً لسلطة القياصرة الرومانيين عليها ويقابل القلعة هيكل زفس ذلك الهيكل العظيم الذي مابنى البناؤون افخم منه الا في رومية العظمى وتحت الهيكل قصر فخيم يسكنه نائب القيصر وهو قصر ملكي واسع محصن لايؤثر فيه هجوم الجموع اذا ارادوا بالنائب شراً

كان الناس يتركون هذه المدينة التي ذكرنا قليلاً من وصفها ويقصدون ايكة دفنه لذلك الاحتفال الديني العظيم وكان الامراء يركبون عربات تجر بعضها الثيران والبعض الآخر الخيول والبعض العبيد والاسرى من بني البشر وكان بعض الناس يذهبون الى الايكة وهم ممتطون الخيول والحمير وبعضهم كانوا يمشون على اقدامهم وهم ليس بالعدد القليل لان الطريق كانت مرصوفة بالحجارة ومغروسة بالاشجار وفيها رشاش مياه الفساقي التي كانت تتدفق في هاتيك الجنائن الزاهية الغناء

وكان في جملة الذاهبين في هذه الطريق أمرأة مجعدة الوجه قد وخط الشيب شعرها الا انها ما كانت تتجاوز الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمرها ولو ان ملامح وجهها كانت تدل على اكثر من ذلك ويظهر ان الهموم قد اثرت عليها كما يقول صاحب الزبور «الهم والغم يفنيان الانسان قبل حينه» وكان معها فتى وضاح الجبين حسن الطلعة جذاب العينين قد ناهز العام الخامس عشر من ربيع عمره وكانت هذه

المرأة ترأف على الفتى الذي معها رأفة الام على بنيها بحيث كان يخال لكل من كان يمر بهما انهما أم وولدها

خرجت المرأة يتبعها الفتى من الشارع الايسر المتجه نحو الجنوب وسارا في طريقهما سوياً الى ان قربا من سفح جبل جليوس الذي عليه مذبح المشتري والمريخ ثم عرجا الى شارع متعارض وكان معروفاً برواق هيرودس ثم ايمنا بحيث تركا شارع سلوقس القديم عن يسارهما وبعد قليل وصلا الى ابواب ايفانس البرونزية فدخلاها واذا هما في أول طريق دفنه

ولما خرجا من هذه الابواب مع الجموع التي كانت تزاحم بعضها بعضاً جعلا يسلكان في تلك الطريق التي ما كان وسوف لا يكون اعظم منها ولا أحسن انتظاماً وتنسيقاً وترتيباً وكانا بين الناس كأنهما في موكب ليس له أول من آخر وكان الطريق مقسوماً الى أقسام فقسم للمشاة وآخر للفرسان وآخر للمركبات وكان كل قسم مزدوجا الواحد للذاهبين والآخر للآتين ويفصل بين قسم وآخر حاجز واطئ من صلب الحجارة مركوز على قواعد قوية واركان متينة وكان فوق كل ركن من هذه الاركان تمثال منحوت من صلب الحجارة يمثل إلهاً من الآلهة وكان عن يمين الشارع ويساره خمائل مفروشة بانواع الزهور المعطرة التي كلما هب عليها النسيم فاحت عرفاً شذياً وكانت اشجار السندجان والجميز الباسقة مغروسة من الجانبين لتظلل المارين باوراقها واغصانها عدا ما كان هناك من كروم التين والعنب. اما القسم المختص بالسائرين على اقدامهم فكان مفروشاً بحجر احمر مصقول خلا طريقي الفرسان والمركبات فقد كانا مفروشين بالرمل

الابيض الزاهي

وكان الذي يمر في هذه الطريق الزهية يندهش مما يرى من الانتظام وحسن الترتيب ويزداد اندهاشاً مما يرى في طريقه من الفساقي الجميلة التي تفيض منها المياه وكانت كلها هدايا من عظماء الملوك الذين اقاموها تذكاراً لزياراتهم هذه المدينة وكانت تسمى كل فسقية باسم الملك الذي أقامها وكان الطريق على ماوصفنا ممتداً من ابواب انطاكية الى ايكة دفنه على مسافة تتجاوز الاربعة أميال

وبعد ان مشت تلك المرأة مع الفتى قريباً من نصف الطريق انتهيا الى قرية هرقلية وهناك استوقف الفتى عمته بقوله : آواه ياعمتي المحبوبة ان الطريق جميل وكل ما اراه يدعو الى البهجة والانشراح غيراني مع ذلك ضيق الصدر منذ عضع الافكار وارى ان الايام عابسة في وجهي ويا ليتني مت مع أمي واخوتي وابي المحبوب

ولما سمعت المرأة هذه الكلمات اطلقت من فؤادها نفساً حاراً وسقط من عينيها دمعتان كادتا ان تحرقا خديها لو لم تسرع فتكفكفهما بمنديل كان بيدها وقالت للفتى اني لم اسر بك في هذه الطريق ياولداه الا لاسري عنك ماتلقاه من لوعة الاكتئاب والحزن ويا ليتني ما أخبرتك عن طرف من حقيقة أمرك أوليتني تمهلت قليلاً لعل الهنا يهيء لنا من ضيقتنا فرجاً

وهم الفتى ان يجاوب التي دعاها عمته على كلماتها نخنقته العبرات فاخذ يبكي ويكفكف دموعه بيديه واخذت المرأة ايضاً تبكي ذاكرة اشجانها واحزانها ولم يزالا كذلك حتى مر بهما امرأة من جميلات نساء البر وامامها

عنزتان تسوقهما بصوت شجي مطرب وكانت مع عنزتيها مزينات بالازهار فضحك الفتى منها ومن اهتمامها بعنزتيها بعد ان كان يبكي ومال نحو عمته وقال لها ان معيشة البر فيها كل الراحة والهناء أما العمة فلم تتمالك من التبسم وقالت للفتى بحنان والدي : نعم وانما يخلو من الهم من خلا من الفطنة واستسلم لاحكام القضاء

وبعد سكوت قليل استلفت نظر الاثنين ثور ابيض اللون كالثلج ضخم الجثة كأنه من اكبر أبناء نوعه وكان مكسواً بأوراق الدوالي وعلى ظهره سل فيه طفل عاري الثياب ومن حول الثور جماعة من النساء والرجال يغنون ويطربون ويرقصون ويشربون الخمور فسأل الفتى عمته عن هذا الثور والمقصود من سيرهم به على هذا الشكل فقالت : انهم يرمزون في هذا الطفل الى بخوس اله الخمر وهذا موكبه فلم يتمالك ان قال الفتى انهم جهلاء أيتها العمة الكريمة نعم انهم جهلاء فالويل لهم

ثم مر امامها زمرة من الجند الروماني تحمل الالوية وزمرة من الجند الوطني بعضها بألبسة سوداء والبعض الآخر بالالبسة البيضاء وكانت تحمل الرايات المختلفة الالوان وبعد ذلك بقليل مرَّ قوم من الكهان يحملون المباخر يتبعهم فئة من الكاهنات وهنَّ ينشدن الاناشيد ويتلين التراتيل ويتبعهن عدد من الداخلات حديثاً في الكهانة وكن يرقصن على صوت الناي والنقارات فسأل الفتى عمته عن كل ما رأى فضحكت وقالت انهم ينغمسون برذائلهم بعد ما ألبسوها ثوباً من الدين قشيباً

أما الفتى فتحركت فيه الرغبة الى اتباع خطوات المارين امامه وأظن

كل قارئ يتشوق الى الرحيل في اثر هـذه المواكب الحافلة مع هـذا الشاب الى دفنه معهد السرور والبهجة والانشراح وموضع الصفاء والهناء وهكذا سار الفتى وعمته معه هـذه مفكرة بماضيها ومستقبل ولدها وهو لاه عن كل شيء الا ما امامه الى ان وصلا الى تل مرتفع وعليه هيكل فخيم لا يقوى أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء على وصف منظره ولما قربا من باب هـذا الهيكل رأيا عليـه من النقوش المرمرية والاساطين المذهبة ما اندهش به لبه واستجلب نظاره على الاخص ما كان على الباب مكتوباً ومنقوشاً بخطوط بارزة على صلب الحجارة التي أقيم منها ذلك الباب الفخيم

ومع ان هـذه المرأة يهودية كما استدللنا من ملابسها وسمعنا من حديثها مع ابنها أو هو ابن أخيها لانه كان يدعوها عمتـه فقد كانا يعرفان اللغة اليونانية لان تلك الكتابة التي اندهش لها الفتى كانت مكتوبة بحروف يونانية والذي أدهشه منها هو عدم فهمه ما ترمي اليه من بعيد المعاني فانه قرأ فيها ما يأتي :

أيها الزائر هل أنت غريب ؟؟ فهنا تجد سلوى عن الاهل والوطن

اصغ الى خرير مياه الجداول وانعش فؤادك برشاش الفساقي لتحوز على رضى الحسان وتملن الى محبتك

نسمات دفنه المحبية هي عند السحر حينما يهب ريح الصبا وريح الجنوب وهي التي تجمع لك صنوفاً من اللذات

اذا هبت عليك الريح الشرقية بسمومها تكون ارطاميس متغيبة وقد ذهبت للصيد في محل آخر واذا نفخت الريح الشمالية فقرصك الزمهرير

اخشيَ للحال واعلم ان ابولون قد غضب

تنعم بظلال الايكة في بياض النهار حيث هي لك ولامثالك ولا تقربها في الليل لانها لابلون ومحظياته فلا تغضبه وتزعجهن

كل يسيراً من الحشيش النابت على ضفاف الجداول فتحفظ ذاكرتك وتصيبهن أولاد دفنه

در حول الرتيلاء وهي تنسج نسجها لانها تشتغل لاجل مترفا

أتريد ان ترى دموع دفنه فاكسر غصناً من شجر الغار ومت

انتبه وابق وافلح

ضحك الفتى اذ قرأ هذه العبارات وقد غمض عليه اكثر المقصود منها وقال لعمته ماذا يعنون بكتابة هذه السطور فتبسمت تلك المرأة تبسماً لطيفاً وقالت ان شعراء اليونان يكتبون كل مايعن لهم من الاوهام لان الجهل مستحكم من عقولهم كما هو مخيم على عقول الجميع وما وضعت هذه السطور الا للمبالغة بما في دفنه من الملذات كما سترى قالت هذا ودخلت بولدها مع الجموع الى تلك الايكة الغناء فاذا هي جنات تجري من حولها الانهار وفيها من كل فاكهة زوجان وعلى أغصانها الالوف من أنواع الطيور التي تغرد بأصواتها الرخيمة والنسيم العليل كان يهب على تلك الزهور فتضوع منها العطور بما يجلي الهموم ويبعث السرور فظهرت على الفتى علائم البهجة والحبور كما ان المرأة التي كانت كمدة حزينة قد تسرى عنها كربها وظهر على وجهها المقطب شيء من الانشراح فتنفست بملء شدقيها وكانت الايكة عبارة عن منفسح من الارض فيه الهضاب والبطاح

وكانت مفروشة بالازهار والرياحين على أبدع نظام وفيها من البنايات الشاهقة ما أقيم للعبادات على الشكل الذي كانوا يحسبونه أدنى الى التقى وما التقوى عندهم الا باعطاء النفس هواها وما الغاية من الصلاح الا ان يكون الانسان مسروراً في حياته

وبينما كانا يتخطيان مع الجموع في مسالك الايكة انتهيا الى منفسح من الارض يسمى ميدان الرقص وكان مرصوفاً بالحجر المرمر الناصع البياض وفي تلك الفترة ظهر بين الجموع عدد عديد من العذارى باهرات الجمال حاسرات السواعد والاعناق مترديات بالملابس الشفافة الناصعة البياض وهي تسترهن حتى الركب وكان على رؤوسهن اكلة الغار وعلى صدورهن كتل الازهار وفي حال وصولهن الى ذلك الميدان أخذن بالرقص والغناء ونقر النقارات وكانت الخلاعة بادية على جميعهن وما زلن يرقصن حتى ظهر احمرار أبدانهن من تحت أثوابهن الشفافة الرقيقة النسيج الى ان أعيين من التعب فعدن من حيث أتين

فسأل الفتى رجلاً كان واقفاً بجانبه عن هؤلاء الفتيات وشأنهن فقال انهن كاهنات مكرسات لخدمة هيكل الاله ابولون ويعدّ أفرادهن بالالوف وهن مقيمات الاحتفالات الدينية على ما ترى وهنا مقرهن ويذهبن أحياناً الى المدن والجزر فيجمعن النذور والاحسانات ويحضرن كل ما يكسبنه الى هذا المقام مقام اله الغناء

فقال الفتى ليت شعري وهل في مثل هذا الرقص والغناء ترضى الالهة فضحك الرجل من بساطة محدثه وقال له أراك عريقاً في الجهل يا هذا

فان لكل أمر الهفللغناء اله لايسر الا بالغناء وللرقص كذلك اله يطرب ويفرح بالرقص وهلم جرا

قال الفتى ولكن في هذه المظاهر مايدعو الى التهتك قال الرجل ان التهتك من مفرحات قلب الانسان وكل منا لم يحي الا ليفرح ويسر ويتنعم بالموجودات

وكانت المرأة بجانب ولدها تسمع كلما يدور بينه وبين محدثه فقالت له بالعبرانية لاتطل الحديث والجدال فان هذه الحالة من السقوط البشري لاتصلح مالم يظهر يهوى الاله الحي بالجسد كما نحن موعودون ولعل الوقت قد قرب لظهور الحق

قالت المرأة هذا وسارت يتبعها الفتى ومشى معهما الرجل من غير ان يعرفا من هو ولكنهما انسا فيه اللطف والظرف والميل الى خدمتهما وكان يناهز الخمسين من عمره وقد وخط الشيب عارضيه غير ان لوائح البسالة والشجاعة كانت بادية عليه

وصادفوا في طريقهم وهم يمشون ويتنعمون بتلك المناظر الجميلة ذلك الثور الابيض وفوقه الطفل وحولهما الجموع فسأل الفتى عن هذا الطفل والثور الذي يركبه فقال الرجل انهم يسيرون بالثور للاله زفس فقال حسناً وأين هو الاله زفس قال انه داخل الهيكل

وبينما هم كذلك واذا بتلك المرأة قد مرت بعنزتيها فقال وهذه الى أين ذاهبة قال الى الاله ابولون الذي حفظ في يوم ما قطعان أوتيس

ثم عثروا وهم سائرون بصنم ضخم هائل قائم على قاعدة جميلة مكتوب

عليها ما نصه « هذا تمثال لقنطاروس خيرون المحبوب من ابولون وارطاميس الذين علما العالم اسرار الصيد والطب والموسيقى والنبوة وعلى كل من يزوره ان ينظر الى المشتري في منتصف الليل في ليل صافي الاديم فيرى مائتــه حياً بين النجوم اذا كان قد نقله المشتري لعامه وصلاحه

فتبسم الفتى مما قرأ وقال وهل المشتري موكل بنقل الصالحين من بني البشر فقال الرجل انظر ولا تعترض لانك لاتقوى وأنت حديث السن على فهم كل ما تسمع وترى ثم مال الى المرأة وقال لها ان ولدك نجيب ذكي الفؤاد ولكن يحتاج الى عناية زائدة حتى لايتهور في أحاديثه

وارتابت المرأة في ذلك الرجل وخافت على ولدها منه فأرادت ان تختصر معه الحديث وتتركه فقالت له حقاً ان ابني حديث السن ويجب ان أعتني بتهذيبه وقالت لابنها بالعبرانية لاتطل الجدال مع الرجل فلعله يريد بنا شراً والاولى ان نتركه وشأنه قالت هذا ولم يخطر لها ان الرجل عبراني لانه كان يلبس ملابس اليونانيين

ولما سمع ذلك الرجل كلمات المرأة لولدها أجابها بالعبرانية اني صديق لاعدو وحاشى لي أن أريد بحفيد سيدي شراً وما لبست هذه الملابس اليونانية الا ليخفى أمري عن العالمين واكون مطلق الحرية في البحث عمن أحب فاني حتى الآن طلبته فما وجدته

ولما سمعت المرأة كلمات محدثها حدقت فيه ببصرها فعرفته وقالت له روحي فداك فهل أنت يعقوب والى أين ذهبت بعدما تركتني في انطاكيه قال بعد ان تنهد الى العناء والشقاء ياراحيل الى حيث أسعى وراء

سيدتي ولكن واخيبة الامل لم أعثر عليها ولا على واحد من أولادها طلبتها فما وجدتها ولم يصل يعقوب الى هذا المقام من الكلام حتى اعترضته راحيل باشارة من جفنها فهم منها ان لا يسترسل في حديثه امام الشاب ثم سألته بعض أسئلة بسيطة ومالت الى ولدها وقالت له ان يعقوب صديق لنا قديم

فرحت راحيل بيعقوب وأنست به وأرادت ان تعود الى انطاكيه معه بأسرع ما يمكن ليقص عليها كل ما كان من أمر سيدتها وما جرى لها مع بنيها بعد مقتل زوجها لأنها ما كانت تريد تخبر الشاب الذي معها بكل شيء بعد ان أخبرته ببعض امره كل هذا وهم يسيرون في دفنه في المكان الوحيد الذي يحكي جنة عدن وفردوس النعيم

وكانوا يتخطون بين الوف من الجموع وعيونهم تتنعم بمرأى غرائب الترف التي لايقوى على وصفها أبلغ كاتب وأفصح خطيب حتى ان الشاب من كثرة اندهاشه كان يقول ان الحياة ملذة في هذا المقام البهيج نعم ومفرحة ايضاً من غير ان يقوى على فهم سر ذلك الفرح الذي خامر نفسه ان كان من اجتماع الجموع أو من سماع الاغاني المطربة والنظر الى محاسن الطبيعة فانه كان يرى في السماء أنواع الطيور تذهب وتغدو مترنمة بتغاريدها كأنها تشارك الناس بأفراحهم ويستنشق كلما هب ذلك النسيم العليل الروائح العطرية الممتزجة بأطايب الازهار النابتة في ارجاء ذلك المكان ولفرط سروره مال الى رفيقه الجديد وسأله هل هنا الفردوس الذي خلق فيه ابوانا الاولان ثم طردا منه

فضحك يعقوب من كلمات الشاب وقال له كلا يا حبيب فان الفردوس مثوى الابرار الصالحين أما هنا فمقام الاشرار الذين اضاعوا الحقيقة وتاهوا في بيداء الجهالة واتخذوا لعباداتهم كل مايفرح القلب ويزيل الكرب ناسين أو متناسين واجبات كل مخلوق نحو خالقه ونحو قريبه ومنغمسين في رزائلهم التي تعدهم الى الهلاك الابدي

وهمّ الشاب ان يسأله بعض اسئلة اخرى وما اكثر ما يتردد على الزهن من دواعي الاسئلة في مثل هذا المجتمع الغريب والمقام العجيب غير ان دنوهم من الغيضة المجاورة لتلك الايكة وتموج الجمع من حولهم قد حال دون ذلك فسكت ودخل مع امه ويعقوب في تلك الغيضة الغناء التي كانت الطبيعةُ مكفلة بغرس كل ما فيها من انواع الزهور والرياحين

وكان المار في هذه الغيضة يرى من انواع الفواكه والازهار والاثمار كل مالذّ طعمه وحسن منظره وضاع عرفه فأشجار باسقة تحمل لذيذ الاثمار وقد مد الياسمين عليها فروعه فأنجمت نجوماً من الازهار ومن هنا وهناك السوسن والورد وعين الثور والدفلة والخزام والريحان وبينها جداول المياه تنساب انسياب الافاعي وهديرها يطرب قلب الجماد وكانوا يسمعون نوح الحمام وسجع اليمام وتغريد القماري ونشيد البلابل وكانت هذه الطيور على انواعها لاتخاف من ذلك المجتمع الكثيف ولا تهرب من ابن الانسان لان شريعة ذلك المكان كانت المحبة والسلام والاطمئنان

أما راحيل فكانت مضطربة متأثرة رغماً عن كل ما امامها مما يجلو عن القلب الحزن كأني بها وقد رأت يعقوب وعرفته تذكرت كل مامرّ

عليها في ماضي حياتها وبعد قليل مالت الى يعقوب وقالت له ان هذا الجمال الطبيعي مع كل مافيه من دواعي السرور والافراح لايطرب قلب المحزون واني أرى العالم لايزال بغير تعزية حتى في هذا الفردوس الذي لا يسر الا الذين دفنوا انفسهم فيه عن رضى زهداً في شقاء العالم ورغبة في الانقطاع الى الراحة في هذه العزلة وأرى ان في العالم نقصاً واننا سائرون في تيه من الضلال ظلماته متكاثفة

فتبسم يعقوب تبسم من حلب اشطر الدهر وعرف حلوه والمرّ وقال انك حكيمة ياراحيل وان فيك روحاً عالية سامية ولا شك فلا تغتري في هؤلاء الفرحين بعزلتهم المستسلمين الى ملاذهم المنهمكين في مسرات قلوبهم فانهم ماعمدوا الى هذه المظاهر المضحكة الا بعد ان تركوا الاهل والاصحاب وأرادوا ان يتناسوا انهم من هذا العالم المملوء من الاشجان والاحزان والذي لاعزاء فيه لمخلوق وعندي انهم هم السعداء وأراك كما عهدتك من قبل كثيرة الشجون والاحزان وحق لك ذلك وأنت سليلة أولئك الملوك الذي دالت دولتهم ولعبت السيوف في رقابهم والآن هيا بنا نتجول في هذه الغياض الغناء ونسرح الطرف بالماء والخضرة ونسبح الاله القادر الذي لاينسى جبلة يديه ونلقي على الله همومنا وهو سبحانه يعولنا قال هذا وجذب الشاب وتبعتهما راحيل في تلك الرياض العطرة والمناظر البهجة

ومروا في طريقهم بدغلة باسقة الاشجار ملتفة الاغصان كأنها علمت لذة الحب فالتف بعضها بالبعض عن هوى ثم مروا بجدول من الماء يجري بين سورين من صميم الحجر وعليه سدود وجسور ثم انتهوا الى اكمة تعلوها

بعض الابنية الجميلة والتماثيل البديعة واذ علوها انبسطت الارض امام أعينهم وسرّهم ما رأوا من تلك المناظر الجميلة والاودية الرحبة النابت فيها الاشجار والهضاب المتفاوتة بالارتفاع الزاهرة بالرياحين والازهار ومن هنا وهناك كانوا يرون البحيرات التي كانت الماء تتلألأ فيها وتضيء مذ مدت الشمس أشعتها عليها والبيوت المزخرفة البناء الشاهقة الاسوار وكان امامهم في الفضاء سحب من الدخان المتصاعد من المحرقات التي كانت تقدم على المذابح المقامة في كل هاتيك النواحي وبالاجمال كانوا يرون كل شيء حسناً داعياً الى المسرة والابتهاج لولا ان في نفوسهم من دواعي الحزن والاكتئاب مالا تسرّيه المناظر البهجة التي كانت في تلك الايكة وهي جنة الله في أرضه وفردوسه في هذه الدنيا

وظهر لهم بعد كل هذا التجوال ان الايكة كلها هيكل واحد متسع اقامته الطبيعة لمسرة من يأتي اليه وجعله انطويوخوس وخلفاه هيكلا لابلون من غير ان ينفقوا عليه ما ينفق عادة من زخرف البناء واقامة الاعمدة والاروقة لان الطبيعة تولت تنظيمه على شكل بديع جميل ليس للانسان ان يأتي بمثله ولو أنفق كل ما يمكن انفاقه من المال الكثير والعناية الكبرى

ثم تحولوا عن هذه الايكة ومالوا نحو الشمال الى ان دنوا من أحد الاودية واذا بقطيع من الغنم ترعاه صبية من عذارى الهيكل عليها مسحة من الجمال رائعة وهي تنشد الاناشيد الغرامية واذ بصرت بالشاب بين عمته ويعقوب تركت قطيعها ودنت منه وأومأت اليه بيدها بأن تعال

وأنشدته بيتين من الشعر برخيم صوتها الذي يطرب الحجر الجماد وهاك ترجمتها

ياغزال المدن دع عيش القصور واغنم اللذات ما بين الزهور
وقف النفس لآبلون في هاته الارجاء يلقاك السرور

فضحكت راحيل من هذه الفتاة التي تحاكي ببساطتها وحريتها منتهى ما تصل اليه الحرية وقالت حبذا لو استطاع الانسان ان يعيش معيشة الحيوان الاعجم

أما الشاب فاحمرَّ وجهه خجلاً لما سمع نشيد الفتاة وفقه بعض ما كانت ترمي اليه من المعاني وأطرق بنظره الى الارض ولما رآه يعقوب على هذه الحالة تبسم وقال لراحيل ان الشبان يخجلون من هذه الحرية طالما هم في مقتبل العمر تحت وصاية وارشاد من هم اكبر منهم ثم لايلبثون ان ينزعوا عن وجوههم براقع الحياء ويأتون كل منكر خضوعاً لانفسهم الشريرة والنفس أمارة بالسوء

ثم ساروا في طريقهم فانتهوا الى مذبح في وسط الطريق قاعدته من الحجر الاسود البركاني الذي يكثر في هاتيك الاطراف وعلى سطح هذا المذبح حجر من المرمر الناصع البياض وفوقه موقدة من النحاس فيها نار وكان في قرب هذا المذبح كاهنة جميلة الطلعة لايستر جسمها الا ثوب من النسيج الشفاف الابيض وبيدها قضيب من الصفصاف تلوحه بالهواء فلما رأت أصحابنا ومعهم ذلك الشاب تبسمت له تبسم الاغراء ولوحت اليه بالقضيب الذي بيمينها تدعوه اليها فقالت راحيل ما اكثر الفساد في هذا

الهيكل وهل القداسة كلها ما نسمع ونرى ؟؟؟

وبعد ان ساروا وهم مندهشون مما يرون وكل ما مرّ عليهم يدعو الى الاندهاش والاستغراب لقوا موكباً حافلاً واذ دنوا منه أبصروا زمرة من النساء عاريات ليس على أجسامهن غير اكلة الازهار وكن ينشدن الاناشيد المطربة وبقربهن زمرة أخرى من الشبان وهم أيضاً عراة الاجسام يرقصون على تواقيع أنغام العذارى وما أشد اندهاش راحيل وخجل الشاب الذي معها لما علما من يعقوب ان هؤلاء كاهنات وكهان الهيكل يقدمون صلواتهم وعباداتهم على هذا الشكل المعيب

وبعد قليل مرّوا على حرش في قلب الوادي أشجاره باسقة متكاثفة من نخيل وسنديان وموز وجميز وارز ورأوا في وسط هذا الحرش تمثالاً على اسم دفنه ليس لمهرة الصناع ان ينحتوا أجمل منه تمثيلاً بأجمل فتاة وجدت في هذه الدنيا وزاد في عجبهم ما رأوه بقرب هذا التمثال حيث رأوا فتاتاً وشاباً نائمين

متعانقين عليهما حلل الرضى   متوسدين بمعصم وبساعد

وكان بجانبهما آلات عملهما فالفاس والمنجل للفتى وسلة الورد للفتاة التي كانت تقتطفه لتتعيش من ثمنه فقال يعقوب ان شريعة هذه البلاد الحرية والمحبة والسلام فتنفست راحيل الصعداء وقالت ولكن يعوز الناس مرشد سموي يأتيهم بشريعة تطهرهم من رجاساتهم وأوزارهم

الفصل الثاني

« الصدفة الغريبة »

ثم رأت راحيل ان العودة خير لها وللشاب الذي معها كما انها كانت مشتاقة الى الخلوة مع يعقوب لتقف منه على ما كان يهمها من الحوادث وكان ليعقوب مثل هذه الرغبة ليسألها عما حدث لها وعن الشاب الذي معها لانه رأى في وجهه ملامح تلك التي كان يطلبها ويطوي بلاد الله ليقف على آثارها أما الشاب فلم يفطن ليعقوب ولم يفكر ايضاً في الاهتمام العجيب الذي ظهر من عمته بهذا الرجل الغريب ولما قربوا من مدخل الايكة شاهدوا عربات رجال الدولة وسراة الرومانيين قادمة الى الايكة فوقفوا ينظرون اليها والى من فيها فكانت العربة الاولى باربع رؤوس من جياد الخيل وهي مطلية بماء الذهب وفيها رجل مهيب الطلعة وبجانبه امرأة كالغزال النافر والصبح المنير

لها طلعة لولا التبسم خلتها هي الشمس او أزهى بهاء من الشمس

وكان الجنود الرومانيون يحرسون هذه العربة وهم مشهرون السلاح والقوم يقفون للسلام على هذا الامير الذي كانوا يعرفونه بالحاكم الروماني

ثم ظهرت عربة اخرى لاتقل عن تلك فخامة ورواء وكان عليها رجل كهل تلوح عليه سيماء الجمال والجلال وعن يمينه امرأته التي كانت عروس الحسان والهة الجمال المتلالئة رغماً عن وصولها الى مابعد الحلقة الثالثة من عمرها

لان ملامحها كانت تدل على انها في الخامسة والثلاثين من ربيع عمرها ونيف

وما وقع نظر راحيل على هذه العربة حتى اضطربت اضطراباً هائلا لانها عرفت الذي كان فيها على سبيل الظن والتخمين وشامت في وجه ذلك الكهل مثالاً حياً ناطقاً لشاب كانت تعرفه يوم كانت في الاسكندرية وكان مصدر بلائها وشقاء سيدتها وخراب بيت سيدها وتضعضع تلك العائلة المقدسة التي كانت تقيم في الاسكندرية ومرجعاً للاسرائيليين اما الرجل فيظهر انه هو ايضاً عرف راحيل أو شبهها تشبيهاً لان الكبر وهموم الايام كانت قد اثرت كثيراً على ملامحها واذ التفت راكب العربة الى الشاب الذي كان بجانبها تأثر أشد التأثر وسقط في يده لانه قرأ على وجه الشاب صورة حبيبته الاولى التي لم يكن لينساها على بعد العهد وكرور الاعوام بالرغم عما لقيه باقترانه بابنة القائد اغريباً من المجد وعلو المنزلة ورفعة الجاه وللحال امر السائق ان يعتزل به مجرى العربات فاعتزل وأمره ايضاً ان يقف ونزل ذلك الامير الجليل ودنا من راحيل فسلم عليها وقال لها اني أريد مقابلتك ايتها السيدة في هذا اليوم مع الشاب الذي معك واذ سمعت راحيل صوته تحول شكها الى يقين وقالت او انت انطونيوس الشريف الروماني واغمي عليها فبادر الى انعاشها واخذها بين يديه وسأل امرأته ان تنزل من العربة فنزلت واركب راحيل بمركبته وسأل الشاب ويعقوب ان يصطحباها الى انطاكيه وقال للسائق اوصلهم الى دارهم وابق في ذاك البيت وعد الينا سريعاً فركب الاثنان مع راحيل التي كانت في أشد حالات التأثر من غير ان يعلما من هو الرجل وما السبب لاغماء راحيل

ولما عاد الامير الى عقيلته سألته عن المرأة وحكايتها فقال لها انها مربية ساره التي كانت تعلم قصتها من قبل وأظن ان الشاب الذي معها هو أحد أولاد تلك التعيسة واذ تقدمت لاستفسر منها عما جرى لها تأثرت وأغمي عليها فارسلتها الى بيتها على ان أعود فاسأل عنها

وتحرير الحادث ان انطونيوس هذا كان ابن والي الاسكندرية وكان في الاسكندرية سري كبير من الاسرائيليين يدعى يوسف منسى وكان كبير قومه وزعيم أمته وكان له ابنة تدعى سارة بارعة الجمال رائعة الحسن فتانة القوام فشغف بها انطونيوس واحبها حباً عظيماً واذ أراد ان يقترن بها غضب ابوه وحسب اقتران ابنه بيهودية مما يحط من كرامته وهو من أشراف الرومانيين فحض المصريين على اختيارها عروساً للنيل على حسب عوائدهم وكان انطونيوس غيوراً على عشيقته فسار الى رومة بصحبة صديقه برتس طلباً لعفو قيصر عن ضحية النيل وأبيها المظلوم بواسطة القائد اغريبا ولما وصل انطونيوس الى رومه توجه رأساً لدار القائد فذكرت ابنته ايفيجيني انها كانت تحب انطونيوس من عهد الصبى من قبل ان يذهب الى الاسكندرية واذ علمت انه قادم ليطلب العفو عن يهودية داخلها الشك وحكمت انه يحب تلك التي ترك بيت ابويه وتكبد مشاق السفر ومتاعبه ليطلب العفو عنها فاكلتها الغيرة وقامت تسعى للاقتران به واهلاك حبيبته ولما لم تتمكن من تخييب أمله بالحصول على العفو تبعته الى الاسكندرية واقترنت به وعادت الى رومه حيث تمكنت بواسطة ابيها من اعلاء مرتبته ورفعة شأنه وما زال حاصلاً على الكرامة في رومه الى ان انتدبه

القيصر سفيراً الى انطاكيه ليفض خلافاً قد استحكمت حلقاته بين والي انطاكيه الروماني وبين قائد الجند الاكبر فوصلها مع قرينته قبل موعد الاحتفال الذي نحن فيه بثلاث أيام

والظاهر ان ايفيجيني مع زوجها كانا مهتمين بامر ساره لان انطونيوس حالما رأى راحيل وقد نحل جسمها وتغيرت ملامحها نزل حالاً لمقابلتها من غير ان يتثبت حقيقة أمرها وكذلك ايفيجيني فقد اكتفت بما قاله زوجها لها بخصوص ساره ولم تستزده بشأنها ثم سارا ماشيين في تلك الايكة التي لم يريا في رومية العظمى أنخم واجمل منها وأخذت ايفيجيني تغبط الانطاكيين لقرب ابولون منهم وسكناه في دفنه بجوارهم غير ان انطونيوس لم يكن ينتبه الى كل ما كان يراه لان شجونه قد ثارت بمرأى راحيل وتذكر هواه القديم وانه هو السبب الاكبر لتعاسة تلك الحبيبة التي جر هواه عليها التعاسة كما كان هذا الهوى سبباً من أقوى اسباب سعادته

وبعد ان بعدت عربة الامير انطونيوس عن دفنه بقليل انتبهت راحيل لنفسها وأخذت تبكي وتنتحب وتقول تباً لك يا انطونيوس فان حبك لسيدتي قد دكدك اركان بيت سيدي وكان سبباً لتعاسته وتعاسة ابنته وكل اليهود الذين كانوا يأوون الى هذا البيت الكريم فليتك لم توجد أوليتنا ماعرفناك قالت هذا وبكت بكاء مراً تتفتت له الجماد وأخذ الشاب الذي معها ويعقوب يبكيان لبكائها وكان الناس الذين يمرون بهذه العربة ويرون من فيها يتأثرون ويعجبون من هذا الحزن الشديد الظاهر على وجوه هؤلاء الثلاثة وهم عائدون من دفنه لاعتقادهم ان الحزين المكتئب

اذا زار دفنه تسرت همومه واحزانه وفارقه الغم والاضطراب

واذ دخلت العربة المدينة اشارت راحيل الى السائق ان يسير بها الى دارها فامتثل ولما دنوا من الدار تركوا العربة ودخلوا البيت واذ استقر بهم المقام قالت راحيل ليعقوب او عرفت من هذا الشاب

ـ كلا

ـ انه ابن ساره الاصغر ولقد التقيت به منذ عهد قريب بمعجزة سموية كان الهنا اله اسرائيل أرسله اليّ لتعزيتي قبل ان أموت

ـ وأنا ايضاً قد ظننته ابناً لساره لانه يشبهها كل الشبه في جمالها وبهاء محياها ولكني أسألك قبل ان تخبريني على كيفية وجود هذا الشاب هل عثرت على خبر من جهة ساره وهل هي حية أو أصبحت في عداد الاموات

ـ لاأعلم الحقيقة وكنت أظنك ادرى مني بامرها وغاية ما عرفته ان زوجها يهوذا قد مات منذ تسع سنوات بثورة شنها على خلف هيرودس ومات معه خلق كثيرون بسيوف الجند الروماني وكنت أظن ان ساره واولادها قد لعب برقابهم حد السيف وماتوا شهداء

والله ماحزنت أخت بفقد أخ   حزني عليهم ولا أم على ولد

الا اني لما ظفرت بهذا الغلام صرت أؤمل بالعثور على أخيه وأخته وأمهم المسكينة أواه يايعقوب ان ساره من خيرة بنات حواء وانها افضل من ولدت النساء ولكن قدر لها كل هذا البلاء والشقاء قالت هذا وارادت ان تسأل يعقوب عما يعلم من أمر سيدها وسيدتها واذ قد قرع الباب

ورسول داخل على راحيل من قبل والي انطاكية الروماني يسألها الحضور الى ديوانه في صباح الغد مع الغلام الذي كان معها في دفنه قال هذا وانصرف بعد ان وعدته بالحضور فسألت راحيل وما يريد الوالي منا يا ترى فقد صرت أخاف من كل شيء وأضطرب لاقل الاشياء

فقال يعقوب لاداعي الى الاضطراب فان الروماني الذي قابلك هذا اليوم في دفنه هو الذي يدعوك لمقابلة الغد في بيت الوالي لانه نزيله ثم اني أسألك يا راحيل هل ضاع الامل من الحصول على ساره

- كلا فقد اجمع كل من رأيته من الذين حضروا تلك الموقعة الدموية والثورة الاهلية على ان ساره واولادها خطفوا من بدء الواقعة وقال غيرهم انهم لم يروا لها شبحاولا لاولادها في ذلك اليوم المدلهم المظلم وكنت اظن ان انطونيوس الروماني الذي كان يحبها ارسل من اختطفها غير ان ظني خاب في هذه الساعة حيث رأيت انطونيوس فجأة وانه احوج مني للسؤال عن تلك التعيسة وأبيها الذين سبب لهما الشقاء بميله الى ساره ومجاهرته بحبها قالت هذا وعادت الى النحيب والبكاء اذ مر علي مخيلتها كثير من الحوادث المزعجة والتذكارات المقلقة

واذ رأى يعقوب ان اتعاب ساره بالحديث مما يزعجها ويؤثر على صحتها نهض للحال مستأذناً بعد ماوعدها بالعود اليها في صباح اليوم التالي

—(الفصل الثالث)—

« السنة التي ولد فيها المسيح »

نحتاج في سرد قصتنا هذه وما بعدها الى ذكر التواريخ في الحوادث التاريخية وعليه فنرى ان نذكر ما اختلف عليه المؤرخون من تحديد السنة التي ولد فيها السيد المسيح لنجعل هذا التاريخ مرجعاً لنا وان تأخر المسيحيون في استعمال التاريخ المسيحي الى الجيل السادس

فان سنة مولد المخلص له المجد قد كثر الاختلاف في تحديدها بين العلماء الاعلام والمؤرخين الثقاة حتى جمع بعضهم نحو مئتي قولاً وجمع غيرهم أقل من ذلك على ان أشهر الاقوال في تحقيق هذا التاريخ ما يأتي :

ذهب المحدثون من مؤرخي اليهود على ان المدة الكائنة بين خلق الانسان الاول وبين التاريخ المسيحي تقدر بـ ٣٧٦١ سنة وقال سكاليجر ٣٩٥٠ سنة وأوساريوس ٤٠٠٤ سنوات وجاء في كتاب صناعة تحقيق التواريخ ٤٩٦٣ وذهبت كنيسة الاسكندرية الى ان تلك المدة تبلغ ٥٥٠٤ سنوات وقالت كنيسة القسطنطينية ان المدة المذكورة هي ٥٥١٠ سنوات وأحصى واضعو الجداول الالنسيه تلك المدة بـ ٦٩٨٤ سنة ومن البديهيات ان هذا الاختلاف ناتج عن ابهام المدات الواردة في نسخ الكتاب المقدس والاختلافات الموجودة في نصه العبراني وترجماته ومن الشك في صحة هذه المدد المذكورة في ذلك الكتاب على ما تراها حتى ما عدنا نعلم أي رواية من روايات الكتاب المقدس هي الاصل وقد خطتها يد موسى عليه السلام

فقد جاء في التوراة العبرانية ان المدة بين الخليقة والطوفان هي ١٦٥٦ سنة وفي نسخة السامريين ١٣٠٧ وفي النسخة اليونانية ٢٢٤٢ ويوجد مثل هذا الاختلاف في تحرير المدة التي مرت بين الطوفان ودعوة ابراهيم ففي النص العبراني ٣٦٧ سنة والسامري ١٠١٧ سنة وفي الترجمة السبعينية ١١٤٧ سنة ويظهر ان هذا الخطأ قد نتج عن النساخ في كتابة الاعداد

على ان الكنائس المسيحية لم تقرّ على واحد من هذه التواريخ بل تركت الحرية للمؤرخين ان يقولوا فيها ما شاؤا لانها ليست من القضايا الاعتقادية غير انها كلها قد عولت على ترجمة التوراة السبعينية لثقتها بالشيوخ الذين قاموا بترجمتها في الاسكندرية على ماذكرناه في روايتنا فتاة اسرائيل وهي الحلقة الاولى من تاريخنا هذا الكبير

ونرى ان المدة التي جاءت في النص العبراني بين الطوفان ودعوة ابراهيم وهي ٣٦٧ سنة هي غير كافية لانتشار الامم على ما كانت عليه في عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام وما وصلوا اليه من العمران والحضارة ولا سيما في مصر عند هجرته اليها والاقرب الى الصحيح ان نعتمد على الرواية السامرية التي تجعل تلك المدة ١٠١٧ سنة أو السبعينية التي تجعلها ١١٤٧ وعلى هذا تكون المدة بين خلق الانسان ومولد المخلص نيف وستة آلاف سنة وبهذا نقدر ان نوفق بين التاريخ الديني والابحاث العلمية والتاريخية والاكتشافات المصرية والبابلية والكلدانية والصينية والهندية وعدا هذا وذاك فان المتداول بين العلماء والمؤرخين على ان المدة التي سبقت تاريخ المخلص هي ٤٠٠٠ عاماً أو ٤٠٠٤ أعوام

وكذلك اختلفوا في سنة مولد المخلص من سني التاريخ الروماني فذهب ساويروس سولبيسيوس ونيفيطا ونيكوفورس كاليستوس وغيرهم ان المخلص ولد سنة ٤٢ لقتل يوليوس قيصر وهي السنة الرابعة قبل التاريخ العامي وذهب ترتوليانوس واكلينمضوس الاسكندري والقديسان ايرونيموس ويوحنا فم الذهب انه ولد سنة ٤٣ ليوليوس وسنة ٤١ لولاية اغسطوس قيصر وهي السنة الثالثة قبل التاريخ العامي وذهب القديسون ايبوليتوس وايبفانيوس واوسابيوس القيصري ان مولد المخلص كان سنة ٤٤ ليوليوس قيصر وسنة ٤٢ لاوغسطس وهي السنة الثانية قبل التاريخ العامي وارتأى يوليوس الافريقي وبيدا وغيرهما انه ولد سنة ٤٤ ليوليوس وهي السنة الاولى من التاريخ العامي

غير ان نطايس اسكندر أثبت بحجج راهنة ان مولد المخلص له المجد كان سنة ٤١ ليوليوس أي قبل خمس سنين من التاريخ العامي وفي سنة ٣٦ لوفاة كيلوبطره والسنة ٣٤ لهيرودس بعد مقتل انتيكون وسنة ٧٤٩ لبناء رومية ومن حججه ان المخلص ولد قبل سنة كاملة من موت هيرودس الكبير الذي كانت وفاته سنة ٤٢ ليوليوس أي قبل التاريخ العامي بأربع سنوات

أما بدء استعمال التاريخ المسيحي وكيف اعتمد عليه المسيحيون بدعوة دانيس الصغير في القرن السادس فسنتكلم عنه في الحلقة التي تتضمن حوادث ذلك القرن ان شاء الله

-(الفصل الرابع)-

« هيرودس الكبير ومظالمه »

كان هيرودس الكبير ظالماً عاتياً بقدر ما كان حازماً قادراً وسياسياً محنكاً فلا غرو اذا استمال رومية اليه وجعلها حرزاً له وعزز سلطانه بجاهها وكانت السنة الواحدة والاربعين لملك يوليوس سنة شؤم وويل على ذلك الملك العظيم لانه كان قد جاوز السبعين عاماً التي قضاها في حرب دائمة ونزاع مستمر بينه وبين اليهود الذين كانوا يعدونه كافراً وملحداً وأثيماً لانه كان صنيعة الرومانيين والعامل الاكبر على ملاشاة كل سليل للملوك المكابيين بحيث لم يبق منهم في ذلك العام الا ابنة وحيدة تدعى راحيل قيل له انها في الاسكندرية عند رجل من زعماء اليهود وعظمائهم يقال له يوسف منسى وخطر لهيرودس اكثر من مرة ان يسمى بقتلها فلم يتوفق لان الرجل الذي يحميها كان محبوباً من الرومانيين المحتلين وادي النيل وقتئذ

ومع شيخوخة هيرودس وابتلائه بأنواع الامراض والعاهات لم يكن ليهمل شأن ملكه أو يتخلى عنه لواحد من أولاده بل كان قابضاً على سياسة ملكه بيمينه وكان لا يطيب له عيش ما لم يسفك من الدماء الذكية أنهاراً وكان كثير الوساوس والمخاوف على نفسه وعلى ملكه فقتل امرأته مريمنا وولديها ثم رأى ان يوصي بالملك لابنه انتيباتر ثم سمع ان

ابنه هذا قد خاف ان لايثبت أبوه على وصيته لما يعلمه من كثرة تقلب آرائه فأخذ يسعى الى هلاكه فاضطرب ودعا ابنه هذا الى المحاكمة امام الوالي الروماني الذي كان نائباً عن قيصر في اورشليم واسمه كونتيلوس فاروس فحكم هذا عليه بالموت ورفع الحكم الى قيصر ليصادق عليه غير ان هيرودس سقط في يده مختاراً فيمن سيخلفه في ملكه وأقرَّ أخيراً على ان يزجه في السجن الى ان يرد تصديق قيصر وهكذا كان

غير ان هذا الحادث قد أزاد في أوجاع هيرودس وآلامه وبينما هو على هذه الحالة واذ سمع ان البعض من الفريسيين يأتمرون عليه ليهلكوه فامر للحال بقتل عدد كبير منهم وأقام الرقباء على الباقين ولما سمع الفريسيون ان أوجاع هيرودس قد ازدادت حتى أشرف على الهلاك حركوا شبان المدارس فهجم هؤلاء على الهيكل وأسقطوا عن بابه تمثال نسر من ذهب كان أقامه هيرودس مبالغة في التزلف الى الرومانيين ولما سمع الوالي الروماني بأمر هؤلاء الشبان استدعاهم لحضرته وكان في مقدمتهم شابان يدعى أحدهما يهوذا بن سيبوري والثاني متى بن بركلوت ولما مثلوا أمام الوالي سألهم عن سبب اسقاطهم النسر فقال الشابان اننا قد أسقطناه اتباعاً لشريعتنا لان وجود هذا النسر على باب الهيكل نعده رجساً فضحك الوالي ورفع أمرهم الى هيرودس فامر ان يحرقوهم أحياء

وفي هذه الاثناء دخل على هيرودس المجوس يطالبون ان يروا المولود ملك اليهود فاضطرب هيرودس لطلبهم غير انه تجلد وجمع أحبار

اسرائيل وفهم منهم ان المسيح يولد في بيت لحم فأخبر المجوس بأمره وقال لهم اذهبوا واسجدوا له ثم عودوا اليَّ واخبروني ان رأيتموه لاذهب أنا وأسجد له ولما ذهبوا ولم يعودوا خاف على ملكه ان يغتصبه ذلك المولود اليهودي وارسل من اهلك أطفال بيت لحم من ابن سنتين فما دون فقتل منهم عدد ليس بالقليل بأمره

وهكذا كان يقضي أوقاته ولا سيما في السنة الاخيرة بين الآلام والاسقام والتشفي بسفك الدماء حتى أصيب أخيراً بالحمى المعوية وبجوع كلبي بحيث كان يأكل ولا يشبع وتقرحت امعاؤه فكان يقاسي منها مغصاً أليماً وتورمت رجلاه وهرأت خصيتاه حتى كان ينتثر منها الدود وكانت تنبعث من فمه رائحة نتنة تملأ الهواء فساداً واذ رأى نفسه على ماذكرنا يئس من الحياة واستطاب الموت وتناول مدية أراد ان يطعن بها نفسه فاستخلصها منه أحد أنسبائه الاخصاء الذين كانوا يستفيدون من حياته

وعند ما بلغ أواخر أيامه ورد أمر قيصر لهيرودس يطلق به يده في قصاص ابنه انتيباتر فتردد في قتله غير ان بعض أعداء هذا الشاب وشوا به لابيه فأمر حرسه ان يقتلوه وكان ذلك قبل وفاته بخمسة أيام

ثم بلغ منه الجنون مبلغه فأمر بالقبض على كل وجيه وعظيم من اليهود وأرسلهم الى اريحا وأوصى أخته صالومي وزوجها ان يأمرا بقتلهم حالما تفيض روحه حتى يحزن كل من في اورشليم ويلبسوا أثواب الحداد

كأنه كان عالماً بكره الشعب له وانه سوف يعم الطرب والفرح عندما يذاع نبأ موته وأوصى بالملك من بعده لابنه ارشيلاوس غير ان صالومي ارسلت في حال وفاة أخيها من استقدم أولئك الوجوه وهكذا ذاع نبأ موته في اورشليم فملأ منعاه القلوب مسرة وحبوراً

وكان لهيرودس عشر ازواج أولاهن دوريس وهي أم أنتيباتر الذي قتله قبل وفاته بخمسة أيام والثانية مريمنا ابنة الملك اسكندر المكابي وقد قتلها مع أمها بعد ان تخيل له انهما تخونانه وكان له منها ثلاث بنين قتل اثنين منهما وهما اسكندر وارسطوبولس بوشاية واش عليهما والثالث هيرودس وقد مات في رومه وابنتان زوّج احداهما بابن أخته صالومي والثانية بابن أخيه فازائيل وكانت الزوجة الثالثة بالاس وولدت له ابناً واحداً دعاه فازائيل والرابعة قدرة ولدت له ابنة دعاها ركسان وزوجها بابن أخيه فيروراس والخامسة مريمنا ابنة سمعان الحبر وكان له منها هيرودس المسمى أيضاً فيلبوس الاول وهو زوج هيروديه وقد ولدت صالومي التي رقصت امام هيرودس انتيباس وسألته قطع رأس يوحنا المعمدان في حادث سيجيء وكانت الزوجة السادسة سامرية ولدت له ارشيلاوس الذي سماه هيرودس قبيل وفاته خلفاً له وهيرودس انتيباس الذي تولى الجليل فيما بعد وتزوج بابنة ارتياس ملك العرب ثم تزوج هيروديه امرأة أخيه وهو حي على ماسترى والسابعة كيلو باطره وكان له منهما ابنان هيرودس وفيلبوس الثاني الذي سمي فيما بعد رئيساً للربع على ايطوريا (الجيدور في جنوبي دمشق وغربي اللجا) وتزوج بصالومي ابنة

هيرودية المذكورة والزوجة الثامنة اليد ولدت ابنة واحدة تزوجها ابن تيروراس اخيه والتاسعة ابنة اخيه والعاشرة ابنة عمه ولم تلدا ولداً

وقد غير هيرودس وصيته بالملك اشكالاً الى ان اقرَّ قبل موته على ان يخلفه ارشيلاوس على اليهودية والسامرة وهيرودس انتيباس في الجليل وفيلبوس الثاني في اللجا والجولان الى ينابيع الاردن واوصى الى اخته صالومي بدخل مدن يمنة واشدود وفازا ليس « في شمالي اريحا » وعلق امر تنفيذ وصيته الى ارادة اغسطس



الفصل الخامس

« مؤامرة اليهود »

كان في اليهودية حزب كبير مستعد لمناهضة هيرودس يضم كل شبان اليهود وكان رئيس هذا الحزب يدعى يهوذا الغولونيتي وهو شجاع باسل لا يخشى الردى وسبق ان هذا الحزب قام بعدة مظاهرات ضد هيرودس الكبير ولا سيما في اوخر العام السابق الذي صدر فيه امر أغسطس باحصاء عدد اليهود لان هذا الاحصاء كانوا يعدونه دليل العبودية وكان لهذا الحزب مساعدون كثيرون من اليهود المهاجرون في اطراف المسكونة منهم رجل كبير في اسرائيل كان يدعى يوسف منسى وهذا كان في الاسكندرية مرجعاً لكل يهودي وكان غنيا وحازماً وغيوراً على دينه وأمته

ولما غلب يهوذا على أمره وشتت الجند الروماني بامر هيرودس العصابات التي كانت ملتفة من حول هذا الرجل قصد الديار المصرية استفزازاً لحمية الاسرائيليين المقيمين هناك ولكنه لم يكد يبلغ برجاله ابواب العريش حتى رأى فارسين عرفهما وعرف منهما ان يوسف منسى المشار اليه في ضيق وهو مع ابنته مهددين بالموت وكان يهوذا يحب الفتاة ويهمه نجاتها ونجاة والدها وبالفعل توفقوا الى ذلك وعادوا بالاثنين الى ارشليم في حادث طويل نشرناه بروايتنا فتاة اسرائيل وبعد ان استقر بهم المقام في المدينة المقدسة اقترن يهوذا بساره وباركهما والدها يوسف منسى والله سبحانه قد اخصب احشاء امرأته فلم يحل الحول حتى ولدت ساره ليهوذا ولداً دعته ابراهيم وكان اقرب الناس شبهاً بامه حتى خيل للقوم انها قد تقمصت به

غير ان يهوذا في كل هذه المدة لم يكف عن مناوأة هيرودس بل كان دائماً يحرك السواكن ضده توصلا الى استقلال بني اسرائيل واجلاء الرومانيين عن الاراضي المقدسة بمساع فعالة « لا بسفاسف اقوال كما نسمع في خطب مصطفى كامل وفي منشورات لوائه التي اقل ما فيها القاء النفرة بين عنصرين متجاورين هما اولى العناصر بالاتحاد والاتفاق »

وكان وجود يوسف منسى باورشليم قد اوجد روحا جديدة في نفوس القوم فالتف من حوله مشايخ اسرائيل وكهنتهم ووجوههم واعيانهم وكانوا يفكرون دائماً ابداً باعادة الملك لاسرائيل بالرغم عن الروح التي كادت تسود وقتئذ على الاسرائيليين بميلاد المخلص المنتظر راعي شعب الله ويعيد الملك اليه لانهم كانوا يتداولون وقتئذ ما تم من مدة عام من ميلاد ولد لرجل يدعى يوسف النجار في بيت لحم وما تم حينئذ من الخوارق وكان العقلاء منهم يطبقون كل ذلك على ماجاء في الانبياء غير انهم كانوا يشكون ببقاء ذلك الطفل حياً بعد ان اهلك هيرودس الظالم كل فتيان بيت لحم وكان الفريسيون والكتبة يحاربون كل فكرة بميلاد المخلص لانهم كانوا يحسبون مجيئه ضربة قاضية على نفوذهم وما يأتونه من ضروب الاستبداد

اما يوسف منسى فمنذ وصل اورشليم واكمل حلقات المؤتمرين على هيرودس والرومانيين اخذ يبث فيهم روحا جديدة وكان يفهمهم بان الثورة ضد هيرودس لا تقوم بقيام شرذمة ضعيفة في وجه الجند الروماني بل يجب ان تعم الثورة كل البلاد وتظهر مرة واحدة فتجلو بالقوة كل اثر للرومانيين مع هيرودس وقومه وهكذا رتب مؤتمرات الثورة وجعلها في بيوت سرية واقام

للامة روساء يرجعون الى يهوذا الذي كان الرئيس الاكبر

ولما سمع الاسرائيليون بان هيرودس الكبير على فراش الموت هبوا للثورة فاسكن يوسف منسى ثائرهم بقوله ان الساعة لم تدن بعد وان لابد بعدموت هيرودس يحدث شقاق في انجاله على الملك فتكون الفرصة ملائمة للقيام ضدهم جميعهم اما الآن فالعود الى السكون أولى فاصغى الجميع الا بعض الشبان المتحمسين فانهم هجموا على الهيكل وانزلوا عن بابه النسر الذهبي الروماني الذي قد اقامه هيرودس زلفى للرومانيين وكان اليهود يعدونه رجساً فاسخطوا بذلك الرومانيين وهيرودس معاً وكانت النتيجة هلاكهم جميعاً كما مر

ولما نمي هذا الحادث ليوسف اتخذه عبرة وذكرى وجمع روساء الشعب وقال لهم ان مظاهرات كهذه ضد القوة الحاكمة تعد رعونة وانتصار الشعب لا يكون الا بقوة ضد قوة لا بانزال نسر روماني او احتقار شارة لهيرودس فازداد القوم تعلقاً بيوسف وشغفا به وخضوعا لارشاداته

ومنذ هذا الحادث صارت الكلمة النافذة ليوسف منسى يبلغها للشعب بواسطة صهره يهوذا واتحدت كلمة اليهود اتحاداً فعلياً وكانوا يجتمعون كل يوم سبت ولا حديث لهم الا مايجب ان يعملونه للخلاص من ذل عبودية الرومانيين وقلما كان يخطر لهم انتظار المسيح الذي كان اكثرهم قد سمع بمولده العجيب

وكان اليهود يتوقعون من يوم الى يوم منعى هيرودس لانه كان شيخاً كبيراً قد اكلته السنون عدا ما اصيب فيه من معضل الادواء والاسقام غير ان الله أمد بأجله مدة خالها الاسرائيليون أعواماً واذ فاجأ

الشعب أمر هذا الملك الظالم بالقبض على مشائخ اسرائيل وعظمائهم وسيق منهم عدد الى اريحيا فاشتدّ السخط وهموا بالظهور لمقابلة القوة بمثلها غير ان يوسف منسى ثبط عزائمهم لانه كان يتوقع فرصة أنسب وهي فرصة موت هذا الملك واختلاف أولاده على الملك وهكذا بصعوبة قوي على كبح جماحهم وحملهم على السكون غير ان هيرودس قد مات بعد خمسة أيام وكان لمنعاه بشرى عم بها الفرح والسرور في أفئدة جميع الاسرائيليين وتحفزوا للعمل حسب اشارة يوسف منسى

وفي مساء ذلك اليوم كان هيكل سليمان الذي جدد ما تخرب منه هيرودس الكبير غاصاً بالالوف من شيوخ اسرائيل وشبانهم وكانوا ليلئذ يأتمرون على خلفاء هيرودس وقد طال الجدال الى ما بعد نصف الليل وقد اختطوا لانفسهم خطة يسيرون عليها لعلهم بذلك ينتصرون غير ان رئيس الاحبار كان يخالفهم في مؤتمراتهم لانه كان صنيعة هيرودس ولذلك وشى بهم في ثاني يوم ولولا النزاع القائم بين أولاد هيرودس لاصيب اليهود باضرار شتى ولذلك اشتد نقمهم على رئيس الاحبار أيضاً

ولما علم يوسف منسى بوصية هيرودس وفيها يوزع الملك على أولاده تقرر لديه النجاح التام استفادة من انقسامهم على أنفسهم وهكذا أخذ يفكر بوسيلة يتقرب منها لاحد أولاد هيرودس ويحارب به الآخرين

وأخذ هذا الفاضل الغيور يفكر في الثورة لخلاص اسرائيل وكان يعد السبيل لاعادة القضيب ليهوذا باعداد راحيل الى التملك ولكنه ما كان يفوه بما في نفسه خوفاً على راحيل التي كان أرسلها من وجه

هيرودس الى انطاكيه منذ قدم أورشليم

ولما شاع أمر الخلاف بين أولاد هيرودس جمع يوسف ويهوذا الشعب بالهيكل في يوم السبت السابق لعيد الفصح وكان هناك حجاج اليهود وهم يعدون بالالوف قدموا من أطراف البلاد حسب عادتهم للتبرك من مهد الشريعة وشاوروهم في الامر فاختلف الاكثرون فيما يطلبون الى ان نهض يوسف منسى من بين الجمع ووقف في فناء الهيكل وقال

« أيها الاخوة الاسرائيليون ان الغاية التي نرمي اليها من اجتماعاتنا هي تخفيف نير الرومانيين الذي وضع على عاتقنا منذ استبد اتيبار أبو هيرودس في ملك اسرائيل وقد أزاد هيرودس قدم الرومانيين رسوخا في هذه البلاد حتى كاد يصعب الفكر بالنجاة من ذل الرومانيين بغير معونة سموية من اله آبائنا ابراهيم واسحق ويعقوب غير اننا لا يجب ان نقنط لان الله معنا وهو سبحانه وان سمح لهؤلاء النجسين بالنزول بيننا والاستبداد بأمورنا ولكن حاشا ان يتخلى عنا ولا بد انه أدار وجهه ليقتص منا فتشجعوا يا اخوان واذكروا ان الهنا القدير الذي أخرجنا من أرض مصر وفتح امامنا البحر فجزناه آمنين وقوانا فانتصرنا على أعدائنا وأورثنا أرض الميعاد لا يسمح بشتاتنا وتضعضع جامعتنا وما علينا الا ان نكون يدا واحدة في الوقوف امام وجه أبناء هيرودس وقد دب شيطان التفريق في صدورهم»

فصفق الحاضرون لدى سماعهم كلمات يوسف منسى وقالوا بصوت واحد لافض فوك ياحكيم اسرائيل وبعد ان هدأ اضطراب الجمع قال يوسف ثانية:

« واني أرى الاوفق لمصلحتنا ان لا نظهر امام خلفاء هيرودس بمظهر

العصاة لان ليس لدينا القوى الكافية والاستعداد التام للانتصار مخافة ان يعملوا في رقابنا حد السيف فلا تقوم لنا قائمة فيما بعد والاحسن ان نبادر جميعاً لنصرة ارشيلاوس أحد أولاد هيرودس وقد أوصى له أبوه ان يخلفه على اليهودية وهذا الرجل اذا تملك كان لنا الخير بضعفه لانه ضعيف الرأي كثير الانهماك بملذاته وهو اذا مااستتب له الامر انشغل بهواه ومسراته عن الضغط على اسرائيل وعدا هذا وذاك انه أقرب الى التدين بدين آبائنا من ميله الى وثنية الرومانيين فاتركوا الامر لشيوخكم فيدبرونكم ولا تغتروا بما تسمعونه من شبانكم فان نزق الشبيبة سيطوح بكم الى مالا نحب »

ولما سكت يوسف استصوب الاكثرون رأيه وبعد أخذ ورد وجدال أقرّ شيوخ اسرائيل على ان يطلبوا من ارشيلاوس المطالب الآتية:

أولاً تخفيض الخراج « الاموال الاميرية »

ثانياً الغاء الضرائب الموضوعة على البيع والشراء

ثالثاً اخلاء سبيل المسجونين في الجرائم السياسية على عهد هيرودس الكبير

رابعاً معاقبة الذين حكموا على الشبان الذين أنزلوا النسر عن الهيكل بالحرق وهم احياء

خامساً تبديل رئيس الاحبار الذي كان صنيعة هيرودس تخلصاً من وشاياته ومفاسده

وهكذا ارفض الاجتماع بعد ان تسطرت هذه المطالب بعريضة مخصوصة لترفع الى ارشيلاوس في الفرصة المناسبة

-(الفصل السادس)-

« حبيبة ارشيلاوس »

كان الترف مستولياً على حاشية هيرودس الكبير وكان أولاده منغمسين في حمأة الرزائل حتى كان التقرب منهم يعده الجهلاء فخراً والعقلاء حماقة وعيباً وكان ارشيلاوس الذي خصه أبوه بقسم من ملكه وهو ولاية أورشليم وما جاورها التي كانت تدعى اليهودية كسائر اخوانه من هذا القبيل غير انه كان يهوى فتاة من بنات اسرائيل تدعى راحيل وكانت هذه الفتاة تخدم قومها في هذا الحب خدمات باهرة منذ دخلت في عداد محظيات الامير ارشيلاوس لانها أصابت نعمة في عينيه وعيني اخوانه مع انها حديثة العهد هناك وصار اليهود يقصدونها في كثير من الشؤون فتقوم باعبائها خير قيام

ولما أقرَّ اليهود على طلباتهم رأوا ان يقصدوا هذه الفتاة بقصرها التي أقامه لها حبيبها ليحملوها على تعضيدهم امام ارشيلاوس وكان الوفد الذي سار اليها مؤلفاً من يوسف منسى ويهوذا الغولونيتي وشاب يدعى شاوول وكان هذا الشاب خدناً حميماً ليهوذا ورفيقه في اثارة الخواطر ضد الرومانيين وسبق لنا ذكره في روايتنا فتاة اسرائيل

واذ وصلوا الى قصر راحيل رأوا عليه من سيماء الجلال ما يليق ان تقيم فيه حبيبة ابن الملك في الامس ووالي اليهودية اليوم ولما دخلوه وجدوا من دلائل البذخ وأمائر الترف ما عرفوا فيه بعض المدافن التي كان يدفن فيها هيرودس الكبير اموال الامة التي كان يجبيها بحق وبغير حق وتحركت فيهم عاطفة الانتقام من هذه الاسرة الجائرة

وقد استقبل الضيوف اثنان من خدم راحيل وكانا من اليهود أيضاً استقبالاً جميلا ردهة واسعة مربعة الشكل فيها من فاخر الرياش ما لا نظير له الا في دور الامراء والسلاطين وكانت حيطان الردهة مزدانة بجميل الرسوم والنقوش البديعة التي عرفوا مما فيها انها عمل مهرة الصناع الرومانيين لان تلك الرسوم كانت تمثل الهة الحب والهة الخمر والهة الجمال بثلاث عذارى عاريات لا يقدر المنتقد الحاذق ان يحكم لاحداهن بالجمال على رفيقاتها غير انهن كنّ مثل الخلاعة ولو انهن آلهات

اما يوسف منسى فلم يندهش من كلما رأي لانه اعتاد مثل هذه المناظر في بيوت الرومانيين واليونانيين في الاسكندرية غير ان يهوذا اشمأز لانه كان يهودياً بفطرته يريد ان يطابق المعيشة المدنية على كتاب موسى الذي بين يديه وقال لعمه يوسف انظر هذا الفساد الذي ادخله علينا هيرودس بانضوائه الى الرومانيين وشغفه بتقليدهم ولو لم يسخرنا الله لمقاومته لفسد دين آبائنا القيم وسادت عليه الوثنية الرومانية وقسماً بيهوى اله ابائنا ابراهيم واسحق ويعقوب لا ترجع هذه العائلة قبل ان تتبدد ويتقلص سلطانها من ربوع اليهودية.

فضحك يوسف بملء شدقيه من كلمات صهره يهوذا وقال «اي شر لم تصنعه يد الرب» يقول النبي اشعيا فان اله ابائنا سمح بحكمة يعرفها بتضعضع الاسرائيليين وهم شعبه المختار ليجازيهم على خطاياهم وآثامهم غير ان ذلك مما يقوي الامل بمجيء المخلص ليرعى شعبه لان الله سبحانه لا يترك شعبه ويهمل جبلة يديه

وبينما يوسف ويهوذا يتداولان مامر وشاوول مصغ الى كلماتهما واذا قد فتح باب الردهة ودخلت راحيل وهي تجر ذيل التيه والدل وتختال اختيال من عرف انه جميل فاعطى حق الجمال وكانت آية من آيات الطبيعة بالمحاسن السنية والمناظر البهية واستقبلت ضيوفها بحفاوة واكرام وجلست بصدر الردهة بهيبة وجلال وسئلت عن الحاجة فقالت انها مقضية باذن الله

اما يوسف فكان قد حلب اشطر الدهر فلم تفته الغاية التي ترمي اليها محظية الامير ارشيلاوس وانها تريد بحسن سياستها اخضاع اليهود لسلطان حبيبها وانها منذ دخلت بيته من اكثر من عام تسعى وراء هذه الامنية اما يهوذا فاندهش من فصاحة راحيل وشجاعتها كما اندهش من حسنها وجمالها وقال في نفسه انه لو كان في نساء اليهود عدد من مثل هذه الحسناء لتأيد بهن الملك لاسرائيل أما شاوول فما كاد يقع نظره على هذه الجميلة حتى انه خطر له انها حبيبته التي لقيها في الناصرة على العين يوم سار الى هذه المدينة لاثارة خواطر اليهود ضد هيرودس والاكتتاب وانه حادثها وكلمها هناك وسألها عن العذراء الحبلى ثم ذكر ايضاً انه كان رآها وهي داخلة اورشليم يوم عاد مع يهوذا بساره وابيها على مايذكر القراء في روايتنا فتاة اسرائيل ثم قال في نفسه ليت شعري من اين لقروية كانت تحمل جرتها على رأسها لتملأها من العين ثم تعود الى بيتها هذه الفصاحة الغريبة وهذا المظهر الجليل وانى لاشك بكونها راحيل الناصرية حبيبتي ولكن شبهت بها غير انه شعر بحبه القديم وتحركت فيه شجونه وقال وان لم تكن هذه حبيبتي فقد اشبهتها بالاسم والجسم

وبينما كان شاوول يفكر في نفسه بامر من التذكارات الحبية كان يوسف منى يحادث راحيل فقال لها ايتها السيدة الفاضلة الكريمة لقد علمنا انك من خيرة بنات اسرائيل وانك السائدة بجمالك وجلال قدرك في بيت هيرودس واني اعلم انك في مركز تريدين به ان توفقي بين مصلحتك وغاياتك الشخصيتين بتأبيد الملك لارشيلاوس وبين مصلحة قومك واعتماداً على مالك من الكلمة النافذة على ارشيلاوس رأيت ان ازورك مع هذين الفاضلين وهما يهوذا زعيم الحزب المعارض وصديقه شاوول ولم يكد يلفظ يوسف اسم شاوول حتى التفتت راحيل الى صاحب هذا الاسم والقت اليه نظرة حب اثرت في سويداء قلبه فقال في نفسه هي والله راحيل بعينها واطرق في الارض مضطرباً يفكر في امرها وما وصلت اليه واستتلى يوسف كلماته من غير ان ينتبه الى نظرة راحيل واضطراب شاوول قائلاً وغاية ما نريده ان يكون زوجك ملك اليهودية لانه احسن اولاد هيرودس خلالا واطيبهم سريرة واذا اعتنينا على استجلابه لمحبة شعبك كان الخير له ولك ولنا

فلما وعت راحيل كلمات يوسف منى ابتسمت ابتسامة الظافر وقالت طب نفساً أيها الجليل في اسرائيل فاني معك الى النهاية اذا كانت النتيجة منطبقة على هذه المقدمة وقد علمت من أرشيلاوس تقمقم اليهود على هيرودس الكبير أبيه وانهم منذ موته حتى الآن يوالون اجتماعاتهم في هيكل سليمان استدراكاً لامر الخلق فما الذي أقدر ان اخدمكم به

قال يوسف ان الامير ارشيلاوس يهمه ان يملك اليهودية ولكن ملكه لا يكون طويلاً وسعيداً ما لم تكن الامة راضية عنه وقد علمت ولا

شك ما كان في ملك أبيه الطويل العهد من الاضطرابات المتوالية لسوء سياسته واعتماده على نفسه دون رعيته واتكاله على اغسطس في تأييد سلطانه مع انه لو سالم رعيته لعاش سعيداً ومات محبوباً ولقد اجتمعنا مراراً في هيكل سليمان واقرينا على اقتراحات نريد ان نعرضها على الامير حتى اذا قبل بها نادينا به ملكاً لليهود وحاكماً لليهودية وما في تلك الاقتراحات مايؤثر على سلطته أو يقلل من واسع حكمه فانها مقتصرة على بعض بنود تكفل راحة الشعب

قالت راحيل او تعدني باستتباب الامر لارشيلاوس لو حملته على قبول مقترحاتكم

قال يوسف بغير شك وبهذا يصبح ملكاً نافذ الامر ويكون ملكه سعيداً محفوفاً بالخير والبركات وتكوني بهذا أيضاً قد أسعدت قومك وأرى ان تحدثي الامير بزيارتنا وترغيبه بزيارة الهيكل ليسمع طلبات الشعب غير اننا نرجو ان تفهميه بأن الشعب وحده هو القوة التي يجب ان يعول عليها في حكمه

قالت راحيل سأفعل ذلك ان شاء الله ونهضت فنهض الجميع وأرادوا الذهاب غير ان شاوول لم يرض ان يكون في أمر راحيل بين الشك واليقين فتقدم منها وقال لها أظن ان سيدتي من الناصرة قالت نعم قال وأظن انه سبق وتشرفت بمعرفتها على العين وهي حاملة جرتها فتبسمت له وقالت نعم يوم سألتني عن العذراء الحبلى وهل ولدت ياترى

فسر شاوول من سؤالها وقص عليها حكاية الميلاد كما مر في روايتنا

فتاة اسرائيل الى ان قال ويقولون ان المولود منها ماسيا المنتظر

قالت وهل أنت من هذا الرأي

قال ربما ذلك غير اني أشك يبقاء الطفل حياً حتى الآن لان هيرودس الكبير أرسل فقتل كل مواليد بيت لحم من ابن سنتين فما دون

قالت ان الايام ستظهر المخبآت والسلام وهكذا خرج الثلاثة يفكر واحدهم بما لا يفكر به الآخر حيث كان يوسف واثقاً بوعد راحيل ومؤكداً ان سلطان النساء نافذ ولا بد ان يكون له فعل محمود وكان يهوذا معجباً براحيل واقتدارها خلافاً لشاوول الذي آل على نفسه ان يكون حجر عثرة امام ارشيلاوس ليعرقل مساعيه توصلاً لاختطاف راحيل ولا عجب في ذلك فان في عهد الثورة يطمع الاصاغر بما لا يطمع به عاقل في زمان الامان

وبعد ان ذهب الضيوف أخذت راحيل تفكر في أمر زوجها وما يجب ان تفعله لتأيده بالملك غير انها أيضاً كانت تفكر بشاوول وترى من نفسها انها تحبه بدافع داخلي حتى انها تمنت في تلك الساعة ان تتخلص من ارشيلاوس وما سينالها بواسطته من باذخ المجد يوم تصبح ملكة على اسرائيل لانها كانت تتمثل امامها معيشة هيرودس الكبير مع نسائه وتقول ليت شعري من يعلم كيف ستكون معيشتي يقرب ابن هيرودس ولا سيما اذا فاز بامانيه وقد قضت بياض ذلك النهار وهي تفكر تارة بارشيلاوس ومستقبله ومستقبلها بقربه وطوراً بحبها الشاوول وانه الحبيب الاول الذي أحبته من أول نظرة يوم كان قلبها لا يعرف طعم الهوى وما

خيم الظلام واستراحت الشمس في مغربها حتى دخل ارشيلاوس وهو يكاد يشتعل غضباً مما سمعه من اجتماعات اليهود ومعاكسة اخوانه له في ملكه فاستقبلته راحيل ببشاشة تسري عن القلب الحزن وما زالت تلاطفه وتؤانسه بحركات عيونها ولطيف حديثها حتى تسرت عنه شجونه فانس بها وضمها الى صدره فقبلها قبلات كلها حب وغرام وأخذ يشكو لها مابه من الشجن وهي تؤاسيه وتعزيه ثم أخبرتها بامر ضيوفها وما قالوه لها وأظهرت له الحكمة المقصودة من الذهاب الى هيكل سليمان والسير مع اليهود واتخاذهم أعواناً لملكه فسر بذلك وابتهج وعزم على المسير في مساء اليوم التالي لانه كان يعلم ان اليهود يوالون الاجتماع في الهيكل منذ وفات أبيه في مساء كل يوم

﴿ الفصل السابع ﴾

« ارشيلاوس في الهيكل »

بينما كان اليهود مجتمعين في الهيكل في مساء اليوم التالي لزيارة يوسف منسى ورفاقه حبيبة ارشيلاوس واذا بهذا الامير داخل عليهم بمهابة وجلال فوقف الحاضرون اجلالاً واذ بلغ صدر الهيكل خطب في الشعب قائلاً :

« أيها الاسرائيليون أنتم شعب الله المختار الذي أراد الله سبحانه ان يجعلكم موضع ثقته فاختاركم دون الامم وخصكم بارسال الانبياء وافتقدكم في ضيقاتكم وساعدكم على اعدائكم كونوا مسرورين فانه سبحانه وتعالى قد سخرني لخدمتكم لارفع عنكم مظالكم ومغارمكم »

«اني اعلم أيها الشعب الصالح انكم ناقمون على أبي لكثرة ما نابكم من مظالمه ومغارمه التي لم اكن انا ايضاً مسروراً منها والتي كنت اضطرب كلما علمت بها والآن وقد مات أبي واوصى لي بملكه فاعدكم وعداً اكيداً اذا اخلصتم لي ان امنع عنكم كل ظلامة ومغرمة فتعيشوا كما عاش اجدادكم حسب شريعة موسى والانبياء بالعدل والقسطاس فاني سأمنع عنكم الضرائب واخفف متاعبكم بما اعمله من الوسائط الفعالة لاستتباب الراحة وحينئذ تعلمون ان ارشيلاوس هو خير من ملك على اسرائيل وقام بملكه احسن قيام »

« أيها الاسرائيليون كونوا آمنين باني لا ادخر سعياً في سبيل نجاحكم وتقدمكم وحفظ بيوتكم وأعيادكم ومنع كل عمل تعدونه مخالفاً

لشريعتكم فسأرفع من المدينة كل شهادة للرومانيين وسأؤيد الناموس بكل عمل أتيه ولا اريد بمقابلة ذلك غير ان تنضموا اليَّ وتؤيدوني ضد اخوتي الذين يريدون ان يختلسوا الملك مني ليستبدوا بكم ويحملوكم من المظالم والمغارم الشيء الكثير

« ايها الاسرائيليون كونوا لي عضداً لاكون نصيراً لكم والايام ستؤكد لكم صدق وعودي والسلام »

وما كاد يتم خطابه ويجلس في مقره حتى ضج الشعب وكثر اللغط بين الحضور لانهم ما كانوا مقتنعين بوعود ارشيلاوس البسيطة وكان شاوول اكثر الناس تحاملاً على هذا الامير اذ اخذ يثير حزازات القوم ضده ويقول لهم ان وعوده العرقوبية سوف تنجلي عن لاشي وما ارشلاوس الا ابن هيرودس وبضعة منه وسوف لا يستتب الملك له حتى يعود الى الظلم كما كان ابوه ومن شابه اباه ماظلم

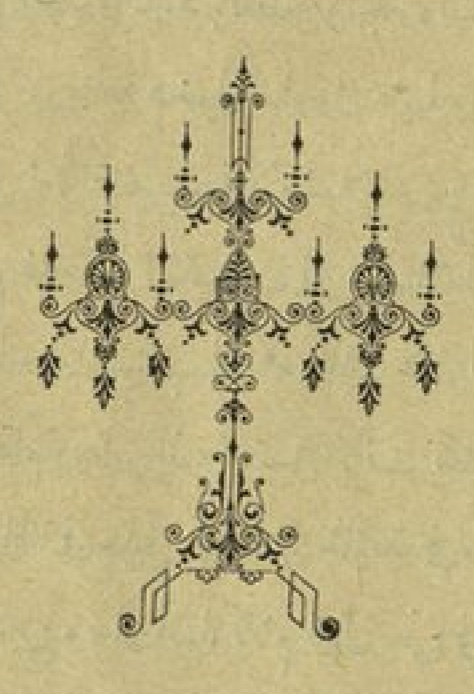
وقد اجتهد يوسف منسى ويهوذا كثيراً في اقناع الشعب بصحة وعود ارشيلاوس ليحملاهم على التسليم اليه والقيام بنصرته فلم يفلحا لان البغض لهيرودس الكبير كان ملء الصدور واخيراً اقر الحضور على ان يرفعوا لارشيلاوس مطالبهم التي سبق لنا ذكرها حتى اذا قبلها نادوا به وايدوا كلمته فتقدم يوسف منسى من ارشيلاوس ورفع اليه عريضة فيها مطالب الشعب التي سبق لنا ذكرها فتلاها الامير بسرور وقال ان مافي هذه العريضة هو بعض ما انويه لهذا الشعب واني ساعمل بموجبها ان شاء الله ولكن بعد ان يثبت اوغسطس قيصر وصية ابي واصبح ملكاً شرعياً على البلاد

غير ان الفريسيين لم يسروا بملك ارشيلاوس فاوغروا صدور اليهود الذين كانوا مجتمعين وقتئذ من اطراف البلاد لقرب عيد الفصح وكان شاوول من الطرف الآخر يثير خواطر اليهود ايضاً وهو معروف من انصارهم فتظاهروا بعدم الرضاء وصاحوا بصوت واحد فليصادق ارشيلاوس على اقتراحاتنا اذا شاء ان يملك على اسرائيل وكثر الشغب بعد ذلك فخاف الامير على نفسه وفرَّ من وجه الشعب الى قصره حيث أرسل بعض جنوده ليفرقوا شملهم فما شعر الاسرائيليون وهم في الهيكل الا والجنود الرومانيون محدقون بهم فقابلوهم بالعصيان ورموهم بالحجارة وكان بمقدمة الشعب شاوول وبعض أولئك الفريسيين الذين كانوا سبب ذلك الشر العظيم وفي الاخير دارت الدائرة على الشعب ففر وتشتت وفي اليوم التالي استدعى القائد الروماني وأمره ان يذهب بجنوده الى اليهود ويبطشوا بهم وأقام عدداً من الفرسان خارج المدينة ليقبضوا على كل من يفر من اليهود الذين قتل منهم يومئذ نيف وثلاثة آلاف شخصاً

ولما رأى أولاد هيرودس ان الشر قد اتسع ولا يمكن تلافيه ساروا جميعاً الى رومه ليسألوا اغسطس تثبيت وصية أبيهم وكان كل منهم يخاصم الآخر ويطمع بالملك دونه ولما ارتاحت اورشليم من وجودهم قامت الاحزاب بعضها على بعض وكان كل رئيس من رؤساء هذه الاحزاب يدعي بالملك لنفسه وكثر على أثر ذلك اهراق الدماء الذكية غير ان ارشيلاوس كان قد استدعى قبل سفره كونتيلوس فاروس والي سوريا الروماني ليحكم البلاد الى ان يعود فلما وصل هذا الوالي عامل الشعب بالقسوة ونهب الهيكل واحرق

رواقه وسفك دماء الالوف فاشتد سخط الشعب من العنصر الروماني وقام الثائرون ضد الرومانيين وحاصروا بلاط هيرودس وضيقوا على سابينوس أمير الجند الروماني فاستنجد هذا بوالي سوريا المشار اليه وملك العرب فانجداه بالجنود الكثيرة وهكذا خضعت اليهودية للرومانيين عنوة واستعبد الرومانيون اليهود واذلوهم وكانت الثورة شراً عليهم ولم تكن ثورة اليهود على رأي حكماء اليهود وشيوخهم بل كانت نتيجة اندفاع جهلة الفريسيين وشبان الشعب ولذلك كانت نتيجتها الخزلان وزيادة الضغط على اليهودية كما رأينا ولما ان خضعوا للرومانيين بعد ان كابدوا من العناء والشقاء الشيء الكثير جمع يوسف منسى شتاتهم وحملهم على ان يرضخوا لحكم القوة ويطالبوا من رومه ان تضمهم الى أملاكها تخلصاً من حكم أولاد هيرودس على مذهب القائلين «ويل أهون من ويلين» فرضخ الشعب لهذا الرأي واوفدوا خمسين رجلاً من شيوخهم بزعامة يوسف منسى الى رومه ليطالبوا من أغسطس الغاء وصية هيرودس وحجز أولاده والحاق اليهودية بالمملكة الرومانية رأساً ولما وصلوا الى تلك العاصمة وجدوا ان أولاد هيرودس سبقوهم اليها وانهم ما زالوا في جدال وخصام وانقسام حتى احتقرهم أغسطس وازدرى بهم ولما قابلوا قيصر وأعرضوا عليه مهمتهم التي قدموا لاجلها باسم الشعب طيب خواطرهم واتخذهم عوناً لتنفيذ مآربه في اليهودية وأمر للحال باعتبار اليهودية وملحقاتها رومانية محضاً غير انه رضي بما أوصى به هيرودس ايضاً فسمى أرشيلاوس والياً لليهودية والسامرة وأدوم ووعده ان يسميه ملكاً اذا برهن على اقتداره وسمى هيرودس انتيباس والياً للجليل

وفيلبوس الثاني والباللجيدور واللجا وحوران وكانه بذلك قد أرضى أولاد هيرودس وأرضى اليهود وكسب من اختلاف الرعية وحكامها زيادة التسلط على البلاد وعاد الولاة الثلاث ليحكموا ملك أبيهم باسم اكتافيوس اغسطس. قيصر الرومانيين لا باسم يهوى اله اسرائيل



الفصل الثامن

«شاوول وراحيل»

غير ان شاوول قد اغتنم فرصة تغيب ارشيلاوس في رومه والثورة القائمة قاعدة في أورشليم ومال الى تحقيق أمانيه واهوائه باجتذاب راحيل اليه وسار اليها بجراءة العشاق ودخل قصرها بغتة وطلب مقابلتها في الحال وكانت حينئذ في حجرتها تنظر في ماضي حالها ومستقبله وتفكر في ماتعمله لتحصل على الملك وتغدو ملكة لاسرائيل ومن المعلوم ان النساء لايسألن عن غير الحصول على المجد والتلذذ بالعظمة والجبروت فلا عجب اذا كانت راحيل منشغلة الفكر في ساعة دخول شاوول عليها ومباغتته لها

لم تكن راحيل امرأة شرعية لارشيلاوس بل هو اقتنصها اقتناصاً عند زيارتها لاورشليم غير انها استسلمت له استسلاماً اطاعة لوعده لها بانه سيتزوجها شرعياً حينما يستتب له أمر الملك لان اباه كان وقتئذ على فراش الآلام والاسقام ويظهر ان راحيل كانت تلك المرأة القادرة التي تعرف ان تستخدم جمالها في سبيل مصلحتها فحازت في مدة قصيرة نفوذاً عظيماً في قصر هيرودس وصار لها كلام فعال حتى في المسائل السياسية والادارية وكأني بها قد عرفت ان الشعب الاسرائيلي لايؤخذ بالقوة بل باللين ولذلك كانت تخدم الاسرائيليين جهد طاقتها وتتوسط لهم في مصالحهم حتى اصبح لها الكلام النافذ عند قومها فصاروا يقصدونها في حاجاتهم حيث يلقون منها كل مساعدة وتعضيد

دخل شاوول على راحيل فما انتبهت اليه حتى علاالاحمرار وجنتيها

لانها كانت تحب شاوول منذ قابلته في الناصرة أولاً وكانت مقابلته الاخيرة لها سبباً لذكرى ذلك الحب القديم الذي كان حباً طاهراً نقياً لم تدنسه شفة ويد ولم يتعد طور الاستحسان ولهذا بادرت شاوول قائلة هل قدمت بخبر بهج ياشاوول يسر قلب هذه الكسيرة قالت هذا وكان قلبها يخفق خفوق من نظر الحبيب ومن يتوقع سماع النبأ المريب

أما شاوول فبغت من سؤال راحيل لانه ما كان يتوقع ان يسمع منها مثل ذلك السؤال وربما كان يظن ان حبيبته الناصرية قد علمت بعض الشيء عن مساعيه ضد ارشيلاوس وتحريض اليهود عليه حتى كان ما كان من الثورة التي انتهت باهلاك العدد العديد من اليهود وسفر الامير الى رومه ولكن ظنه هذا لم يكن منطبقاً على الواقع لان راحيل ما كانت تعلم شيئاً عن المسبب لتلك الحركة بل نسبت ذلك الى الفريسيين الذين كانوا أشد شعب اسرائيل كرهاً لهيرودس وأسرته غير ان شاوول لم ير في وجه راحيل امارة من امائر الاستياء فقويت عزائمه وقال بل قدمت أيتها الحبيبة لاسأل عنك واطمئن عن راحتك بعد الذي جرى في أورشليم من سفك الدماء وارتحال ارشيلاوس لرومه ولعلي مشكور المسعى في نظرك يابهجة الحسان

فتبسمت راحيل وعلمت ان شاوول قدقدم ليخطب ودها الا ليكون لها عوناً وهمت ان تنتهره وتطرده لولا ان يختلج في فكرها امران أولهما ماسمعته عن مركز شاوول بين اليهود وانه عون يهوذا الاكبر في الثورة المتقد نارها وثانيهما حبها له الذي كان كامناً في فؤادها فاستعر لهبه

وعجزت عن ان تزر عليه رماداً من صبرها ومصلحتها وقالت بعد انجال في فكرها كل هذا والآن .ماذا تريد مني ياشاوول

فتشجع شاوول لملاطفة راحيل له وقال لاأريد الا ان أراك سليمة في خير وعافية وبعد فأنت اليوم في ضيق فهل تريدين مني خدمة أقضيها قياماً بواجب خدمتك

ـ ليس لديّ خدمة القيها اليك غير انك اذا رأيت وجهاً لمساعدة ارشيلاوس فافعل فيكون لك في ملكه مقاماً كبيراً قالت راحيل هذا ونظرت الى محدثها نظر المؤمل المستغيث

ـ ان مساعدة الامير ليملك أورشليم من المستحيلات التي كل بحث فيها ضائع سدىً وأظن بل أرجح ان ارشيلاوس لا يعود الى هذه البلاد لانه افتتح ملكه باهلاك آلاف من الابرياء وقد سار عدد من شيوخ اسرائيل لرومه يلتمسون الغاء وصية هيرودس والحاق اليهودية بالمملكة الرومانية فيحكمها روماني غريب مهما استبد لا يصل الى استبداد هيرودس وأبنائه من بعده الذين يريدون ان يتبعوا خطوات أبيهم في مظالمه ومغارمه

ـ ويلاه ماذا تقول وهل ارشيلاوس لا يعود الى أورشليم

ـ هذا محقق واكيد واليهودية منذ اليوم أصبحت رومانية محضاً يملكها الرومانيون ويتصرفون بشؤنها كيف يشاؤون

ـ وهل الروماني الذي يتولى البلاد عن قيصر يحترم الشعب اليهودي اكثر من احترام ابن البلاد له وهل يمكن ان يغار الغريب على مصلحة أبناء البلاد كما يغار عليها ابنها الذي ولد فيها وفيها نشأ وشب ما هذه

المبادي الفاسدة ياشاوول

ـ المبدأ ليس بفاسد فقد عرفنا هيرودس مثالاً للاستبداد وسوف لا يكون ابناؤه اقل منه استبداداً لهذا الشعب المسكين فخير لنا بعد اليوم ان يحكمنا الغريب من ان نرى واحداً من الآدميين ابناء هيرودس ملكاً علينا

ـ ولكن سوف تندمون فان ارشيلاوس حسن الطوية سليم النية محب للعدل محارب للظلم

ـ ولكن قد ارانا من قبل ان يتسلط علينا ما ذكرنا رسمياً بمساوي ابيه ألم تسفك دماء اخواننا في الامس باشارة منه

ـ ذلك لتعنتكم وقساوة قلوبكم ياشعب اسرائيل اما انتم الذين وقفتم في وجهه وطلبتم منه بعنفوان مالا ينال الا بالحسنى حتى تركم خائفاً من بطشكم وفرّ من الهيكل جزعاً من استبدادكم واني لارى فيكم من الغلظة والقسوة ماستكون عاقبته وبالاً عليكم

ـ ولكن اله آبائنا لا يتخلى عنا فهو سيكلأنا ويحفظنا الى الابد

ـ اذكر ياشاوول ان اله آبائنا لم يهملنا الا لكثرة مساوينا وما سلط علينا هيرودس الا انتقاماً منا ولما أراد الله ان يرحمنا بارشيلاوس قمتم في وجهه حتى كان ما كان

ـ واذكري ايضاً اننا سوف لا نخضع لاحد من ابناء هيرودس وانا لا نعرف ملكاً علينا سوى اغسطس قيصر والآن يجب ان تعرفي بان كل امل لك بارشيلاوس فهو ضائع وان الاستسلام الى هذا الشاب مما لا يعود

عليك بالمستقبل الحسن واني اذ كنت راغباً في مصلحتك قدمت اليك لاحملك على هجر هذا القصر والرجوع الى امتك قبل ان ينتقم ابناء هير ودس منك كما انتقموا من قبل من مريمنا واسكندره لانهما من صميم اليهود وليت شعري ما الذي تؤملبه بارشيلاس وقد رأينا اباه اكثر الناس احتقاراً لنسائه فقتل بعضهن واهمل البعض الآخر حتى اصبحن وفقيرات البلاد أسعد منهن حالاً هذا اذا سلمنا بامكان عود ارشيلاوس من رومه ظافراً بأمانيه متولياً شؤون اليهودية مع ان الواضح الذي لايحتاج الى برهان ان ارشيلاوس لا يعود وان اليهودية سوف تصبح ولاية رومانية بكل معنى الالحاق

ـ يالكم من خونة مارقين اهكذا تضحون وطنيتكم في سبيل اهوائكم واغراضكم ألا تخافون الله وتخشونه في اعمالكم

ـ خففي عنك يا راحيل فان غيرتك هذه ليست على أمتك بل على حبيبك ولو لم يكن حبك له فائق حد الوصف لما نظرت الى هذا الامير بعين الاجلال وأعددت له محلاً رفيعاً في اسرائيل فانه كابيه ومع ذلك فما أتيت الآن لاحدثك بشؤون اسرائيل بل بشؤون الهوى الذي يختلج في نفسي ونفسك معاً نعم ان الحب الذي يستعر لهيبه بقلبي هو ايضاً في قلبك ولا شك وعلى هذا فانا أسألك بحق هذا الحب ان تتركي ارشيلاوس وشأنه وتتبعيني الى حيث نقضي فسحة العمر كما نشاء ويشاء الهوى

ولم يكد شاوول يتم كلماته حتى تحولت راحيل من حال الانبساط لحال الكدر وعبست أسارير وجهها واضطربت جوانحها وقالت بغضب:
صه ياشاوول اسكت يا ابن اللئام فمن أنت لتسطو على حرمة الامراء

وتتعرض لحليلة ارشيلاوس ملك اورشليم وبحرمة آبائي وأجدادي لولا مالك عندي من رفيع المنزلة لما تركتك تخرج من هنا سالماً قالت هذا وهمت ان تخرج فابتدرها شاوول وتمسك بتلابيب اثوابها وسألها الصفح والرحمة واخذ يحرك عواطفها نحوه ويسألها ان تحقق آماله ليحقق آمالها بخدمة الامير خليلها

غير ان راحيل بقيت مصرة على الخروج غاضبة ولم تصغ لتضرعات شاوول فخاف هذا سوء المغبة وقبض على كتف راحيل بيد قوية وقال لها اعلمي ياراحيل اني اذا تركتك نافرة مني فتوقعي الشر العتيد فاني انا الذي أثرت الشعب أولاً وأخيراً وانا الذي حمته على عدم الخضوع لارشيلاوس وانا ايضاً سوف اعمل لاخضعك لارادتي ياعاتبة قال هذا وضرب براحيل الارض وسار في سبيله لايلوي على شيء

اما راحيل فاخذت تبكي وتنوح بانكسار واضطراب لان شاوول كسر قلبها بكلماته ورضض جسمها بفظاظته وخشونته ولما هدأ روعها أخذت تستعد للشر والاذى من هذا العدو اللدود والمحب الاعمى

الفصل التاسع

« عود يوسف منسى الى الاسكندرية »

بعد ان وصل يوسف منسى لرومه ومعه شيوخ اسرائيل وكهنتهم قابلوا قيصر فلقوا منه كل اجلال واحترام وأصغى الى تشكياتهم كل الاصغاء وأقرَّ على جعل اليهودية رومانية ملحقة برومية رأساً غير انه رأى الاحكم ان لايهمل شأن أولاد هيرودس حتى لايكون ثمة من داع الى

قلاقل واضطرابات جديدة فسماهم ولاة لمقاطعات اليهودية حسب وصية أبيهم والوالي غير الملك يسهل عزله اذا شذ في أعماله عن الحد الذي وضع له وقد دعا لحضرته مندوبي اسرائيل وأولاد هيرودس وأزال من بينهم الضغائن بارشاداته وحسن نصائحه وهكذا عادوا جميعاً الى أورشليم عدا يوسف منسى الذي بقي في رومه بناء على طلب اغريبا القائد العظيم

وتحرير الخبر ان صاحبنا انطونيوس «ابن والي الاسكندرية» لما سمع بقدوم يوسف أبي حبيبته الى روميه ذهب فزاره واستغفر منه عما تمَّ له في الاسكندرية بسببه وسأله بالحاح ان يبقى مدة في عاصمة العالم رومية العظمى ليتنزه في ربوعها ومنتزهاتها فأبى فلم يرَ تكفيراً عن ذنبه لانه كان سبب محنته الا ان يبقيه في روميه ليعمل على اعادة أملاكه وأمواله التي اغتصبها أبوه باسم الرومانيين بعد ان فرَّت ابنته ساره وألقي في السجن كما يذكر قرَّاء روايتنا فتاة اسرائيل ولذلك حمل عمه القائد اغريبا ان يطلب منه البقاء فبقي

ومن حسن حظ صاحبنا يوسف أو من حسن نواياه انه بينما كان في روميه وانطونيوس يسعى مع عمه اغريبا لاستصدار أمر قيصر لترد أمواله وأملاكه اليه نعت أبناء الاسكندرية واليها الروماني وصدرت ارادة القيصر بتعيين خلفاً له من كبار رجال روميه وكان صديقاً لاغريبا وصدر أمر قيصر أيضاً بالتعويض على يوسف منسى وكشف ظلامته وهكذا تعرف يوسف بالوالي الجديد وسافر في حاشيته الى الاسكندرية حيث استعاض كل ما كان له من قصور وأطيان وجنائن وأموال وباشر

بتصريفها لانه أقرَّ على الاقامة في أورشليم في قرب ابنته من طرف وتخلصاً من جماعة المصريين الذين أصبحوا أعداء له ألداء لزعمهم انه خرق حرمة ديانتهم في ذلك العام بتهريب ابنته التي حكموا بوجوب تضحيتها عروساً للنيل على ما جرت لهم العادة

ولا ضرورة للقول ان انطونيوس كان قد استفسر في هذه المدة عن حبيبته ساره من أبيها وعلم انها في خير وعافية في مدينة أجدادها أورشليم غير انه توقع لها المكروه لانها قد تزوجت يهوذا الذي كان معروفاً بأنه زعيم الثائرين ويظهر ان انطونيوس بالرغم عن اقترانه بايفيجيني ونيله كل أنواع السعادة بهذا الاقتران بواسطة والدها الذي كان اكبر كل كبير في بلاط قيصر كان يحن الى حبه القديم ويتشوق لسماع أخبار حبيبته ساره ويتمنى لها الراحة والصحة ورغد العيش على حد قول القائل « ما الحب الا للحبيب الاول »

ثم رأى يوسف ان يعود الى بلاده عن طريق العريش لا عن طريق البحر وأراد بذلك ان يتخلص من العيون والرقباء الذين كانوا عادة في الثغور البحرية يترقبون كل قادم للبلاد وهكذا ركب النيل سائراً الى منف عاصمة البلاد المصرية القديمة وأفخم مابني فيها من المدن على ماترى وتسمع من تاريخها وآثاراتها وما مصر الا أقدم موطن للعمران على ما اتصل بنا وان تكن أحدث بلاد الدنيا من حيث تكون أرضها لانها مكونة من طين نهرها المبارك

ويستدل مما اطلع عليه أهل البحث والتنقيب من آثار مصر انها كانت

في أول أمرها وطناً لطوائف متفرقة وقد بقي من آثار هذه الطوائف هيكل من المرمر بجانب أبي الهول في الجيزه حجارته من مقالع اصوان الشهيرة وهي ضخمة جداً ولكنها محكمة الزوايا صقيلة السطوح كأنها خرجت بالامس من يد الصقيل الا في بعض جهاتها حيث أثرت فيها رطوبة الهواء فتآكل سطحها . والظاهر ان هذا الهيكل كان في أول أمره مدفناً لملوك هؤلاء الطوائف ثم طمرته الرمال وعفت آثاره ولبث مطموراً الى ان عثر عليه الملك خوفو الذي بنى الهرم الاكبر من اهرام الجيزه فظنه هيكلاً للاله هورم خوتي اله أبو الهول . ومهما يكن من أصله فلا شبه في انه بني قبل ان عرف أهل مصر صناعة النقش والكتابة وقبل ان عرفوا وضع الملاط بين الحجارة لان حجارته ساذجة لانقش عليها ولا شيء من الملاط بينها

وبعد ذلك قام أحد هؤلاء الملوك من مدينة تني « بمديرية جرجا حيث خرابة المدفونه » وامتدَّ في غزواته وفتوحاته شمالاً الى ان بلغ أبا الهول « اذا كان أبو الهول منحوتاً قبل أيامه » أو الى ان بلغ الصخر الذي نحت منه فنحته تذكاراً لنصراته وعمد الى بناء مدينة تكون متوسطة بين مصر العليا ومصر السفلى فاختار بقعة من الارض جنوبي أبي الهول وكان النيل غامراً لها اما لان مجراه كله كان هناك أو لانه كان متفرعاً الى فرعين فرع غربي يجري بجانب الصحراء حيث قرية سقاره الآن وفرع شرقي يجري في مجراه الحالي فبنى سداً عظيماً الى الجنوب من قرية ميت رهينه وعلى نحو اثني عشر ميلاً منها فتحوَّل النيل كله الى الفرع الشرقي

وجفت الارض في ميت رهينه وحواليها فبنى فيها مدينة منف أو ممفيس واسمها بلسان المصريين القدماء منوفر أي مكان الصلاح وتسمى أيضاً أرض الهرم وأرض الحائط الابيض ومقام فتاح . هذا هو الملك بنا الذي روى هيرودوتس انه أول من ملك في مصر وجاءت الآثار المصرية مصدقة لما رواه هيرودتس ولما أثبته نيثو الكاهن بعده . هذا هو الملك العظيم الذي ضمّ ممالك مصر المتفرقة تحت لواء واحد وملك نيفاً وستين سنة فتسنى له ان يوسع منف ويزيدها عمارة وبهجة . واختلف أهل البحث في الزمن الذي بنيت فيه فقال بعضهم انها بنيت قبل المسيح بخمسة آلاف وسبع مئة عاما وبعضهم انها بنيت قبله بثلاثة آلاف وستمائة وثلاث وعشرين عاما فقط وبعضهم انها بنيت بين هذين التاريخين

وما ابتدأت هذه المدينة بقرية صغيرة ثمّ نمت رويداً رويداً الى ان صارت مدينة كبيرة على توالي الازمان بل ظهرت الى الوجود دفعة واحدة مما يدل على ان المصريين رسخت قدمهم في الحضارة قبل ذلك بقرون كثيرة والا ماتسنى لهم ان يحولوا النهر عن مجراه ولا ان يبنوا مدينة عظيمة دفعة واحدة . وكانت هذه المدينة تمتد في أيام عزها من شاطئ النيل حيث قرية البدرشين الآن الى حد الصحراء حيث قرية سقاره على مسافة ثلاثة أميال شرقا وغربا وبما ان ديودورس المؤرخ يقول ان محيطها كان في أيامه مئة وخمسين ستاديا أي اكثر من خمسة عشر ميلاً فطولها من الجنوب الى الشمال كان نحو ستة أميال مع انها كانت في أيامه قد انحطت عن عظمتها الاولى وصارت الثانية في المملكة .

وتعاقب عليها الملوك بعد بنائها وزادوها عمارة وزخرفة ولبثت الى أيام الاسكندر أما انها الاولى في مصر وأما الثانية لان بعض ملوك مصر جعلوا كرسيهم في طيبه « ثيبس » في الصعيد وأبقوا في منف نائبا ينوب عنهم . ولما جاءها الاسكندر احترم كهانها وعبد الثور « آبيس » الذي كان مقامه فيها . ولما مات جاء بطليموس بجثته اليها قبل ان دفنها في الاسكندرية . وكان البطالسة يتوجون ملوكهم في هيكلها المعروف باسم السرابيوم ولبثت الى مابعد التاريخ المسيحي الاول في القطر المصري بعد الاسكندرية وبقيت هياكلها على عظمتها الى أيام ثيودوسيوس الذي خرب هياكل الاوثان .

فالى هذه المدينة العظمى دخل يوسف منسى وهو عائد الى وطنه وأخذ يتجول في طرقاتها ومنعرجاتها ويزور هياكلها وآثاراتها ويستطلع بقايا أصنامها ونفسه تكاد تذوب الما لانه كان في أورشليم ونظر في عينيه ما آل اليه هيكل اله الآلهة ورب الارباب وكيف لم يسلم كثيراً ما من تعديات ملوك الامم وقواد جيوشهم خلافاً لهياكل الاصنام التي كانت في عهده في منف لم تزل فخيمة عظيمة ومحترمة من الجميع وقال في نفسه أف للانسان الجاحد الذي نسي خالقه والهه والتجأ الى منحوتات يديه فعبدها وتمنى من فؤاد كسير ان يظهر ماسيا المنتظر ليعيد الملك الى اسرائيل ويحكم كل شعوب الارض

وبينما هو يتجوَّل في شوارع منف وطرقاتها واذا برجل من عامة اليهود اعترضه وكان يعرفه من الاسكندرية فسلم عليه سلام احترام وسأله

عما جرى له بعد نكبته واستصحبه الى بيته لبيات عنده ليلته ثم يستأنف السفر بعد يوم أو يومين مع القافلة التي كانت تسير عادة من مصر الى فلسطين وبلاد سوريا في كل شهر مرة وبينما هما قافلان الى البيت واذا بيعقوب يخبر صاحبه يوسف عن رجل تقي بار اسمه يوسف وانه قدم بلاد مصر من مدة سنة ونصف ونيف وان معه امرأة هي آية الله في الجمال والكمال ومعها ولد لا يتجاوز عمره هذه المدة ولكنه في غاية البهاء واللطف والجلال وانهم يسكنون اليوبوليس « مدينة عين الشمس » وان يوسف هذا يشتغل نجاراً ويعيش من كدّ يمينه ولا يقبل حسنة من محسن مهما تلطف في تقديمها له

ولما وعا يوسف كلمات محدثه ذكر حادثة مولد العذراء وما تم ليلئذ من العجائب وكيف ان هيرودس أمر بقتل الاطفال حتى خيل لهم ان ابن العذراء قد قتل أيضاً وسأل محدثه ان يذهبا الى تلك المدينة لزيارة يوسف النجار فقال حباً وكرامة ولكن الذهاب الى مدينة اليوبوليس لا يخلو من خطر في الليل فضلاً عن بعد الشقة حيث المسافة عبارة عن مسيرة نصف يوم ولا بد من تأجيلها الى الغد فقبل يوسف بذلك وبات ليلته عند صاحبه وهما يتحدثان بشؤون اسرائيل وكان هذا الرجل من صنائع يوسف فلا عجب اذا حلّ عنده ضيفاً كريماً وعلى الرحب والسعة وقابله بغاية الحفاوة والاكرام

وما غربت الشمس وسدل الظلام على المدينة حجابه حتى كان يوسف في بيت مضيفه وقد التف من حوله العدد العديد من اليهود الذين كانوا

عددهم ليس بالقليل في تلك المدينة وكان حديث ليلتهم اليهودية وما يجري فيها من القلاقل والثورات وكان كل منهم يتأسف على مجد آبائه الساقط ويدعو الله سبحانه لينظر الى شعبه وتقدم رجل حكيم من الشعب وسأل يوسف عن العذراء وابنها وقال له صار لها مع خطيبها نيف وسنة ونصف في اورشليم ونحن لانرى من هذه العائلة الا كل برارة وقداسة حتى كدنا نؤمن بكل ماسمعناه من الخوارق عن حبلها ومولدها فمن تظن هذا المولود الملائكي

فتبسم يوسف لدى سماعه كلمات محدثه وقال يقولون ان المولود من هذه العذراء هو المسيح

قال وانت من تقول

قال لا أقول كلمة في الموضوع لاننا ننتظر مجيء ملك عظيم يملك اسرائيل ويخضع كل الشعوب لسلطانه لامولد ابن نجار حقير

قال ولكن هذا النجار يدعي انه من نسل داود

قال لايدعي دعوى بل هو حقيقة من نسل داود غير ان مجرد الانتساب لايفيد الاسرائيليين شيئاً

قال اذاً مارأيك في الخوارق التي سمعنا أخبارها

قال لقد تحدثوا بها في أورشليم ثم تنوسبت على مايظهر وما من احد اليوم يسأل عن يوسف النجار ولا عن امرأته التي يقولون انها لم تزل عذراء كما يعتقد الا كثرون ان المولود منها قد مات لان هيرودس ارسل فقتل كل مولود في بيت لحم بعد مولود هذا الغلام

قال وما سبب هذه المظالم

قال خوفه من هذا المولود الذي سمع بنبأ مولده من كهنة المجوس الذين جاؤا من بلادهم بهداية نجم ظهر لهم ليسجدوا له

قال فليتمجد اله اسرائيل وهل رأيت الطفل ووالديه يايوسف

قال كلا ولكني غداً سأذهب خصيصاً لعين شمس وأرى الطفل وأحادث والديه لاقف على حقيقة ماسمعته عنهما وعن مولدهما

قال سمعنا انك عائد من روميه فهل رأيت اهتماماً من قيصر الاسرائيليين ام هو أيضاً يحتقر هذا الشعب المسكين

فتبسم يوسف لهذا السؤال وقال هل في الارض من يحب الاسرائيليين ويخلص لهم في السر والجهر ان الناس ياحبيبي يضطهدوننا جميعاً والناس كلهم اعداء لاسرائيل فلا تطمع بحب واحد منهم كبيراً كان او صغيراً

قال ولكن لابد لنا ان نقهرهم ونسود ونتسلط عليهم حسب وعد الرب بانبيائه متى جاء المخلص المنتظر

ولقد طالت السهرة الى ما بعد الهزيع الاول من الليل وكانت كلها بحث في اليهود وما هم فيه من الاضطراب والتضعضع كان الافئدة كلها كانت مهيئة لسماع انباء مجيء ماسيا المنتظر ليخلص شعبه اسرائيل

الفصل العاشر

﴿ هيكل عين شمس ﴾

نهض يوسف منسى من فراشه باكراً جداً والشوق يحدوه الى زيارة عين شمس ليرى هناك العذراء الوالده ويوسف خطيبها وطفلهما

الحبيب العجيب ولا يبعد ان يكون صاحبنا يوسف قد شعر باليأس من عود الملك لاسرائيل « بعد سقوط القضيب من يهوذا » ولكنه كان يعلل النفس كبقية قومه بمجيء ماسيا المنتظر فيملك ويسود واخذ يقنع نفسه بان هذا المولود من العذراء الذي ظهرت الخوارق والمعجزات يوم مولده منذ عام ونصف العام لا بد ان يكون ماسيا او على الاقل واحداً من الوجهاء عند الله لان يوسف وهو كما علمنا من رجال العقول والمدارك صعب عليه التصديق التام بان ابن هذا النجار الحقير سوف يصبح ملكاً قادراً . بكل معنى الملكية وهذه الفكرة هي التي كانت تشاغله سواد ليله

وكان صاحب الضيافة قد استأجر حمارين واوصى الحمار ان يأتي مع بذوغ الشمس ليسافرا معه الى عين شمس وما كذب ان اتى الحمار وقرع الباب وصاحب البيت لم ينتبه الا على هذه القرعات فهب من رقاده وسار الى حجرة ضيفه لينبهه فرآه مستكملاً استعداده وبعد قليل سارا بعد ان ودع يوسف اهل البيت وشكرهم على حفاوتهم به وقد عزم ان يسير الى اورشليم من عين شمس مع قافلة من قوافل اليهود لانه كان يعلم ان اليهود يكثرون في هذه المدينة رغبة في زيادة الكسب لكثرة من يحج اليها من المصريين وأراد صاحب البيت ان يسير مع يوسف الى تلك المدينة طلباً للنزهة لان طريقهم كانت عبارة عن غياض غناء وجنائن فيحاء وبساتين فيها العنب والجميز والتين وكانت أشجار النخل العالية كحراس اقامتها الطبيعة لحراسة هاتيك الازاهر والاثمار وهكذا ركب الاثنان حماريهما وسارا على الطائر الميمون وكان الحادي يتبعهما وهو يتغنى بقوله « حا »

وكان هذا الرجل الذي اضاف يوسف واسمه راعول من أعيان تجار منف وكانت همته حسنة وقوى حواسه منتظمة مع انه كان يناهز الثمانين من عمره والذي كان يعرفه قومه من تاريخه انه كان من جماعة كتبة الناموس في اورشليم ثم فرَّ في بدء عهد هيرودس الى مصر واخذ يجد بالعمل فكسب وأغتنى غير ان أصحابه ومعاشريه كانوا يعلمون فوق هذا انه كان من ذوي الفكر الحرّ وكانوا يقولون ان معاشرته لكهنة المصريين قد افسدت معتقده غير انه ما كان يجاهر في ارائه أمام عموم الاسرائيليين

وبينما كان راعول ويوسف يقطعان الطريق وكل منهما يفكر بما لم يفكر به الثاني لان يوسف كان « ولا سيما بعد نكبته » لا يهمه الا خلاص اسرائيل من عبودية الرومانيين وراعول كان يفكر بما اقلق افكاره من قبل من ان هذه الاساليب التي اتخذها الناس لعبادة الله لا يمكن ان ترضي الله ثم مال الى صاحبه وقال له اتعلم يا يوسف اهمية المدينة التي نحن اليها سائرون؟؟؟

قال نعم انها دار العلم والفلسفة ولكنها سقطت عن شأنها الاول وكادت ان تهوي الى دركات الخراب بعد ان تسطى عليها العمالقة اوعرب الرعاة ثم كان لكمبيز الفارسي يد قاسية عليها وملوك بابل لم يبقوا ولم يذروا واظنها اليوم قد اضحت اثراً بعد عين تشير الى عظمة من كان فيها في العصور الغابرة على حد قول القائل

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

قال صدقت فان مدرستها التي كانت مصدر فلسفة اليونان حيث

تهذب فيها سقراط وافلاطون واودوكس وفيثاغورس وغيرهم وعادوا الى بلادهم يحملون الحكمة قد تلاشت ولا يصعب عليّ ان اقول ايضاً ان سيدنا موسى عليه السلام هو من تلامذة هذه المدرسة العالية ولا بد ان يكون قد نقل الينا كثيراً من حكمة حكمائها باسم الدين هذا ما اظنه لاني أرى شبهاً بيناً بين ذبايحنا وذبائح المصريين واقدر ان أقول أيضاً بين الاذياء الكهنوتية التي نصّ عليها في سفر الخروج وبين مايلبسه كهنة الاصنام في هيكل هذه المدينة العظيم . وما العجل الذي عمله آباؤنا يوم استبطأوا سيدنا موسى من حلي نسائهم الا شبه عجل منيفيس الكائن في هذا الهيكل ايضاً والذي له تتقدم الضحايا في كل يوم

وأراد راعول ان يطيل الحديث في هذا الموضوع كان في صدره غصة من الكتمان أراد أفراجها فقاطعه يوسف قائلاً كفى فاني لا اطيق ان اسمع منك هذا التجديف الذي تريد ان تقوض فيه شريعة موسى واحكام الله فيها فانا لا انكر عليك ان سيدنا موسى قد تهذب في هذه المدرسة وتفقه فيها حيث درس فيها اللاهوت والفلسفة والطب والصيدله والفلك والتقويم « علم التقويم هو عبارة عن تحرير الجداول والنتائج التي يستدل بواسطتها على حساب السنين والشهور والايام والاعياد» والاحكام الفلكيه « وهو علم الاستدلال بدوران الفلك والبروج على معرفة كل حادث قبل وقوعه » والسحر والرياضيات والهندسة والبناء والزيج « هو علم معرفة السعود والنحوس » والشريعة وترتيب المحاكم وعلم الالحان الدينية والحماسية الى آخر ما كان في هيكل عين شمس من العلوم

والمعارف فان سيدنا موسى ربيب ابنة فرعون قد تعلم ذلك كله قبل ان يدعوه الله لتخليص شعبه من عبودية فرعون غير ان الشريعة التي سنها والاحكام التي وضعها هي اكمل وأجمل مما وضعه البشر وبما ان الكمال والجمال صفتان من صفات الله اله آبائنا فشريعة موسى هي من الله فلا تكفر ولا يداخلنك الشك يا راعول بان مصدر كتب موسى الخمس هو الله الخالق عزّ وجلّ وما كنت أظن هذا مما يحتاج الى برهان

ولما رأى راعول تمسك صاحبه بمعتقد آبائه تبسم وقال ما أردت بكلماتي أن اظهر لك بمظهر الكافر او من داخله الشك بمعتقده ولكني أردت شيئاً آخر وهو ان اظهر لك بان كل اديان الامم والشعوب مصدرها الله سبحانه لانها متشابهة وما هذه الاصنام المنحوتة التي تراها الا رمز للاله الحقيقي الذي نسوه لجهلهم مع كرور الايام وتركوا الجوهر وتمسكوا بالعرض وعندي ان عبادتها كانت لله زلفى

فنظر يوسف لصاحبه نظرة احترام لانه عرف انه على شيء من العلم والمعرفة وقال له لقد ادهشتني بقوليك فقلت أولاً ان شريعة موسى مأخوذة من شرائع المصريين ثم عدت فقلت ان الشريعتين متشابهتين وحكمت لتشابههما انهما من مصدر واحد هو الله فما هذا التناقض

ليس بالامر تناقض فان كل ما كنا نعمله في هيكل سيدنا سليمان وقبله في خيمة الاجتماع من الذبائح والعبادات يعمله المصريون في عباداتهم وذبائحهم على التقريب فاما ان سيدنا موسى لما سار بشعبه الى أرض الميعاد نقل معه هذه العقائد التي كان تلقاها بهيكل عين شمس الى قومه وأما انها

كما تقولون من الله وحينئذ يترجح لي ان الله سبحانه أرسل نبياً قبل موسى بالوف من السنوات الى المصريين وامرهم بفمه ان يعملوا ما أمر الاسرائيليين بفم موسى ان يعملوه لان التشابه واضح بين ما نجريه نحن في هيكل سليمان وبين ما يجريه كهنة المصريين في هيا كل منف وطيبه وجبل السلسلة وعين شمس وغيرها

أما يوسف فتكدر لسماعه ماظنه الكفر الفادح من صديقه وقال له نحن نعبد في هيا كلنا اله اسرائيل الحي وهم يعبدون اصناماً منحوتة من الحجارة فهل بعد هذا تحكم بشبه بين العبادتين ماهذا الاشراك وما هذا الشك في الحق اليقين

فضحك راعول وقال ومن اعلمك ان هؤلاء المصريين ما كانوا يعبدون من قبل هذا الاله الواحد ثم توسعوا في العبادة فأخذوا يمثلونه بما يقرب من اذهانهم ثم نسوه لانه فوق مداركهم واقتصروا على عبادة الذي يشاهدونه امامهم من الصور والتماثيل وعندي متى جاء ماسيا المنتظر ودعا الشعوب الى عبادة الله سيجد قلوب كل البشر مهيئة لقبوله لانهم كلهم يعبدون الاله الحي الواحد من حيث لا يعلمون

أخطأت يا أخي أجاب يوسف فان ماسيا سيأتي ليملك على اسرائيل ويخضع كل الشعوب لنا كما جاء في أنبيائنا وأؤمل ان لا تفصح بعد اليوم بافكارك هذه التي تقوض أركان شريعتنا وتشركنا نحن شعب الله المختار مع بقية الشعوب الذين هم في الحقيقة خدام لنا

فقال يعقوب ليس خطأي باقل من خطأك يا يوسف فانك اذا كنت

تعتقد حقيقة بان هؤلاء الناس كلهم من أب واحد وهو آدم وام واحدة وهي حواء فمن الظلم المعيب ان يجعل الله بعض الاخوة خداماً للبعض من غير ما ميزة بين قوم وآخرين واذا جاء ماسيا بالهدى فجيئه للناس أجمعين لا للعبرانيين الاسرائيليين

وما وصل راعول بحديثه الى ما ذكرنا حتى كانا قد وصلا الى النيل المعترض بين مدينة منف وبين عين شمس بنقطة متوسطة تقريباً وكانت قد بلغت الشمس ما بعد الضحى فنزلا بجانب النهر وتناولا طعاماً كانا قد استحضراه وبعد ان اكلا هنيئاً مريئاً عادا فركبا حماريهما وعبرا جسراً ممتداً بين الجيزة اليوم والمنيل ثم بين المنيل والبر الثاني وكان الجسران ممتدان على عدد من القوارب مصطفة بعضها بجانب البعض على ما اعتاد القدماء من وضع الجسور

وما زالا يجدان في المسير بين تلك الجنائن الزاهرة والازهار العاطرة والمناظر الباهرة وهما يتحادثان بشؤون الدين الى ان قربا من مدينة عين شمس وكانت الشمس قد مالت عن مستوى السماء فعلما انهما جاز الظهيرة وقد عرفا المدينة من مسلتيها المرتفعتين اللتين كانتا تشاهدان عن بعد برهاناً خالداً على عظمة الاقدمين

ولما دخلا المدينة شاهدا فيها علائم العمران مع انها كانت قد مالت عن مركزها الاول ودخلت في دور السقوط والتقهقر وشاهدا الناس أفواجاً في تلك المدينة المقدسة فقال يوسف لرفيقه ان حالة هذه المدينة تشبه حالة اورشليم فان عمرانها مهدد بالخراب والاندثار على ما

أسمع وأرى

قال نعم ولكن لم تزل مقصداً للحجاج الذين يحجون اليها من أطراف البلاد ويقدمون لهيكلها التقدمات والهدايا ولما توسطا المدينة اعترضتها المسلتان العظيمتان اللتان اقامها الملك أوسرتسن الاول ثاني ملوك الدولة الثانية عشرة الطيبية في مدخل الهيكل العظيم فقال راعول لصاحبه تعال لندخل هذا الهيكل ونشاهد مافيه من الآثار العظيمة التي أبقاها المصريون دليلاً عن عظمتهم الآخذة بالسقوط فرضي يوسف ونزلا عن حماريهما وتركاهما للسائق وسارا مابين المسلتين فاذا بعدهما عدد عديد من تماثيل السباع برؤوس بشرية على ماترى في رسم ابي الهول وفي بعض التماثيل الحجرية الموجودة في دار الاثارات المصرية ثم انتهيا الى باب عظيم دخلا منه الى هيكل متسع عظيم لايدرك الطرف آخره وهو مقام على أعمدة من الحجر الصلب عالية وكان بداخله عدد عديد من الاصنام المنحوتة المقامة للعبادة على اشكال متفاوتة ولما توسطا الهيكل رأيا بعض الكهان يتجولون من هنا وهناك وامائر الاستكانة والخذلان بادية عليهم فقال يوسف لراعول تبارك الله اله اسرائيل فان كهنة هذا الهيكل أشبه بكهنتنا اليوم في حزنهم وانخذالهم لسقوط مجدهم فاجابه راعول مبتسما ان احوالنا واحوالهم متشابهة في كل شيء قال يوسف ولكني كلما نظرت الى هذه البنايات الفخيمة اذكر بحزن انها قد اقيمت على اكتاف اجدادنا الذين كانوا مستعبدين لملوك مصر من غير ما أجرة فالشكر لالهنا الذي رفع عن كواهلنا نير الاستعباد وهدانا بواسطة موسى الى الخلاص من الاسر واستملاك أرض الميعاد ارثاً لنا

ولكن آه واأسفاه ان أرض الميعاد التي اعطاناها الله قد صارت طعمة للغريب الاجنبي وان شعب اسرائيل الذي نجاه الله من عبودية فرعون قد وقع في اسر قيصر الرومانيين فليتمجد اسم الرب

فضحك راعول وقال بسذاجة لاتيأس ياسيدي من رحمة الله فان كانت عبودية فرعون قد اوجدت موسى بيننا فعبودية الرومانيين ستكون سبباً لظهور ماسيا المنتظر الذي وعدنا به بالسن انبيائنا فسر يوسف بجواب رفيقه وقال فليكن اسم الرب مباركاً الآن والى الابد

وبينما هما يتحدثان واذا باحد الكهنة تقدم من الرجلين وسلم عليهما سلاماً ما كانا يتوقعانه لان الكهان فيما مضى كانوا يعتبرون انفسهم أرفع من باقي الناس رتبة ومجداً وسؤدداً ولكن سقوط نفوذهم بسقوط مجد المصريين قد لطف من أخلاقهم فصاروا يحترمون « وهم الذين ما كانوا يحترمون الملوك » كل من يدخل عليهم ويأتي لزيارتهم وكان هذا الكاهن عجوزاً مسناً قد وخط الشيب عارضيه ولمته والبسه ثوبي مهابة وجلال وكان يعرف راعول من قبل وطالما كانا يجلسان ويتبادلان الاحاديث ويذكران مجد الآباء الساقط ويترنمان بما كان ويتوقعان الشر مما سيكون

ولقد عرف راعول صديقه يوسف بهذا الكاهن بقوله انه رجل عقل وحزم وانه مازال يبحث عن الحقائق في خدمة الهيكل وكلما تعمق في مباحثه رأى الحقيقة بعيدة عنه بمراحل فاحترم يوسف الكاهن وتقدم نحوه بسرور وقال كلنا طلاب حقيقة فمنا من يسعى اليها بطريق الدين ومنا من يسعى وراءها بطريق السياسة

أما الكاهن فكان من عادته التأني بالجواب والتمعن في كل مايسمع شأن طلاب الحقيقة وبعد ان تربص وتمهل وأمعن النظر بكلمات محدثه قال ان الحقائق لم تزل في طي الخفاء او في قبضة أبي الآلهة حتى ان الآلهة أنفسهم بعيدون عن معرفتها كما هي غير اننا اذ نسعى وراء هذه الحقائق ينكشف لنا الكثير من معمياتها

فنظر راعول الى يوسف بعد ان أتم الكاهن كلماته وهو يتبسم وقال أظن ان شجرة معرفة الخير والشر التي تناولت حواء تفاحة منها واكلت نصفها واعطت لآدم النصف الآخر هي نفس شجرة الحقائق ويا ليت آدم اكل منها تفاحتين او ثلاث لكان قد خفف عنا كثيراً من العناء في معرفة الحقائق. فتكدر يوسف من اعتراض صاحبه وظنه يتهكم على ماجاء في سفر التكوين وقال له ان في الكتاب رموزاً اذا لم تفهمها فلا ينبغي لك ان تستهزئ بالكتاب بل في فهمك القاصر

كالشمس تستنكر الابصار رؤيتها　　والذنب للطرف لا للشمس فاعتبر

فقال الكاهن صدقت فان كثيراً من حوادث الكتب المقدسة يستنكرها الجاهل لعدم فهمه لها ثم لايلبث ان يحترمها متى بدت له معمياتها وانكشفت امامه اسرارها غير ان راعول ماأراد في كلمته غير الفكاهة بالاستشهاد وما هو بكافر بكتب آبائه ومعتقد أجداده ولكنه ككل من انفق عمره في البحث والتنقيب ينتظر تغيراً مهماً في هذه الاديان المختلفة التي اختلطت فيها الجواهر بالاعراض اطول العهد بين واضعيها والامم الذين وضعت لهم ولكثرة ماانتاب الانسان من المغارم والمظالم في هذه

الالوف من السنوات حتى استعبد الابيض الاسود والقوي الضعيف وان هذا الجور الواقع على البشر من حكامهم والمتسلطين عليهم قد افقدهم كل مايؤول بهم الى الارتقاء والنجاح بعدما خلق الانسان حرًا بدليل تسلطه على ماسواه من انواع الحيوان والنبات وقدرته على استخدامها وما هذه العبودية التي يحملها القوي للضعيف الا لجهل الضعيف عما يجب عمله امام القوي لانه اذا اتحد الضعفاء تغلبوا على الاقوياء وأظن ان الطفرة محال وهذه الحالة لاتدوم لان بدوامها يتلاشى الانسان او يسقط الى دركات الحيوان ولا بد من ظهور عظيم في العالم يعلم الناس مبادي الحرية والمساواة ويدعوهم الى الرقي والنجاح

قال يوسف ونحن ايضاً ننتظر على مافي كتب انبيائنا مجيء ملك يؤيد كلمة اسرائيل ويخضع لسلطانه كل الشعوب

ولما سمع الكاهن كلمات يوسف تسرت اسارير وجهه فابتسم وقال انكم على مايظهر تنتظرون مجيء اله الحرية بشخص قوي يدعو الناس اليها ويوحد كلمتهم بها ويجمعهم على اختلاف شعوبهم باسمها أما الفكرة في ان يظهر بين اليهود رجل يحكم على الشكل الذي نراه في ملوك هذا الزمان فضرب من ضروب المستحيل أو الهزيان لان شريعتكم قاسية قلما يرغب أجنبي بالخضوع لاحكامها

فنظر راعول الى يوسف بعد سماع كلمات الكاهن نظرة فهم منها ان الحقيقة بين شفتي هذا الشيخ الحكيم ثم قال يوسف للكاهن هل تقدر ان تفيدني شيئاً عن تاريخ هذا الهيكل العظيم

فقال الكاهن لك ماتشاء أيها الفاضل فان هذه المدينة «عين شمس» قديمة العهد جداً يترامى تاريخ تأسيسها الى ماقبل العائلة الثانية المصرية أي اكثر من اربع آلاف ومئة عام على مايظن غير ان شهرة هذه المدينة كانت بشهرة مدرستها وآثارها وذلك على عهد الملك اوسرتسن الاول ثاني ملوك الدولة الثانية عشرة الطيبية الذي شيد فيها كثيراً من المباني المقدسة والقاعات الشامخة للعلوم والمعارف وقد بذل هذا الملك العظيم كل مرتخص وغال في توسيع نطاق هيكلها هذا حتى أصبح لامثيل له بين هيا كل الديار المصرية بالمجد والعظمة وما زال الملوك الذين بعده يوسعون في بنايات هذا الهيكل حتى بلغ عداد خدامه في حكم الملك رامس الثالث من العائلة التاسعة عشرة من كهنة وكاهنات وكتبة وملاحظين وعمال ومهندسين وبنائين وفلاحين ومزارعين الخ مايربو على الثلاثة عشر الف نسمه وكان كل هؤلاء يسكنون بعائلاتهم داخل صور هذا الهيكل

وكان هذا الهيكل غنياً جداً بما كان ينذر اليه من أموال الحجاج والزوار لانه كان يؤمه كل سكان القطر في عيده السنوي للتبرك كما لم تزل هذه العادة مرعية حتى الآن ولكن بدرجة أقل وأضعف

وكانت مدرسة هذا الهيكل عظيمة جداً وتعلم كافة العلوم على اختلافها وقد اشتهر كهنة هذا الهيكل على الاخص في فن القضاء والمحاماة والفلك ورصد النجوم وكان ثلث اعضاء مجلس القضاء الاعلى الذي كان يؤلف من ثلاثين كاهناً في مدينة طيبه من كهنة هذا الهيكل والثلثان من كهنة هيا كل منف وطيبه وجبل السلسلة

ولمدرستنا هذه التي نحن واقفون على اطلالها اليوم فضل كبير على اليهود واليونان وقد أطلعني راعول على شريعة موسى تلميذنا التي وضعها الى قومه فاذا كلها مأخوذة من شريعتنا مع بعض التوسع والتحوير اتباعاً لظروف الزمان والمكان وكذلك الحال في فلسفة اليونانيين التي ازهرت ونمت بفضل تلامذتنا الذين ربيناهم عندنا وهم سقراط وافلاطون وفيثاغورس واودوكس وغيرهم

وكان الكاهن يتكلم وراعول ينظر الى يوسف كانه يقول له تذكر كلماتي التي حدثتك بها على الطريق اما يوسف فسر من معلومات الكاهن وسأله اذا كان هذا الهيكل غنياً جداً فما الذي حطّ من شأنه وضعضع مدرسته على ما نرى

فانّ الكاهن وبكى لدى سماعه هذا السؤال وقال ان جهل الناس وأطماعهم الاشعبية جعلتهم متنافرين فكانوا ولا يزالون متخاصمين متحاربين ويكون دائماً أبداً الغالب شراً من المغلوب في نتائج هذه الحروب التي هي آفة العلم وآفة المدنية والعمران فبينما هذا الهيكل المقدس معززاً مكرماً ومدرسته زاهرة عامرة واذا بالعمالقة أو عرب الرعاة ثاروا على مصر وقاتلوا ملوكها وأنقضوا على هذه المدينة وضربوها ضربة كادت تكون القاضية وهؤلاء الهكسوس كانوا من الهمجية والوحشية على جانب عظيم وما كدنا نستريح من شرهم ونعود الى جمع شتاتنا حتى دخل البلاد المصرية كمبيز الفارسي من العائلة السابعة والعشرين فخرب ودمر وأصاب هذا الهيكل من شره ما ضعضع وجوده ثم ما أسترحنا من شر هذا أيضاً حتى

جاءتنا ملوك بابل مقاتلين مستبدين فخربوا ودمروا وأعتدوا على هذا الهيكل في جملة ما اعتدوا عليه فلا تعجب اذا رأيت الخراب يكاد يلاشي هذا الهيكل بعد كل هذه المصائب ولسان حاله ينشد

ولو كان سهماً واحداً لاحتملته ولكنه سهم وثان وثالث

وبالاجمال أيها العزيز ان الحروب منذ الازل كانت ولم تزل آفة العمران ومهلكة الانسان ولا أعلم متى سيترقى هذا الانسان المتوحش ويبلغ في المدنية مبلغاً يصل فيه الى نتيجة سلمية يأمن بها على عرضه وماله ولا يكون له من همّ سوى ان يعمل لمصلحته ومصلحة أخوانه في الانسانية

ولم يكد الكاهن ينتهي من كلماته التي كان يلقيها على صاحبيه والتأثر آخذ مأخذه منه حتى بادره راعول قائلاً ان هذا التفريق بين الناس لا يدوم ولا بدّ على ما أظن من مجيء زمان تسود فيه الفضيلة على الرذيلة وتعلو به كلمة الحق على كلمة الباطل وفي ذلك الزمان يتعارف الناس ويتآلفون ولا يبقى من داع الى حمل السلاح وشنّ الغارة بين الاخوة على وجه البسيطة وذلك السلام سيكون عند مجيء ماسيا الذي ينتظره اليهود من يوم الى يوم

أما الكاهن فلم تظهر عليه امائر الرضاء من كلمات محدثه وقال له أتظن أيها الصديق ان في الامكان ازالة الخصام من نفوس البشر وقد ربي الانسان على الطمع في التسلط والعمل على اتساع النفوذ ولو كان ذلك كله وهم محض في نظر كل عاقل كريم . أما انا فلا أظن ذلك لاني أرى هذه الاطماع المؤسسة في صدور البشر لا حد لها حتى ان الالهة لو وجدت في

العالم لكانت كالبشر في هذه الاطماع التي لا تقف عند حد فلا تشغل نفسك بالمستحيل ولا تظن ان الغد سيكون احسن من أمس على هذا الانسان وأعلم ان الحروب هي نتيجة طبيعية ملازمة للانسان بدليل انها وجدت مع وجوده وهي في البلاد الهمجية كما هي في البلاد المتمدنة واذا أطلعت على سير الاقدمين تراها ملأى باخبار القتل والنهب والسبي الى آخر ما هنالك من همجية هذا الانسان المتوحش فقد قرأت في كتابكم الذي ترجمه الشيوخ السبعون الى اللغة اليونانية ذكر الحروب التي شنها اليهود على الامم المجاورة والحروب التي شنتها الامم على اليهود ولم ار في كل هذه الحروب من سبب عادل يدعو بحق صريح الى سفك كل تلك الدماء الذكية ارضاء لاطماع بعض الافراد الذين يتحكمون بالشعوب كيف يشاؤون . وفي حوادث وأخبار المملكة المصرية ما في حوادث كتابكم وقس على هذا اخبار الامم الاخرى التي انقرضت والتي سادت وفي هذا كله البرهان الاشهب على ان لاسلام على الارض والسلام

وهكذا كان حديث راعول ويوسف مع الكاهن كله عبر لقوم يعتبرون وبعد ان تجولا في فناء الهيكل وشاهدا مافيه من التحف والذخارف والتماثيل انقلبا الى المدينة قاصدين دار يوسف الناصري النجار وكانا مندهشين مما يريانه من اثار العمران في تلك المدينة الكبيرة التي انقرضت بعد ذلك انقراضاً ولم يبق لها الان من اثر واقيمت على اطلالها او بالقرب منها كما يقول الاكثرون مدينة المطرية الصغيرة

﴿ الفصل الحادي عشر ﴾

﴿ يسوع ومريم ومار يوسف ﴾

قدم يوسف الناصري النجار بمريم ويسوع الى القطر المصري هرباً من وجه هيرودس وكان ذلك باشارة من ملاك الرب الذي ترأى له في الحلم يوم كان في بيت لحم واختار مدينة عين شمس لسكناه لان الكثيرين من اليهود المهاجرين كانو يقطنون هذه المدينة لما فيها من الخيرات الكثيرة لتزاحم الحجاج فيها لزيارة هيكل عين شمس من اطراف البلاد المصرية ولاسباب اخرى توافق مصلحة اليهود

وقد احتفى الاسرائيليون بيوسف واسرته احتفاء جميلا عادتهم مع كل غريب من قومهم وكان البعض من مهاجري الناصره يعرفونه فلم يبخلوا عليه بكل مساعدة ممكنة وهكذا استاجر بيتاً صغيراً في المحلة التي يسكنها اليهود واتخذ له دكانا واخذ يتعاطى بها صناعته واراد الله ان يكون رزقه كثيرا فكان يكسب ما يفيض عن مصروفه وكانت خطيبته العذراء تعتني بوحيدها وتقوم بخدمة بيتها وكانت ملائكة السلام مرفرفة على هذه العائلة المقدسة

وكان يسوع المولود آية العجب ومظهر الاندهاش في مدينة عين شمس بحيث ما كانوا يسمعون له صوتاً في البكاء وكانوا يلاحظون فيه وهو طفل انه ليس كبقية الاطفال من جيله بل كان يفوقهم ذكاءً وبهاءً وكان القوم من مصريين ويهود يتسابقون لتقبيله وحمله على الاكف وهو يناغي كالملائكة ولا سيما بعد ان بلغ أواسط السنة الثانية من عمره وصار يتلفظ ببعض الكلمات التي كان يسمعها من أمه ومن حوله

أما يوسف وراعول فخرجا من الهيكل وقد دلهما الجوع على انهما قد بلغا عصارى النهار فسارا والجوع كافر الى مطعم يهودي كان راعول يرجع اليه كلما قصد المدينة فأكلا هنيئاً وقال يوسف ان اخواننا اليهود قد احترفوا في هذه المدينة كل الحرف على ما أرى فاجابه راعول بتبسم ليس في هذه المدينة بل في كل صقع وقطر وحيثما وجدوا ضايقوا الاهلين على رزقهم لقناعتهم اذا لم يجدوا للطمع سبيلاً

وبعد ان خرجا من المطعم سارا في شوارع تلك المدينة . وكان يوسف يندهش من كلما كان يراه في طريقه من مظاهر العمران وآثار الحضارة وعلائم العظمة والفخامة حتى انه كان يرى ان لا نسبة بين عين شمس واورشليم واذ رأى الشمس تكاد تدنو من المغيب قال لصاحبه أراك لم تهتم بمبيتنا ولا أظن بوسع النجار ان يأوينا في بيته الا اذا أراد ان يحرمنا ونفسه لذة النوم

فتبسم راعول وقال ان المدينة التي ترحب بألوف الالوف في أيام المواسم والاعياد لا تضيق عن اثنين ولو كانا من شيوخ اسرائيل أما الناصري النجار فليس بين يديه غير الحصير والقنديل وقد جمع الزمان بينه وبين الفقر فلا يفرقهما الا الموت

ـ حسناً ولكن النجار ليس بفقير اذا كان يربي لاسرائيل ماسيا المنتظر قال يوسف هذا ويصعب على المنتقد الحاذق ان يحكم بما يرمي اليه من لهجة الصدق أو كلمة التهكم غير ان راعول أجابه بما دل على انه واثق

بمستقبل الطفل قائلاً : لا تعجب ياسيدي اذا كان ماسيا فقيراً وابن نجار حقير فانك اذا رجعت الى أصول كل هذه العائلات المالكة لالفيتها من نبت وضيع لان الجد والنشاط والذكاء كل هذه السجايا التي تخول صاحبها التقدم والارتقاء لاتكون غالباً الا في الشبيبة الوسطى أو الدنيا وهيهات ان ينبغ ابن النعمة والمتربي على مهود الراحة والترف لما في تلك المعيشة الراقهة من دواعي الكسل ومسببات الخمول فلا تحتقرن يايوسف فقيراً ولا تزدرينّ بمسكين فهؤلاء هم الآلة المحركة لهذا العالم الانساني ومنهم الحكيم والفيلسوف والشجاع والكاهن ومنهم الملك أيضاً وما من عظيم نبغ على وجه هذه البسيطة ألا وهو ابن فقر ومسكنة وربيب تعب وشقاء هذا اذا كنا نعتبر ماسيا ملكاً كهؤلاء الملوك من غير مارجوى بقدرة الله عز وجل ويكفيك ان تنظر الى داود الجد الاعلى الذي ننتظر حسب أنبيائنا ولادة المخلص من نسله فانه كان راعياً للغنم كابسط هؤلاء الرعاة واذ كانت يد الله معه قوي على جلماد وانتصر في حروبه وساد الاسرائيليين ولا عجب ان يكون ابن هذا النجار فيما بعد ملكاً قادراً لاسرائيل وقد روي عن مولده ما روي من الخوارق والمعجزات مما لو ثبت بعضه لكان كافياً للامل بظهوره عظيماً خصوصاً وقد أصبحنا نحن معاشر الاسرائيليين ولا أمل لنا في الفوز والانتصار بعد ان سقط القضيب من يهوذا وخضعنا لحكم الرومانيين

قال يوسف نعما ماقلت فان الذين لارجاء لهم يتمسكون بالاوهام تخلصاً من هول اليأس الذي اهون مافيه هلاك الامة واضمحلالها غير ان

اعداء هذا الطفل أو بالحري الشاكين بمولده العجيب كثيرون وهم من نفس الكتبة والفريسيين والكهنة فما رأيك بعامة الشعب وهم اليوم يحاربون كل فكرة بمولده كمخلص منتظر بما في الامكان والذي ساعد هؤلاء على محو هذه الفكرة من العقول أمر هيرودس بقتل الاطفال في بيت لحم فصاروا يعتقدون في هلاك الصبي مع من هلك الا الذين علموا بهرب والديه الى هذه الديار وقليل هم

قال راعول اني اسمع غريباً عن الفريسيين والكهنة الذين يحاربون كل فكرة بمولد المخلص من غير بحث عن حقيقة ماذاع وشاع من الخوارق في مولد هذا الطفل الذي كل من يراه يرى انوار العلي مرتسمة على وجهه غير اني اراهم لا يريدون فعلاً ان يظهر من يردهم الى الهدى بعد ان ضلوا عن الطريق السوي واستبدوا بالشريعة واتخذوها وسيلة للكسب وتوطئة للتسيد والاستبداد وليت شعري كيف يقوى العقل على الاعتقاد بهلاك الطفل الذي اظهر الله من المعجزات في ليلة مولده مايشير الى ان العناية معه لتحفظه وهل في وسع هيرودس مهما كان جباراً عاتياً ان يقاوم اله الالهة ورب الارباب

قال يوسف يظهر انك اكثر مني تبحراً وابعد نظرا في مستقبل الامور ولا اقف معك موقف جدل في هذه القضايا لان مانحن فيه من التضعضع يدعونا الى الامل بتعضيد الاله القدير اذا كان لا يرضى باضمحلال شعبه الخاص وتشتته ايدي سبا لان لا امل بمستقبل للاسرائيليين الا

بالهم ولا معين لهم بعد اليوم من البشر بعدما دب الشقاق بينهم فلا يجتمعون ولا يجمعون على أمر

وكان راعول يعلم مثوى الناصري لانه كان كثيرا مايتردد على المدينة ولميله الى سماع الغرائب كان لا بد له من مقابلة الناصري في حال قدومه وما كاد يوسف يتم حديثه حتى كانا قد انتهيا الى باب قديم في حائط واطي مبني من الاجر الاحمر وقال راعول ليوسف هذا هو بيت صاحبنا الناصري ومأوى الطفل يسوع

واذ كانت الدار صغيرة فما قرع الضيفان ذلك الباب الحقير قرعتين خفيفتين الا وانفتح الباب وامرأة بارعة الجمال كانها ملك هابط من الجنة واقفة ترحب بضيفيها وتقرأوهما السلام كانها عرفتهما وكان بيسار المرأة اناء عرفا انه الابريق الذي كانت تسكب منه الماء على رجلي زوجها وهو متكي في فناء الدار حيث رأياه والمسافة ليست بعيدة والذي استلفت أنظارهما بالاكثر هو الطفل يسوع الذي كان واقفاً بازاء أمه وانوار وجهه تتلالا وتسطع بهاء ولمعاناً ولما ابصرهما النجار عرفهما بغير ما تردد وقد رأى يوسف مذ اكثر من مرة في اورشليم في دار صهره يهوذا الغولونيتي على مايذكر قراء روايتنا فتاة اسرائيل واجتمع براعول مراراً في عين شمس اذ كان يسأله خصيصاً عن الطفل وبعد ان رحب الناصري وزوجه بضيفيهما دخلا بهما حجرة هي للمنامة وللجلوس ولاستقبال الضيوف وكانت الحجرة مربعة وفي صدرها سريران من سعف النخل عليهما وسادتان ربما كانتا محشيتان بالقش وفي الارض بعض جلود المعزى والضان وحصير

مضفور من سعف النخل أيضاً وبعد ان ضمهم المجلس دنا يسوع من الضيفين وأخذ يكلمهما بعض كلمات هي خليط من اللغات القبطية والعبرية واليونانية مما كان يلتقطه من أفواه والديه والجيران وصار يوسف وراعول يلاعبانه ومريم وخطيبها ينظران الى الفتى بملء فؤاديهما ثم مالت مريم نحو يوسف منسى وسألته عن ساره وزوجها وعن ولادتها لانها كانت تركتها وهي في بشائر الحبل فقال يوسف انها مع زوجها بخير وقد رزقهما الله مولوداً ذكراً دعياه ابرهيم تبركاً بجدنا ابرهيم عليه السلام ثم سأل الناصري عما صار بهيرودس فقال له يوسف انه مات وقص عليه ما كان بعد موته من القلائل الى آخر ما كان ومرّ بنا

فتبسم الناصري وسر وقال فليكن اسم الرب مباركاً فقد نظر الى شعبه وخلص عباده من هذا الطاغية قال هذا يوسف النجار ببطء وبرود على حسب عادته التي عرف بها ثم دار الحديث بين الحضور على الطفل الذي كان يستلفت أنظارهم بما يأتيه من ضروب الحركات المضحكة عدا ما كان فيه من الجمال الرائع الذي كان يفوق جمال والدته التي دعاها المصريون باسم الهة الجمال وصاروا يضربون بمحاسنها الامثال

وبعد ان قضى الضيفان ردحاً من الزمن في دار الناصري قفلا راجعين الى أحد الفنادق حيث باتا ليلتهما وفي الصباح نهضا وأخذا يتجولان في انحاء المدينة وكان يوسف يندهش من كلما يراه من شاهق البنايات وعظيم القصور التي كانت مقامة في ارجاء تلك المدينة وما زالا يتجولان حتى انتهيا الى حديقة غناء كانت مربى لطير النعام المعروف وفيها العدد العديد من

هذا الطير وما هو بطير واذ دخلا المربي اندهشا من كل مابدا لهما من مظاهر النعام وتقدم احد الكهنة الذين كانوا يعتنون بتربية هـذا الحيوان وسلم على راعول لانه كان يعرفه لكثرة اختلاطه بالكهنة واذ عرف يوسف وماله من المكانة في اسرائيل رحب به وأخذ يشرح له عن أحوال النعام ما كان في اعتقاد الكهنة فقال ان النعام ليست بطائر يطير ولا هي من نوع البعير بل وسط بينهما ويقولون ان النعامة متولدة من طائر وجمل وهـذا عندي من بعيد الاحتمال وقد قالوه بناء على مايشاهد من مشابهة هـذا الحيوان للجمل في رجليه وللطائر في جناحيـه ومن غريب أحوال هـذا الحيوان ان بيضه متساو في حجمه فلا كبرى ولا صغرى ولا وسطاً بينهما واذا أرادت النعامـة الافراخ قسمت بيضها اثلاثاً فتحضن الثلث بحيث تعطي كل بيضة نصيبها من الحضانة لان جسمها لايسع كل البيض والثلث الثاني تجعل صفاره غذاء لها والثلث الثالث تفتحه وتعرضه الى الهواء حتى يتعفن ويتولد منه الدود فتغـذي به فراخها اذا خرجت ويتعاقب الذكر والانثى في حضانة البيض تعاقباً منتظماً والاغرب في هذا الحيوان انه اذا كسرت رجله قعد الى ان يهلك جوعاً وليس للنعام حاسة السمع اذلاأذنان لها غير ان شمها يعوضها عن السمع فربما شمت رائحة القناص عن بعد غير انها من حمقها اذا أدركها قناصها أدخلت رأسها في كثيب من الرمل كانها تختفي به وهي كثيرة الصبر على العطش وأشد مايكون عدوها اذا استقبلت الريح وتبتلع العظم الصلب والحجر والحديد والجمر المشتعل هذا قليل من كثير من عجائب هذا الحيوان الجميل واكثر ما يكون انتفاع الناس بريشه

لانهم يتزينون به في الاعياد والمواسم ومرباه في هذه المدينة منذ وجدت ولا يوجد له مربى في غيرها من البلاد المصرية

فشكر يوسف الكاهن على عنايته في شرح بعض الشيء عن النعام وسأله ان كانوا يأكلون لحمه فقال نعم وانه لذيذ غير ان غلاء قيمته تمنعنا عن ذبحه لان الانتفاع بريشه أهم واعم

وبعد ان قضى يوسف وراعول برهة وهما يتجولان في ذلك المربى «وهو لم يزل حتى الآن في المطرية» عادا الى فندقهما حيث أبلغا ان قافلة سترحل الى أورشليم بعد ثلاثة أيام فاقر يوسف على الارتحال واكترى له ناقة تحمله الى تلك الديار وبضع جمال لتحمل له ما لديه من المتاع الذي كان أبقاه عند صديقه راعول

اما يوسف الناصري فقد بات ليلتئذ مع مريم العذراء بعد ان قضيا الهزيع الاول في ذكرى الوطن والحنان اليه وفي الحلم ترأى له ملاك الرب وأمره ان يعود الى بلاده فنهض في الصباح وأخذ يستخلص ماله من العلائق في المدينة استعداداً للرحيل وركب مع القافلة التي كان فيها يوسف منسى وهكذا في اليوم الموعود خرجوا من المدينة قاصدين فلسطين في ركب عديد وكانت عناية الله تكتنف القافلة فلم تصب بمكروه واذ وصلت القافلة أرض الميعاد سار النجار بخطيبته والطفل الى مدينته الناصره ويوسف منسى الى أورشليم حيث قابل ساره ويهوذا وكهنة اليهود وشيوخهم وقص عليهم الكثير والقليل من رحلته وفي جملة ذلك مقابلته للعذراء والطفل أما ساره فتأثرت بالاكثر من عناية حبيبها انطونيوس واهتمامه بالسؤال

عنها واغرورقت عيناها بالدموع اذ ذكرت حبيبها الاول الذي أشغل فؤادها في زهرة عمرها وكان سبب أشجانها ومصائبها فيما بعد



« الفصل الثاني عشر »

« راحيل في الاسر »

لبثت راحيل على الحالة التي تركناها بها وهي مهددة من شاوول مدة من الزمن ثم نهضت وهي كالمصروع لا تعلم ماوراء كلمات ذاك الذي جاء ليخطب ودها قسراً ويحملها على ترك خليلها واتخاذه خليلاً شاءت أو أبت وهذه حالة قلما توجد في زمن الامن ولكن أمثالها كثير في زمن الفوضى واختلال النظام حيث تبلغ الجراءة من هؤلاء الجهلاء مبلغاً كبيراً لم يكن لولا تلك الفوضى ليخطر على بال عاقل من العالمين

خافت راحيل على نفسها وحسبت لتهديد شاوول الف حساب وحساب وتوقعت لنفسها الشر وارادت ان تستنجد بالامير الروماني ليحميها فلم تساعدها نفسها على ذلك لانها كانت تحب هذا الشاب حباً اكيداً ثابتاً

اما شاوول فما خرج من دار ارشيلاوس غاضباً حتى سار الى البعض من اصدقائه واخوانه طالباً لتعضيدهم ومساعدتهم على نيل أمانيه وما اكثر الجهلاء في عصر الثورة لان على اكتافهم ضعضعة الراحة العمومية وقلب الممالك والدول فوجد من اخوانه طاعة عمياء ورغبة في معونته مابعدها من رغبة وبعد ان استصفاهم واستوثق منهم جلسوا جميعاً مجلس شورى لتدبير الاختطاف كان اتيان المساوي أيضاً يحتاج الى شورى ومشاركة في الرأي فقال شاوول اني احب هذه الابنة منذ اجل بعيد وهي أيضاً تحبني وقد تبادلنا هذا الحب في الناصره حيث سرت كما تعلمون لاستنهاض الناصريين ضد هيرودس الكبير الذي أمر بالاكتتاب خضوعاً لاوامر اغسطس وكان

حبنا مقدساً لا يشوبه عيب ثم اذ لم نفلح في مهمتنا على ما تعلمون اختارني يهوذا الى الذهاب معه الى الديار المصرية لاستنهاض اليهود هناك وطلب معونتهم فلم يكن من ارشيلاوس الاان ارسل الوفود الى الناصره فاطمعوا حبيبتي واخذوها سبية عار وجاءوا بها الى قصر هذا الامير حيث هي الآن ولقد قابلتها اكثر من مرة فاذا هي تحبني كما انا احبها ولكنها أبت ان تترك القصر وتتبعني خشية من انتقام الامير سابيها مع اني افهمتها ان الامير سوف لا يعود الى اورشليم وان اليهودية قد انضمت أو كادت تنضم الى سلطة الرومانيين رأساً حيث تسود الحرية ويبطل كل اثر للاستبداد وغاية ما ارجوه منكم ايها الاخوان ان ننقض جميعاً على بيت ارشيلاوس فنخطف راحيل ونعود بها الى مأمن امين وحرز حريز فتكون لي دون سواي

فتأثر اعوان شاوول من كلماته واتخذوها على علاتها حقيقية لان مظالم هيرودس واولاده كانت كثيرة عامة ولذلك كان الناس يصدقون كل ماينسب الى هؤلاء من المظالم والمغارم وغرائب الوقائع لان قراءنا يعلمون كيف دخلت راحيل بيت ارشيلاوس لم يكن سبياً بل عن رضى وان راحيل لم تخاطب شاوول بامر الهرب اصالة ولكن اصحاب الاغراض يلبسون كلامهم الحلل التي يظنون انها تؤدي الى الغاية المرغوبة

وكان بين هؤلاء الشبان المجتمعين شاب يبلغ الثلاثين من عمره وكان منزوياً في طرف المجلس ينظر الى شاوول وهو يحرض اصحابه على الشر نظر المحتقر لانه كان يكره الرجل كرهاً غريباً وكان ينظر الى رفاقه ويسخر بهم كلما ابدوا علامة من علامات التحمس فلما انتهى شاوول من كلامه

وخلصت روايته تقدم هذا الشاب وقال نحن لانبخل عليك باستخلاص ظبيتك من أنياب الاسد ولو على شفار السيوف ولكن هل من العدل ان نختطف هذه الجميلة وهي محظية امير لايبعد ان يعود ملكاً لنسلمها الى شاب فقير نظيرك ليحملها طول حياتها المتاعب والاوصاب اذا سلمتما فيما بعد من انتقام ارشيلاوس حالما يطأ برجله عتبة المدينة ويجرد خيله ورجله طالباً لحبيبته المسبية وانتقاما من سابيها وهل نحن ياشاوول في موقف هزل لنداعب امير البلاد وملكها بحبيبته أو نحن نجاهد في سبيل نجاة شعب الله من مظالم الهيروديين ثم الا تظن ان حادثاً كهذا تكون سمعته سيئة في رومه حيث تقوى علينا حجة اعدائنا فيقولون اننا من رعاع الامة وان حركاتنا حركات لصوص لاحركات ثائرين وراء مطلب شريف وهو تحرير البلاد من الظلم والاسترقاق واعادة الملك لاسرائيل ؟؟

أما شاوول فلم تثنه كلمات سامر « اسم محدثه » عن رأيه لان نفسه كانت تطمح الى سبي حبيبته وأعوانه كانوا معه يتأثرون له ويتنشطون لخدمته ومع ذلك خاف ان يزعزع الحديث أفكارهم فقال أنت تعلم ياسامر مالي من الخدمات لاسرائيل حتى اني أوقفت نفسي لمناهضة هيرودس وتحريض اليهود للقيام عليه ويجب ان تعلم يقيناً ان أرشيلاوس ماطمع براحيل الا لنكايتي والا فما هو بحاجة الى هذه الابنة وفي اليهودية ألوف من العذارى أجمل منها

وماكاد يصل شاوول الى هذا المقام من الحديث حتى اعترضه سامر بقوله اذا كنت تعتقد ان في اليهودية ألوفاً من العزارى اللواتي يفقن

راحيل جمالاً فلماذا تكلفنا ان نركب هذا المركب الخشن الذي أقل ما فيه التعرض لمستقبل راحيل وتعريض أنفسنا وامتنا الى الأهانة الاحتقار في نظر الرومانيين وعدا هذا وذاك ان راحيل متسلطة على قلب ارشيلاوس وكثيراً ما خدمت اليهودية بهذه السلطة فاذا افترضنا ان ارشيلاوس رجع ملكا على اسرائيل بالرغم عن كل مساعينا ضده فهو سيعود ناقماً علينا وسنحتاج يوماً الى مثل راحيل لتلين قلبه القاسي ضدنا فدع ياصاح عنك أوهام الغرام واعرض عن هذه الترهات ولك في بنات حواء ألوفاً ممن تصباها وتصباك ولله العوض عن كل فارط

وكانت كلمات سامر كلها حكمة وفلسفة لولا ان هؤلاء الشبان قد ألفوا الفساد فصار لا يهنأ لهم بال من غير ان يرتكبوا المنكرات ويأتوا الموبقات وعلى هذا اعترض سامراً أحد الحضور وكانت ملامحه تدل على انغماسه في حمأة الرزالة والدناءة وقال كلا فان ارشيلاوس لا يعود الى اليهودية ولو ساعدته رومية وكان أغسطس خير نصير له ونحن اذا كان لا يهمنا أمر شاوول وهو واحد منا فلا نرضى ان تكون راحيل وهي جميلة في اسرائيل محظية هذا الرجل السافل الدني ارشيلاوس وعلى هذا فأنا أول من يتقدم للدخول في بيت ارشيلاوس واختطاف هذه الحسناء منه قال هذا ونهض فنهض الجميع وساروا الى حانة للخمر فشربوا حتى نصف الليل وقاموا سكارى وقد لعبت بأعطافهم بنت الحان يتقدمهم شاوول ذاك الذي كان في نشئته عضداً كبيراً ليهوذا وفتى شهماً يعول عليه عند الشدائد ولكن هو الحب يغير الاخلاق ويفسد الطباع وهي الفوضى تلقي

الغرور في صدور الرجال فيظنون أنفسهم من البسلة الابطال فيعوثون في البلاد فساداً

في تلك الليلة نفسها كان بيت ارشيلاوس مرسحاً تمثل فيه الفظائع فما انتصف الليل حتى كان في الباب هؤلاء الاشقياء مدججون بالاسلحة فكسروه وقتلوا حراسه ودخل شاوول مخدع راحيل فوجدها نائمة وما هي بنائمة لانها كانت في اضطراب وخوف وسمعاتان أنيناً وتكلم كلاماً متقطعاً لم يفهم منه غير لفظتي ارشيلاوس وشاوول فتقدم منها وكان النور الضعيف الذي في المكان قد أزادها مهابة وجلالاً وناداها باسمها راحيل راحيل فانتبهت مزعورة وقالت أفي يقظة أنا أم في منام قال بل أنت بين يدي حبيبك شاوول فاذا لم تسيري معي بسكون وهدو فمالك الا ضربة من هذا السيف القاطع واذ رأت وميض السيف يتلألأ في يمين شاوول والغضب مكلل وجهه صرخت صرخة دوى لها المكان وأغمي عليها فحملها على منكبيه وسار بها يتبعه اخوانه الاشقياء وما زالوا يجدون في ذلك الليل الدامس ويتناوبون حمل راحيل الى ان وصلوا بها دار شاوول فدخلوا بها البيت وهم طربون يتغنون ويهزجون وفي الصباح انتبهت راحيل لنفسها وأخذت تعول وتنوح فتهددها شاوول بالقتل ان لم ترض الهرب معه فارتضت مرغمة فسار بها الى خارج المدينة حيث أوغل ما بين الوهاد والجبال وكانا راكبين فرسين من كرام الخيل

ولما أصبح الصباح سمع الحاكم الروماني بهذه الجريمة وسار الى بيت ارشيلاوس حيث رأى كل من فيه بين قتيل أصبح في حكم العدم وجريح

لا يؤمل له شفاء وكان من جملة هؤلاء خادمة راحيل التي كانت تأن من جراحها واذ طلب منها ان تقص عليهم ما جرى في الليل أخبرتهم بكل ما كانت تعرفه غير انها لم تعرف واحداً من هؤلاء الاشقياء فاعتبر الحاكم الحادثة سياسية وانها موجهة من اليهود لنكاية ارشيلاوس وبتدبير راحيل نفسها التي ظن هربها عن رضىً ومال على اليهود فقتل منهم خلقاً كثيراً وزاعت الحادثة في أورشليم فكان لها دوي عظيم

وهكذا كان القائد الروماني يتعنت في ظلم اليهود مثل هذه الحوادث واضرابها كان قسم لهم الذل والعذاب ان لم يكن على أيدي الهيروديين فمن الرومانيين أنفسهم وكان مثلهم في انتمائهم الى الرومانيين مثل المستجير من الرمضاء بالنار

وبعد ان عاد ارشيلاوس من روميه صعب عليه هرب حبيبته والجريمة التي حدثت في بيته واجتهد كثيراً في البحث عنها وعن أولئك الاشقياء خاطفيها فلم يفز بما يشفي الغليل لان كانت الثورات مستفحلة والاحوال مضطربة وكانت عنايته التي صرفها في سبيل اعادة الراحة ضائعة سدى لان اليهود كانوا لا يقبلون بحكم ارشيلاوس ولا يهابونه ولا يخضعون لسلطته مهما شاموا من أنواع الجور والاعتساف

الفصل الثالث عشر

«حوادث شتى»

كان يوسف منسى زعيماً من زعماء اليهود بل كان المحامي الاكبر عنهم واول المساعدين لهم وكان شغله الشاغل تهدءة الاحوال واعادة الطانينة

للشعب غير ان الاحوال المضطربة كانت تؤثر عليه لانه كان كثير الاحساس يشعر بكل ما كان يصيب قومه من الاضطهاد والذل والسلب والقتل

وبعد ان مرت سنتان على عودته رومه تولته الاسقام واستولت عليه الامراض فمات مغموماً وفي نفسه حنين الى امته التي طالما اشتغل في سبيل نجاحها وترقيها وكان كل هذه المدة مقيماً عند ابنته ساره وصهره يهوذا الذين كانا يخدمانه خدمة صادقة نصوحة ويحترمانه احتراماً فائقاً يليق بفضله وطيب خلقه .

أما ساره فولدت ليهوذا ولدان دعت اكبرهما ابراهيم والثاني اسحق وكانا جميلين كامها وشجاعين كابيهما لانهما كانا على حداثتهما يظهران بأشرف المظاهر المبهجة وبعد عام ونصف العام من موت أبيها ولدت ابنة دعتها رفقه وكان ذلك في السنة الخامسة من مولد يسوع والرابعة لموت هيرودس الكبير

وفي كل هذه المدة لم يحدث لساره ويهوذا ما يستحق التسطير والتدوين الا قليل ماذكرناعن هذا الشجاع الذي تلطفت اخلاقه بمعاشرة عمه يوسف منسى وصار يريد ان يتمهل في اعماله تمهلاً ويأخذ الامر بالتؤدة شأن ذوي العقول الراجحة .

وكانت ساره في كل فرصة ترسل الاموال الى راحيل في انطاكية وتطمأن عليها من التحارير التي كانت ترد منها مع حجاج اليهود الذين كانوا يفدون من انطاكية في كثير من الاوقات والذي كانت تعرفه ساره عن راحيل انها كانت هناك في راحة وسكينة ولا يعرف حقيقة أمرها واحد من الانطاكيين حتى ولا من اليهود وقد طلبتها ساره الى اورشليم بعد موت

هيرودس فابت الحضور خوفاً من حدوث مالم يكن بالحسبان لانها كانت البقية الباقية من سلالة الملوك المكابيين المطالبين بالملك

وفي السنة السادسة لمولد المسيح صدر امر اغسطس قيصر باكتتاب اليهود فقام هؤلاء بزعامة يهوذا يداً واحدة ضد ارشيلاوس فجرد هذا عليهم حملة من جنده عملت برقابهم حد السيف فمات منهم العدد العديد وكان من جملة القتلى يهوذا نفسه وكثيرون من زعماء الثورة ولم يرجع ارشيلاوس عنهم قبل ان تقرر لديه ان لم يبق في اليهودية من يستطيع الثورة وبعد هذا جرى الاكتتاب واصبحت اليهودية رومانية محضاً ومن هذا التاريخ لم يقف لساره ولاولادها على أثر فظن البعض أنهم قتلوا وظن آخرون غير ذلك ومع الزمان تنوسي أمرهم من أورشليم ولم يهتم بهم واحد من اليهود الذين كانوا يعرفون مقادير يوسف منسى ويهوذا ويحترمون ساره ويكرمونها لطيب خلالها وكريم أخلاقها وكان الانسان منذ الازل كنوداً

غير ان ارشيلاوس كان يجاهر في كل المدة التي سبقت هذا الحادث بكراهة يهوذا وعائلته لانه كان يحسبهم جرثومة تلك الفوضى التي كانت عامة في اليهودية وجاهر أكثر من مرة بعدائه لهم وكان يقول ان لا بد له من الانتقام منهم انتقاماً فظيعاً فلا عجب اذا كان هو العامل على محو أثرهم من الوجود كما علمت

أما شاوول فلم يعلم به أحد من وقتما فر بحبيبته راحيل كانه استغنى بها عن كل مافي أورشليم من عوامل الوطنية أو كانه خاف على نفسه وعلى حبيبته من غضب ارشيلاوس فرضي بالغنيمة والهرب أو لعل له من

واعذار مالم نقف عليه حتى الآن أما رفاق شاوول الذين عملوا ماعملوا فلمثذ اكراماً له وحباً بالشر نفسه فلا نعلم ماالذي جرى لهم أيضاً فانهم هم أيضاً غابوا وانمحت آثارهم وهكذا استقرّ الحال في تلك الديار للرومانيين وكان ارشيلاوس يحكم البلاد تحت السيطرة الرومانية وما كان يهمه بالاكثر الا أمران أولهما ان يرضي اغسطس في خدماته ليسميه ملكاً وثانيهما ان يبحث عن راحيل وعن خاطفيها للانتقام منها ومنهم وهذا كان شغله الشاغل ووجهته التي يسعى اليها

وقد عرف قراء روايتنا فتاة اسرائيل رجلاً يدعى يعقوب كان في خدمة يوسف منسى وهو الذي سافر مع راحيل الى اورشليم للاستنجاد بيهوذا يوم قبض الوالي الروماني على ساره لتضحيتها بالنيل الخ ما كان من هذه القصة وهو من ذلك العهد اتبع خطوات سيده يوسف وسيدته ساره وأقام في خدمتها وهو الذي أوصل راحيل الى انطاكيه يوم فرّت من وجه هيرودس الكبير وبقي يعقوب خادماً أميناً لساره وزوجها الى يوم نكبتهما الاخيرة حيث بقي يدافع عن هذه المسكينة الى ان أصيب بضربة سيف في صدره كادت تكون القاضية لولا رحمة من الله تكتنفه وتحفظ حياته . وذلك انه بعد ما وقع على الارض مغشياً عليه التهى المهاجمون بسبي ساره واستلاب أولادها فنهبوا كل ما في البيت من غير ان يلتفت أحد الى هذا المسكين المضرج بدمائه الذي بقي على حالته المحزنة الى ان سخر الله له عجوزاً دخلت البيت صدفة للالتجاء به من صدمات الجنود الرومانيين

الذين كانوا يتموجون في حارات اليهود تموج الامواج وكانوا يؤذون كل من يمرون به في طريقهم بلا شفقة ولا رحمة . ولقد تأثرت هذه العجوز لحالة يعقوب فدنت منه وضمدت جراحه بلفائف كانت من بقايا ما تركه الثوار في ذلك البيت المنهوب وحنن الله قلبها عليه فاقامت تلك الليلة في خدمته تحت جناح الليل الدامس وكانت تارة تسقيه الماء وطوراً كانت تفك الربائط فتغسل موضع الجرح ثم تعود فتربطها وما زالت هكذا والجريح مغمى عليه الى ان لاح نور الصباح فانتبه يعقوب من اغمائه وقال أين هي ؟؟

فسألت العجوز ومن هي التي تسأل عنها

قال سيدتي ساره

قالت لم أر في هذا المكان انساناً اذ التجأت اليه لانجو من تعديات الجنود الرومانيين سواك وقد عثرت بك جريحاً فسهرت عليك

قال اذا أخذوها . وااسفاه . وأخذ يبكي وينتحب فبكت العجوز لبكائه وقالت له ان النواح لايجديك نفعاً بل يزيدك نحولا وضعفاً ويزيد في استنزاف دمك من جرحك فصبر نفسك ريثما تقوى على القيام ثم تعود فتبحث عنها جهد الطاقة

فرأى يعقوب ان من الحكمة الاصغاء الى ما تقول العجوز فشكرها بكلمات متمتمة ثم عاد الى اغمائه وعادت العجوز الى العناية به

واذ بلغت الشمس الضحى خرجت العجوز الى المدينة فرأت الفوضى مستحكمة فيها فتعوذت بإله اسرائيل غير ان الجوع اضطرها الى المسير

فسارت وجلة الى بيتها الذي كان يبعد عن ذلك البيت مسافة ليست بقصيرة وهناك تناولت شيئاً من الطعام سدت به جوعها واستحضرت معها قليلاً من اللبن لجريحها الذي عزمت ان لا تتركه قبل ان تتركه الحمى ويضمد جرحه وسرعان ما عادت فسمعت الجريح يأن ويشكو ويردد كلمات متقطعة لم تفهم منها سوى . ساره . ابراهيم . اسحق . رفقه . فظنت انه يطلب اجداده ويستمد منهم المعونة وبقيت العجوز في خدمة يعقوب بضع أيام الى ان اشتد وقوي على القيام فسألته عن أمره وما جرى له فقال :

. لما قام اليهود لمناوأة ارشيلاوس ليمنعوه عن اجراء الاكتتاب الذي أمر به اغسطس قيصر بزعامة سيدي يهوذا أمرني سيدي ان أبقى بحراسة سيدتي ساره وأولادها فلم نشعر الا وقائد من القوّاد الرومانيين هجم علينا بشرذمة من جنده فكسروا الباب ودخلوا علينا طالبين ساره وأولادها فخافت المسكينة وبكت وتقدمت أنا لمانعتهم وما زلت أدافع عن ساره الى ان انطرحت جريحاً وما عدت أعلم أين هي ولا أين هم أولادها واني منذ الساعة سأجهد في التفتيش عليهم الى ان يجمعني الزمان بهم أو أموت غير مأسوف عليّ بعد أسيادي . وليت شعري ما جرى لسيدي يهوذا يا ترى قال هذا وأخذ يبكي ثم اذ سكن روعه وقال لابد انه قد قتل ولا شك

وكانت العجوز عالمة بأن الجنود الرومانيين لم يبقوا على واحد من الثائرين وان قد قتل أيضاً يهوذا فشاركت يعقوب في بكائه وقصت عليه كل ما كانت تعرفه من هذا القبيل ووعدته بالمساعدة في التفتيش عن ساره وأولادها

الفصل الرابع عشر

« سارق ساره »

خرج يعقوب الى المدينة متجسساً متلصصاً ليفتش عن ساره وأولادها فما كان يترك انساناً الا ويسأله عما يعرفه عن حوادث الواقعة الاخيرة ومضى عليه بضع أيام وهو في أورشليم يسأل ويفتش على غير جدوى حتى انه رأى نشوفاً من اكثر الذين كانوا يترددون على يهوذا ويتزلفون اليه في حياته وكان اكثر هؤلاء يظهرون الشماتة لما حل به وبعياله ولما أعياه الطلب في بيوت اليهود افترض ان ساره لابدَّ ان تكون أسيرة أحد القوّاد الرومانيين وقد تجسم في نظره ذلك الافتراض اذ استرجع الى مخيلته الحوادث القديمة وقال في نفسه لا بد من علاقة بين سبي ساره اليوم وحوادثها الاولى في الاسكندرية وما كان سابيها ليطمع بها ولكنه يريد ان يقدم خدمة الى حبيبها الاول انطونيوس الذي بلغ مقاماً عالياً في بلاط قيصر الروماني باقترانه بابنة القائد العظيم للمملكة الرومانية اغريبا واذ قرب عنده هذا الفكر من الحقيقة مال الى الدنو من الثكنات العسكرية والتقرب من الجنود على أمل ان يفوز بنبأ شاف عن ساره وأولادها ولا حاجة ان نقول انه سمع بمقتل يهوذا مع الالوف الذين قتلوا معهم غير ان جزعه على سيدته المسبية أنساه الجزع على سيده وهو ينشدها في كل مكان وبما فوق الامكان

وكان يعقوب يعرف اللغة اليونانية لانه من يهود القطر المصري

الذين كان اكثرهم يحسنون هذه اللغة وكان الجند الروماني النازل في اورشليم يحسن هذه اللغة لانه كان من أبناء سوريا وحتى تنطلي الحيلة على الجند تزيى يعقوب بزي السوريين واختلط بالجند اختلاطاً يمكنه من الوصول الى بغيته وصار كل يوم يصاحب منهم خليلاً جديداً واذا ما اصطحب واحداً حدثه على هواه وجاء معه الى النقطة التي يرى انه يسر معه في البحث عنها . وكان يحسن المسكر في نظر السكير والزندقة عند الزنديق وهكذا حتى أحبه الجند وصاروا يعدونه واحدا منهم وكانوا يظنونه سوريا بحتاً من أهالي صور أو عكاء أو غيرها من عواصم تلك البلاد

وبينما كان في ذات يوم في حلقة من الجند في خمارة يشربون ويطربون لعبت الخمرة في رأس واحد منهم فقال اني وحق الالهة لمندهش من هؤلاء اليهود وكيف انهم يصبرون على الضيم وأكثر عجبي من انهم يرضخون للقوة رضوخ ذوي النفوس الصغيرة كان الموقعة الاخيرة جعلتهم أذلاء بحيث ماعدنا نسمع لهم صوتاً وأظنهم يستكنون الى هذه العبودية الى ماشاء الله

ولم يكد ينهي الجندي كلامه حتى تحمس رفيق له وقال الا اني رأيت فيهم رجالاً أبطالاً اشداء اذ كانوا يقاتلوننا بصبر وجلد ونفس لاتهاب الموت ولاسيما يهوذا عميدهم وزعيمهم فانه لم يقع على الارض قتيلاً قبل ان جندل اكثر من خمسين بطلاً من رجالنا الاشداء

ولما سمع يعقوب ذكر مقتل يهوذا واعجاب الجند في شجاعته أجهشت عيناه بالبكاء بحيث كاد ينفضح سره لولا ان أصحابنا سكارى لا

يمون على ما حولهم

وكان ذكر يهوذا لم يكن خافياً على الجنود فقال واحد آخر اني حضرت له موقعة غير هذه وشهدت منه شجاعة نادرة وأقداماً غريباً على المكاره فأحببته وقد يحب الشجاع الشجاع ولو كانا من الاعداء الالداء

وقال رابع ان هذا المسكين لو علم ماهو مخبوء لهولامرأته وأولاده في عالم الغيب لفضل ان يهجر أورشليم الى حيث تتم له ولعياله الراحة والهناء من هذا البلاء ووالله لاذكر ساعة سرنا مع القائد كراتس الى بيته فنهبناه وبعد ذلك علمنا ان غاية القائد سبي امرأته لاسلب مقتنياته و.....

ولم يكد ينتهي الى هذه الكلمة حتى بادره رفيق له بضربة على فمه وقال له أو لم يوصنا القائد بكتم سر المرأة والاولاد وانا اذا فضحناه موتاً نموت وخاف ان يكون قد انتبه الى هذه الكلمات واحد من الحاضرين فقال بعد ان أجال نظره فيهم جميعاً ان موقعة ذلك اليوم كانت هائلة الى حد يكثر معه الهذيان . فضحك الجميع وربما قد أضحكهم السكر وأضحك بعضهم أمر الا يعقوب الذي كان بينهم فانه بعد ان فتح عينيه وأذنيه ليتلقى كلمات الجندي لعله يقف منها على حقيقة عن مقر سيدته وأولادها خاب فأله فامتعض ولكنه أضمر في نفسه بالصباح ان يتأثر خطوات ذلك الجندي ويوطد معه دعائم الصداقة الى ان يبوح له بكل ما يعرفه عن ساره وأولادها التعساء

وما صدق ان أرفض الاجتماع حتى سار الى مثواه قلقاً مضطرباً على سيدته وفرحاً بوصوله الى من يكشف له السر عن مقرها فلم تذق عيناه

طعم الكرى ولما أصبح الصباح سار الى مقام صديقه الجندي واذ رآه أخذ يقص عليه من نوادر القصص وملح الاحاديث ما جمله ان يركن اليه وهكذا سار معه من محل الى آخر وهو يجامله ويلاطفه الى ان أنس به الجندي وصاداه وركن اليه وبقي على هذه الحالة بضع أيام الى ذات يوم حيث دعاه للخروج خارج المدينة في منتزه جميل كان يقصده كل من في أورشليم للنزهة وهناك كان أعد الكاس والطاس وأخذ يملأ الاقداح من الراح حتى سكر الجندي ففاتحه حينئذ بأمر تلك الموقعة وساربه بالحديث الى بيت يهوذا فقال الجندي « قسماً بالالهة اننا ظلمناها . أي نعم ظلمنا تلك التعيسة التي دخلنا عليها بقيادة قائد المئة كراتس فقتلنا خادماً لها أميناً وسلبنا كل مافي البيت وسقنا تلك الحسناء وأولادها الى حيث أوصلناهم لدار القائد واني منذ ذلك اليوم وأنا مضطرب البال أتوقع لهذه المسكينة وأولادها الاهوال »

قال يعقوب لا تضطرب ياصاح على هذه اليهودية فيكفي انها امرأة ذلك الاثيم يهوذا الذي أقلق روميه كل هذه السنوات وأزعج آل هيرودس بما أقام من الثورات

قال الجندي أخطأت وجوبتير ابي الالهة فان يهوذا كان يدافع عن أمته وعن بلاده دفاعاً محموداً مشكوراً وانا نعد كل من مات في سبيل المدافعة عن امته وبلاده سيداً كبيراً خطيراً غير اني أرى في سبي هذه المسكينة سراً عميقا لان كراتس لم يطمع بجمالها ولا هو صاب الى وجهها الزاهر وقدها المياس

واذ قال يعقوب هذا صمت قليلاً اذ استعاد في مخيلته ما أملاه عليه الجندي وعرف ان الذي اختطف ساره هو كراتس قائد المئة وان في ذلك سرًا ولم يرد ان يكثر من الاسئلة في هذا الموضوع حتى لا يرتاب الجندي في أمره وتقرر لديه ان ساره في بيت في كراتس وبعد ما عرف هذا احتال ان ترك الجندي بالتي هي أحسن وعاد للحال عند تلك العجوز ليستعين بها على نجاة ساره من قبضة ذلك الروماني الذي كان مشهورًا بصلابة قلبه وقد رأينا ان العجوز قد وعدته بالمساعدة والاسعاف في ما يؤل الى نجاة سيدته شفقة عليها بعد ما سمعت عنها كل تلك الخلال الرضية والسجايا الحسان

الفصل الخامس عشر

« مساعي العجوز »

كانت تلك العجوز الشمطاء قد عرفت يعقوب بيتها وسألته ان يزورها حينًا بعد حين وان لا يبخل عليها في كل ما يرجو من مساعدتها واسعافها ولذلك لم تستغرب دخوله عليها واذ رأته ضاحكاً عرفت ان عنده خبرًا مسرًا وابتدرته بقولها ما وراءك يا عصام

قال قد عرفت مقر سارة ولكن لا أعرف كيف نقدر ان نصل اليها أو ان نستخلصها من قبضة هذا الروماني الغشوم

قالت ومن هو ؟؟؟

قال ان كراتس قائد المئة الروماني هو سابي ساره وهي في بيته على ما فهمت

قالت العجوز وممن بلغك ذلك ؟؟

قال من أحد الجنود بعد ان صاحبته وسكرته

قالت اني أشك بهذه الرواية وبصدق راويها لاني اكثر الناس معرفة بكراتس وكثيراً مادخلت بيته وعرفت منطويات صدره وهو يمثل الرجل الشريف بين أهله وعلى هذا فارجح اذا كان كراتس هو المعتدي على ساره والقابض على زمامها ان ذلك كان منه عن أمر خارجي لمسألة هي السياسة أو لعل لذلك أمراً خفياً ربما وقفت عليه من بيت كراتس نفسه ومن نفس امرأته المجملة بانواع الكمالات

قال وهل تسعفيني بهذا المرتجى

قالت لا أتأخر اكراماً لك أو اكراماً لتلك التعيسة التي حدثتني الشيء الكثير عن اخلاقها الرضية وسجاياها الحسان

قال ومتى تذهبين لدار القائد

قالت في صباح الغد وتأتي أنت فى الظهر لتسمع الجواب الشافي ان شاء الله

وانصرف يعقوب من عند العجوز ونفسه تحدثه بنوال المرغوب وقلبه يكاد يرقص طرباً لولا ان يطرأ على افكاره ما يزيد في بلباله وهو ان كانت ساره عند كراتس او غيره من امثاله من القواد الرومانيين فكيف

يقوى مثله على انتشالها من قبضتهم وتكفي فكرة كهذه لتحول صفو يعقوب المذكور الى كدر وتجعل بشره ترحاً

اما العجوز فقد حنن الله قلبها فرقت لمصاب ساره في زوجها وتصورت ما يعاني مثلها من آلام الحزن وهي مع اولادها اسيرة في ايدي قوم اغراب عنها في الجنس والدين واللغة عدا نكبتها في زوجها اذا كانت سمعت بموته وفي مثل هذا قضت ليلها مفكرة بامر ذهابها في الغد الى كراتس وخطر لها ان تستعين بامرأة هذا القائد لنجاة التعيسة ساره واولادها البؤساء

وما اصبح صباح اليوم التالي واشرقت الشمس باشعتها الزاهرة على اورشليم المقدسة وملأ نورها البيوت حتى اسرعت العجوز فائتزرت بمئزر وتأبطت عصى كانت تتوكأ عليها وسارت ووجهتها دار القائد كراتس وكانت وهي تمشي في طريقها منشغلة الفكر تحرك حاجبيها تارة وطوراً كانت تحرك جبهتها المتجعدة دليلاً على انها في شغل مستمر شاغل وناهيك بشواغل العجائز وما فيها من الوساوس

وما زالت تجد في مسيرها في طرقات اورشليم الضيقة الى ان انتهت الى بيت فخيم هو بيت ذلك القائد فدخلته من غير ما كلام لان خدمة ذلك البيت يعرفونها لكثرة ترددها عليه وسارت راساً لحجرة السيدة التي استقبلتها حسب عادتها بكل بشاشة وترحاب واخذت تمازحها على سابق عادتها وتسمع من حوادثها الخرافات المضحكة واستطرأت العجوز في حوادثها الى ذكر الثورة الاخيرة وماحدث على اثرها من المغارم والمظالم وسفك الدماء فاظهرت مادلين قرينة كراتس اسفها على احوال اليهودية وقالت ان لي عشرين عاماً في بلاد

الشرق اتجول في المستعمرات الرومانية فلم ار شعباً صعب المراس كثير القلاقل والاضطرابات كشعب اليهود كأن هذه الامة خلقت للقلق والاضطراب او كأن دينها يعلمها ذلك لاننا نسمع ان دين اليهود يعلمهم احتقار غيرهم من الامم ويحذر عليهم الخضوع لحكامهم اذا كانوا على غير دينهم

فلما سمعت العجوز كلمات مادلين اطرقت الى الارض اطراق من يستعيد هذه الكلمات المؤثرة التي يسمعها وأرادت ان تحتج على كلمات تلك السيدة الشريفة فقالت اذا كان هذا مبلغ علم الرومانيين بدين اليهود فلا عجب اذا شددوا النكير عليهم واساءوا معاملتهم فان الشريعة اليهودية هي شريعة حق وهدى ومصدرها الاله الذي خلق الكائنات بقدرته واذا كان في امتنا ماترونه من احتقار الغير فذلك لا اصل له في التوارة التي هي كتابنا المقدس وعليه المعول وغاية ماهنالك بعض فصول وضعت للسياسة لا للدين وهي تصف شرف اليهود وعظمتهم وانهم الشعب المختار الذي اصطفاه الله سبحانه لعبادته دون العالمين غير ان هذه الفصول التي وضعت لتذكير هذا الشعب المختار بواجباته بمقدار شرفه وعناية الله فيه قد حولها بعض العلماء المتعصبين الى مبدأ كبر وعجرفة وصلف وصاروا يبثون في صدور العامة مبدأ احتقار الغريب لانه لا يدين بدينه ليس الا . اما ماترونه من القلق والاضطراب في اليهودية فمصدره ايضا هذه العظمة الكاذبة وذاك الجبروت المضحك فان الاحفاد لا يحق لهم الافتخار بالاجداد الا اذا حققوا انتسابهم اليهم بمحاسن الاعمال ومفاخر الافعال اما وحالة اليهود على ماترى فقد صدق فيهم قول الشاعر العربي وانشدت بلسان الحال

يفاخرون بأجداد لهم سلفوا نعم الجدود ولكن بئسما الخلف

فلما سمعت مادلين كلمات العجوز دهشت لفصاحتها مع انها كانت تعدها جاهلة مخرفة وقالت انك ياصلحه من المتحمسات لقومك وما كنت أعهدك قبل اليوم كذلك فنعما غيرتك هذه ولكن لاتنسي ان اعمال اليهود قد جلبت عليهم الشدائد وحملتهم من المصائب والاهوال مالا مزيد معه لمستزيد الا ان يصدر أمر قيصر بمذبحة تجري الدماء فيها أنهاراً غير اني لا أرى وجهاً لهذه المظاهرات التي شرّها واقع وخيرها معدوم الا الجهل المتأصل في النفوس واني رأيت حتى من نساء اليهود شدة وصلابة لم أعهدها في كثير من ابطال الرجال

فاغتنمت العجوز فرصة هذه الحادثة وقالت املك تشيرين الى ساره امرأة يهوذا الذي قبض عليها الرومانيون بعد مقتل زوجها فان هذه السيدة من فرائد بنات موسى الاسرائيليات اللواتي اشتهرن بالذكاء والحزم وحسن العزيمة على ما ميزها الله به من الجمال المفرط قالت هذا وهي تتوقع من السيدة مادلين جواباً تقف منه على ماحلَّ في تلك المرأة التعيسة

أما مادلين فلما سمعت باسم يهوذا وامرأته تحولت الى غضب وحدة مع انها كانت تحادث العجوز بهدو وسكون وقالت ان يهوذا قتل بأثمه ودمه على رأسه لانه كان رأساً لهؤلاء اللصوص الخونة الذين طالما عبثوا بالراحة وأقلقوا خاطر الحكومة واستبدوا في البلاد والعباد أما ساره فقد قبض عليها لتقر عما تعرفه عن اصحاب زوجها واشياعه لتستأصل الحكومة جرثومة الفساد من البلاد على حد قول القائل

لاتقطعن ذنب الافعى وترسلها ان كنت شهماً فالحق رأسها الذنبا

فلم يكن منها الا ان جاهرت بالعداء لارشيلاوس وانكرت معرفة كل شيء وتطاولت على المقامات العالية بالطعن والتنديد فاعتبرتها الحكومة مجرمة وحكم عليها بالاعدام

قالت العجوز وقد ظهرت عليها مظاهر الجزع والبغتة وهل اعدمت ساره امرأة يهوذا وفتاة اسرائيل وهل ماتت بحد السيف

قالت لم تعدم ولا اظنهم يعدمونها ولكن جهلت كل ما جرى لها بعد ذلك واذ سألت زوجي عنها طلب مني ان لا اعود الى ذكرها وحذرني من مكاشفة أحد بأمرها وأنا ما قلت لك الذي قلته الا تحت ذيل الستر والكتمان وعلى زعم انك منا وفينا

قالت العجوز وما جرى لاولادها

قالت لا اعلم وما قدرت ان اعلم وكل غضبي على ساره هو لانها لم تتلطف بحديثها ولم تراع مصلحة أولادها واأسفاه قالت هذا وكان ابنها امامها وهو لا يتجاوز العشرين شهراً فجذبته اليها وقبلته وبكت فبكت العجوز لبكائها بكاءً مراً ثم كفكفت دموعها واستأذنت وانصرفت قافلة الى بيتها لاتعي على شيء لانها رأت في امر ساره سراً عميقاً لا تقوى مداركها الواسعة على ادراكه والوقوف على كنهه ولما وصلت البيت رأت يعقوب امام الباب فبادرها بالسؤال عما علمت فقالت اتبعني لاقص عليك كل ما كان فاتبعها حيث علم منها كل شيء وللحال خطر له ان لحادث ساره هذا علاقة كبرى بحادث الاسكندرية واقرَّ على اتباع البحث والتفتيش

الى ان يعلم مكان ساره فينجيها أو يقف على رفاتها اذا كانت قتلت فيستنزف دموعه على ضريح ضم تلك الفتاة التعيسة فتاة اسرائيل

الفصل السادس عشر

« شاوول وراحيل »

وكان يعقوب مداوم السعي في التفتيش على ساره مواصلاً ليله بنهاره لعله يقف لها على أثر واذ أعيته الحيل ولم ير من يستنجد به في اورشليم خطر له ان يفتش على واحد من اصدقاء سيده يهوذا فكان أول من ذكره شاوول فقال الاولى ان ابحث عن هذا الداهية اولاً ثم أرى رأيه في التفتيش عن سيدتي غير انه ما كان يعرف له مقراً بل كان لا يعلم ان كان في قيد الحياة أو هو ايضاً عدت عليه العوادي فأصبح في جملة القتلى في تلك الموقعة السوداء فرأى نفسه ايضاً اعجز من ان يقف على خبر لشاوول فضاقت الدنيا في وجهه واظلم نورها امام عينيه فصغرت نفسه فجلس على عارض الطريق يبكي وينتحب ولا يعرف له وجهة ينتحيها واذ طال مكوثه أخذ يردد على مخيلته الحوادث التي مرت عليه من يوم سار في موكب ساره في مصر الى اليوم الذي اضاعها فذكر انهم لما دخلوا اورشليم للمرة الاولى وكان شاوول معهم وجدوا فتاة ناعسة الطرف مياسة القوام فتركهم شاوول وانصرف اليها وقالوا يومئذ ان شاوول يهوى هذه الفتاة وانها ناصرية فقال لعل شاوول

اليوم منزوياً في الناصرة بقرب حبيبته ثم ضحك فجأة وقال في نفسه لنفسه ما اسخف عقلك يا يعقوب اذ تعول في الحصول على شاوول على حادث حدث عرضاً منذ ست سنوات ونيف ثم قال وما ضرني يا ترى لو سافرت الى الناصره لعل في سفري اليها فرجاً وبادر لساعته فاستأجر حماراً الى مدينة الناصرة على ان يسير مع القافلة في صباح اليوم التالي لان القوافل كانت لا تنقطع في كل يوم عن البلدان المجاورة لاورشليم لكثرة قصاد هـذه المدينة المقدسة على رغم المخاطر التي كانت في الطريق

وبات يعقوب ليلته في هجس واضطراب وكانت احلامه مزعجة مقلقة وفي الصباح كان صاحبنا يعقوب على ظهر حماره مع قافلة كان فيها عـدد من الناس بين عجزة ونساء وغلمان وكان الركب سائرون ومن في الركب في هلع وجزع لان ذاع وشاع وقتئذ ان زمرة من الاشقياء في منتصف الطريق تتعرض لكل مارفتنهبه وكثيراً ما اعتدت على بعضهم فقتلتهم وقد اكبر الناس امر هذه العصابة وحسبوها ذات حول وطول وقوة وتقدمت الحكومة لردعها وايقافها عند حدها فجردت في وجهها حملة من الجند فاعتصمت بالجبال ولم تقو عليها الجنود فاستفحل امرها. هذا كل ما كان معروفاً عن هـذه العصابة التي هال امرها من في اورشليم وضواحيها وكل المقاطعة التي كان ارشيلاوس والياً عليها

غير ان صاحبنا يعقوب لم يكن مهتما بامر هـذه العصابة وهو على الطريق بل ربما خطر له ان يستعين بهؤلاء اللصوص على معرفة مكان ساره

لو انه عرف واحدا منهم ومع ذلك قال في نفسه فانسر على خيرة الله الى ان يقضي الله امراً كان مفعولا

وبينما هم في الطريق كان يعقوب يرى المكاريه فاقدي كل شجاعة وبسالة حتى انهم كلما تبينوا شبحاً خالوه لصاً فتحفزوا للقائه اوهموا الى اسلحتهم ليدافعوا بها عن انفسهم وعما معهم من الركاب والاحمال وكانت حركاتهم هذه تلقي الجزع بصدور الشجعان فما رأيك بهؤلاء الذين لا يعرفون معنى للشجاعة ولم يتعودوا ملقى الطعان

وكان يعقوب اراد ان يتشاغل عن هواجسه اوان مخيلته فتقت له ان يستنجد بهؤلاء اللصوص اذا عرفهم وكانوا من اخوانه فنادى واحدا من المكاريه وقال له من هؤلاء الذين تخافونهم

قال انهم لصوص يقطعون الطريق على السابلة وقلما ننجو من تعدياتهم

قال وهل هم من عرب البادية ام من اهل صور وصيدا المعروفين بالبسالة والشجاعة

قال لا من هؤلاء ولا من هؤلاء وان هم الا من اليهود وعلى ما اظن من دعاة الثورة قال وهل هم من اجل طويل في هذا العمل القبيح

قال صار لهم نيف واربع سنوات

قال وهل عرفت واحدا منهم

قال كلا لانهم يهجمون علينا ملثمين غير اني سمعت ان زعيمهم يدعى شاوول وان شاوول هذا خطف محظية الامير ارشيلاوس واعتصم في هذا

المقام بشرذمة من اخوانه الاشرار فلم تقوالجنود الرومانية عليه ولم يسلم من شره أحد

ولما سمع يعقوب كلمات المكاري سرّى الله عنه ما كان يفكر فيه وحسب ان سفره ميموناً لانه عرف مقام شاوول وهو يتطلبه ويسعى اليه ثم خاف ان تمر القافلة من غير ان يرى واحداً من هؤلاء اللصوص ولا سبيل الى الوصول اليهم من غير ان يقابل واحداً منهم فقال المكاري أو يمكن يا صاح ان نمر من هذا الطريق ولا نرى واحداً من هؤلاء اللصوص

قال وهذا ما نرجوه فقد نمر ولا يعترضنا أحد

فقال يعقوب وهل مكمن اللصوص يبعد عن هذا المكان الذي نحن فيه

قال بل دنونا منه واذا قطعنا سفح هذا الجبل بأمان فاعلم ان اله اسرائيل قد سلمنا من شر هذه العصابة ولم يستوف المكاري كلماته هذه حتى رأى أشباحاً على قمة الجبل فقال ليعقوب أنظر فهم قادمون قال هذا ونبه من في الركب من المكاريه وتقدموا جميعاً أمام الركب وقد استعدوا للقتال فتقدم يعقوب وقال لهم ماذا تريدون ان تفعلوا

قالوا اننا نريد أن نقاتلهم الى ان ننجو من شرهم أو يقضي الله بما يريد فيفتكون بناوينهبون اموالنا

قال خففوا عنكم فانا أكفيكم شرهؤلاء الجماعات بل أنا أقابلهم بنفسي وارد كيدهم في نحورهم

فضحك المكارية من كلمات يعقوب وحسبوه يهذي وقالوا لهومن تكون انت لتمنع عنا الخطر المحدق بنا مع ان هؤلاء الابطال قد اعجزوا جنود الحكومة وبسلة الرجال

فضحك يعقوب لضحكهم وقال انكم والله لصغار النفوس فقد قلت لكم اني اكفيكم شر هؤلاء اللصوص فتجوزوا الطريق آمنين سالمين قال هذا وسار بحماره في طريق الجبل القادم منه اللصوص واخذ المكارية ينادونه ويقولون له لاتغرر بنفسك فانك مقتول لا محالة واسرع صاحب الحمار فمسك بمقود حماره وقال اذا كنت في غنى عن حياتك فانا في حاجة الى حماري فاما ان تعود الى الركب وتحتمي بنا فنسلم جميعاً او نموت جميعاً واما ان تترك الحمار وتسير بنفسك الى ملقى الموت العاجل والقضاء المبرم . فنزل يعقوب عن الحمار وأخذ يتسلق الجبل ماشياً بعد ان اخرج منديلا من جيبه وصار يلوح بها الى اللصوص

اما اللصوص فاذا رأوا الرجل يسعى اليهم عرفوا انه يريدهم في امر لانه لم تكن عليه لوائح من يريد الشرّ فاسرعوا بخيولهم اليه الى ان ادركوه وهو بعد في اول الجبل فلم يعرفوه وهو ايضاً لم يتمكن من معرفتهم ونادوا به قائلين الى اين سائر ياعم

قال اليكم يا اخوان اسرائيل فاني اطلب شاوول بمهمة

قالوا ومن هو شاوول الذي تطلبه

قال صديق سيدي يهوذا الغولونيتي

قالوا وهل نجا يهوذا من تلك المذبحة الهائلة التي مات فيها الالوف

من الاسرائليين

قال كلا لم ينج بل انه مات قتيلا

قالوا فاذا كان الرجل قد مات فما حاجتك بشاوول هل تطلبه لاخذ الثار

قال كلا بل اطلبه لامر اهم من ذلك وبينما كان يعقوب يتكلم كان اللصوص يتفرسون فيه فعرفه احدهم وقال له وهل انت يعقوب المصري الذي قدم بخدمة ساره من الاسكندرية

قال اى واله اسرائيل انا هو

قال وامرحباً فيك ومد يده الى يعقوب واركبه على جواده وعادوا به الى رئيسهم شاوول غنيمة باردة

اما القافلة فسارت بامان واطمئنان اذ رأت اللصوص قدعادوا بيعقوب وظن الركاب ان اللصوص أخذوا يعقوب اسيراً غير ان واحداً منهم قال بل هو لص نظيرهم وربما كان منهم وقد نزل الى أورشليم بمهمة ثم عاد ادراجه اليهم

اما اللصوص فما زالوا يسيرون بيعقوب من جبل الى جبل الى ان انتهوا الى جبل عظيم قلما طرقته الاقدام فعلوه بصعوبة واذ انتهوا الى قمته قابلهم شاوول وهو يقول ما الذي اعادكم الينا بهذه السرعة فهل من خطر مفاجيء اوغنم قريب

قالوا كلا بل ان هذا الرجل طلب ان نوصله اليك ولعلك تعرفه واذ تفرس فيه شاوول عرفه وناداه قائلا اي يعقوب ما الذي

حملك الينا

قال الشر الذي نحن فيه

قال ومثل ماذا هذا الشر

قال ان صديقك يهوذا قد مات مع كثيرين من روساء الثورة في المذبحة الاخيرة وسطا الرومانيون على بيت سيدي فسبوا ساره واسروا اولادها وجئتك استنجد فيك بعد ان اعيتني الحيل واخذ يقص عليه كلما جرى لسيدته واولادها فتأثر شاوول واضطرب وقال وما الذي يمكن لي ان أعمله وانا عاص على الحكومة وعليّ من الجرائم ماتوسلمت نفسي لقتلوني بغير شفقه ولا رحمة قال هذا واخذ يبكي وينوح بكاء الثكلى على صديق حميم كان يحبه ويحترمه وعلى فتاة اسرائيل التي رافقها من مصر الى اورشليم وعرف اخلاقها الرضية وسجاياها الحسان ثم سار يعقوب الى كهف كان هناك مقاما لشاوول ورفاقه اللصوص فرأى في ذلك الكهف من انواع المسلوبات الشيء الكثير ثم راى امراة حسناء قائمة في خدمة الجماعة بكل نشاط فعرف انها هى راحيل التي حدثوه عنها وبعد ان استراح قليلا احضر امامهم ماتهيأ من الطعام فا كلوا هنيئاً وشربوا مريئاً

الفصل السابع عشر

حديث راحيل

ثم خرج اللصوص مع شاول وبقي يعقوب في الكهف وكان خروجهم لامر لم يعرفه هذا فتقدمت راحيل من يعقوب وقالت له سمعت من حديثك انك كنت خادماً ليهوذا وامرأته فهل لك ان تحدثني عما جرى بعد اسري في هذا المكان القفر وتركي اورشليم

قال احدثك عن كلما تساليني عنه

فقالت وكيف حال اليهود في اورشليم

قال في ذل عميم ولا سيما بعد الواقعة الاخيرة وقد قتل الرومانيون الخلق الكثير بحيث لم يبق في اليهودية من ينزع الى الثورة بعد الان

قالت وهل عاد ارشيلاوس الى اورشليم ملكا ذا سلطان

قال بل عاد والياً على اليهودية تحت رقابة الرومانيين

قالت وهل عرفت شيئاً عن قصتي

قال عرفت انك كنت محظية لارشيلاوس ثم اغتنم شاوول فرصة الثورة في اورشليم وتغيب ارشيلاوس عنها فاختطفك وفرّ بك ويقولون ان ما اصاب اليهود من الشر كان لهذا السبب لان ارشيلاوس حسب ان هربك كان برضاك وان اليهود خطفوك نكاية به

فبكت راحيل بكاء مراً وشرعت تقص على يعقوب كل ماجرى لها وانها من ذلك اليوم سكنت ذلك الكهف وقد اصبحت محظية شاوول وخادمة كل اولئك اللصوص

فرق يعقوب لحالها وبكى لها وقال انك تعيسة ياراحيل فاصبري ان الله يحب الصابرين

وبعد ان سكن روع راحيل وانست يعقوب وسكنت اليه قالت له لقدقرأت على محياك سيماء الشهامة والمروءة فهل لي ان اسرّ اليك مافي نفسي

قال قولي ما تشائين وانا اعدك بالمساعدة على قدر الطاقة

قالت لقد سئمت هذه المعيشة في هذا الخلاء وصرت اود ان اموت فاتخلص من حياتي او انجو من هذا الاسر الاليم ولكن ليس لي من مسعف على الخلاص غيرك فهل لك ان تساعدني على الفرار

قال ان الفرار عسير والنجاة بك من شر هؤلاء الاشرار من المستحيل غيراني اظن ان شاوول لابد له من النزول الى اورشليم لتخليص ساره من اسر الرومانيين فيكون فى هذا فرج لك ولها ان شاء الله

فتبسمت راحيل وقالت هيهات ثم هيهات ان ينزل شاوول الى أورشليم ثم هب انه نزل بجماعته لمقاومة الرومانيين ونجاة ساره من شرهم فانه يبقيني ولاشك مع واحد من اتباعه في هذا المكان

قال اذًا ما الرأي عندك

قالت اني ارى رأياً آخر اذا عرضته على شاوول يكون فيه الخير لي ولك

قال وماهو ؟؟

قالت ان تطلب منه ان يرسلني لاورشليم لاعود الى ارشيلاوس موقتاً الى ان أتمكن من تخليص ساره وانا اعده اني اعود اليه

قال وهل يرضى شاوول بذلك وانت محظيته وقد ترك العالم بما فيه

لاجلك وهو يغار عليك حتى من أبيك وامك

قالت لعله يرضى (لعل وعسى) لاني عرفته محباً ليهوذا غيوراً عليه وهو لا يفتر عن ذكره وذكر ساره امرأته في كل مساء وصباح

قال اني ابدي له هذا الرأي ولعلي اتوفق اليه

قالت ولكن احذر ان تبوح له اني انا التي طلبت منك ذلك مخافة ان يغضب عليّ ويكون غضبه لزيادة تعاستي

قال اني عاهدتك على الكتمان وسأقوم بعهدي كما يجب غير اني اراك تخاطري بنفسك في نزولك الى اورشليم وذهابك لدار ارشيلاوس حيث ارجح انه يقتلك لا محالة

قالت اني اعرف كل هذا ولولا اني في يأس من الحياة بل اني ارى الموت اعذب من هذا العذاب لما عرضت نفسي الى التهلكة ومع ذلك فأني سأحتال ان اعيش بعد هذه المخاطرة وعلى كل حال فأني مأيوسة وكل شيء عندي اهون من هذه المعيشة السوداء

وبعدان اتت على كلماتها هذه اخذت تبكي وتندب وبكى يعقوب لبكائها بدموع الغمام

الفصل الثامن عشر

مؤامرة اللصوص

سار شاوول برفاقه الى منبع ماء عذب على مرمى حجر من ذلك الكهف وبعدان جلسوا الاربعاء قال شاوول لرفاقه يا اخوة صار لنا اربع سنوات ونحن في هذه الفلوات نرتكب الموبقات وقد تركنا اليهودية في احرج اوقاتها ثم بلغنا من حوادث ارشيلاوس واستبداده ما تحرج له الصدور فاين الشهامة والمروءة اذا سكتنا عن هذا الاثيم اللئيم ابن هيرودس

وقد بلغنا اليوم أن يهوذا قد مات قتيلا ويهوذا كلكم تعرفونه انه الرجل الوحيد الذي ضحى حياته في سبيل اليهودية ولم يكتف ارشيلاوس بقتله وقتل الالوف من اخواننا الابرياء حتى ارسل من سبي امرأته وأسر اولاده ولعل ذلك كان منه جزاء لسبينا حبيبته راحيل مع انكم تعلمون ان راحيل هذه هي حبيبتي وهو الذي سلبها مني والآن لا بد لنا من الانتقام من هذا الطاغية والعمل على قتله لاراحة اليهودية من شره فهل توافقوني على ذلك

قال الجميع ان قتل الرجل سهل علينا غير اننا اذا قتلناه ربما لا تسلم ساره من القتل فالاولى ان نسعى لنجاتها ثم نعمل على قتل ارشيلاوس

قال شاوول وكيف الوصول الى ذلك ؟؟

فقال واحد من الحاضرين ان المطالب كؤود وان نجاة ساره من أسر ارشيلاوس لا يكون الا بالتؤدة والدهاء والصبر على المكاره صبر الكرام

قال شاوول وهل لك ان تفصل هذا الاجمال

قال ان تذهب راحيل الى ارشيلاوس باكية نادبة وانها كانت مأسورة حتى اذا قويت على استمالته ساعدتنا على نجاة ساره أولاً وعلى قتل ارشيلاوس ثانياً

فاعترضه شاب كان في جانبه وقال وهل يمكن لراحيل ان تذهب الى ارشيلاوس وتسلم من شره وغدره وعدا ذلك فهل يسمح شاوول بحبيبته لنجاة ساره من الاسر ان هذا الا من الاوهام ثم وما الذي بوسع راحيل ان تعمله عند ارشيلاوس وهي كما نعلم جميعنا قد فارقته هرباً وخلفت بفواده من الآلام ما لا يزيله كرور الايام وفضلاً عن ذلك فهو اليوم حاقد على اليهود لما ناله منهم من النصب والاحتقار فلا اشك انه فاعل في اليهودية ما هو قادر على فعله من القتل والظلم وضروب الاستبداد

اما الحاضرون فخالفوه بما ارتأى وسفهوا رأيه وقالوا اذا ذهبت راحيل على ما نعلم بها من الدهاء الى ارشيلاوس لا بد ان تقوى عليه وتستميله لنجاة ساره أولاً ثم تساعدنا لنفتك به ونخلص اليهودية من شره بما تهيئه لنا من ضروب الحيلة التي لم تكن لتخطر لنا على بال فاتركوا المسألة لراحيل لتنجح في نجاة ساره وأولادها وفي الخلاص من هذا العيش القلق المضطرب

وبينما كانوا يتحادثون في هذا كان شاوول يضرب عصى في يده بالارض وهو يفكر فيما يسمع ولا ينبث ببنت شفة ثم سأله واحد من أعوانه وما الرأي عندك ياشاوول ؟؟؟

قال ليس عندي من رأي سديد في هذا الشان فأنا لا أفرط براحيل

عن رضى ولا يهون عليَّ ان تبقى ساره في أسرها مع أولادها تعاني من ضروب الظلم والاستبداد مالا تقوى عليه واني اذا فكرت في أمرها وأنا أعلم ما هي عليه من عزة النفس لا كاد أسقط في يدي فاني وحقكم اخال روح يهوذا صديقي مرفرفة حولي تسألني باسم المروءة والشهامة والانسانية ان أنجدها بتخليص ساره وأتمثل ساره أمامي تستنجد بي وتسألني باسم اله اسرائيل انتشالها من أيدي هؤلاء الاشرار فهلا ترون واسطة غير هذه لنجاة ساره ولو بسفك دمي

فأجابه الجميع بصوت واحد ان ليس في الامكان نجاة ساره من شر ما هي فيه الا براحيل فراحيل وحدها تقوى اذا حازت نعمة في عيني ارشيلاوس على نجاة تلك المنكودة الطالع

قال واذا هلكت راحيل

قالوا يكون ذلك بحكم القضاء فمن منا أمين على مستقبله وما أدراك ان ارشيلاوس لا يجرد اليوم أو غدا حملة من جنده علينا فنهلك جميعاً

وان لم يكن من الموت بد   فمن العجز ان تموت جبانا

قال اذاً نعرض عليها الامر لترى رأيها فيه . وهكذا عادوا جميعاً الى الكهف حيث رأوا يعقوب نائماً نوماً عميقاً وهو يغط غطيطاً . وكانت راحيل تهيء طعام المساء ولوائح الهم والغم بادية على وجهها

وبعد ان جلسوا قليلا نبهوا يعقوب فانتبه ومسح عينيه بيديه وجلس بحضرتهم وهو مبلبل الفكر مضطرب الخاطر فسأله شاوول بعض الاسئلة عن اليهودية واستعاد منه قصة مقتل يهوذا وكيفية سبي ساره وأخيراً

سأله عما يراه في هذا الامر

فقال اني لا أعرف كيف يمكن لنا نجاة ساره لان المطلب أصعب مما يظن وقد خطر لي ما أخاله مستحيلاً ولا أجرأ على التفوه به

قال شاوول وممثل ماذا هذا الخاطر الذي تتردد في ايضاحه

قال ان تذهب راحيل الى ارشيلاوس فتعيننا بواسطته على نجاة ساره

فنظر كل واحد من اللصوص الى رفيقه وهم مندهشون من اتفاق الخواطر على نجاة ساره بواسطة راحيل ثم وجهوا اسماعهم الى شاوول فاذا يسأل يعقوب قائلا : وهل ساره عند ارشيلاوس ؟؟؟

قال كلا بل هي عند القائد الروماني كراتس على ما علمت

قال فما دخل ارشيلاوس في الامر

قال ان راحيل وليس سواها تقدر ولا شك على حمل ارشيلاوس على تحرير ساره من الرق ولا أقدر على قلوب الرجال الا ذوات الجمال والدلال والطرف الفتاك القتال ولعمري ان نظرة من نظرات راحيل تصمي فؤاد ارشيلاوس وتجعله خاضعاً لاوامرها كيف تشاء

قال حسناً ونحن قد افتكرنا الساعة في هذا وغداً ان شاء الله ننزل براحيل الى أورشليم فتذهب لدار ارشيلاوس وتعيننا على نجاة هذه السيدة المسكينة وفي الحال دعا راحيل اليه فحضرت فأخبرها بما عول عليه من ارسالها لدار ارشيلاوس وطلب منها ان تحتال على حمله على العفو عن ساره فتمنعت أولا وأظهرت المخاوف من ذهابها الى بيت الامير ثم قالت ولكن أنزل الى أورشليم ولو كان في ذلك هلاكي وهكذا لبثوا ليلتهم مع راحيل

يتداولون فيما يجب ان تفعل هذه في حضرة ارشيلاوس الى ان تستميله اليها ليس فقط على نجاة ساره واولادها بل لتعينهم على الفتك به

وفي صباح اليوم التالي نهضوا باكراً جداً وارسلوا راحيل مع يعقوب وذهب معهما اثنان من اللصوص في طريق أورشليم فوصلوا عند الظهر الى سفح الجبل القريب من أورشليم وهناك ترك اللصان يعقوب وراحيل وعادا ادراجهما ودخلت راحيل المدينة بعد ان صرفت يعقوب وطلبت منه ان يرسل العجوز لبيت ارشيلاوس بعد يومين من دخولها لتخبره بكل ما يكون من أمرها اذا بقيت سليمة ولم تمت فودعها يعقوب وسار راساً الى دار عجوزه ينبئها عما كان وكان الوقت عند الغروب

الفصل التاسع عشر

« مقابلة راحيل لارشيلاوس »

لم تنس راحيل الدار التي تسيدت عليها مدة سنة ونيف فذهبت اليها توّا وكان الظلام قد أسدل جناحه على مدينة أورشليم ولما وصلت البيت دخلته فاعترضها الخدم ولم يعرفها واحد منهم لانهم كلهم لم يكونوا على زمانها فسألتهم مقابلة الامير فأمروها بالانتظار ودخل واحد منهم على ارشيلاوس ينبئه بوجود سيدة تطلب المثول بين يديه

وكان ارشيلاوس مغرماً براحيل حتى انه كان يفكر بأمرها في كل صباح ومساء وقد أبى ان يتعزى عن فراقها بالرغم عن كثرة محظياته

اللواتي كن يتسابقن لمرضاته ويتهالكن في سبيل نسيانه هواه وما كان يشدد النكير على اليهود الا انتقاماً منهم لفقد راحيل وطالما بث الجواسيس ليعلم لها مقرًا فيطلبها فيه فخاب فأله وكان في كل مساء يخلي بنفسه فيترك مشاغل أمارته ويعطي النفس هواها فيذكر راحيل ويبكي حتى يكاد يشرق بدموعه ويغرق في بحار أحزانه

ولما دخل عليه حاجبه يسأله الاذن بمقابلة السيدة الواقفة على الباب قال دعني منها فليس هنا مجلس القضاء ودار الولاية فلعلها مظلومة تطلب الانصاف ولا عدل على وجه البسيطة قال هذا وعاد الى ماهو فيه من البحران فاكرًا حزينا

فخرج الحاجب وأبلغ راحيل ان الامير لا يأذن بمقابلة أحد في بيته وقال لها ان كان لها شكوى من ضيم فلتذهب في الغد الى دار الولاية وتشكو اليه أمرها

فتبسمت راحيل تبسم المأيوس وقالت كلا ياسيدي فلست أشكو مظلمة وما أتيت بمصلحة ولكني رسول من قبل راحيل لمولاي الامير لابلغه انها هنا

فلما سمع الحاجب اسم راحيل انبسطت أسارير وجهه وقال لها وهل راحيل في أورشليم ولماذا لم تحضر معك

قالت لاتسألني عن راحيل بل اخبر مولاك بما سمعت فتركها الحاجب وعاد الى مولاه وهو يكاد يرقص طربًا ليعلمه ان هذه البشرى تسر سيده ولما دخل على الامير قال ان المرأة يامولاي رسول من طرف

راحيل فهل اصرفها الى الغد أو تأمر بمقابلتها

ولما سمع ارشيلاوس كلمات حاجبه انتصب وقال اهي رسول راحيل ويلك دعها تدخل قال هذا وسبق حاجبه اليها وتمسك بتلابيب اثوابها وهو يحسبها الرسول وعاد بها الى حجرته وهو يقول أين راحيل ؟؟ أين راحيل ؟؟ فاني اكاد اهلك شوقاً اليها فلما سمعت راحيل كلمات الامير بغتت وتلعثم لسانها ووقعت بين يديه مغشياً عليها أما ارشيلاوس فبهت لهذه المفاجأة وتفرس بها فاذا هي راحيل وقد عرفها من خال على احدى وجنتيها ولكنه قرأ على محياها اساطير الشقاء والعناء فضمها الى صدره وأخذ يبكي وينتحب وتتساقط دموعه على وجهها الوضاح واذ أحست بدموعه الحتانة انتبهت وقالت ارحمني يامولاي فقال ارشيلاوس بل أنت ارحميني يا آسرة الفؤاد فقد أثر عليَّ بعادك أسوأ تأثير وبعد ان لاطف ارشيلاوس حبيبته وتحبب اليها الى ان انتعشت قواها و كانت كل ذلك الوقت تبكي وتنتحب قالت له أو ما تسألني عما كان من امري يامولاي

قال كلا لا أريد ان أسألك لاني اتوهم ان لك يد في هذا الهرب الذي كاد يهلكني أما والآن وقد عدت اليَّ فغاية ما أتمناه ان تبقي عندي وتعديني بالبقاء على حبي و كفى قال هذا وضمها الى صدره وقبلها قبلات ملؤها الحب والحنان

فسجدت راحيل امام الامير وقالت قسماً بالله اله اسرائيل لم أهرب من هذا البيت عن رضى بل سبيت سبياً واني لم أتمكن من الرجوع اليك الا بعناية من السماء واما وقد قبلتني على الرحب وأنا كنت أفكر انك

ناقم عليَّ وانك تفتك بي لا محالة ومع ذلك أتيت اليك بنفسي حتى اذا مت فليكن موتي بين يديك واكون اذ ذاك سعيدة

فقال ارشيلاوس معاذ الله ان أمدد لك يداً بشر ولكن أريد ان لا يكون بعد اليوم شيء مما كان قال هذا ونظر اليها نظرة المحب المرتاب والعاشق المفتون

قالت وهلا تريد ان تسمع حكايتي

قال بل اتركيها الى وقت آخر حيث تكونى قد استرحت من وعثاء السفر الشاق الظاهر علائمه على وجهك الزاهر قال هذا وصفق بيديه فدخل حاجبه فقال له خذ هذه السيدة الى مخدعها الذي خرجت منه ولم يدخله أحد بعدها فاندهش الحاجب من أمر مولاه وقال هل تأمر ان أذهب بها الى حجرة راحيل قال بلى أو ما عرفتها فانها هي راحيل وليس سواها ويلك اذهب بها في الحال

فسار الحاجب مندهشاً وتبعته راحيل وهي مضطربة فمرت في فناء بيت قضت فيه الليالي والايام الى ان انتهت الى حجرتها فذهب الحاجب وفي أخف من لمح البصر وعاد وبيده مفتاح كاد يأكله الصدى ففتح الباب ودخلت راحيل حجرتها فاذا كل شيء كما كان ليلة سبيها فسجدت لله الذي أعادها الى مقرها ثم نهضت واخذت تنفض الغبار عن الوسائد والمراتب فقال لها الحاجب هل تأمرين ان استدعي لك خادمة تعينك في هذه الخدمة المتعبة ياسيدة الحسان

قالت لا بل أريد ان أبقى هنا لوحدي فتركها وانصرف الى سيده

وهو يكاد يطير فرحاً لعود السرور لقلب مولاه

ولما عاد الحاجب الى مقره الاول وجد مولاه واقفاً مسرورا على باب حجرته فابتدره بالحديث قائلا هل دخلت حجرتها بسرور

قال بلى وسجدت مصلية لله ثم بعد ذلك أخذت تنفض الغبار وتهيء لها فراشاً للنوم فسألتها ان كانت ترغب ان استدعي لها خادمة تعينها فأبت فتركتها وانصرفت

قال حسناً عملت ثم انثنى الامير لحجرته وهو لا يكاد يصدق بعود راحيل اليه

وما بزغت غزالة اليوم التالي حتى دخل ارشيلاوس على راحيل فانتبهت لدخوله وخفت لملتقاه فجلس بجانبها وأخذ يتحبب اليها ويذكر لها ما قاساه من الجوى لبعدها ثم قال لها وكيف رضيت نفسك ان تتركيني كل هذه المدة يامالكة الفؤاد

فبكت راحيل وأنت وقالت ان الرياح تجري على غير ارادة السفن وان بعض الظلمة انقضوا ليلتئذ على بيت الامير فقتلوا من قتلوا وسبوني وما زلت في الاسر حتى قدر الله لي الفرج فعدت الى رحابك فاقض بما انت قاض وأنا لك وأمري اليك

قال معاذ الله ان اقضي عليك بغير المسرة والهناء وما هو بوابك الا لنكايتي على ما اظن ووالله لانتقم من سابيك ولو كان ما فوق السماكين قال هذا وقد غلا الدم في عروقه وتورد الى وجهه فزاده بهاء وجلالا

اما راحيل فلم يكن لديها غير البكاء فعادت الى العويل ثم قالت اواه

يامولاى ان ما قضيته من الاهوال والاوصاب ليعجز ان يعبر عنه لساني غير ان شاهد الخبر أفصح من شاهد الخبر فانظر الى نحولي وذلي واحكم بما ترى قالت هذا واما لت وجهها عن ارشيلاوس وعادت الى بكائها

فمال الامير اليها وضمها بين زراعيه وقال كفى يا آسرة القلوب عويلاً وبكاء فان عودك الي قد أنساني ماضي الكروب قال هذا وتركها وسار بعد ما ودعها أجمل وداع على ان يعود اليها عند الغروب

ولما خلا الجو لراحيل خاضت في بحار التأمل ذاكرة كل ما مر بها فلم تر في تاريخ ارشيلاوس معها الا كل خير واذ ذكرت شاوول ورفاقه وما لاقته منهم في هذه السنوات الاربعة من الضيم لم تر ما يشفع لهم عن سيئاتهم أقرت على ان تبوح للامير بحقيقة الحال فتنجو من شر هذا وأصحابه في المستقبل واذ قوي فيها هذا الفكر خطر لها ان اله اسرائيل قد سخرها للانتقام من هؤلاء الاشرار واراحة عباد الله من مساويهم وعلى هذا صممت ان تطلع الامير على ما كان من أمر هؤلاء اللصوص وتدله على مكمنهم ليقتص منهم ويجعلهم عبرة للعالمين

أما ارشيلاوس فلم تظهر على محياه أمائر المسرة والحبور غير في ذلك اليوم اذ كان يلاطف كل من يلقاه وينصف كل مظلوم اتاه ولم يصدق ان أمسى المساء حتى عاد الى بيته وقصد راحيل رأساً فاذا هي على غير الحالة التي تركها بها فرأى وجهها الوضاح قد عاد اليه بهاؤه الباهر وثغرها الزاهر قد عاد الى سابق حالته من الابتسام ولما جلس بجانبها أخذت تقص عليه

ما جرى لها كما كان حرفاً بحرف وكان ارشيلاوس يسمع ويتنهد ولما انتهت من حكايتها نهض الامير للحال فأمر حاجبه باستدعاء القائد كراتس ولم يمض شطر الساعة حتى كان القائد في دار الامير وفي حجرة راحيل واذ سمع من هذه كل ما يهمه سماعه نهض لساعته واصطحب عدداً كبيراً من بسلة جنده وساروا في طريق الجبل وما انتصف الليل حتى كانوا في مكمن أولئك اللصوص فباغتوهم مباغتة وهم نيام فقبضوا عليهم وكبلوهم بالقيود واستاقوهم رأساً الى الناصرة مخافة ان يحدث وجودهم في أورشليم شيئاً من الاضطراب في الخواطر

ولقد وصل كراتس باسراه في ضحى اليوم التالي الى مدينة الناصرة واذ دخلوا المدينة اتبعهم العدد العديد من غلمان الازقة بين متفرجين ومعتبرين وكان أكثرهم مصابين برزايا هاته الفيئة الشريرة التي طال استبدادها وكثر شرها وكان اللصوص يسمعون الشتائم والسباب بأذانهم بينما كانوا مارين في طريقهم الى السجن الذي أعد لهم ولامثالهم من الاشقياء «ولو دخل فيه بعض الابرياء في بعض الاحيان على سبيل الشذوذ أو من جملة دواعي الارتكاب الذي كان شائعاً في ذلك الزمان حيث كانت سلطة القانون في أيدي القضاة» وكان التعب قد أخذ مأخذه من أولئك المساقين مشياً على الاقدام والاغلال في أعناقهم وأيديهم وكان الظما قد نشف حلوقهم فتدلت ألسنتهم من أفواههم وكانوا يطلبون الماء وما من يرحمهم بشربة وما زالوا هكذا حتى وصلوا الى دكان نجار معروف في ذلك العهد بتقواه وقداسته هو صاحبنا يوسف وكان في دكانه غلام لا يتجاوز السادسة من أعوام عمره

قد وقف في الباب ليرى هؤلاء اللصوص مع من يرونهم ولما قربوا منه استجلبت انظارهم اليه بما يفيض على وجهه من نور البشاشة والدعة فوجهوا اليه أبصارهم قائلين ارحمنا أيها الغلام بنهلة ماء فتقدم الصبي اليهم بجرة كانت ملأتها أمه بالصباح من العين حسب عادتها في كل يوم وقدمها لهم واذ أراد الجند ان يمنعوا الاسرى من الاستقاء اعترضهم القائد قائلاً فليكن ما أراده هذا الصبي المحبوب وكان ذلك الصبي يسوع ابن مريم في دكان أبيه النجار وبعد ان سقاهم قال لهم ان الرحمة والحياة من الله اله اسرائيل

وبعد ذلك ساقوهم الى سجنهم وأمر القائد بأن تبقى القيود في أعناقهم وان يبالغ في التضييق عليهم الى ان يأخذ العدل مجراه فيهم

(الفصل العشرون)

« تغير القلوب »

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

لم يسالم الدهر راحيل كما خطر لها فان ارشيلاوس لم يلبث ان تغير عليها ومال عن حبها وذلك لاسباب منها كثرة ما وشي له عليها من المحظيات الاخرى اللواتي كدن يزبن غيظاً وحقداً ومنها ما أظهرته من السعي في سبيل نجاة ساره في وقت ما كان يجسر فيه من يتلفظ باسمها ومنها ما حكاه اللصوص في الناصرة عنها ونسبتهم الشر لها حيث خطر لهم انها هي التي وشت عليهم وهكذا لم يمض عامان على دخول راحيل الى بيت ارشيلاوس حتى

أصبحت مضطهدة في ذلك البيت ولما كان القلب الذي يحب لا يبغض كما يقولون لم يشأ الامير ان يفتك بها بل اكتفى ان طردها من بيته واشترط عليها ان لا تقيم في أورشليم فخرجت باكية نادبة سوء حظها من دار عزها وذهبت الى الجليل وقد تركت اسم راحيل وسمت نفسها «مريم» مبالغة في التكتم واذ أحست بالجوع واعتادت على العيش السفيه استسلمت الى أهوائها وملاذها ودخلت في عداد «بنات الهوى» وهكذا انغمست في حماة الرزائل وكان شفيعها الاكبر جمالها الفتان ودلالها الفتاك بالعقول والجيوب

اما يعقوب فانه كان أرسل لراحيل العجوز وما زال يشتغل في البحث عن ساره على غير جدوى حتى تضجر منه من في أورشليم من الامراء والحكام والاعيان فحسبوه من الساعين ضد السلطة الحاكمة وأخذوا يبثون عليه العيون والارصاد ويترصدون به الشر

أما اللصوص فقد شاع في أورشليم ان الحكومة زجت بعضهم في اعماق السجون والبعض الآخر اعملت في رقابهم حد السيف وما كان يجرأ أحد على السؤال عنهم ولذلك لم يعلم ما صارت اليه حالة شاوول زعيمهم غير انهم كانوا يظنون انه قد مات



الفصل الحادي والعشرون

﴿ يأس او جنون ﴾

اذا لم يكن غير الاسنة مركباً   فلا يسع المضطر الا ركوبها

وفي السنة العاشرة من موت هيرودس الكبير والثانية عشرة لمولد العذراء كان يعقوب قد يئس من الوقوف على خبر شاف عن ساره وأولادها ومن مضايقة أعوان ارشيلاوس ورجال الحكومة له فعزم ان يقتحم الاخطار وان يطلب من كراتس القائد الروماني ساره وأولادها مهما كانت نتيجة طلبه من الاهوال والذي زاد في يأسه هو موت العجوز تلك التي طالما كانت تعينه وتخفف من أحزانه بمساعيها وبجميل نصائحها بحيث كانت له كالام الحنون

وفي صباح يوم من ايام الربيع من تلك السنة بينما كان الهواء عليلاً والرياض تضحك على بكاء الامطار سار يعقوب الى دار القائد كراتس ودخل عليه بنفس لا تهاب الموت وبعد ان سلم عليه قال له لقد طفح الكيل أيها القائد ولم يعد في قوس الاصطبار منزع فاني فتى قد ربيت في دار السيدة التي سيتموها ظلماً وعدواناً ولم أعلم ما فعلتم بها واذ بلغ اليأس مني مبلغه أتيتك لاسالك ان كانت حية مع أولادها فأنشدهم ولو في أقاصي البلاد وان كانوا أمواتاً لا بكيهم بما يفتت قلب الجماد

فاندهش القائد من جراءة يعقوب وكان قد سمع بذكره من قبل فقابله ببرود وقال: وأنا معك لا أدري ما فعل الدهر بهم قال هذا وضحك

حتى كاد يستلقي على قفاه

فازداد يعقوب جراءة كما ازداد غيظاً من هزء الامير به وقال ان الشرف الروماني لايسمح لكم ان تسيئوا الى الابرياء فان كنتم قتلتم يهوذا في معركة دامية لتقرير سلطانكم على ماتزعمون فما ذنب ساره وأولادها لتذيقونهم من العذاب الوانا في ذلك الاسر الذي لم نعرف له سراً ؟؟؟ فاذا كنتم لاتتقون الهنا اما عندكم آلهة تتقونهم

وما كاد يعقوب ينتهي من كلامه حتى تقطب حاجبا الامير وتغيرت ملامحه وقال اخرج أيها النذل من هنا والا غمست سيفي بدمك وجعلتك عبرة للعالمين

ولما سمع يعقوب تهديد القائد ضاع منه الصواب ومدّ يده الى جنبه فاستل مدية كان أعدها لمثل هذا الموقف وضرب بها جنب القائد فأدماه فصرخ القائد صوتاً عظيماً تدكدكت له جنبات القصر وخرَّ على الارض مضرجاً بدمه أمايعقوب فلبث واقفاً أمام القتيل كالمبغوت لا يبدي حراكاً وفي يمينه تلك المدية والدم يقطر من جنباتها لتشهد عليه في شر ما فعل

ولما سمع صوت القائد من في القصر من الخدم والجنود هجموا على حجرة الامير فوجدوا ذلك المشهد المرعب فقبض بعضهم على القاتل وأخذ البعض يعتنون بالقائد ويضمدون جراحه وهكذا خرجوا بيعقوب وهم يضربونه بأيديهم وما وصلت اليه ايديهم من العصي وكادوا يفتكون به لولا اشارة من القائد الى المعتنين به حيث قال خذوا ذلك القاتل سليماً الى ارشيلاوس الوالي لتطلب العدالة منه دمي قال هذا لان أشراف

الرومانيين كانوا يعتقدون ان الاقتصاص من قتلة الامراء يجب ان يكون على يد الحكومة ليكون الاخذ بالثار معيداً للشرف فخرج واحد من أولئك الذين سمعوا كلمة القائد وطلب من خدمة الامير ان يسلموا القاتل الى الوالي سليماً فساروا به الى بيت الولاية وهو بين يدري ولا يدري وقد أثخنه سائقوه بالجراح

ولما دخلوا بيعقوب على ارشيلاوس وأبلغوه مافعل من الشر تذكر هذا الرجل وتردداه على راحيل وأمر للحال بسجنه وذهب بنفسه لعيادة القائد فوجده نائماً نوماً هادئاً واطمئن من أطبائه ان جرحه ليس بذي خطر وان شفاءه مضمون ومأمول وراجح وما زال ارشيلاوس عند القائد وهو خائف من مغبة هذا الحادث جزع من عواقبه الى ان انتبه القائد اليه فقال له أيها الوالي هل قاتلي بين يديك؟؟

قال نعم وفي ظلمات السجون

قال فليبق سجيناً الى ان اشفى فانظر في أمره وان مت فاقتلوه قال هذا وعاد الى ثباته

وبعد ثمانية أيام اندمل جرح القائد فكان أول عمل أتاه ان أتى دار الولاية واجتمع أعيان الحكومة برئاسة الوالي وكان بينهم كبار قواد الجند وشيوخ المدينة ولما تمت حلقتهم آمروا فأتي بالسجين وهو ضاحك مسرور فقال له كراتس : من أنت أيها الاثيم

قال أنا يعقوب خادم سيدتي ساره التي أسرتها أو أعدمتها الحياة

قال وما الذي دعاك الى التجرء على قتلي

قال الانتقام لمولاتي بعد ان أعيتني الحيل من نجاتها

قال ومن أنت لتجرأ على السعي وراء نجاة أسيرة رأت حكومة قيصر ان تقبض عليها وعلى أولادها وتقتص منهم

قال لانهم أبرياء وأنتم الظلمة

قال وما شأنك لتتجرأ علينا بهذا الكلام بل لتتجرأ على قتل أمراء البلاد وقوّاد الجيوش الرومانية

قال اني عملت ذلك بعد ان رأيت ان لاعدل على الارض وان الحياة مع الذل والظلم عاراً على الرجال

قال او ما تخشى سلطان الحكومة

قال ان كل سلطة لاعدل فيها لا تطيب المعيشة بظلها فأنا عملت ما عملت لأنتقم لمولاتي وبعد ذلك أموت فتجمعني وأسيادي ظلمة الابدية وحبذا لو كان ذلك في هذا اليوم بل في هذه الساعة

فضحك من في المجلس لجواب يعقوب وعلموا من انطلاق لسانه وثبات جنانه انه لايهاب الموت بل يسعى اليه بشوق فقال ارشيلاوس الوالي فليمت وقد حكمت عليه بالموت

فوقف القائد كراتس وقال كلا فان في الموت رحمة لهذا الاثيم بل فليحكم عليه برق المجذاف حيث يقضي عمره في العذاب والشقاء

وهكذا ختمت محاكمة يعقوب بالحكم عليه على ان يكون رفيق المجذاف طول عمره وسيق الى السجن حتى يرسل في الغد الى حيث يجذف في البحار في احدى المدرعات الرومانية

الفصل الثاني والعشرون

الرقيق المجذف

سر يعقوب لانهم حكموا عليه برق المجذاف دون الموت لا لخوفه من الموت وقد رأيناه مخاطراً بنفسه في تهجمه على كراتس من غير ما سبب بل لانه فكر ان في وسعه وهو في الرق الوصول الى روميه وايصال شكواه الى انطونيوس الذي عرفه قراء روايتنا فتاة اسرائيل انه حبيب ساره الاول هـذا هو الخاطر الوحيـد الذي سهل على يعقوب ملاقاة القصاص الاليم الصـارم الذي حكم عليه به والذي كان الاشقياء يفضلون الموت عليه

وبعد ان ساقوه الى السجن صدرت الاوامر بارساله الى صيدا ليضم الى مجذفي الاسطول الحربي الذي كان يتنقل مابين الثغور الفينيقيـة لخدمة المستعمرات الرومانية في سوريا وينقل الجند والحكام منها الى روميه وبالعكس بأمرة قائد شهير من القواد الرومانيين كان يدعى كايوس

وفي صباح اليوم التالي سار الجند بيعقوب وهو مكبل بالقيود الى يافا وما زالوا يسوقونه مشياً على الاقدام مدة ثلاثة أيام حتى وصلوا به الى صيدا وهو يكاد يهلك تعباً وهنالك سلموه الى حراسة الجنود الرومانيـة الى ان يصل الاسـطول الذي تعين في جملة مجذفيه فزجه حراسه في اعماق السجون وهو صابر على بلواه صبر الكرام

وبعد بضع أيام رسا الاسطول في مياه صيدا وكان القائد كايوس في مدرعة كبرى لم يعرف للرومانيين أعظم منها في سوريا وهي على اسم أغسطس وللحال بادر حاكم المدينة بارسال الاسير المجذف الى القائد مع الامر القاضي بأسره فنقله عدد من الجند من سجنه على فلك صغير من الخشب المدهون بالقار الى تلك المدرعة الراسية على بعد قليل من البر ولما انتهوا الى المدرعة ساروا رأساً الى غرفة القائد ولما دخلوها هال يعقوب كبرها وكان القائد على دكة في وسطها جالساً لرؤيا مصالحه فسلم الجند عليه وأعطاه أحدهم الامر ووقفوا ينتظرون امره اما القائد فتناول ذلك الرق المكتوب وفتحه وبعد ان اجال طرفه في تلك الاسطر اللاتينية قال لمقدم الجند اهذا هو الاسير؟؟ قال نعم . قال حسناً حلوا قيوده ودعوه وانصرفوا ورجع القائد الى عمله في مراجعة ما امامه من الرقوق المتضمنة نتائج الاعمال التي يجب عليه ان يعملها ويقوم بها ارضاء للقيصر وقياماً بواجباته

اما الجند فأسرعوا بحل قيود الاسير واخذوها وانصرفوا وبقي ذلك المسكين يتطلع الى تلك الحجرة التي كانت تتجاوز في طولها السبعين قدماً وعرضها يقرب من الثلاثين وكان لها ثلاث نوافذ عريضة اخذ ينظر منها الى البحر وامواجه التي كانت تتلاطم بعضها بالبعض ثم رأى في وسط الغرفة سارية المركب وعليها العدد العديد من الفؤوس والحراب والرماح والاقواس الى غير ذلك من أدوات الحرب ثم امال يعقوب بصره الى ما ورائه فرأى في مؤخرة المدرعة دكة مرتفعة وعليها رجل امامه ناقوس ومطرقة خشب فلم يعرف الغاية من جلوسه على تلك الدكة والحاجة الى الناقوس والمطرقة في البحر وبينما

يعقوب يتأمل فيما هنا وهناك كان القائد قد انهى عمله ونهض عن كرسيه الذي كان على تلك الدكة المرتفعة للاشراف على تجذيف المجذفين واخذ يميل ذات اليمين وذات الشمال اتباعاً لحركة المدرعة ثم نادى الرجل الذي كان امامه على الدكة وامامه الناقوس وقال له استلم هذا الاسير واعطه نمرة ٥٠ التي مات صاحبها بالامس فأحنى رئيس المجذفين راسه للقائد علامة الاحترام ومال الى يعقوب فأمره بنزع ثيابه وجاء له بمئزر ليستتر به عورته وامره بالذهاب الى المحل الذي اعدله وكان يعقوب يطيع امر رئيسه الجديد بصبر ولا قبل له على غير الطاعة وحينئذ علم ان تلك المطرقة وذلك الناقوس الذين كانا امام ذلك الرجل هما لحفظ نظام التجذيف ومن ذلك اليوم اصبح يعقوب بعداد الاموات لان ارقاء المجاذيف عند دخولهم البوارج كانوا كمن يدخلون القبور وهم احياء فلا يعود يعرف لهم اسم ولا يعود يجوز لواحد منهم ان يكلم رفيقه او ان يضحك او ان يأتي حركة ما غير حركة التجذيف وكانوا يشتغلون بالمناوبة الساعة بعد الساعة على توالي الليالي والايام الا حيث تقف الدارعة فيقفون عن العمل ريثما يأمرهم قائدهم بالمسير واذ رأى يعقوب ذلك تقطبت اسارير وجهه واضطربت اعصابه وعلم انه وقع في مصاب دونه الموت الاحمر وحدثته نفسه ان يلقي بنفسه الى اليم غير انه عاد عن عزمه وقال في نفسه كلا لا يجوز لي ان أموت قبل ان أعرف مقر ساره وأنجيها من مخالب آسريها وانه لفكر المستحيل أقرب منه منالاً

وبعد ان اشتغل يعقوب بعمله هذا الشاق يوماً وشطر اليوم شعر بتعب في يديه وعضلات كتفيه ما بعده من تعب وكان ينظر من هنا

وهناك فلا يرى من يرحمه أو يشفق عليه كما كان يرى رفاقه المجذفين و كانوا ستين مجذفاً من كل جهة من المدرعة كلهم يعملون عمله ولا ينبث أحدهم ببنت شفة فعلم حينئذ ان المصاب عام شامل وتأسى برفاقه الذين كانت تدل سحنهم على انهم اخلاط من أمم شتى وفيهم البريتوني والافريقي والغربي والقبلي والغالي والمصري والفينيقي والايتالياني والجرماني واليهودي ومنهم المجرمون ومنهم الاسرى وهكذا اذا عمت المظالم والمغارم هانت على المظلوم ظلامته والظلم في المساواة هو العدل بعينه

أما تلك المدرعة فكانت طويلة ضيقة مرتفعة قليلاً عن سطح الماء وكان شكلها يساعدها على سرعة السير وسهولة الحركة وكان في مقدمها تحت الماء جسم من خشب له اسنان من حديد لشق سفينة العدو على ما نرى في الدوارع الحديثة وكان يمتد من المقدم الى المؤخر « افريز » وتحته ثقوب متوازية لوضع المجاذيف فيها ولكل ثقب غطاء من جلد البقر وفيه سارية لنشر الشراع وكانوا يعتمدون في تسيير السفينة على المجاذيف لان السواري والشراع كانت وقتئذ على ابسط أنواعها وكانت المجاذيف منتظمة في حركتها كأنها وهي تقذف في البحر على كثرتها في يد رجل واحد لاعتماد المجذفين على نقرات الناقوس في حركات أيديهم وكانوا اذا أرادوا ايقاف الدارعة يرفع رئيس المجذفين يده فيبطل التجذيف واذا أرادوا تدوير الدارعة من جهة الى جهة جذف المجذفون الذين في الطرف الايمن الى الامام وجذف المجذفون في الطرف الايسر الى الوراء وهكذا في أقرب ما يمكن تدور الدارعة على نفسها حسبما يشاوون وكانت كل دارعة

من هـذه الدوارع تحمل عدداً من الجيوش البحرية بأسلحتهم اللامعة وخوذهم النحاسية وملابسهم الممتازة

الفصل الثالث والعشرون

واقعة بحرية

بقي صاحبنا يعقوب في الدارعة «أغسطس» يجذف مدة سنتين بغير ما كلل ولا ملل وكانت عـلائم الهم والغم بادية على وجهـه والنحول آخـذ مأخذه من جسمه الذي كان يتضاءل يوماً بعد يوم لكثرة ما يعانيـه من شاق العمل وهو في كل هذه المدة كان مثال الطاعة بحيث لم يعرف له ذنب ولم يسمع له صوت وكان فكره منشغلاً عند ساره لا يعرف أين هي ولا كيف يعمل لينجيها مما هي فيـه من الهم والغم وكانت الدارعة تسير في سواحل سوريا تارة والى رومية أخرى ثم لا تلبث ان تعود وبينما كانت الدارعة في خليج مسينم الذي سبق لنا وصـفه في روايتنا فتاة اسرائيـل وردت على القائد كايوس أوامر قيصر بالذهاب الى شمالي البحر الاسود للاقتصاص من القرصان الخرسونيس «القرم» الذين أقلقوا البحار في تعدياتهـم على مراكب التجارة التي كانت تسير في تلك البحار فتمامل القائد من هذه المأمورية الصعبة لما كان مشهور عن هؤلاء القرصان من الشجاعة والقوة وحسن الاستعداد في الابحار وأخذ من ساعته ان يستعد

بتفقد جنوده ومجذفي مدرعته والمدرعات الاخرى التي صدر لها الامر ان تكون في امرته وتحت قيادته

وفي صباح اليوم الثالث لوصول امر قيصر كانت الدارعة أغسطس مع عشر دوارع أخرى مبحرة في بحر ايونيا وكان البحر هادئاً والريح موافقة والجو صاف كأن الٓهة البحر راضية عن هذه الحملة التي غايتها قطع دابر اللصوص واعادة الامن الى تلك البحار لتسهيل الاتجار

وكان القائد في كل هذه المدة مسروراً من المجذف نمرة ٥٠ لنشاطه وهدوه وطاعته فخطر له في هذا اليوم وليس لديه ما يشتغل به من مصاعب القيادة البحرية ان يسأل عنه رئيس المجذفين وربما كان ذلك تضييعاً للوقت لان الحاجة الى اتعاب المجذفين كانت تجعل أفئدة القواد قاسية عليهم فلا يشعرون برحمة نحوهم وللحال دعا رئيس المجذفين اليه وقال له أتعرف شيئاً عن أحوال ذلك الرجل وأشار الى المقعد الذي عليه نمرة ٥٠

قال أو تريد صاحب نمرة ٥٠

قال بلى

فارسل الرئيس نظرة احتقار الى ذلك المجذف الذي كان دائب العمل بغير ما كلل وقال انه يهودي يامولاي

قال لقد أعجبتني طاعته وسرني حسن نشاطه

قال ولكنه يعمل واجباً لو تهاون عنه لناله القصاص الصارم على ماينال رفاقه

قال ولكنه منذ سنتين مصاحبنا ولم أسمع عنه شكوى

قال انك حاذق يا مولاي وحسن الحافظة فاني لم أذكر له هذه الفضيلة قبل الآن مع انها حرية بالنظر

قال وما الذي تراه في أخلاقه

قال انه مطيع وهادىء ولم يطلب مني في كل هذه المدة سوى طلب واحد ساعدته عليه

قال وما هو

قال طلب مني ان أنقله من جانب الى جانب

قال وهل ذكر سبباً لذلك

قال كان قد لاحظ ان الذين يجذفون دائماً على جانب واحد يصيبهم عيب الالتواء والاعوجاج وعدا ذلك فقد لاحظ ملحوظاً آخر

قال وما هو

قال انه ربما أضطر الرئيس ان ينقله من جانب الى آخر في زمن نوء واصطدام وما أشبه فاذا تعود العمل على الجانبين كان قادراً على القيام بأوامر رئيسه كما يجب

قال كلا الملحوظين في محلها ويجب علينا العمل بهما مع جميع المجذفين واني لاعجب بهؤلاء الفينيقيين وما لهم من الذكاء المفرط والانتباه العجيب حتى في عامتهم كهذا الرجل الخامل ولا شك

قال انه ليس بفينيقي يا مولاي بل هو يهودي

قال كلاهما من جنس واحد وتحت سماء واحدة قال القائد هذه الكلمات ونظر الى الارض مفكراً ويعلم الله ما جال في فكره حينئذ ثم نظر بعد قليل الى

الرئيس وقال له متى خلصت نوبة هذا الرجل ارسله اليّ لاني أريد مقابلته والتحدث معه

وكان المجذفون يجذفون بالمناوبة فيشتغلون ساعتين ويستريحون ساعتين وكانوا يستخدمون لتعيين الوقت الساعة الرملية التي كان في كل دارعة واحدة منها

وبعد مرور ساعة وشطر الساعة كان القائد كايوس واقفاً عند مؤخر الدارعة ينظر الى السماء الصافية الاديم والشمس التي مدت أشعتها على تلك المياه الزرقاء فأكسبتها لوناً كاللجين وكان الربان واقفاً بجانبه وممسكاً حبال الدفة بيديه وبعض النوتية كانوا نائمين في ظل الشراع وكان الرقيب على الدقل عند رأس السارية يراقب ما حول الدارعة وبعد ان أعيا القائد الوقوف مال ليرجع الى مركزه واذا بذلك المجذف قادم اليه والعرق يتصبب من جميع جسمه وبوصوله انحنى باحترام وقال ان الرئيس أرسلني لحضرة مولاي فهل من أمر يصدع به فأليه

فنظر كايوس الى يعقوب وتفرس فيه جيداً فلم ير على وجهه ما يظهر غالباً على وجوه رفاقه المجذفين من دلائل الشكوى او الحنق او الغيظ أو الوعيد او التهديد بل رآه ساكناً هادئاً صابراً وقد ارتسمت على محياه امائر الحزن والغم ولهذا كلمه الروماني بحنو وشفقة قائلاً ان الرئيس مدحك امامي كما أنا لاحظت ذلك من حسن سيرك

قال يعقوب ان الرئيس صاحب معروف وانت رجل كريم

قال الشغل شاق وقلما يتمكن احد من احتماله سنة واحدة بغير ان

ان تتضعضع قواه وتضعف عزائمه ويقع في الاوجاع والامراض والاسقام اذا لم يمت أما أنت فبحمد الآلهة لم تزل بصحة جيدة ولا بد لذلك من سبب غرب عني فهل تعرف ما هو

فتبسم يعقوب المسكين تبسم من رأى الفرج بعد الضيق والذل اذ وجد أميره يحادثه باهجة محب مشفق بعد ان تعود على ان يرى من العنفوان الروماني ما يكسر قلب كل أسير نظيره لا يعرف غير رق المجذاف وقال بانفة ووداعة معاً ان ديننا يا مولاي يعيننا على احتمال الشدائد حتى اني وأنا أشتغل بكل جهد لم أزل أؤمل بمجيء من يخلصني وقومي من هذه الاهانات وعدا هذا وذاك فاني وأنا في هذا الضيق الشديد أسلي نفسي بذكر أيوب ومصائبه فأتعزى عن جميع ما أعانيه من المصائب والآلام وكثيراً ما أترنم بزبور سيدنا داوود الملك ولا سيما في تلك الفصول التي نظمها في أوقات محنته فلا أشعر بيأس وقنوط والآن كما تراني أحمد الهي وأسأله الفرج

وبينما كان يورد يعقوب الاسباب التي قوت نفسه على احتمال هذه التجربة فحفظت قواه سليمة كان القائد كايوس يعجب به وبما قاله وكان ينظر اليه وهو في غاية الاندهاش ثم بعد ذلك بقليل قال : ومن هذا الذي تنتظرون مجيئه وهل أنبأكم عن هذا السحرة والمنجمون

قال كلا يا مولاي اننا لا نصغى الى أقوال السحرة والمنجمين بل عندنا الانبياء وهم جماعة من الصلحاء ظهروا بأوقات متباينة وأنبؤنا عن

مجيء هذا الذي ننتظره ليملك علينا ويرفع شأن أمتنا ويعيد سلطاننا الينا

قال وهل تعرفون وقتاً معيناً لمجيء هذا الرجل ؟؟؟ وقد لاحت على محيا كايوس لوائح السخرية والازدراء

قال نعم ان وقت مجيئه قد حان بل قرب لان سقوط الملك من يهوذا هو الدليل الاوفى على مجيء مخلصنا كما ان الاوقات التي ضربت في أقوال الانبياء قد انقضت ولا بد ان يكون قد ولد ما سيا كما شاع منذ أربعة عشر عاماً

وقال وما الذي شاع في ذلك العهد

قال ان عذراء من بنات اسرائيل قد حبلت وهي بكر عذراء وولدت وهي عذراء أيضاً وعندنا ان المخلص يولد من بكر وهكذا تم لنا الذي نرجوه غير ان بعضاً من علمائنا وشيوخنا لا يريدون ان يصدقوا نبأ مولد العذراء مخافة ان يأتي السيد فيضرب على أيديهم ويقلص ظل كبريائهم وسلطتهم الجائرة واني لاخاف أيضاً من شيء آخر

قال وعلى م تخاف

قال أخاف ان يكون هيرودس الكبير قد قتل ذلك المولود مع من قتل من أطفال بيت لحم

قال وما الذي دعاه الى اتيان هذه المظلمة الكبرى والجريمة الشنعاء

قال المجوس يامولاي فان هؤلاء المجوس قد أتوا من المشرق مدعين انه ظهر لهم نجم يدل على مولد ملك عظيم فتأثروه وجاؤا أورشليم وهم يسألون « أين هو المولود ملك اليهود » فسمع بهم هيرودس فاستدعاهم اليه وبعد ان علم سبب مجيئهم خاف على ملكه وجمع الشيوخ والكهنة وسألهم عما يعلمونه من أمر

مولد المخلص المنتظر فقالوا له جاء في كتبنا انه يولد في بيت لحم فأرسل اساعته من قتل كل أطفال بيت لحم من ابن سنتين فما دون

فضحك كايوس من كلمات يعقوب حتى كاد يستلقي على ظهره وقال فلنعد الى ذكر العذراء فاننا لا نعرف بكراً قد ولدت بغير مقارنة رجل وارى ان ذلك المولود ابن لاب مجهول

فلما سمع يعقوب كلمات سيده مال بوجهه عنه تعاليا وقال عفواً مولاي أأمرني بالعود الى عملي حيث لا اطيق سماع هذه الكلمات

فعجب كايوس من عنفوان يعقوب وهو اسير حقير ووقوفه امام ذلك الشريف يعد شرفاً باذخا ومجداً كبيرا وقال له الم يزل فيك اثر من كبرياء بني جنسك اليهود اولم تزل عنيدا مثلهم ؟؟؟

قال هيهات يا موي ان يزيل الضغط والتقييد بالسلاسل الكبرياء من النفوس

قال وما الذي يدعو قومك الى الكبرياء

قال كوننا يهود اسرائيليين من شعب الله الخاص ذلك الاله الحي السرمدي رب الارباب واله الآلهة

فتبسم كايوس تبسم المزدري وقال اني لم اذهب الى اورشليم ولكني سمعت اشياء كثيرة عن عنفوان اليهود وعنادهم وامتناعهم عن الخضوع الى سلطة الاجانب وانفرادهم في احوال معايشهم وترفعهم عن غيرهم من الامم والان لقد رأيت فيك مثالا لكل هذا وعلمت انكم معاشر اليهود ذوي نفوس جموحة سوف لا تقوى روميه على اذلالها

فتأثر يعقوب وخاف عقبى تماديه وقال لهو كما تقول ايها الامير الجليل فان الشعب الذي يعبد الهاً حقاً والهه قد حفظه كل هذه الازمان ودفع عنه الضيق ونصره على اعدائه في كثير من الاوقات ليصعب عليه ان يخضع لغير الله او لسلطة ليست من الله

قال واين الهكم الآن فيظهر انه قد تخلى عن نصرتكم فما قويتم على مقاومتنا

قال ان الله جلت قدرته قد أمال وجهه عنا لكثرة آثامنا ولكنه سبحانه ان تركنا للاقتصاص منا فحاشاه ان يتخلى عنا الى الابد وانه سيرسل من يخلصنا من هذه العبودية ويعيد لنا الملك وليس ذلك ببعيد

قال انكم لفي اضغاث احلام وما اعادة الملك لكم بالامر السهل ايها الاسير ومع ذلك فارجع الى عملك ولا بد لي من ان اطلبك حيناً بعد حين فقد عجبت بنباهتك كل الاعجاب ورأيت فيك مالم اره في رفاقك المجذفين من الحذق وحسن الطاعة

فانصرف يعقوب وقد قرب ميعاد نوبته ليعود الى التجذيف ومعاركة امواج البحر في سير المدرعة وقال للامير اذا خطرت في بالك أيضاً أيها الشريف فاذكر ظلامتي واشفق على تعاستي

وما زال هذا الاسطول يمخر عباب البحار ويتغلب على كل ما امامه من المصاعب والاهوال حتى وصل الى خليج انتيمونا على الشاطي الشرقي من جزيرة « كثيرا » وبعد ان استراح هناك يوماً واحداً اقلع الى ميناء

نكسوس وهي في منتصف الطريق بين هلاس واسيا ومن هناك اخذ يمخر الى شطوط الجزيرة العالية الجبلية وما زال هكذا حتى وصل الى بوغاز البوسفور فالتقى ببعض سفن للقرصان فاغرقها بمن فيها من الرجال بعد شديد القتال وهناك اخبر رئيس المينا للقائد كايوس بان سفن القرصان قد سارت الى تساليا بعدما نهبت مدينة هفستيا على جزيرة لمنوس ولا بد انها تختفي في الخلجان الكائنة بين ابيبا وهلاس فضحك كايوس وقال سوف أبيد جموعهم ولا ابقي لهم ذكرا في العالمين

اما رئيس المينا فنظر الى الارض وظهرت على فمه اشارة خفية تشير الى عدم اقتناعه بكلمات ذلك القائد العظيم الذى لحظ منه ذلك وقال له اولست مقتنعاً بما أقول

قال بل بالعكس اني لمقتنع ولكن لا يغرب عن فطنة مولاي ان هؤلاء اللصوص لعلى غاية الاستعداد وتتجاوز سفنهم المئة سفينة وكلها ممتلئة بالرجال والذخائر والاسلحة ومنها ذات الطبقتين وبعضها بثلاث طبقات ولذلك استقل عدد قطع اسطولك الذاهب لمحاربة هؤلاء اليونانيين

قال لا تخف فانك بعد قليل تسمع بتضعضعهم وهلاكهم جميعاً بمعونة الالهة قال هذا وامر بان يبيتوا ليلهم هناك وفي الغد يسيرون لاتباع القرصان في مكامنهم

وفي صباح اليوم الثاني كان الاسطول ناشراً قلوعه ووجهته مياه تساليا ولم يسلم في طريقه من ملاقاة بعض السفن لاولئك القرصان الذين انتشروا في عرض البحار فكان يغرقها واحدة بعد اخرى ويأسر من يسلم

منها ويدخله في سلك ارقاء المجاذيف لمعاونة من عنده من المجذفين والغريب ان القائد كايوس بعد تلك المحادثة مع يعقوب التي مر عليها بضع عشر يوماً لم يذكره ولم يدعه اليه على الاطلاق

وفي اليوم الخامس لمبارحة الاسطول مياه البوسفور وصل الى خليج طوله نيف ومئة ميل ومعدل عرضه نحو الثمانية اميال وهذا الخليج يوصل بر هلاس بجزيرة ايبيا وفي مدخله الشمالي كانت عبرت يوماً سفن ملك الفرس اكزركسيس لما هجم على البلاد اليونانية وفيه اعتصم هؤلاء القرصان النهابون الذين انحدروا من البحر الاسود وكان يظن القائد كايوس انه سيلاقيهم بقرب مدينة تساموبيلي فاراد ان ينتهز الفرصة ويحيط بهم في ذلك المضيق واقتضى لذلك سرعة عظيمة فترك مدينة نكسوس وما فيها من الاثمار الشهية اليانعة والخمور اللذيذة والغواني

الناهبات عقولنا وجيوبنا

وجنانهن الناهبات الناهبا

ولم يقف حتى هجم الليل فاذا هو بالقرب من جبل اخائيا الذي كاد يناطح السماء وعرف حينئذ انه بالقرب من شاطيء ايبيا وللحال قسم اسطوله الصغير الى قسمين فأرسل خمساً من مدرعاته الى مدخل البوغاز الشمالي ودخل في الخمسة الاخر من المدخل الجنوبي ليحيط بأعدائه من الجهتين

وكان كايوس يعتقد بالنصر كل الاعتقاد بالاتكال على انتظام جنوده ومدرعاته ويسخر بكثرة عدد سفن أعدائه بناء على قلة ما عندهم من

الانتظام والدربة وهو رأي سديد لولا ان للكثرة الكثيرة من القوى مالا يستخف به وهكذا بجراءة والشمس مائلة للغروب كانت تسير مدرعاته وهو يتغنى بنشيد نظمه كبير من مشاهير شعرائهم في مديح آلهة البحار وهو مسرور القلب مبتهج الخاطر

ولما خيم الظلام أضيئت المصابيح ونزل الامير الى مقره داخل السفينة بعد ان كان على ظهرها وأمر جنوده بشك الاسلحة وخص بنفسه المنجنيقات ووضعت على أرض الغرفة حزم كبيرة من الحراب والسهام والرماح وآنية الزيت السريعة الاشتعال وسلال فيها كرات من القطن ثم جاء رئيس المجذفين بجنازير قاسية وكان يربط طرف الجنزير بالمقعد والطرف الآخر برجل المجذف المسكين حتى لا يتهاون بعمله وحتى اذا غرقت المدرعة غرق معها المجذفون فتكون نهاية عملهم الشاق المتعب الهلاك في اعماق البحار

أما يعقوب فلما رأى انه قد تقيد بالاغلال كرفاقه صغرت نفسه واحتقر ذاته بذاته بعد ما كان قد بنى على محادثة الامير له العلالي والقصور وأخذ يهيىء لنفسه مستقبلاً بعد نهاية هذه الحرب من رعاية الامير غير ان ظنه لم يخب طويلا اذ بعد ان عاد رئيس المجذفين الى دكته وأخذ يقرع الناقوس لانتظام التجذيف طلبه الامير وأمره بالحال ان يذهب ويحل قيد المجذف نمرة ٥٠ وان يعين واحداً في محله ويرسله اليه ولم تمض بضع دقائق حتى كان يعقوب امام الامير فقال له أو تعرف لماذا دعوتك

قال كلا يا مولاي

قال لتكون في خدمتي في هذه الليلة حيث نحن على استعداد لملاقاة الاعداء

قال اني أطوع لك من بنانك أيها الشريف العظيم

قال رأيتك صحيح الاعتقاد في دينك فأحب ان أستأمنك على أمر لا أرى أن أستأمن عليه غيرك

قال أنى لك الخادم الامين يا مولاي

قال نحن في واقعة حربية ربما هلكنا فيها

قال لا قدر الله ذلك

قال وقدعلمت من الاوراق التي فيها صورة الحكم عليك انك لفرط أمانتك لسيدتك عرضت نفسك للهلاك أليس كذلك ؟؟

قال انه الواجب فعلته

قال وأنا اليوم أحسن اليك بحريتك بعد هذا الرق الا تعد ذلك احساناً مابعده من احسان

قال وفوق الاحسان

قال وبماذا تكافئني على ذلك؟؟

قال يبذل النفس في سبيل رضاك

قال فاذا قدر لنا الهلاك فأريد منك ان توصل هذا الخاتم الى حبيبة لي في روما تدعي روزين ابنة رجل من أشراف رومية يسمى فرجاس

مع هذا التحرير الذي كتبته بدمي وأنا أكاد أشرق بدموعي لا خوفاً من الموت وفي الموت راحة بل أسفاً على حب كنت أؤمل له مستقبلا محفوفاً بالافراح والمسرات واذا أنا معرض لعوامل الايام وكوارث الحدثان

أما يعقوب فبغت من هذه المفاجأة التي ما هي بالعير ولاهي بالنفير وقال في نفسه يالله من احوال هذاالذي يسمونه حباوغراما فقد يبقي الشجاع جباناً والعزيز ذليلاً والبخيل كريماً والا فمن أنا ليحتاج الي هذا الشريف الروماني أو لست عبداً من عبيده لو شاء قزف بي من حالق الى قاع البحر ولو شاء لجعلني ذا حول وطول ولكن هو الحب يا يعقوب ولعل الله اله اسرائيل قد سخر لك هذا الحب لتقوى بواسطته على الوصول لمعرفة مقر ساره « فتاة اسرائيل المظلومة » كل هذا أو ما هو بمعناه ردده يعقوب بينما كان يسمع كلمات الشريف كايوس غير انه لفرط سروره بهذا الفرج المفاجيء تلعثم لسانه فلم يحر جواباً فتكدر القائد كايوس وقال له اولا يخطر لك ان تقوم بمثل هذه الخدمة لمن له الفضل عليك بحريتك وحياتك اوهل دينك يمنعك من مقابلة المعروف بمثله قال هذا وهو بين الغيظ والرجاء لانه لم ير فيمن حوله من يستطيع ان يقوم بهذه المهمة باخلاص وامانة

فوقع يعقوب على رجلي مولاه يقبلها وهو يقول : عفواً أيها الشريف فان لساني قد تلعثم لدهشي وفرحي فلم استطع جواباً واعلم حفظك الله

وابقاك اني لا استطيع ان أفيك حق شكرك على جميل ما اوليتني بغير الدعاء وواجب الشكر والثناء واما هذا الخاتم وذاك التحرير فاحلف لك بآبائي اني سابذل ما في الوسع لايصاله الى من تحب ولو كان في ذلك هلاكي مع اني ارجو ان تسلم وتظفر بأعدائك وتعود أنت الى من تحب وارجو ان اكون خادماً لكما في ذلك اليوم السعيد

فضحك كايوس وقال ان النصر والفوز سيكونان لي اذا شاءت الالهة ولكني مع ذلك سأحارب مستميتاً بعد ان رأيت من يوصل سلامي الاخير الى حبيبتي روزين واني لواثق فيك يا يعقوب لانك قد برهنت على امانتك بما بذلته من المساعي في سبيل نجاة سيدتك حتى انك عرضت نفسك للهلاك وعلى هذا فكن أنت في هذه المعارك على الحياد ولدى اول خطر تراه محدقاً بنا انج بنفسك لايصال هذه الامانة وربما انتفعت بالسعي وراء سيدتك في روميه بواسطتي

وما زالت دوارع الامير ماخرة في عباب ذلك المضيق الى ان لاح نور الفجر واذا برقيب السفينة قد أسرع من مرقبه الى حيث كان القائد واخبره بدنو المدرعات من سفن القرصان فامر حالا بقرع الطبول واشهار الحرب على الاعداء فاصطف الجند البحري صفوفاً واخذ النوتيون بجمع الاشرعة وفرش الشباك وحل المنجنيقات وتعليق جلود الثيران على جوانب البارجة اتقاء لاسهم الاعداء ووقفت المجاذيف فجأة باشارة من رئيس المجذفين ثم سمع من في الدوارع أصوات تجذيف سريعة من حول دوارعهم فعرفوا انهم أصبحوا على مقربة من أولئك اللصوص الذين رأوا اسطول

الحكومة فتحفزوا لمقاومتـه واغراقه ثم اعطيت اشارة من القائد فغاصت المجاذيف ومادت الدوارع بمن فيها واخذت تثب الى الامام وجعل المبوقون يبوقون وعلا ضجيج المتحاربين واصطدمت السفن بعضها صدمات هائلة ثم صاح الذين في دارعـة القائد بأصوات النصر حتى غطى صياحهم على صراخ الغرقى وكانت النتيجة ان رأس الدارعة الرومانية شق مقدم سفينة العدو فأغرقها بمن فيها ولم يسلم منها أحد

ومراقب هذه الواقعة رأى ان الدوارع الاربعة الاخرى التي كانت وراء دارعة الامير قد اشتبكت بهـذه المعركة فغرق منها دارعتان وغرق للاعداء عدة سفن بمن فيها . وكان النوتيون يغمسون كرات القطن بالزيت ويضرمون فيها النار ويلقونها على الاعـداء بينما كان الجنود يتصيدون هؤلاء الاعداء بنبالهم

ثم مالت دارعة الامير على الجانب الايمن حتى كاد المجذفون الذين في الجانب الايسر يسـقطون في قاع البحر لولا انهم مقيدون ثم هتف الرومانيون بأصوات النصر على صدى صراخ الهالكين من الاعداء لان الكلاليب المدلاة من مقدم الدارعة تعلقت باحدى سفن الاعداء ورفعتها لكي تغرقها ثم زاد الهتاف والصراخ والضجيج من هنا ومن هناك ثم دوى صوت سحق وتحطيم وعويل دلالة على ارتطام سفن اخرى وغرق اهلها في لجة البحار

وبينما هم على هذه الحالة واذ انتشر مع الهواء رائحة احتراق اللحوم البشرية فان طابات القطن قد احرقت سفينة للاعداء كما ان صراخ كثيرين من

جرحى الجنود الرومانية كانت تصم الاذان

ولم يمض الا القليل حتى علا الضجيج في مدرعة القائد وخطفت المجاذيف من ايدي المجذفين وذلك ان الاعداء اذ يئسوا هجموا على هذه الدراعة وعلوها واخذوا يحاربون من فيها وجها لوجه وكان يعقوب في كل هذه المدة بجانب القائد كايوس وقد اخذ على عاتقه الدفاع عنه وكان يرى مصلحته في سلامة هذا القائد لانه سوف يعينه في التفتيش على ساره فيما بعد ولذلك لما رأى دخول الاعداء الى مدرعة القائد تحفز للدفاع عنه بما في استطاعته كان ذلك والشمس بازغة من مخبأها فرأى يعقوب في احمرار الجو وبزوغ الشمس ما يزيد في الجزع ويبعث الخوف الى قلب الشجاع وكان حيثما جال في نظره يرى اشلاء القتلى وقطع السفن والدوارع طافية على وجه الماء تلاعبها الامواج وتداعبها الرياح وبينما هو ينظر الى ما حوله وفواده يرتجف خوفاً على نفسه وعلى الامير واذا اشتد ساعد الاعداء بتكاثر عددهم في دارعة الامير والتفوا حول دكة الربان ثم بعد قليل هبط المكان الذي كانت عليه الواقعة وتكسر مؤخر الدارعة وانفصل عن المقدم وهكذا اخذت المدرعة بالغرق وكان البحر يرغي ويزبد لاشتداد الرياح كانه قد احس بتوحش هذا الانسان فأقر على ابتلاعه. وكان الدخان يكسو وجه البحر مثل الضباب من لهب تلك السفن التي كانت تندلع منها النيران وكان الغرقى كالاسماك وكلهم يسعى للخلاص من حيث لا مناص وبينهم القائد كايوس ويعقوب الذي كان وهو في قاع البحر يسعى لنجاة الامير قبل ان يسعى لنجاة نفسه

وكان الغرقى يتمسكون بكل ما يمر بهم من الالواح المتناثرة من تلك الدوارع والسفن ومن حسن حظ يعقوب او لعناية الله سبحانه فيه توفق الى دف كبير علا عليه فكان متمسكا به وهو يجذف وراء الامير الذي كان كمن في حالة النزع يقوى تارة على الامواج ويقوى عليه الامواج . وهو يتتبعه من غير ان ينتبه الى نفسه اوالى الخطر الذي هو فيه الى ان رأى الامير وكان وقد كاد ان يدنو منه قد اصفر وجهه وامال رأسه وفغر فاه فعلم انه مات او أوشك ان يموت فجذب نفسه بدفته اليه وتعلق به ورفعه بين يديه وهو ماسك الدف بساقيه لكي لا يفلت منه و كانت الامواج تضرب يعقوب وتهدده بالغرق وهو لا يلتفت الى ذلك الخطر المحدق به ويحسب نفسه مديناً بحياته الى هذا الشريف الروماني فمن الواجب ان يخاصه ليفيه هذا الدين او ان يموتا معاً وهكذا انجلت الواقعة عن سحق القوتين وهلاك سفن الاعداء مع اسطول الرومانيين ولم ينج الا القليلون ممن كتب لهم النجاة

ولما بطلت حركة الحرب وساد السكون اخذ يعقوب ينظر ذات اليمين وذات اليسار فرأى البر على بعد مسافة شاسعة فلا يقوى على الوصول اليه ونظر الى مولاه فرآه ساكناً بين يديه وهو اقرب الى الاموات منه الى الاحياء فاستعاذ بالهه في هذا الضيق وطلب منه المعونة واخذ يصلي وهو لا يرى النجاة الا بواسطة سفينة تمر به فتنقله مع مولاه اليها

وبعد ان مرت ساعتان ويعقوب على الحالة التي وصفناها واذا باحدى الدوارع الخمسة التي سارت من الشمال قادمة عن بعد فحسبها من سفن الاعداء

واضطرب بنفسه لعلمه انها اذا ظفرت به لا بد ان تغرقه مع رفيقه ولكن صلاته الحارة الصادقة رطبت فؤاده فاحس من نفسه ان لا مجال الى الخوف وان هذه السفينة سوف تكون سبباً لنجاته مع نجاة رفيقه الامير وما زال ينتظرها وهي قادمة الى ان قربت منه فعرفها واخذ يستجير بها الى ان وصلت فرفعت الامير وهو بين حي وميت وتبعه يعقوب واخذ طبيب الدارعة يعالج الغريق ويعمل على افاقته فانتبه لنفسه قبل الغروب ولكن كان كمن في سكر أو تضعضع وأخذ يتساءل أين هو وكيف تخلص وسلم وبواسطة من كانت نجاته ثم عاد الى الكلام عن المعركة فكان كمن يهذي أولا ثم شعر بشكه من النصر في تلك الواقعة فأخذ يفكر وكان كل من حوله يعتنون به ويعقوب لا يبارحه قيد فتر

وفي اليوم التالي انتبه لحقيقة الواقع وعرف ان نتيجة تلك الواقعة كانت بهلاك مدرعاته مع سفن الاعداء وان الذين سلموا من الجانبين كانوا لا يتجاوزون عداد الاصابع وعرف بعد ذلك ان لولا يعقوب لكان من جملة الهالكين فتقدم نحوه وقال لقد علمت كل ما عملته لاجلي حتى انك خاطرت بحياتك في سبيلي وأنا أقر بذلك وأحسبه جميلاً لا يكافأ بشكر أو أجر واذا ساعدتني الظروف وعدت الى بلادي سأصنع معك من الجميل ما يليق بشريف روماني صاحب نفوذ واقتدار مثلي برهاناً على معرفتي قدر جميلك ومنذ الآن ستكون بصحبتي ونحن اخوان صنوان

ثم بعد ذلك استدعى ربان الدارعة التي انتشلته وسأله عما كان من أمر الاسطول الذي سار من الجهة الاخرى فقال انا حاربنا الاعداء حرب

الابطال فاغرقنا عدداً كبيراً من السفن التي كانت لاعدائنا وخسرنا الاربع مدرعات ولم تسلم غير هذه المدرعة التي كانت في الاخير تراقب الاعمال الحربية فسر كايوس لهذه النتيجة لانه رأى ان النصر قد عقد له ولو بعد هذه الخسارة الكبرى التي انتابت مدرعاته وللحال أمر القائد ان يستعد للعود الى مسينم رافعاً الوية الفوز والانتصار

الفصل الرابع والعشرون

انطلاق يعقوب من الاسر

لا تيأسن فبعد الضيق يفرجها ... مولاك سبحانه يجلو دجى الكرب

هكذا عادت الدارعة بكايوس وهي أصغر المدرعات التي كانت في ذلك الاسطول عادت الى مسينم تحمل بشائر هلاك الاعداء ولو كان بهلاك اخواتها المدرعات الاخرى وأخذ كايوس يسطر على المائدة التي امامه تقريره الكبير العريض ليرفعه الى قيصر يوم يدخل رومية العظمى منتصراً على أعدائه

أما يعقوب فكان عائداً مسرور القلب منشرح الصدر لانه قد أصبح سيداً كبيراً في كنف الامير كايوس وفي مقدمة خدمته الامناء

وهكذا بعد أيام واصلت المدرعة فيها المسير وهي لا تلوي على شيء وصلت الى ثغر مسينم فاستقبلت استقبالاً عسكرياً وكان لوصولها هزة فرح

وحفلة حافلة بالمسرات ثم انطلق القائد كايوس في البر بمزيد الاجلال الى رومية فخرج الى لقائه كثيرون من رجال الدولة ووزرائها وأعيانها ويتقدمهم القائد العظيم اغريبا وكانت الموسيقات تطرب الحضور بأرق الالحان ولما وصل كايوس الى ابواب رومية العظمى بادر اغريبا فكلل هامته باكليل من الغار وسار به ومعه الالوف من الملاقين في منعرجات شوارع العاصمة الى ان بلغوا دار الملك فترجلوا ودخلوا على اغسطس حيث احتفى بقائده المنتصر احتفالاً جميلاً وهكذا ارفض الاجتماع

وفي اليوم التالي ذكر كايوس جميل يعقوب وانه كان السبب الاكبر لنجاته من الموت فانطلق الى حضرة قيصر العظيم وطلب منه ان ينعم على هذا الاسير بنعمة العتق وان يخصه بشيء من انعاماته جزاء أمانته واخلاصه فلم يخيب قيصر هذا المطلب الحق وأنعم على يعقوب بمبلغ كبير من الخزينة وانه حر وقد عفا عنه غير انه طلب يعقوب لحضرته ليراه مرأى العين بعد ان سمع عنه ذلك المدح والثناء والشكر العميم

أما يعقوب فكان لا يرى الا مصلحة ساره والتفتيش عنها فلما جاءه كايوس واخبره عن عفو قيصر عنه وعن الانعام الذي خصه به كان يؤمل ان يراه مسروراً منشرح القلب والخاطر ولكنه خاب امله اذ رأى ذلك الاسير عوضاً عن ان يقدم له الشكر الواجب يقول له عفواً يا مولاي فاني أريد ان يصدر أمر قيصر بالعفو عن ساره وأولادها واطلاق سراحها بدلاً عن ان يعفو عن رجل حقير نظيري ان عاش لا تنفع العالمين حياته وان مات لا يؤثر موته على واحد من العالمين

فدهش كابوس من اخلاص يعقوب لسيدته وظن ذلك ما فوق الطبيعة البشرية لانه كان يعتقد ان الذي يحب باخلاص لا يتجاوز حبه حد الحياة بمعنى ان الانسان الصادق في حبه يبذل كل مرتخص وغال في سبيل محبوبه الا حياته ولكن هذا الشريف رأى في يعقوب فوق ذلك من الاخلاص فسرّ به وقال بمثل هذا الحب فليكن المحبون ثم مال بكليته الى الرجل وقال ثق أيها الحبيب ببلوغ أمنيتك لان الظروف قد تغيرت عندكم في اليهودية

قال ومثلما ذا هذا التغيير

قال ان ارشيلاوس حاكم اليهودية قد استدعاه أغسطس بعد أسرك بايام لكثرة ما صدر عليه من الشكاوي الى رومية وقد رآه ملوماً وغير قادر على سياسة شؤون اليهودية فعزله عن منصبه ونفاه الى مدينة «فيان» في أفرنسه

قال وما تم في اليهودية بعد عزله يا ترى ؟؟

قال جعل أغسطس ولاية اليهودية والسامرة وادوم التي كان يحكمها ارشيلاوس ولاية رومانية محضاً وسمى الشريف كوبونيوس والياً عليها أو نائباً عن الملك في تدبير شؤونها وهو لا يزال يحكمها حتى الآن

قال أو ما من وسيلة للوصول الى هذا الشريف وطلب معونته في معرفة مقر ساره وأولادها

قال ان الرجل صديقي ويمكن لي ان أعطيك تحرير وصاية اليه فينيلك

وكان يحسب ان عدم ميل تلك الحسناء اليه لا نشغالها بهوى فتى يتردد على دار أبيها ويسمى كريوس وهو من عامة الشعب الا انه ذو اخلاق رضية وسجايا حسان ولما وصل القائد كايوس الى روميه كان همه الاكبر الذهاب الى مقابلة حبيبته ليقص عليها ما كان وما لم يكن من انباء انتصاره فقابلته حسب عادته بفتور وبرود وكان وهو يقص عليها وعلى والديها انباء رحلته يلاحظ عليها الملل والفتور فاتقدت نيران الحب في صدره وحركته عوامل الحسد على الفتك بمزاحمه فلم ير اليق لهذه المهمة من صديقه يعقوب ولذلك أبى عليه ان يرسله بوصاية الى والي أورشليم كما تقدم القول

وفي ذات يوم دعا يعقوب اليه وبعد ان سأله عن احوال روميه وان كان لم يزل مسروراً من الاقامة فيها استطرد بحديثه الى ذكر حبيبته وأخذ يقص عليه ما يعانيه من الجوى والهيام

فتبسم يعقوب وقال على بساطته وسذاجته مولاي لا افهم معنى لهذا الذي تسميه هياماً فقد كنت مشتاقاً اليها وأنت بعيد عنها اما الآن وقد جمعتك واياها رومية العظمى فلا محل لهذا الجوى ولا بد انك ستقترن بها بعد قليل

فتأوه كايوس تأوه الشجي المستهام والمحب المفتون وقال ولكن يا يعقوب ان روزين لا تحبني

فلم يعبأ يعقوب بهذا النبأ ولا أدرك خطارته بل تبسم وقال اذا كانت حبيبتك لا تحبك فهي لا تقدر اخلاقك الكريمة الحميدة حق قدرها وما عليك الا ان تقابل اعراضها بالاعراض ولك بالالوف الرومانيات الجميلات خير عوض وبديل

ما تبتغي وتريد غير اني لا أستصوب سفرك الآن الى أورشليم لانك سمعت ولا شك بأن امبراطورنا أعزه الله في حالة المرض والعجز والشيخوخة وهو يناهز السبعة والسبعين من عمره وأظن بل أرجح كما يرجح الاكثرون ان أيامه أصبحت في الملك معدوده ولا بد بعد موته من ان يحدث شغب في انتخاب الخلف كما لا بد من عزل والي اليهودية على أثر قيام الامبراطور الجديد وهذا لا يطول الى أكثر من المسافة التي ستقطعها في طريقك في الوصول الى اليهودية وعلى هذا فأبق هنا قليلاً لنرى ما سيكون قال هذا كايوس وهو يريد ان يبقى يعقوب بجانبه ليستخدمه في بعض شؤون غرامية فامتثل يعقوب أمر سيده بل صديقه واتخذ كلماته على علاتها وكان ضيفاً عليه على الرحب والسعة

الفصل الخامس والعشرون

كل يغني على ليلاه

كان يقطن رومية نيف وثمانية آلاف من اليهود وكان أكثرهم أصحاب ثروة ويسار وكان يعقوب يتردد عليهم وهو محسود من أكثرهم لحظواه برضى كايوس ومداخلته بين اشراف روميه لان كايوس بعد ان عرف فيه ذلك الاخلاص اتخذه صديقاً وخدناً لا خادماً وخصيصاً

وكان كايوس يحب الانسة روزين ابنة الشريف فرجاس مع ما بينهما من التفاوت في العمر لانه كان يناهز الخمسين بينما كانت حبيبته لم تبلغ العشرين ربيعاً

قال ولكن عدم حبها لي لسبب لا تصعب علينا مداركته

قال ومثل ما ذا هذا السبب ؟؟

قال انها تحب شاباً من السوقة وقد تعلقت به ولم ترحم فؤادي

قال ان ذلك من العجائب فهل يستطيع واحد من السوقة ان يزاحم الاشراف ويتطاول على أعراض الامراء

قال هذا الذي كان و

لكل هوى واش فان ضعضع الهوى فلا تلم الواشي ولم من أطاعه

قال وما الذي عولت على مداركته للتخلص من هذا المزاحم اللئيم

قال ان أفتك فيه وليس لي من أكلفه بهذا الامر الاك

قال أنا

قال نعم

قال اما أنا فلا أقتل

قال ولماذا

قال لان المناحرم بكتابه القتل في وصية من وصاياه العشر التي انزلت على يد سيدنا موسى الكليم

قال وما هي هذه الوصية

قال لا تقتل

قال ان الحكم منع القتل اذا لم يكن من سبب مشروع والا فكيف تجرأت على الهجوم على القائد الروماني ومددت يدك لنفتك به فلم يكن الجرح قاضياً ونجا عدوك من بين يديك

قال لقد أخطأت وكان ذلك انتقاما لسيدتي وأولادها الذين ظلمهم هذا القائد ظلماً وعدواناً والله يعلم الذي يقاسونه من الاهوال حتى الآن

قال اذاً القتل يجوز عندكم للانتقام

قال كلا لا يجوز القتل في ديننا لسبب من الاسباب على الاطلاق ولكن قد يتخطى المأيوس حدود الدين لثوران الغضب في صدره ثم يعود فيرى نفسه مخطئاً ولذلك لما كوفئت بأقصى العقوبات وهي رق المجداف قابلت هذا الرق بما فيه من شظف العيش وشاق الاشغال بالصبر وحسبت هذا القصاص الصارم عدلاً سموياً لتأديب من كان مثلي ظالماً عاتياً تهجم ليقتل نفسا بشرية حرم الهنا قتلها

فعجب كايوس من كلمات يعقوب وحكمه على نفسه وقال في نفسه ان هذا الا من مبادي الدين الشريفة التي يتمسك بها اليهود ثم انعطف على يعقوب وأخذ يلاطفه وقال له ان كان ظلم القائد الروماني لساره وأولادها قد أجاز لك ان تفتك بعدوك فان هذا الشاب الذي أشغل حبيبتي عني قد ظلمني لاني اذا لم أتوصل الى استرضائها والاقتران بها أموت لا محالة وعدا ذلك فان عمل هذا الاثيم اثم لا يغتفر لانه تجرأ على خرق حرمة الاشراف بمشاغلة شريفة ليست من طبقته ولا تجيز له الشريعة ان يقترن بها يوما من الايام وسيكون هذا المانع سببا لهلاك تلك الحسناء الجميلة أيضا وعلى هذا فان حب هذا الشاب لروزين سيسبب هلاكها وهلاكي معها وهو هالك أيضا بعوامل الحب فلماذا لا نتخلص منه ونشتري حياتنا بموته الا تحسب ذلك عدلا يا يعقوب

قال كلا يا مولاي فان من العدل ان يقترن المحبان فان للابنه نفس تشعر بالفرح والحزن والسرور والالم كنفس الرجل وهي اذا اقترنت بغير من تحب قد يمكن ان لا تبقى أمينه لزوجها واذا حافظت على شرفها تقضي حياتها كئيبه حزينه ولذلك فأنا اسألك بشرفك الروماني ان تترك هوى هذه الفتاة ولك بغيرها من الالوف الحسان أحسن عوض كما سبق وقلت وحينئذ تعفيني من مهمه القتل حيث لا يكون جزائي عليها الا القتل أو العود الى رق المجذاف طول العمر وقد لا يصادفني في المره الثانيه قائد كريم مثلك فينتشلني من وهده الهلاك فتكون الواقعه الثانيه شراً علي من الاولى

فتأثر كايوس من كلمات يعقوب وقال في نفسه ان هذا اليهودي الحقير لهو أحكم مني وأكثر مني خبره في شؤون الحياه فازداد بذلك ميلا اليه وعناية به وأخذ من ذلك التاريخ يبحث عن ذلك الدين الذي يربي العامه فضلا عن الخاصه على اشرف المبادي واسمى الخصال

الفصل السادس والعشرون

موت القيصر اغسطس

لم يمض على حوادثنا الزمن اليسير حتى ذاع وشاع وملأ الاسماع نبأ اعتلال اغسطس اكتافيوس قيصر فتوقفت حركة الاعمال وتطلع الناس الى ما كان ويكون وتفرقت المشارب والمذاهب وأخذ المتكهنون يتكهنون

على ما سيحدث بعد موت أغسطس ومن سيكون الخلف لان الملوك في ذلك العصر كان لهم شأن وأي شأن حيث تصلح في صلاحهم البلاد وتفسد بفسادهم اذ لا قانون ترجع اليه الامم ولا شريعة تعول عليها الرعايا بل القانون ارادة الملك والشريعة مشيئته ولهذا كانت تتغير الاحكام بتغير الحكام وللقاري الكريم ان يقدر بعد الذي تقدم قدر الاهتمام الذي أشغل الرعايا على اختلاف مشاربها واغراضها ومصالحها على اثر اعتلال امبراطور البلاد وحاكمها الاكبر

ولم تطل مدة المرض لان الملك كان شيخاً والشيخوخة ترافقها عادة أنواع من الامراض فانتبه القوم في صبيحة ذات يوم وهم يتبادلون الاشاعة بين محقق ومكذب بموت أغسطس وذهب القوم زرافات ووحدانا الى دار الملك فوجدوها تتجلل بالسواد ورأوا هناك النادبات الوفاً وهن يعولن ويبكين وأكابر رجال الدولة في شغل شاغل بين اعداد حفلة الدفن والعمل على اقامة الخلف

وفي عصارى ذلك اليوم سار القوم بمشهد الملك فكان لذلك من الاحتفال الباهر ما يليق بمأتم أعظم ملك على الارض حيث كنت ترى الوف الجنود سائرة بمقدمة الموكب يتبعهم الكهنة وهم يعدون بالمئات وفي أيديهم المباخر وكانوا لابسي المسح ثم النعش وهو محمول على اكتاف الاشراف من العظماء والوزراء وكان مجللا بالحلي والحلل ثم اعيان المملكة وعيونها وأكابرها وهم بين حزين لضياع مستقبله بموت الملك وفرح لامله بالملك الجديد وشامت لانه كان من أعداء الامبراطور الفقيد وكان الناس

يوجهون انظارهم في ذلك المشهد الرهيب الى رجل قبيح المنظر اقرع الرأس تدل ملامحه على شراسة طباعه وعيناه على ادمانه الخمر وكانوا يهمسون بين بعضهم ان هذا هو الامبراطور العتيد لانه أقوى رجال الدولة وأكثرهم سياسة ودهاء وهذا هو طيباريوس الشهير وما زال الموكب يسير بالالوف من الناس الى ان وصلوا الى هيكل جوبتير العظيم وهو من أعظم هيا كل رومية وأسماها وأكبرها فدخلوا بالنعش الى باحة المعبد واخذ الكهنة ينشدون الترانيم الشجية ويقدمون البخور الى اصنامهم ثم خرجوا بالنعش الى المدفن حيث واروه الثرى وعادوا بين مترحم ومتحرق وحزين وشامت ولا بدع

ان نصف الناس اعداء لمن

ولي الاحكام هذا ان عدل

وانقلب الاشراف والوزراء الى بيوتهم وفي نفس كل منهم غاية يستهونون في سبيلها كل عسير وكثرت يومئذ التحزبات حتى افضى الامر بعد يوم وشطر اليوم للمناداة بطيباريوس قيصراً على رومية العظمى وجميع الممالك الشرقية فاستبشر اخوانه ومحبوه ونقم اعداؤه ومبغضوه ولما استتب له الامر استوزر من يلائم طبعه من رجال بطانته واخذ يعزل كل الولاة والرؤساء الذين كانوا على عهد سالفه

غير ان عائلة أغسطس لم ترض بهذه الحالة وساءها خروج الامبراطورية من يدها فأخذت تؤلف حزباً من المملكة لاستخلاص الملك فشعر بهم طيباريوس فقتل اكثرهم بحد السيف وما نجا منهم الا من فر من وجهه

الفصل السادس والعشرون

« راحيل يعقوب لانطاكية »

لم تطب ليعقوب الاقامة في مدينة رومية العظمى وعاصمة العالم القديم وما كان يسره كل ما فيها من مظاهر المجد والاجلال وكان اكرام واحترام القوم له لعناية مولاه فيه يزيده مللاً من تلك المعيشة الرغدة لانه كان يحسب الحياة بما فيها من الملذات بدون . اره لاشيء وهذا منتهى تعلق التابع بمتبوعه والخادم بسيده

ومل من السؤال عنها في تلك المدينة العظمى لان مساعيه كلها كانت ذاهبة سدى بالرغم عن تقربه من مجالس أشراف رومية وعظمائها بواسطة سيده ورغماً عن مداخلته الكبرى مع أخوانه اليهود المنتشرين في ارجاء تلك المدينة ومل انتظار ما سيكون من أمر والي أورشليم الروماني لانه رأى المدينة قائمة قاعدة على أثر موت أغسطس وتملك خليفته طيباريوس فخطر له ان يسير الى انطاكية ليبحث عن راحيل لعل عندها شيئاً من اخبار ساره وأولادها واذا كانت مثله جاهلة كل شيء يصطحبها الى أورشليم حيث يتعاونان في البحث عن الضالة المنشودة وعلى هذا سار الى سيده وطلب منه ان يسمح له بالذهاب الى انطاكية فعارضه صديقه أولاً وبعد طول الجدال رضي بسفره وأصحبه بتوصيات الى كثيرين ممن يعرفهم من اشراف

الرومانيين هناك واغدق عليه من نعمه الشيء الكثير وهكذا بارح يعقوب رومية قاصداً انطاكية وما زال في حلٍ ومرتحل على ظهور الخيل وفي مراكب البحار الى ان وصل الى ميناء السويدية حيث كانت ترسو السفن بجوار الجبل الاقرع ومصب العاصي ومن هناك نقل أمتعته الى احدى القوارب الصغيرة التي كانت تسير في النهر بين الميناء والمدينة على مسيرة أربع ساعات بين الغياض والجنائن حيث كان القادم للمدينة يرى هيكل دفنه بما فيه من البدائع عن يمينه

ولما دخل المدينة وكان يعرف مسارحها منذ قدمها مع راحيل مربية ساره بامر سيده يوسف منذ من قبل خمسة عشر عاماً طلب لساعته مساكن اليهود للتفتيش عن هذه السيدة فخاب أمله في الاربع أيام الاول لكبر المدينة واتساعها ولتستر اليهود من الرومانيين تفادياً من الاضرار بهم لانهم كانوا محسودين منهم لنشاطهم واتساع ثروتهم وكان يعقوب وقتئذ لابساً ملابس الرومانيين حيث يخاله كل من نظر اليه واحداً منهم

وفي صباح اليوم الخامس رأى ان يسير الى هيكل الاله ابولون في دفنه على أمل ان يرى راحيل هناك اذا كانت لم تزل باقية في تلك المدينة لعلمه ان في ذلك اليوم لا يبقى أحد في مدينة انطيوخوس بل ينتقل كل السكان الى هذا الهيكل العظيم لمشاهدة الحفلة الحافلة التي ستقام فيه

وما انبثق الفجر حتى كان يعقوب في طريق دفنه فوصل الهيكل مع بزوغ الشمس ووقف في مدخل الهيكل يرقب الزائرين واحداً بعد واحد ويتفرس في كل سيدة تمرّ من امامه وهو يستعيد على مخيلته ملامح

راحيل حتى اذا مرت من امامه يعرفها وبينما هو واقف على أحرّ من الجمر يتبع بنظراته هـذه وتلك واذ مرت راحيل والفتى الذي معها فقرأ على محيا الفتى اسم ساره بحروف من بديع التشبيه ورأى بالسيدة المارة راحيل وكانها ليست براحيل بل شبهت بها فتتبع خطواتهما وقلبه يحدثه انها هي اما هما فلم يلتفتا اليه وينتبها لأمره الى ان أخذ يحادث الفتى على ما علمت في بدء هذه الرواية وتعرف حينئذ براحيل وهذه عرفته وعرّفته بالغلام الذي معها

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما

يظنان كل الظن الا تلاقيا

وبعد ان ودع يعقوب ساره ليلتئذ على ان يعود اليها في صباح اليوم التالي كما مرّ ذهب الى داره مسرورا فرحاً بهذا الملتقى وما صدق ان أصبح الصباح حتى كان في دار راحيل التى لم تنم في ليلها الا غراراً وهي متأثرة من كل هذه الحوادث التى مرت على يوسف منسى وابنته ساره

ولما استقر بهما المقام والفتى كان لم يزل نائماً سأل يعقوب راحيل عن حادثة الفتى وكيف عثرت عليه فقالت حدثنا أنت أولا عما جرى لك وكيف قتل يهوذا ومات سيدي يوسف وسبيت ساره وبنيها وما جرى لك بعد ذلك فأخذ يقص عليها كل هذا الحديث الذي عرفه القارىء الكريم وراحيل مصغية اليه واعية كل كلمة ينطق بها حتى لا يفوتها شيء من كل هذه الوقائع وما كاد يتم حديثه حتى كان الفتى قد انتبه من ثباته فنهض من فراشه وتودى ملابسه وأصبح ثالثهما

أما يعقوب فاندهش من مرأى الغلام وبهاء طلعته وقال ياسبحان الله لم أر أقرب شبهاً بين اثنين من هذا الفتى وأمه

فتبسمت راحيل تبسماً يخالجه الحزن وقالت نعم هو كذلك يا يعقوب ولكن هل يجمع الله هذا الفتى بأمه يوماً ما قالت هذا ونظرت الى الغلام فاذا عيناه قد ملئت من الدموع فمالت عليه وقبلته وأشارت بتغيير الحديث

الفصل السابع والعشرون

وجود ابراهيم بن ساره

وقالت سبحان الذي نجاك يايعقوب من شر هذه الاهوال والمصائب اما انا فمنذ حدثت تلك الثورة في اورشليم وقتل فيها يهوذا لم اسمع نبأعن ساره وأولادها حتى خلتهم قد اصبحوا في عالم الاموات بعد تلك الموقعة الهائلة فيئست من حياتي واشتدت عليّ الاحزان وما من يعزيني على هذه المحن الا البعض من كرام اليهود المقيمين في هذه المدينة وكنت كلما سمعت بقادم من اورشليم اهرع اليه فأسأله ان كان يعرف شيئاً عن ساره واولادها او سمع خبراً من اخبارها في تلك الديار وما كنت اسمع جواباً شافياً وهكذا كان شأني مع كل يهودي يذهب لزيارة بيت المقدس من هذه المدينة فاني كنت اسير اليه واوجوه خصيصاً للبحث عن ساره واولادها حتى أعياني الطلب وما زال هذا شأني كل هذه المدة الى ان توفقت الى الملتقى بهذا الغلام بالصدفة أو بمعجزة من السماء

قال يعقوب وكيف كان ذلك

قالت بينما كنت مارة في أحد شوارع هذه المدينة وجدت هذا الفتى يتسول ولاحظت فيه سيماء الحسب ودلائل المجد فشعرت بعاطفة داخلية تدفعني لاقتفاء خطواته فتبعته واذا هذا يشتمه وذاك ينتهره وكنت اشعر بعظم مصابه وحزنه لاني كنت كلما تفرست فيه أرى الشبه بينه وبين سيدتي ساره كاملاً فقلت لعله ابنها أو ملاك شبهها وللحال اسرعت اليه وانا احدث نفسي ان أتخذه ربيباً لي لا تملى من مشاهدته واذكر به تلك التي ربيتها على يديَّ الى ان شبت فاختطفها في الزمان الى حيث لا اعلم أواه من جور الزمان يا يعقوب قالت هذا راحيل وشرقت بدموعها ثمَّ تجلدت لاتمام الحديث وقالت

ثم دنوت من الغلام وسألته ما اسمك قال ابراهيم قلت اذاً انت يهودي قال نعم ياماه ومن خيار أبناء اسرائيل قلت ومن ابوك قال لا اعرف ولكن اتذكر ان اسمه يهوذا قلت وما اسم امك قال ساره واخذ الفتى يبكي فبكيت معه ثم سألته واين هما والداك قال لا اعلم الان غير اني كنت عند امي وانا لا اكاد ابلغ الخامسة من عمري وكنت العب بمنفسح الدار مع اخي واختي واذا بجنود قد دخلوا بيتنا واستاقونا الى دار قائدهم الكبير الروماني وهناك ما عدت شاهدت امي ولا اخويّ فاخذت ابكي وانوح واذا بواحد من الضباط الرومانيين امر واحداً من اتباعه فحملني الى بيته قسراً وهناك صرت اخدم اولاده الصغار وكنت على اقل جريمة اجترمها القى من الضرب والاهانة الشيء الكثير ومازلت على هذه الحالة التعسة الى ان بلغت العاشرة من عمري فيئست من حياتي واذ لقيت يوماً اناساً

مسافرين الى يافا اتبعتهم سيراً على الاقدام وهناك دخلت بخدمة واحد من كبار اليهود يدعى حزقيال فاكرمني هذا غاية الاكرام ولبثت عنده مدة ثلاث سنوات الى ذات يوم حيث جاءني وقال هوذا لك ثلاثون دينارا خذها وسر الى انطاكية فوقعت على اقدامه باكياً شاكياً وانا ارجوه ان يبقيني عنده فابى عليَّ ذلك وقال انه اذا فعل ذلك خاف من جور الرومانيين فلم افقه لذلك معنى ولكن تركته وغماً عني وانا في حالة اليأس والاكتئاب وسرت الى بيروت وبقيت هناك مدة سنة اخدم في بيت يهودي ايضاً كان يحنو عليَّ ويرأف بي الى ذات يوم حيث خالفت لسيدة البيت امراً فطردتني من بيتها وكانت دنانيري لم تزل معي فركبت في احدى المراكب وقدمت هذه المدينة ونزلت في خان الغرباء فاحس بامعي أحد النزلاء فاستغفلني وسرق دنانيري فاصبحت واذا انا فقير شحات لا أملك عشاة ليلة فبكيت ونحت وصرت اتسول الى الآن كما تريني ايتها السيدة الفاضلة قال هذا واخذ يبكي وهو يقول ليتك ايتها السيدة تعرفين امي وكيف كانت تحنو عليَّ وليتك كنت تعرفين ابي وكان كبيرا في اورشليم على ما سمعت فيما بعد ممن عاشرتهم من اليهود اما انا فلما سمعت كلام الغلام اسودت الدنيا في وجهي وتفطر قلبي ألماً على هذا التعس فضممته الى صدري بشوق وقبلته الوفاً وقلت له او تسير معي ايها الغلام قال وكيف ارفض هذه السعادة ولا كون عندك خادما اميناً حتى اشبع من فضلات موائدك وهكذا اخذته الى بيتي حيث صرت اعتني به عنايتي بامه من غير ان اخبره شيئاً عن ماضي ايامه أو عن علاقتي بوالدته وكنت في كل ليلة ادعوه اليَّ واطلب منه ان يسمعني بعض

الشيء عما يحفظه من حوادث امه وابيه واخوته والصغير لا ينسى شيئاً من حوادث صغره المفرحة فكان يقص عليَّ ما في محفوظه وانا ابكي وانتحب وما زلت هكذا معه الى مدة قريبة حيث اخبرته عن امه ومن هي وما هي علاقتي معها واخذت اقص عليه كل ما كان من امرها وغريب الحوادث التي اتفقت لها فاصبح معي قلقاً عليها مهتماً بامرها بعد ما كان يئساً من مشاهدتها فشعرت حينئذ بخطأي لاني بلبلت افكاره على غير ما جدوى ولا أمل الى ان وفقني اله اسرائيل للالتقاء بك يا يعقوب فالآن ما الذي تفكر بعمله

وكانت راحيل تسرد قصة الغلام وملخص ما جرى له ويعقوب يبكي وينتحب ثم قال لها لا بد لنا يا راحيل من العود الى اورشليم لعل يوفقنا القضاء الى ملتقى ساره فان نفسي تحدثني انها اسيرة عند احد الرومانيين ولم تمت والذي قوى بي هذا الامل هو مشاهدة هذا الغلام حياً

قالت نعم الرأي فاني اسير معك الى اورشليم بغير ما ابطاء

وكان الفتى ابراهيم يسمع الحديث باندهاش ويشاهد في يعقوب من الغيرة على امه وعليه ما رجح عنده ان الرجل من خاصته وذوي قرباه ولكنه تمهل الى المنتهى فلما سمع ان يعقوب يريد الذهاب الى اورشليم وراحيل عزمت ان تتبعه تقدم منها وارتمى بين يديها وقال لها وانا يا اماه فهل تعدينني بالذهاب معك ام تتركيني بعد ما انتعشت آمالي بوجودك

فقبلته راحيل وقالت له وهل اقوى على فراقك يا ريحان روحي وعزائي وبهجة حياتي وفيك مسرتي وانت قرة عيني قالت هذا وضمته الى صدرها والدموع ملء عينيها

قال ومن هذا الرجل الفاضل الذي يعتني بنا كانه واحد منا فهل هو قريب نسيب او محب شفوق ؟؟

قالت راحيل كلا يا ابراهيم كلا ايها العزيز فما هو هذا ولا ذاك ما هذا الرجل الا خادم امك الامين الذي اوقف نفسه للتفتيش عليها

اما يعقوب فجذب الغلام اليه باطف وقبله قبلة كلها احترام وشوق وقال الا تذكر يا ابراهيم رجلا كان في دار ابيك وطالما حملك على ذراعيه وطالما قام بخدمتك الا تذكر يعقوب خادمك

قال الفتى باندهاش يعقوب وهل انت يعقوب اواه يا يعقوب اواه كيف انت وكيف حالك قال هذا واخذ يبكي ويقول او تذكر يا يعقوب يوم حملتني على ذراعيك الى الهيكل ولما دخلنا ضج اليهود وماجوا وهم يقولون فليعش ابن يهوذا وكنت وقتئذ ابن ثلاث أعوام أواه ان ذلك اليوم لا أنساه وسوف لا أنساه فان ابن يهوذا الذي ضج اليهود بالدعاء له أصبح خادماً حقيراً وطالما ضربوه وطالما عزبوه وطالما شتموه وطالما أهانوه ان ابن يهوذا يا يعقوب أصبح فقيراً متسولاً مسكيناً وطالما بات في الشوارع وبغير ما طعام ولا شراب واذا مرَّ به واحد من السوقة لا يلبث ان يشبعه اهانة وسبابا أواه ثم أواه قال هذا الفتى بصوت متقطع وكان يعقوب وراحيل يتلاطفان به ويعزيانه

ثم قال له يعقوب لا تحزن يا ابراهيم واصبر ان الله مع الصابرين ولا بد انه تعالى وقد جمع شملنا بك ان يجمعنا بأمك فان الذي أريده هو ان أراها وكفى هذا كل ما أتمناه في هذه الحياة قال هذا وكانه قد فكر في

أمر فانتبه اليه وقال يا راحيل الا تذهبي لمقابلة انطونيوس في دار الوالي وقد طلبك في الامس

قالت مالنا وأنطونيوس فان هذا الرجل كان أصل البلاء وسبب كل هذا الشقاء وان ذكر اسمه يؤلمني يا يعقوب فبحقي عليك سر بنا من هذه المدينة ولا تجعلني أراه بعد اليوم

قال أخطأت أيتها الفاضلة فنعم ان الشريف انطونيوس كان منه ما نعاني من المصائب والمحن غير ان المسير اليه لا بد منه لاني قد شاهدت فيه في الامس انعطافاً غريباً ولا بد انه يساعدنا في التفتيش عن ساره فهيّ نسير اليه سريعاً لنرى ما يكون من أمره وما زال عليها حتى اقنعها بالمسير فسارا يتبعهما الغلام ووجهتهم دار الوالي

الفصل الثامن والعشرون

(مقابلة انطونيوس)

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لاول منزل

وصلت راحيل واجمة لدار الوالي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ومعها يعقوب يشجعها ويبين لها الفوائد التي يمكن ان تنجم عن هذه المقابلة والغلام لا يدرك لكل ما يسمعه من حديث راحيل ويعقوب معنى يركن اليه ولما اقتربوا من الباب وجدوا الجنود شاكي السلاح وواقفين في انتظام على

الباب الخارجي فتقدم يعقوب وطلب الدخول على الوالي من رجل كان جالساً في الباب وتدل مظاهره على انه الحاجب الخاص فقال ومن أنتم ؟؟؟ قال قل للوالي ان راحيل التي طلبت مقابلتها بالامس قد حضرت

فقال الحاجب باندهاش أهذه هي راحيل أهلاً ومرحباً فان الشريف انطونيوس يسأل عنها منذ الصباح فتفضلوا بالدخول عليه بحجرته الخاصة فانه ينتظركم قال هذا وتقدم الضيوف فتبعوه ودخلوا في ممر فخيم مفروش بفاخر البسط صنع تلك البلاد ثم مروا بتنفسح مغروس بأشجار الليمون والبرتقال وأنواع الزهور والرياحين وفيه الفساقي تتدفق منها المياه الى ان وصل الى حجرة في صدر الدار ففتح الباب وقال بأعلى صوته ان السيدة راحيل التي يطلب مولاي مقابلتها هي في الباب

وكان انطونيوس جالساً على أحر من الجمر وهو يتفكر بهواه القديم ويتوقع من وقت الى آخر مقابلة السيدة التي طالما قابلها في الاسكندرية في دار يوسف منسى واعتنى بمرضاتها اكراماً لحبيبته ساره فلما سمع انها في الباب خف لملتقاها ودخل بها الحجرة يتبعها ابراهيم ويعقوب وهو يقول أهلاً وسهلاً ومرحباً بك أيتها السيدة الكريمة فان لقياك في الامس قد ذكرني حباً لا أنساه وعهداً طالما حننت اليه فاخبريني بحق عليك وقصي علي كل ما كان وجرى

فاخذت راحيل تبكي وتنتحب على عادتها وطفقت تحدث جليسها بكل ما كان من أمر ساره وهو يصغي اليها تارة ويطرق بالارض أخرى الى ان انتهت من حديثها وخيم السكون على الحضور

فرفع انطونيوس رأسه وقال لا أنكر عليك ياراحيل اني كنت سبب بلاء تلك التعيسة ساره ولكن بحقي عليك لا تلوميني فان الحب فوق كل شيء نعم فهو فوق الشرف وفوق الملك وفوق المال ولا يعادله شيء من الاشياء ولقد أحببت ساره ورغبت ان أقترن بها دائساً كل العوائد والتقاليد ولكن أبي رحمه استكبر الامر وهاله هذا الزواج وحسبه محطاً لقدره وقدر العائلة فعمل ماعمل لمعاكستي ولكن لا تظني اني نسيت ساره وقتئذ بل سرت لرومه وعدت حاملاً العفو عنها وعن أبيها وأخذ يقص عليها كل ما عمله من المساعي لهذه الغاية الى ان انتهى الى أمر سجنه وانه بعد ما خرج من السجن بشفاعة ابنة اغريبا سأل عن ساره فقال له بعضهم انها خطفت والبعض انها هربت فترجح لديه انها ما كانت تحبه فترك هواها قسراً واقترن بابنة اغريبا

فلما سمعت راحيل حديث انطونيوس عرفت ان الرجل لم يكن ملوماً وانه كان محباً صادقاً وقالت له اذا كنت قد عملت ماعملت لنجاة ساره ثم اقترنت بسيدة شريفة والحمد لله ذات جمال رائع وشرف باذخ فلماذا تتبعت ساره بالشر وهي التي ما كانت تفتر عن ذكرك حتى أمرت بأسرها بعد مقتل زوجها وكان هلاكها على يدك

قال انطونيوس باهتمام أو أنا فعلت ذلك ؟؟؟

قالت بلى فان هذا الذي حسبناه والا فما معنى هذا الاسر او السبي

قال قسماً بشرف آبائي وأجدادي اني لم أطلب من أحد اساءتها بل بالعكس كنت دائماً أبداً أتنسم أخبارها حيث علمت انها تزوجت برجل

يدعى يهوذا وهو وجيه في قومها وانها ولدت ولدين وابنة ثم ما عدت سمعت عنها شيئاً فهل لك ان تطلعيني على حكاية أسرها.

قالت اني لم أكن وقتئذ في أورشليم ولكن هذا الرجل وأشارت الى يعقوب كان بخدمتها الى اليوم الذي قتل فيه زوجها وفاجأها القائد الروماني بالاسر مع اولادها وهو يطلعك على ما تريد بالتفصيل

فمال انطونيوس الى يعقوب وقال حدثنا عن كل ما تعرف فاخذ يعقوب يقص على انطونيوس حديثه وكل ماجرى معه وهو مصغ اليه بجملته ولما انتهى من كلامه قال يا اللآلهة أهذه كانت نتيجة حياة سارتي الجميلة أو هكذا عاملها الرومانيون قال هذا ونهض من مجلسه وأخذ يسير في الحجرة جيئة وذهاباً وهو مرتعش مضطرب كمن مسه جنون ثم قال والآن ما الذي يجب ان نفعله لمعرفة مقر ساره وان كانت هي في الحياة أو أصبحت في عالم الاموات

قالت راحيل لا اعلم يا مولاي وعادت الى البكاء والنحيب

وبعد قليل قال انطونيوس ان البكاء لا يجدينا نفعاً . بل علينا ان نسعى جميعاً لنقف على ما كان من امر هذه السيدة المفقودة ثم انتبه فجأة الى الفتى فخف اليه ومسكه بين يديه وقال قسماً بالهة الجمال ان هذا الفتى هو ساره نعم نعم هو ساره او هو ابنها او ليس الامر كذلك يا راحيل ؟؟؟

فشرع الفتى يبكي وينتحب وقالت راحيل نعم هو ابنها وقد لقيته بمعجزة من السماء

قال قصي عليّ خبره فاخذت تقص عليه حديث الغلام وهو يهز

رأسه الى ان انتهت من حديثها فقال كم في العالم من المصائب ومن كان يعلم ان ساره سيدة الحسان سوف تصبح اسيرة او تموت سبية ومن كان يعلم ان اولادها سيلاقون من الاهوال مالاقاه هذا الغلام المسكين بل ليت شعري ماالذي جرى لاخيه واخته يا ترى وفي اي تعاسة هما اواه اني اكاد اجن فياليتني ماعرفتك يا ساره فقد كنت ولازلت سبب بلبالي وحزني وتنغيص معيشتي بل ليتك ماعرفتني وقد كنت سبب شقائك وبلائك اواه واويلاه قال هذا انطونيوس وعاد الى مركزه في صدر الحجرة والحاضرون ينظرون اليه مندهشين من صدق حبه واخلاصه في هواه القديم

وبعد برهة يسيرة قال انطونيوس وعلى ماذا عزمت ياراحيل

قالت على المسير الى اورشليم

قال حسناً فسيري بحرز الملك الذي كانت ساره تحبه كثيراً وتحترمه كثيراً ولك مني ماتشائين من التوصيات والاموال وانا بعد ان انهي مهمتي في هذه المدينة سأسير الى اورشليم أيضاً للبحث عن ساره فامضي فديتك وسيري بالسرعة ولا تنسي اني اتوقع منك بشائر وجود هذه السيدة التي احترمها احترامي ليفنيس الهة الجمال قال هذا ثم توقف قليلا وقال انك تسافرين في صباح الغد او في اول فرصة وبعد قليل يصلك الى البيت تحارير الوصايا وشيء من المال

فأخذت راحيل تشكر انطونيوس على جميل عنايته ثم ودعته وتقدم الغلام لوداع الشريف فقبله هذا وقال له اذا كان قدمات ابوك فمنذ اليوم انا ابوك ولك ان تسألني ما تشاء ولا بد ان آخذك معي الى روميه عند

مروري باورشليم فشكره هذا وانصرف يتبعهما يعقوب فرحاً من هذه الصدفة الغير منتظرة

وبعد ظهر ذلك اليوم بينما كانت راحيل تهيء نفسها للرحيل ويعقوب وابراهيم يعاونانها واذا قد قرع الباب ودخل حاجب الوالي ومعه الف دينار وبضع انابيب من ورق البردى المصري الذي كان يستعمله الرومانيون في كتاباتهم بعضها من امضاء انطونيوس وبعضها من امضاء الوالي نفسه وكلها توصيات براحيل والغلام الذي معها الى كل شريف من الرومانيين في اورشليم

وبعد ثلاثة ايام ركبت راحيل وابراهيم ويعقوب مركبا كان متجهاً الي مدينة صيداء ولم يمض عشرة أيام حتى كانوا في المدينة المقدسة فاذا تغير كل ما فيها من النظام القديم واصبحت رومانية محضاً في احكامها والذي ساءهم بالاكثر انهم كانوا يرون حيثما مروا رسوما للنسر الروماني في شوارعها فتفطرت قلوبهم اسفا على استقلالهم الضائع ومجدا بائهم الساقط

الفصل التاسع والعشرون

اورشليم الرومانية

وصل يعقوب اورشليم واندهش مما رآه من التغيير في البلاد في المدة التي تغيب عنها فرأى العنصر الروماني قد تقوى واستتب بالمدينة ورأى الشعب اليهودي قد رضخ لنير الرومانيين بسكون على خلاف الحالة التي تركهم بها

وللحال عرف السر الذي ساد فيه الرومانيون واتسع به ملكهم ألا وهو العدل واطلاق الحرية الشخصية فان الرومانيين ما كانوا يتعرضون لاديان الامم وعوائدهم في كل البلاد التي كانوا يحتلونها ويحكمونها وكانوا من طرف آخر يعدلون بين الرعية بقدر الامكان لان عدل تلك الايام كان منوطاً بفكر الحاكم لا مرتبطاً بقانون وضعي شأن هذه الايام بحيث كانت احكامهم عرفية

وكان اليهود ناقمين على هيرودس الكبير وابنائه من بعده لانهم كانوا يعدونه مغتصباً لملك آبائهم ولانهم كانوا يرون في هيرودس ميلاً لدوس شريعتهم اكراماً للرومانيين او تزلفاً لهم فكانوا يستعظمون ذلك ويكبرونه اما وقد سقط الهيروديون واستقلت الحكومة الرومانية بحكم البلاد شأنها في الجهات المجاورة وضربت الثائرين بيد حديدية فلا من يثور او يدعو الى الثورة وليس هناك جور واقع يدعو الى اجماع الاهلين ضد حكامهم

وكان هم يعقوب وراحيل وابراهيم منذ وصلوا الى اورشليم التفتيش عن ساره فرأى يعقوب ان يسير الى مجمع اليهود اولاً ليرى ما هم عليه وعلى امل ان يوجد بينهم من يدله على مقر ساره ان كان سمع بخبرها ولذلك اخذ ينتظر السبت بفروغ صبر وكان متأكداً انه في هذه المرة لا يرى اعراضاً من اليهود لانه اصبح ذا ثروة ووجاهة والناس منذ الازل يكرمون الغني ويزدرون بالفقير ويخضعون للقوي ويحتقرون الضعيف سنة الله في خلقه

وفي صباح السبت الاول من وصوله الى اورشليم سار مبكراً جداً الى الهيكل ومعه ابراهيم بن ساره ولما دخلاه رأى يعقوب الكثيرين من اليهود يشيرون الى الفتى وينظرون اليه فاندهش يعقوب من ذلك

وخاف على الصبي ظناً منه انهم عرفوه ويريدون به شراً وبعد قليل مر بجانبه رجل من خاصة اليهود كان يتردد على يهوذا فعرفه ودنا منه وسلم عليه ثم سأله عن سبب انتباه الناس للغلام بهذا المقدار من الاهتمام فتبسم الرجل وقال

منذ ثلاث سنوات تقريباً دخل الهيكل غلام في الثانية عشرة من عمره وكان بهيّ المنظر جميل الطلعة واخذ يخطب فينا ويوبخ شيوخنا وكهنتنا بكلام عذب ومرّ في وقت معاً وبقي في الهيكل ثمانية ايام ثم جاء والداه يسألان عنه فلما بلغه ذلك قال من هو ابي ومن هي امي ان ابي الا الذي في السماء ولقد علمنا بعد ذلك ان الفتى يدعى يسوع وانه ابن رجل في الناصرة يدعى يوسف وصنعته نجار قال هذا والتفت الى الغلام قليلاً ثم قال يظهر لي انهم قد شبهوا يسوع لهذا الغلام وانا اقول لك ان هذا الغلام جميل جداً ولكنه لا يحاكي تلك الطلعة الملائكية التي ينبثق منها النور قال هذا وترك صاحبنا يعقوب يفكر في ذلك الفتى الذي شبه ابراهيم به

ولما انتهت الصلاة اراد يعقوب بالاكثر ان يستوضح حكاية ذلك الغلام لانه تذكر قصة مولد العذراء التي زارت وقتئذٍ ساره في اورشليم يوم جاءت لتقدم مولودها الهيكل على ما يذكر القراء في روايتنا فتاة اسرائيل ولذلك تقدم من احد الكهنة وقال له سلام على اسرائيل

قال وعلى اسرائيل السلام

قال سمعت ان منذ ثلاث سنوات دخل الهيكل غلام واخذ يجادل الكهنة ويوبخ الشيوخ

قال نعم أيها العزيز فاني وقد شبعت من الايام صرت أرى كل شيء حسناً ولا سيما في مثل هذه الايام التي سمح الله بها باضطهاد شعبه و تضعضع مملكته فأضنينا رقابنا للاعداء

قال ولماذا يا أبتاه كل هذا التململ وأنا لا أسألك عما نحن فيه من البلاء بل عن أمر يهمني جداً وهو أمر ذلك الغلام الذي قيل انه يشبه هذا الشاب وأشار بيده الى ابراهيم

فارتعش الكاهن واضطرب لدى سماعه هذه الكلمات وتقدم نحو ابراهيم وأخذ يتفرس فيه ملياً ثم رفع حاجبيه وهزَّ رأسه فاهتزت لحيته البيضاء التي كانت تستر كل صدره ومال الى يعقوب وقال له كلا يا بنيَّ فلا شبه بين هذا الفتى وذاك بل شتان بينهما نعم ان ابنك هذا ذو ملامح جميلة وطلعة وضاحة ولكن ذلك الغلام كان على وجهه غشاء من نور ومع انه كان لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره كان لكلامه من الهيبة ما جعلنا نحن جماعة الشيوخ نسمع كلماته باصغاء ونعي كل مايقوله باهتمام مع ان آدابنا لا تسمح لصغارنا بالحديث امام الشيوخ ولا سيما في الهيكل وبمعرض الوعظ والتعليم

قال هل لك ان تقص عليَّ بالتفصيل ما كان من أمر هذا الفتى

قال تعلم يا بنيَّ ان اليهود قبيل عيد الفصح يحجون لاورشليم من كل صوب وحدب فمنذ ثلاث سنوات في عيد الفصح كان من جملة الحجاج رجل قد عرفته من قبل صالحاً وهو شريف أيضاً لانه ينتمي لداود الملك حسب

الانساب المحفوظة عندنا في الهيكل يدعى يوسف وكانت معه امرأته مريم أو هي خطيبته ومعها ذلك الغلام الذي كان يستلفت أنظار كل من نظر اليه بجاذب الجمال والجلال فتقدم هذا الغلام وانضم الى مجالس الشيوخ والكهنة يسمع كلامهم باصغاء ويطارحهم الاسئلة الهامة في الدين وكان كل من يسمع كلماته يندهش من حكمته وسديد أجوبته واصابة آرائه حتى أجمعنا جميعاً على ان في هذا الغلام روح من السماء وبعد ان انقضى العيد وانصرف الحجاج الى بلادهم حسب العادة بقي الولد في الهيكل الى ان انتبه لفقده أبواه بعد ما ارتحلا عن أورشليم وهما يظنان انه مع الركب فرجعا يسألان عنه حتى وصلا الهيكل واذ علما ان ابنهما عندنا دخلا عليه وقالت له أمه ماذا فعلت بنا ؟؛ لاني كنت مع أبيك نبحث عنك وحزنا جداً على فقدك فاجاب ذلك الغلام بوداعة ولطف أين بحثما عني الا تعلمان انه ينبغي البحث عن الابن في بيت أبيه فاندهش والده من هذا الجواب كما اندهشنا نحن ولم ندرك من يعني بأبيه وأين هو بيت أبيه مع انه موجود في الهيكل الذي هو بيت الله ثم انطلق الغلام لساعته مع أبويه بعدما علمنا منهما انه كثير الطاعة والانقياد لهما

قال أو ما سمعتم بعد ذلك شيئاً عنه

قال كلا غير اننا لا نفتأ نذكره في كل مجتمع اجتمعنا فيه

قال وأين هو الآن

قال في الناصرة وسمعنا انه يشتغل في النجارة التي هي صنعة أبيه

فشكر يعقوب الكاهن على ما ذكره له وقال أولم تعرف أيها الجليل

في الكهنة رجلا كان في أورشليم ويدعى يهوذا

قال وكيف لا أعرف هذا الرجل وهو الذي جمع الناس من حوله وبث فيهم روح المقاومة لقيصر الرومانيين اذ أمر بالاكتتاب وحرضهم على عدم دفع الجزية وكان من ذلك ما كان من المذابح الدامية والوقائع المهلكة التي كانت نتيجتها هلاكه وهلاك الالوف من شعب اسرائيل معه رحمهم الله جميعاً

قال حسناً ولكن كان لهذا الرجل امرأة وأولاد فهل تعرف شيئاً عنهم ؟؟

قال كلا ولا بد انهم قتلوا في تلك الموقعة الدموية الهائلة

قال كلا لم يقتلوا بل أسرهم الرومانيون وهذا ابن يهوذا الاكبر وقد افلت من أيديهم ووجدناه في انطاكية

قال ربما يكون ذلك وأظهر الكاهن عدم الاكتراث بالامر وهمّ بالذهاب لانه كان لا يريد الخوض في هذا الموضوع على ما يظهر فتركه يعقوب مرغماً وعاد الى راحيل

قضت راحيل مع يعقوب مدة شهر وأكثر في أورشليم وهما يداًبان السعي في التفتيش عن ساره ولكن بغير ماجدوى والذي كان يدهشهما هو ما كان يلاقيانه من عدم عناية يهود أورشليم بهما ولا بالسيدة التي كانا يبحثان عنها وكانا يقابلان بين اهمال اليهود أمر التفتيش عن ساره وبين ما كان يظهرونه لهما ولزوجها أبيهما من الرعاية والاهتمام وتقرر لديهما ان الناس يسيرون في العالم وراء اغراضهم فلما كانوا في حاجة الى يهوذا ويوسف منسى وهم مهددون بمظالم هيروس

الكبير وابنائه من بعده كانوا يظهرون لهذين الرجلين كل رعاية واكرام واحترام ولما زالت اغراضهم اهملوا شأن تلك الارملة التعيسة التي يعلم الله سبحانه ما الذي حلّ بها وباولادها الايتام وبينما كان هذان الشخصان يندبان سوء بخت سيدتهما وقد ضاع كل امل لهما بالعثور عليها او الوقوف على حقيقة ما آل اليه حالها واذا بجندي روماني يسأل ويفتش عن سيدة اسمها راحيل ومازال ينتقل من بيت الى بيت الى ان عثر على مقرها فدخل عليها وابلغها ان انطونيوس حسب وعده قدم اورشليم وهو يريد مقابلتها في الحال فنهضت ومعها يعقوب وابراهيم وساروا جميعاً الى دار الوالي

الفصل الثلاثون

« انطونيوس في أورشليم »

واصبحت اورشليم بعد ان انفصل عنها ارشيلاوس ودعي الى روميه ولاية رومانية كما تقدم وارسل الى تدبير شؤونها الشريف كوبونيوس بصفة نائب عن الملك ثم عزل هذا وخلفه في اورشليم الشريف ماريوس ايفيوس ثم عزل هذا وخلفه اينوس روفوس وعلى عهد هذا الوالي مات اغسطس قيصر ولما تولى الامبراطور طيباريوس عين الشريف فاليوس كراتوس والياً لاورشليم وكان هذا الوالي صديقاً حميماً للشريف كايوس القائد الروماني الذي مرَّ علينا ذكره وهو سيد يعقوب وولي نعمته فاوصاه بيعقوب خيراً متى وصل الى اورشليم وبالفعل ان هذا الوالي ما وطأت اقدامه اورشليم

حتى سأل عن يعقوب فلم يقف له على اثر

ولما قدم انطونيوس لاورشليم ونزل على الوالي ضيفاً كريماً قصّ عليه حادثة ساره وما جرى لها وسأله ان يعينه بالتفتيش عنها وارسل وراء راحيل يستقدمها اليه

ولما دخلت راحيل ومن معها على الوالي وانطونيوس وكانا يتباحثان بامر ساره سأل الوالي اولاً :علمت ان رجلاً يدعى يعقوب هو ايضاً يبحث عن ساره التي تنشدونها فاين هو هذا الرجل

فتقدم يعقوب وقال انا يا مولاي قال ولماذا لم تقدم اليّ في كل هذه المدة وانا موصى بك من الشريف كايوس

قال لاني لم اعرف ذلك قبل الان وهنذا بين يديك

قال ثق اني سأبذل غاية المسعى في سبيل تحقيق آمالك فهل لك ان تقص عليّ حادثة ساره وأسرها

قال كما تحب وأخذ يسرد عليه كل ما كان من أمر كراتس وكيف هجم بجنده على بيت ساره وكيف دافع عنها الى آخر ما علمه القاري الكريم من امر ساره واولادها

قال اذاً ان السر عند القائد الروماني كراتس الذي كان وقتئذ في اليهودية وهو الآن على ما اظن في روميه فلا بد من الاستفسار منه عن هذا السر ومع ذلك فسأستدعي كل الموظفين القدماء الذين كانوا وقتئذ في أورشليم عسى أجد منهم من يعرف شيئاً عن هذه المسكينة

ثم مال انطونيوس نحو راحيل وقال لها أيتها السيدة الكريمة اطلب

منك ان تصطحبيني مع ابراهيم الى روميه وأنا منذ الآن جاعله ابني ومورثه ثروتي واسمي لاني لم أرزق ولداً وتكوني أنت في داري السيدة الآمرة الناهية وهناك نبحث عن الشريف كراتس لعله يطلعنا على ماجرى لساره الجميلة قال هذا واغرورقت عيناه بالدموع

فرضيت راحيل بكل ما عرضه انطونيوس عليها حباً بمستقبل ابراهيم وبعد اربع أيام بارحوا أورشليم الى روميه بعد ما بلغهم الوالي ان ليس في أورشليم من يعرف ذكراً لساره اما يعقوب فبقي في اليهودية على ان يتبعهما الى روميه اذا عجز عن ملتقى ساره

الفصل الحادي والثلاثون

« غرائب الصدف »

في صبيحة ذات يوم من أيام الربيع للسنة الثالثة عشرة من تولي طيباريوس قيصر عرش الامبراطورية الرومانية خرج شاب من أشراف الرومانيين مع زمرة من أصحابه الى ضاحية من ضواحي روميه للصيد والقنص حسب عوائد الاشراف وكان هذا الشاب يبلغ الثمانية والعشرين من ربيع عمره وكان طويل القامة جميل الطلعة مفتول الشاربين وكان من معه يؤدون له واجب الاحترام والاكرام وكانوا يدعونه باسم الشريف بولينوس وهو اسم عائلة من اشراف الرومانيين وكان هذا الشاب مع رفاقه يركبون الخيل المسرجة ومع كل منهم قوس وجعبة من السهام وكانوا يطاردون في ذلك الجبل الغزلان ويحتالون

على صيدها وهم مسرورون من اعتدال الطقس ولطف الهواء وقد مدت الطبيعة على تلك الفلوات بساطاً سندسياً من الحشيش الاخضر وكانت الزهور مائلة فسيح تلك الهضاب والوهاد بالعطور التي تنعش القلب وما زالوا يتنقلون بين تلك المتسعات الوعرة الى ان وصلوا الى قرية كانت معروفة هناك بقرية الدوالي لما فيها من كروم العنب التي كانت تسقي كل اهل رومية من خمرها المعتقة

وكان بجوار هذه القرية عين ماء عذبة وصلها الصيادون بعد ان كانوا في اشد الظمأ والشمس بلغت الهاجرة وانقشعت عنها الغيوم فمدت اشعتها الجميلة على تلك الروابي والاكام وللحال نزلوا عن خيولهم فشربوا وسقوها وجلسوا يتحدثون وما ادراك بحديث الشبان الاشراف وكله عبارة عن نوادر غرامية ووقائع هوى وهيام وما زالوا يتنقلون من ذكر جميلة الى ذكر جميلة والشاب بولينوس ساه صامت لا يشاركهم بحديثهم كأنه ليس بشاب أو كأنه شاب وقد اثقلت كأهله الهموم والاكدار مع انه كان محسوداً من جميع رفاقه لانه كان وحيداً لابيه الذي يملك المبالغ الطائلة من الذهب والفضة عدا ماله من الاراضي والبساتين وبعد ان فرغ ما في جعاب هؤلاء الشبان مال احدهم ويدعى فاوس وقال له مالك لا تتكلم ايها العزيز وانت اسعدنا جميعاً في جميع الاحوال حتى ان الهة السعد قد لازمتك منذ ولدت وهي لا تتخلى عنك الى الابد

فتبسم بولينوس تبسم المحزون المغموم وقال لا يا عزيزي فاني اتعس الناس ولو كنت في نظرهم سعيداً ولو فتحت لك قلبي لعلمت ما فيه من الاحزان

قال هل لك ان تفصل ما اجملت وتعلمنا مما تشكو

ولا بد من شكوى الى ذي مروّة

يواسيك او يسليك او يتوجع

قال هيهات هيهات ايها الصديق الصادق والخدن الوفي ان ابوح لك بسري واطلعك على طليعة امري لان ليس بوسعك ان تواسيني ومصابي لا يقابل بالصبر والمواساة والتسلي وربما كنت تتوجع لي غير ان توجعك ايضاً لا يفيدني فاتركني بحالي قال بولينوس هذا وعاد فاطرق الى الارض واخذ ينكتها بعصى كانت في يمينه فصمت رفاقه لهذا الجواب واخذوا ينظرون الى بعضهم نظر الاندهاش ثم همس احدهم في اذن صاحبه وقال لعله عاشق متيم وقد اضناه الهوى فاجابه رفيقه

لا ايها العزيز فانا ادري الناس بهذا الشاب الذي يخالفنا في كل شيء فلا هو يعيش كعيشتنا مع انه ابن شريف مثلنا ولا ينظر الى حسناء كان قلبه قد من الصخر الاصم واظن بل ارجح ان لهذا الفتى تاريخ مدهش ويخال لي ايضاً انه ليس ابن الشريف انطونيوس بولينوس بل هو قد تبناه

قال من اين علمت هذا

قال من ملازمتي له كل هذه السنين في المدرسة حتى اني كنت اراه ايضاً لا يأكل من طعامنا بل يأتيه طعامه من البيت

قال او تظن انه غير روماني

قال لا بل هذا الراجح لاني لما كنت اسير معه الى البيت كان يخاطب امرأة هناك بعض الاحيان بلغة اليهود

قال اذا هو يهودي

قال أظن هكذا

قال أتأسف لانه يهودي على ما علمت من أخلاقه الحسناء ومآثره الرضية بل لا اخال ذلك صحيحاً

قال لا تأسف ففي كل أمة الصالح والطالح واني احترم هذا الشاب ولو كان يهوديا لما ظهر لي من حسن مباديه لانه كثيراً ما كان يعلمنا ان القتل والسرقة والزنى مما يغضب الالهة واشتهاء ثروة القريب ومقتنياته وامرأته من المحرمات ايضاً ونحن وان كنا لانستحل كل هذا الا اننا قلما انتبهنا اليه

وبينما كان هذان الشابان يتبادلان همسا الحديث عن الشريف بولينوس الذي كان ينكت الارض بعصاه وهو يفكر حسب عادته واذا بنساء القرية قد اقبلن للاستقاء من تلك العين وعلى كتف كل منهن جرتها فانتبه الشرفاء لقدومهن ونهضوا عن العين ووقفوا بالقرب منها واخذوا يتفرسون بهاته النسوة اللواتي لم يشب جمالهن تصنع الحضارة فكن جميلات كما خلقهن الله فمنهن الطويلة القامة البارزة النهدين الناعسة الطرف ومنهن العجوز الدردبيس ومنهن المشوهة الوجه ومنهن الحسناء وكان هؤلاء الشبان يستقبلون النسوة بابصارهم فيحدقون بالحسناء ويعرضون عن العجوز الشمطاء شان اولاد الناشئة الاغنياء في كل زمان ومكان الا انطونيوس الذى كان واقفاً بينهم كصنم من الاصنام لايبدي استحسانا او استهجان

وما زال اصحابنا على ما ذكرنا والنسوة يملأن جررهن ويعدن الى القرية

واذ برزت امامهم حسناء تخجل في سناها الشمس وتفضح في محياها البدر وتحكي في تثنيها القنا وتسل من الحاظها النبال فاندهش اصحابنا الشرفاء لجمالها وافتتنوا بفتاك لحاظها فحدقوا بزاهي محياها ومن بينهم الشريف بولينوس الذي ماوقع نظره على تلك الحسناء حتى تولاه الخبل وشعر بدافع من داخل صدره يدفعه الى الدنو منها والتعرف بها .

والظاهر ان الذي شعر به صاحبنا بولينوس قد شعرت به تلك الجميلة ايضا فوقفت هي ايضاً تنظر اليه من دون رفاقه و بيدها جرتها و كان النظر الى هذه الصبية وهذا الشاب من ابدع المناظر الطبيعية التي شاهدها هولاء الشرفاء فوقفوا ينظرون اليهما معجبين بالشبه المحكم الظاهر على وجهيهما ثم مالبث بولينوس ان دنا من تلك الجميلة وقال لها

هل لك ياجميلتي ان تسقيني من جرتك قليلا من الماء

قالت حبا و كرامة ومالت الى العين التي كانت قريبة منها فغسلت الجرة وملأتها وقدمتها له بيدين كانهما العاج بل اضوى و كان فؤاداهما يرتجفان ويكاد المصغي اليهما ان يسمع دقاتهما

وبعد ان شرب بولينوس شكر تلك الحسناء على حسن رعايتها له وقال لها ارجو ان تتكرمي وتعرفيني باسمك الكريم لعلي ازورك بعد الآن يابهجة الغيد الحسان

قالت من اين لي هذا الشرف العظيم وانا قروية حقيرة وانت رجل شريف من خاصة سكان العاصمة

قال بالرغم عما يحول بيننا من موانع الالفة ارى من نفسي دافعاً

اليك فعرفيني بنفسك

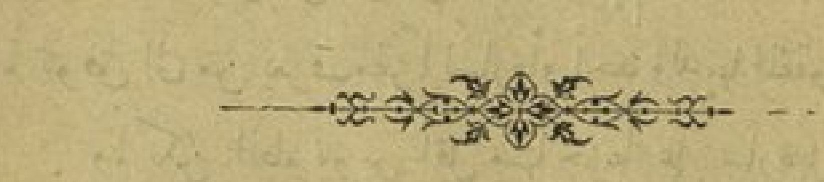
قالت اما انا فاسمي ريفاس وفي دار رجل همام يدعى روميلوس وهو رجل كريم وصاحب كروم وبساتين

قال هل الرجل زوجك

قالت كلا بل هو سيدي وما وصلت الى حديثها هذا حتى نادتها رفيقة لها فانصرفت وهي تقول اذكرني ياسيدي ولا تنسني

وكان اصحاب بولينوس مندهشين مما راوه برفيقهم من الحركة بعد ذلك السكون واخذوا يتكهنون بامره فمنهم من قال ان بولينوس قد وقع في اشراك الهوى ومنهم من قال انه اصبح متيما عاشق ومنهم من نسب اليه حب هذه الابنة من قبل وانه جاء بهم عمداً الى ذلك المكان ليلاقيها الى آخر ماقالوه حتى اذا عاد بادروه ممازحين ولكنهم لم يروا على محياه مايظهر عادة على وجوه الشبان اذا صادفوا من يهووه من العذارى لان وجهه قد عاد فتقطب بعد ان أشرق قليلاً بملتقى تلك الفاتنة الحسناء

وهكذا انتهى ذلك اليوم وفي غروبه كان كل من هؤلاء الشبان في بيته خلي البال ناعم الخاطر الا بولينوس الذي لما وصل البيت ذهب تواً الى عمته وعيناه مغرورقتان بالدموع



الفصل الثاني والثلاثون

بولينوس وعمته

عرف القراء الكرام من سياق الحديث ان بولينوس هو نفس ابراهيم ابن ساره الذي جاء به انطونيوس الى رومية مع راحيل وتبناه هناك رسمياً وجعله وارثاً لاسمه واملاكه وان عمته هذه هي نفس راحيل سليلة الملوك المكابيين ومربية ساره على ماجاء في روايتنا فتاة اسرائيل اذا ذكر القراء الكرام

ولقد تهذب ابراهيم في مدارس الشرفاء وساعده ذكاؤه المعروف بقومه على النبوغ فنبغ بالعلوم والمعارف والآداب وكان باخلاقه أحسن قدوة لابناء الاشراف الا ان كل ما أصابه من النعم ما كان ليثني عزمه عن التطلع الى ما فعل الدهر بامه وأخيه وأخته ولذلك كنت تراه قلق البال كثير البلبال لا يهنأ له عيش في حال من الاحوال وكان هذا ظاهر عليه في جميع حركاته وسكناته

وكانت راحيل كذلك في قلق واضطراب على ما عهدناها في انطاكية وقد مضت كل هذة السنوات التي مرت عليها وهي في رومية تقطع الايام بين السؤال والتفتيش من كل من زار أورشليم أو عاد منها ولكنها مع ذلك لم تتوفق الى من يعرف مقرّا لساره أو أحد ولديها المفقودين

ولم يكن انطونيوس أقل منها جزعاً على ساره بل كان همه الوحيد ان يعرف مقرها غير انه مع نفوذه وكثرة معارفه قدعجز عن معرفة بعض

الشيء عنها فاستسلم الى اليأس وبما انه حي الضمير كان يحسب كل ما أصابها من الويلات كان بسببه غير انه كان يتعزى بتبنيه احد بنيها وكان يسر بنظره اليه لانه كان يحكي أمه في كثير من ملامح وجهه

ولما عاد بولينوس من نزهته سار حالاً الى مقابلة راحيل التي كان يدعوها عمته ولما دخل عليها قال لها بشراك ياعمتي فقد وجدت شقيقتي نعم وجدت شقيقتي رفقه

قالت وأين هي قالت هذا وظهرت على محياها لوائح السرور

قال هي في قرية الكرمه المجاورة لهذه المدينة

قالت ومن أين علمت انها أختك

قال لاني رأيت في ملامحها ملامح أمي المسكينة نعم فانها تشبه أمي كل الشبه على ما تخيلت ولما رأيتها رأيت من نفسي دافعاً اليها فتقدمت منها وطلبت ان تسقيني ففعلت فشاهدت على خدها الايمن شامة كانت أمي تسر بها وتقبلها على ما أذكر

قالت أو سألتها عن اسمها

قال نعم فقالت اسمي ريفاس فعلمت من ذلك انها تدعى حسب اسمها الاصلي ولعلها لم تزل عذراء

قالت ربما تزوجت هناك

قال لم أعلم الحقيقة غير اني سألتها عن مثواها فقالت انها في بيت رجل غني يدعى روميلوس

فسرت راحيل وقالت لا بد لنا من الذهاب اليها في الغد

ولما حضر انطونيوس الي البيت قصا عليه قصة ريفاس وأبلغاه ماقرأ بولينوس من الشبه في محياها فسر انطونيوس بهذه الصدفة الغريبة وقال لابد لنا من الذهاب اليها لمشاهدتها في صباح الغد

وما انبثق فجر اليوم التالي حتى كان انطونيوس وراحيل وابراهيم على طريق قرية الكرمه قاصدين مقابلة الفتاة الحسناء التي تدعى ريفاس

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ ملتقى الاخوين ﴾

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما * يظنان كل الظن الا تلاقيا

كان روميلوس في جملة الضباط الذين شهدوا الموقعة الدموية التي قتل يهوذا بها في اورشليم معمن قتل من ثوار اليهود ولما وقعت ساره في اسر كايوس واقتسم الضباط اولادها اختار روميلوس رفقه واتخذها له كابنة لانه كان وقتئذ غير متزوج فخطر له ان يربيها ليتزوجها لانه رأى فيها من سيماء الجمال ما لا يستخف به محبو الحسان وبعد ان سمح له بها اختار اول فرصة سانحة واستقال من خدمته وعاد الى رومية بربيبته التي دعاها بلغة قومه ريفاس وكان قد غنم كثيراً من اموال اليهود فاشترى بها بساتين وكروم في تلك القرية الخصبة وسكنها آمناً مطمئناً ومن ذلك العهد اصبح كبيراً من اكابر الفلاحين واعيانهم

وكانت رفقه يوم اسرها صغيرة السن لاتعي على شيء ولفرط عناية روميلوس بها قد نست امها واخوتها وصارت تدعو هذا الرجل الذي

يعتني بها اباً لها

ولم تكن عناية روميلوس بفتاته الا كمن يغرس الكرمة طمعاً باقتطافها والبقرة استدراراً للبنها ولذلك كان يجتهدان يراها دائماً ابداً مسرورة فرحة فشبت بين بنات القرية قروية لا غش فيها

غير ان روميلوس لم يحسب حساباً للزمان ولم يخطر له ما في الغيب من المعاكسات ولم يخطر على قلبه ما قيل

كل ما ترتجيه سهل ولكن عثرات الآمال ليست بسهلة

فانه اصيب في ذات يوم بمرض منهك عصبي افقده كل مزايا الرجولية فاصبح بحكم القضاء ابا الرفقه بينما كانت هذه الفتاة قد شبت وبرز نهدادها واصبحت حورية تخجل بجمالها حور الجنان فلا تسل عما الم به من الغم والجزع غير انه وطد النفس على ان يكون لهذه الفتاة الحسناء اباً وتبناها شرعاً واصبحت الوارثة الوحيدة لكل ثروته التي تضاعفت في مرور هذه السنوات ومع ذلك كله كان يريد ان لا يزوجها لانه ما كان يقوى على فراقها وكان يعتبر ان حياته ومسرته في مشاهدتها

ولكثرة من تقدم من الشبان لخطبتها وللحرية الطبيعية في اختلاط البنات بالشبان ولا سيما في القرى خاف روميلوس على رفقه ان تلعب بها ايدي الهوى فتبتعد عنه ويحرم مشاهدتها ومنادمتها اراد ان يجعلها في شغل عن فواعل الغرام فقص عليها حقيقة حالها وانها ابنة رجل كبير من زعماء اليهود يدعى يهوذا وان أمها تدعى ساره وروى لها كل ما كان من مقتل أبيها وان لها على وجه البسيطة أم حية وأخوان يرزقان

فجزعت الفتاة لهذا النبأ الفجائي وسألته بلهف ان كان باستطاعته ان يجمعها بأمها وأخويها فقال اني لا أعلم لهم مقراً ومن ذلك اليوم تبدلت أفراح رفقه بالاتراح ولاح على ذلك الوجه الملائكي لوائح الغم والهم فعلم روميلوس بعد قليل الخطأ الذي ارتكبه باعلام الفتاة عن حالها واخبارها بحقيقة أمرها لانه بينما كانت تقابله كلما عاد الى البيت بوجه يطفح سروراً صارت تلاقيه بعينين مغرورقتين بالدموع وصار في كثير من لياليه ينتبه على صوت عويلها ونواحها وعبثاً كان يسعى في تخفيف مصابها الى ان وعدها أخيراً ان يسير بها الى أورشليم للبحث عن أمها وأخويها ومن جملة ماقاله لها انه هو الوحيد الذي يعلم مقرهم فاطمأنت قليلا وعاد لفؤادها سكون الامل بعد قلق اليأس

وفي صبيحة اليوم الذي قابلت فيه اخاها انتبهت مزعورة وهي تبكي فانتبه روميلوس الى بكائها وسألها عما بها فقالت لقد رأيت حلماً أزعجني وذكرني بأمي واخوتي

فقال قصي عليّ ما رأيت

قالت رأيت نفسي سائرة الى العين وأنا حاملة جرتي فرأيت أخي هناك وهو في نعمة ويسار وملامحه تحكي ملامحي فسقيته من جرتي وسررت برؤياه وبينما كنت اهم بتقبيله تركني ومضى فاخذت ابكي وانوح وانتبهت وانا سابحة في دموعي

فقال مربيها عسى خير يابنية ولعل الالهة تساعدك قريباً على الاجتماع بأهلك فطيبي نفساً وقري عيناً

وبالفعل في عصارى ذلك اليوم تم لرفقه روياً اخيها ابراهيم كما اسلفنا ولما رجعت الى بيتها قصت على مربيها كل ماجرى لها في العين وسالته ان يذهب بها في الغد الى روميه للسوال عن ذلك الشاب الذي استدلت من ملامحه على انه اخوها

فقال مربيها وهل سالتيه عن اسمه

قالت كلا

قال اوعرفت اين هو ساكن

قالت كلا

قال من اين لي اذاً ان اعرفه او اعرف له مقراً

قالت لاادري وغاية ماارجو ان اعرف مقراخي واجتمع فيه قالت هذا واخذت تبكي فرق روميلوس لبكاها وشرع يلاطفها الى ان وعدها ان يسيرمعها في صباح الغد الى رومية للتفتيش على اخيها

ولاحاجة للقول ان رفقه نامت ليلها بهوس وربما قضت اكثر ذلك الليل ارقاً وهي تفكر تارة في ذلك الشاب وانه اذا كان اخوها تبدلت احزانها الى افراح ولا بد ان ان تكون امها ايضا في بيت اخيها وطوراً كانت تقول ان هذا الذي رأيته ربما لم يكن اخي بل شبه به وكثيراً ماتتشابه ملامح الناس ولا سيما فان اخي يهودي وهو اسير وفقير كما انا ايضاً في الاسر فمن اين له هذا الشرف والسودد وهذا الغناء واليسار وما كانت تفكر بمثل هذا حتى تكاد تنطرح في طور اليأس بعدان لاحت لها بارقة الامل فتعود الى

سابق حزنها واكتئابها وعلى مثل هذا الاضطراب قضت ليلها «وليل العاشقين طويل» ومابزغت الغزالة في شروقها حتى خفت رفقه الى مربيها فنبهته من رقاده واسرعت فامرت الخدم باعداد جوادين للذهاب الى روميه

وما كان قلق ابراهيم الذي اضحى يدعى الشريف بولينوس باقل شوقاً لرؤيا شقيقته منها له بل كان انطونيوس ايضا شديد الرغبة بالوقوف على حقيقة هذه الابنة التي قال ابراهيم انها اخته وكذلك راحيل التي لم تغمض لها جفن في تلك الليلة وهي تصلي لالهها اله اسرائيل ان يحقق امالها ويهديها الى ملتقى ساره واولادها قبل ان تموت

وفي الصباح كان ثلاثتهم على ظهور خيولهم متجهين نحو قرية الكرمة على ما تركناهم في الفصل السابق

ولم يكن هذا الطريق الذي يسلكه من طرف رومية ابراهيم وصاحبيه ومن طرف القرية رفقه ومربيها بالطريق المتشعب حتى نخاف ان يضل الفريقان فلا يلتقيان وبالفعل عند منتصف الطريق قال ابراهيم لعمته أرى عن بعد فرسين وقلبي يخفق منذ رأيتهما

قالت راحيل اني لم أعد انظر عن بعد لكثرة البكاء والعويل فتبين جيداً اهل هما فارسان

فقال انطونيوس بل هما رجل وامرأة وأخذوا يستحثون خيولهم لتجري بهم سراعا ثم استتلى بعد قليل قائلا وحق الالهة ان هذه الصبية القادمة هي ساره اوانها تقنصت بابنتها

وقال ابراهيم انها اختي واستدل على ذلك بخفقان قلبي واضطراب جوانحي اما راحيل فاخذت تبكي لانها ما كانت تساعدها عيناها لتنظر هذه القادمة الحبيبة

ولم يكن الا القليل حتى دنا الفريقان وصاحت رفقه اخي فصاح ابراهيم اختي وتعانقا وهما على ظهور الخيل ووقف كل من روميلوس وانطونيوس جامدين وأخذت راحيل تبكي ثم اعترض روميلوس وانطونيوس بين الاخوين خوفا عليهما ونزلوا على قارعة الطريق حيث تفاهموا وتعارفوا ثم سأل انطونيوس روميلوس عن ساره فقال باختصار ان ساره لم تزل في قيد الحياة وانا اعرف مكانها في اورشليم وربما كنت انا وحدي عارفا به

قال انطونيوس الا تستطيع ان تدلنا على ذلك المكان لنذهب اليه

قال كلا فان ذلك محظور عليّ قال هذا وجذب انطونيوس اليه وقال له همساً انها في ظلمات السجون في مكان مصاب بانواع العاهات والامراض فارجوك ان تبقي ذلك في سرك حتى لا تضطرب رفقه

قال حسناً وانا ايضاً اخاف على ابراهيم

ثم عادا الى حيث كانت راحيل تقبل رفقه وابراهيم بينهما وقالا لقد عزمنا على السفر الى اورشليم

قالت راحيل فرفقه اذاً تسير معنا الى روميه حيث ننتظرك هناك ومتى عدت نرحل سوية

قال حسناً وودعهم وعاد الى قريته ليوكل كاتبه باشغاله ويعود الى

روميه ليسير مع الجمع الى اورشليم

الفصل الرابع والثلاثون

ساره التعيسة

في السنة الحادية عشرة من تولي الامبراطور طيباريوس قيصر عزل فاليلريوس كراتس عن الولاية اليهودية لكثرة التشكيات التي رفعها اليهود ضده وعين القيصر الشريف بيلاطس البنطي خلفاً له على اليهودية وقبل ان يذهب اليها استدعاه هذا الامبراطور وقال له

«يابيلاطس ان نظامات ملكنا وطرائق سياستنا معلومة عندك فاليهودية بلاد جميلة ولكن ينبغي استعمال الحكمة مع اهلها حتى لا ينفروا من الحكم الروماني فان المخالب الناعمة تنفع هناك اكثر من انياب الذئاب الكاسرة فانا قد تركنا لليهود حريتهم الدينية وامناهم على هيكلهم ومعابدهم وقررنا ان لا نتداخل في عوائدهم وذلك لان اليهود شعب حيّ متحرك لم ينس بعد انه كان ذا حول وسلطان ولم يزالوا حتى الآن يفتخرون بملكهم الزائل ومجدهم الساقط وانتسابهم الى اله يدعون انه ابو الالهة ولذلك يجب على نائب القيصر في اليهودية ان يكون نزيهاً في ادارته عادلاً في حكمه حازماً في امره ولقد وجدنا فيك يا بيلاطس اللياقة التامة لهذه المهمة يا ابن الذي قهر البنطيين فدعي بالبنطي»

وبموجب هذا النصح الذي تلقاه يبلاطس من قيصره سار الى اورشليم واخذ يحكم اليهودية بيد ناعمة وخلق رضي وحلم ما بعده من حلم ولقد سر اليهود بولاية الرجل بعدما رأوا فيه ميلاً الى مسالمتهم وعدلوا عن كثير من المقاومات التي كانوا يظهرون بها امام الولاة السابقين

والظاهر ان بيلاطس هذا كان من نفسه ميالاً الى حب العدل والنفور من الظلم بحيث اكتسب بذلك حب اليهود بالرغم عن كونه وثنياً وغريباً

وبعد اربع سنوات من توليه اورشليم حدث حادث له علاقة كبرى في روايتنا وهذا الحادث هو ان مدير السجون الرومانية في برج انطونيه قد مات وعين بيلاطس احد الرومانيين خلفاً له ولما مضى هذا لاستلام وظيفته قال له بيلاطس فتش هذه السجون جيداً حتى اذا رأيت فيها مظلوماً اخبرني بامره لافرج عنه لاني لا اريد ان اكون عاتياً في حكمي فمضى هذا الى مصلحته ولكنه عاد في مساء اليوم التالي الى بيلاطس وهو مضطرب غاية الاطراب

فقال بيلاطس ما وراءك يا دروسوس

قال وقفت على مظلمة تضطرب منها الجوانح وتنزعج لها الخواطر

قال ومثل ماذا هذه المظلمة

قال امرأة مسجونة منذ اربع وعشرين عاما في السجن المدفون تحت الارض وتقول انها سجنت ظلما من غير ما ذنب ولا جريمة

قال كلامها ليس بحجة فلعلها من انصار الهيرودوسيين الذين ما زالوا

يطمعون باعادة الملك لهم

فتبسم دروسيوس وقال وهل مثل هذه الجريمة تقضي على هذه المسكينة ان تبقى اربع وعشرين عاما في ظلمة السجن

فانتبه بيلاطس الى ان في الامر سراً وقال تعال اليّ غداً لنذهب فنرى هذه التعيسة وننظر في الافراج عنها

وفي صباح اليوم التالي سار بيلاطس الى برج انطونيه حيثما كانت تقيم الجنود الرومانية لزيارة السجن هناك والنظر في مصلحة الامرأة المظلومة التي اشار اليها السجان وعند وصوله الى هذا البرج تذكر حادثاً مؤلما جرى له به وذلك انه في يوم وصوله الى اورشليم زين الرومانيون صروح هذا البرج بالاعلام الجندية التي هي عبارة عن تماثيل تمثل القيصر والنسور الرومانية فثار عليه اليهود وحاصروا منزله خمسة ايام وهم طالبون رفع تلك الاعلام والتماثيل المخالفة لدينهم فاغتاظ بيلاطس من جرائتهم وعين لهم اخيراً موعداً لمقابلته في المرسح فذهبوا اليه جموعاً ولما اجتمعوا فيه احاطهم بجنوده فلم يقاوموه بل افهموه انهم مستعدون للقتل والفناء فاراد ان يعمل برقابهم حد السيف لو لم ينبه منبهه الى انهم يريدون بهذه الحركة العود الى الثورة فتذكر للحال وصية قيصر له فكظم غيظه وقابلهم بوجه باش وأمر للحال بارجاع الاعلام والتماثيل الى قيصرية

قلنا ان ذكرى هذه الحادثة آلمت بيلاطس عند دخوله برج انطونيه للفحص عن أمر هذه التعيسة حباً بعمل الخير فقط وزد على ذلك ان هذا الوالي رأى نفسه مغلوباً على أمره في مثل هذه الذكرى الا انه استسلم

للاقدار ورأى ان لا بد له من الصبر على المكاره طالما هو يحكم اليهود الشعب المتيقظ الحي الذي لم ينس انه في بلاده وان الرومانيين يحكمونه من غير ما حق شرعي

ولما دخل بيلاطس البرج قوبل بما يليق بمقامه من الحفاوة والاكرام والاحترام وسار توّاً الى السجون لتفقدها عموماً والنظر في امر تلك التعيسة على التخصيص

دخل بيلاطس السجن فاذا هو في منفسح من الارض يحيط به سور من الحجر الصلب ولكنه لم يرفيه انساناً فسأل رئيس السجانين الذي بمعيته اين هم المسجونون قال انهم مدفونون يامولاي تحت الارض حيث لا نور ولا هواء بل دعاميس مظلمة

قال وكيف ذلك قال هذا المنفسح عبارة عن ممشى ثم قال اذا أراد مولاي يبقى هنا لاصعد اليه بالمجرمين واحداً واحداً لان الروائح المنتنة التي في السجون لا يقوى الشريف على استنشاقها

قال خفض عنك يا دروسوس فان من واجبات الحاكم العادل ان يقف بنفسه على كل شيء وما زالا سائرين ووراؤهما خادمان يحملان مفاتيح السجون الحديدية الثقيلة حتى انتهيا الى سلم نزلا منها قدر عشرين سلماً فاذا هناك ممشى طويل ورواق مستطيل فيه حجرات متعددة فمال بيلاطس نحو السجان وقال اهذه هي السجون ؟؟

قال نعم ولكن تلك المنكودة الطالع ليست في هذا الدور

قال وهل بعد هذا الدور دور آخر اشد منه هولاً

قال نعم بل ان نسبة ذاك الى هذا نسبة الظلمة الى النور او السعادة الى التعاسة وكان بيلاطس قد تململ من ثقل الهواء الذي يستنشقه فشعر بالتعب والاعياء ثم قال فلنفتح اولاً هذه السجون ونتفقد احوال من فيها قال هذا واخذ الخادم يفتح تلك الغرف المظلمة وبيلاطس يستنشق ذلك الهواء الفاسد ويسمع انين المحبوسين وما انتهى الى آخر الرواق حتى رأى ما تشمئز منه النفوس الابية والاخلاق الرضية من كثرة المظالم والمغارم فامر باطلاق سراح كثيرين والفحص عن ظلامة من اشتبه بمظلوميتهم ولكنه كان قد بلغ مبلغاً عظيماً من الاعياء ومع ذلك تجلد وقال لرئيس السجانين فلننزل الى الرواق السفلي

قال كلا يا مولاي فان نفسك لا تطيق احتمال فساد الهواء والروائح المنتنة التي فيه وعدا ذلك فان ذلك السجن مضروب بالبرص

قال مضروب بالبرص وكيف ذلك

قال اعني قد وضع فيه عمداً آثار البرص وكل من يقيم فيه يصبح ابرص

قال يا للفظاعة اهذا الذي يعمله الرومانيون في هذه البلاد وهم يدعون مع ذلك برفع شأن المدنية

قال هذا وظهرت عليه لوائح التأثر ولكن رفيقه لم يشعر بما لاح على وجه الحاكم لان المكان قد كان مظلماً وبعد قليل شعر بثقل واضطراب وقال لرئيس السجانين آمرك باطلاق كل من في الطابق السفلي من السجن فاصدع بامري حالاً قال هذا وخرج من السجن وهو يتأسف على ظلم الانسان لاخيه الانسان

الفصل الخامس والثلاثون

المرأة البرصاء

قال التلمود اربعة يحسبون امواتاً الاعمى والابرص والفقير والعقيم اي ان الابرص يعامل كالميت فيطرد من معاشرة الناس كالجثة المنتنة لا يدنو منه احد ولو كان من اعز انسبائه او احب احبابه ويعدم كل الحقوق الشرعية ولا يجوز له ان يدخل هيكلاً ولا مجمعاً والشريعة توجب عليه ان يتجول في الازقة بثيابه الرثة وينادي باعلى صوته « نجس نجس » ولا يسوغ له ان يأوي الى منازل الاحياء بل يكون مثواه البراري والقفار والقبور المهجورة والكهوف الموحشة في وادي الجحيم او وادي ابن هنوم ويقضي عمره متعذباً في الحياة مذعوراً من الموت

ان كراتس قائد المئة الروماني ما كفاه ان مثل في يهوذا ورجاله افظع تمثيل حتى هجم على بيت الرجل فسبى امرأته وبنيه فوزع الاولاد على اعوانه واتخذ ساره لحاشيته على ان تكون في جملة محظياته فكبر عليها الامر ومثل ساره لا ترضى الذل ولا تستسلم الى الفحشاء فقابلت الرجل بما لم يكن ليحلم به وما زالت تثير غضبه حتى امر بسجنها في ذلك السجن الرهيب الذي ما دخله حيّ الا وخرج منه محمولاً على الاكتاف

دخلت ساره سجنها فرأته جنة ونعيماً لانه يحفظ كرامتها وشرفها ولم يهلها ما رات فيه من الظلمة الدامسة والرطوبة العفنة والنتانة المنبعثة من جوف الارض بل استبشرت في ذلك كله وهي تظن انها لا تلبث ان تموت

فتنجو من متاعب هذه الحياة وارزائها وكان في كل يوم ياتيها قليل من الخبز وكوز من الماء كانا يكفيانها طعاماً لذيذاً مستطاباً بل كانت كثيراً مالا تاكل ولا تشرب ان لم يبرح بها الجوع والظمأ

وكانت سلوتها الوحيدة استعادة حديث ايوب ومصائبه وويلاته وكانت كلما افتكرت بنيها رفعت عينيها الى فوق وسالت اله اسرائيل ان يتولاهم بعنايته ولشدة ثقتها بالهها ما كانت قلقة البال نحوهم وكانت تقضي يومها وبعض الليل راكعة مصلية وتعرف بزوغ الفجر من الخبز والماء الذين كان السجان ياتي بهما اليها في صبيحة كل يوم

كرت الايام وتوالت الليالي ومضت الاسابيع فالشهور ودخل العام الاول فالثاني فالثالث فالرابع ثم امحت من ذاكرة هذه التعيسة صورة النور وساد عليها الظلام فظنت نفسها انها ماتت وانها اصبحت في الجحيم ومع ذلك لم تفتأ تسبح الله وتشكره حتى اذا سكتت عن الصلاة مالت الى استعادة امالي التوراة على مخيلتها فوجدت من ذلك موانساً ومعزياً ومسلياً

وفي ذات يوم شعرت بظهور قشرة في كفها الايمن فلم تبال بها وحاولت ازالتها بالغسل فاستعصت فتعوذت بالله وسالته المعونة ثم امتدت العلة الى اليد كلها فتشقق الجلد وانحلت الاظفار ولكنها اشتكت كرهاً وضنكا بتحرق شفتيها وتشققها واخيراً صارت تشعر ان في جسمها فصوص كفصوص السمك فقالت في نفسها انه البرص وانها اصبحت برصاء ومع ذلك لم تهتم بجسدها لكونها اصبحت تنتظر الموت ولم يكن لها امل بالنجاة بل انها ما كانت تريد النجاة مخافة ان تقهر على الخنا وان تساق كرهاً الى

ـها ترتل مزامير ملك اسرائيل في ذات
كانت تبكي في اكثر احايينها لتفرج كربها
جفونها ثم شعرت بانحلال مفاصلها وسقوط
شرت اذ ظنت ان ملك الموت قد دنا منها
د الرفات غير ان الايام لم تحقق ظنها
يوم الذي دخل عليها به السجان وفتح مغلق
التعيسة فاذهبي بسلام
لى رأس الجبان كان اخف وقعاً من قول
من هذا المكان بسلام فنادت باعلى صوتها
ي انني نجسة واقسم عليك بالله اسرائيل ان
نت رومانياً ان تصوب علي نبلا من سهامك
ة وكانت ساره تقول هذا باللغة اليونانية
دهش من قولها انها نجسة وانها تطلب الموت
رها واخرجها خارجاً فاذا شعرها كله مع
حب من منظرها وطردها بالقوة الى خارج
ها كانت عارية وقد ابلت كل تلك السنوات
ت تابسه
رة خارج البرج نظرت الى اله اسرائيل
ي وانت تعلم وحدك ان العيش ما عاد يطيب
ت فامر اذا شئت فاستريح من أوجاعي

واوصابي لاني اذا وجدت اولادي لا استطيع ان ادنو منهم وان عدت الى قومي طردوني وعلى ذلك فانا مشتاقة الى الموت ظمئة الى شرب كأس الحمام ولولا انك سبحانك تحرم علينا القتل لقتلت نفسي بيدي ولكن هذا لا يجوز فعاملني برحمتك يا الهي قالت هذا وانطلقت الى خارج اورشليم وهي تنظر الى النور وتتمنى ان تعود الى الظلمة

سارت ساره الى ناحية الجنوب من مدينة اورشليم الى الوادي الذي يدور من غربي المدينة على جنوبيها وينتهي الى وادي قدرون تحت بركة سلوام السفلى بقرب بير عند ملتقى الواديين اسمها الان بير ايوب ولعل اسمها الحقيقي بير يوآب وسفح الوادي الجنوبي كان محل عبادة الاوثان فجعل بعد السبي موضعاً لحرق الاقذار واشتعلت عليه النيران على الدوام وسمي وادي الجحيم « جي هنوم » وفي رأس الجبل هناك قبور منقورة من الصخر منذ القديم ولما اصبحت هذه الارجاء نجسة ومرمى لاقذار المدينة صارت تلك القبور مآوي للبرص المطرودين من بين الناس لئلا يتنجس بهم احد فصارت لهم قرية اقاموا فيها منفردين عن الناس منقطعين عن معاشرة اهلهم يتجنبهم كل انسان كأنهم تحت لعنة الله دون سائر البشر واقامت هذه التعيسة بين البرص المقيمين هناك وكانت دونهم تشغل ايامها كلها بتسبحة الله وما كانت تفكر ان تنزل الى المدينة لانها كانت تقول في نفسها ان اليأس من رؤية اولادي خير لي من ان اراهم ولا استطيع ان اقبلهم اواسا كنهم

الفصل السادس والثلاثون

وصول راحيل وانطونيوس واولاد ساره الى اورشليم

وصل الى اورشليم الشريف انطونيوس ومعه راحيل وابراهيم الذى تبناه وروميلوس الكرام في قرية الكرمه ورفقه متبنيته قدموا اورشليم للتفتيش عن ساره وابنها اسحق الاصغر وفي حال وصولهم ذهبوا الى بيلاطس لانه كان صديقاً حمياً لانطونيوس فرحب بهم اجمل ترحيب وهناك قص روميلوس على بيلاطس كل ما كان يعرفه من امر ساره فاطرق بيلاطس بنظره الى الارض وقال نعم نعم فقدنمي الي منذ اسابيع بوجود امراة مدفونة في دور السجن السفلي فامرت بالافراج عنها ولا اعلم الى اين ذهبت وللحال استدعى رئيس السجانين ولما مثل بين يديه سأله عن المرأة التي افرج عنها فقال انها سارت في سبيلها وهي مبتلاة بالبرص وقد طلبت منا ان نقتلها وكانت تصيح انها نجسة فظننا ان بها جنونا

قال واين هي الان

قال لا أعلم ولكنها سارت الى المدينة

واستولى السكون على الحاضرين وتولاهم الجزع كيف لا ان ساره المحبوبة قد اصبحت برصاء ولا يجوز لهم ان يدنوا منها بعد ولو كان لها في نفوسهم غاية الحب والاحترام وهكذا انصرفوا من عند بيلاطس

الى الفندق الذي اتخذوه نزلاً لهم وهناك سألهم انطونيوس ان يسيروا معه للسؤال عن ساره من اليهود

فقالت راحيل وعيناها مغرورقتان بالدموع خير لهذه المسكينة ان تموت لان ماعاد لنا من امل في ملاقاتها

فتعجب انطونيوس من كلمات راحيل وقال لماذا كل هذا الجزع اماسمعت بانها قد اطلقت من سجنها واننا يمكن ان نعثر عليها اليوم اوغداً

قالت هيهات ثم هيهات ياسيدي فان ساره قدانضمت لقرية البرص ولايجوز لنا بعد اليوم ان نساكنها او نواكلها او نتحدث معها الاعن بعد حسب شريعتنا

قال يالها من شريعة ظالمة فاذا كانت قد اصيبت هذه المراة بسوء فما ذنبها ليبتعد الناس عنها

قالت راحيل لاتقل يامولاي ان شريعتنا ظالمة فان هذا الداء سريع العدوى فاذا لم ينقطع صاحبه عن الناس امتدت العدوى منه الى الصحيح

الم تر ان المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمداً ليسلم سائره

وهكذا يجب ان يقطع الابرص من معاشرة الاصحاء حتى لاتنتشر العدوى ويعم المصاب

فجزع انطونيوس من كلمات راحيل وقال قسماً بالالهة لا بد لي من مقابلة ساره ولو بليت بدائها

قالت اسألك يامولاي بشرفك الروماني الا تفعل واذا فعلت اصبحت انت ايضاً نجساً فلا يعود يجوز لنا ان نساكنك ونواكلك

فتعجب انطونيوس بالاكثر من هذه الكلمات وقال اذاً نسير الى ساره ونقابلها عن بعد فاين هي الان

قالت هي طبعاً في وادي الجحيم في قبور الملوك حيثما يسكن البرص

قال ومن اين تعيش

قالت من حسنات اليهود

قال وااسفاه لقد اصبحت ساره تعيسة فقيرة يتصدق عليها القوم بحسناتهم اواه ما هذا النبأ المشئوم قال هذا ودق يداً بيد واطرق الى الارض مفكراً ثم قال هيابنا لنسير اليها

قالت نسير في الغد لاننا لانأمن ان تكون قد نزلت الى المدينة للتفتيش على اولادها

الفصل السابع والثلاثون

ساره وراحيل

لم ترَ راحيل ان تسير بانطونيوس واولاد ساره الى ملاقاتها في ذلك المكان الرجس مخافة التأثير عليها من طرف والتأثير على اولادها من الطرف الآخر واستصوبت اولا ان ان تذهب لوحدها ثم ترى ماسيكون وما يجب ان تعمله في مثل هذه الظروف الحرجه ولما كاشفت بهذا الرأي الشريف انطونيوس استصوبه وهكذا اعدت معها سلة فيها انواع كثيرة من اطايب المأكول وسارت بها مع جرة للماء وخرجت من باب السمك في طريق عين روجل وجلست بقرب البئر التي مر بنا ذكرها وهي

تقول في نفسها ان لا بد للبرص من الاتيان للاستقاء من هذه البئر حيث لا مورد لهم غيرها

اشرقت الشمس وراحيل جالسة تنظر تارة الى البئر واخرى الى القرية واذا برجل قد جاء الى البئر ومعه دلو وحبل للاستقاء وصار الناس يردون البئر بازدحام ويتسابقون للاستقاء واملاء جررهم قبل ان يشتد حر الشمس وبعد قليل رأت راحيل وهي ترقب القرية النجسة اهل المقابر يتحركون امام ابواب مساكنهم ثم اجتمعوا جماعات بينهم اولاد صغار ونساء وعجائز وشبان وشيوخ ومن هذا علمت راحيل ان بعض عيال بجملتهم مصابون بهذا الداء الوبيل

راقبت راحيل من مجلسها بقرب البئر جماعات البرص ولم تتحرك أو تتلفت يمنة ولا يسرة زيادة في التحرس لئلا يفوتها معرفة من تطلبه وكان البرص يأتون ازواجا وافواجا لقرب البئر ليملأ لهم الماء ولكن راحيل لم تر ساره غيرانها صبرت نفسها وهي تؤمل ان تري من تحب ولو الى النهاية

ثم مالبثت ان رأت عند اسفل الوادي مدفن واسع الباب دخلت عليه اشعة الشمس الكاوية فاستلفت انظارها مافيه من الكلاب الداشرة التي كانت تعوي وبعد قليل خرجت من هذا الكهف أمرأة شائبة الشعر محدودبة الظهر مرتجفة الاعصاب وبيدها جرة قد أكل الدهر عليها وشرب وبعد ان خرجت ومشت قليلا ظهر ان رجليها لم تحملاها فجلست على حجر بقرب البئر بالم وعجز وضعف انحدرت نحو البئر وكانت راحيل تنظر اليها بشغف وشوق كأنها هي التي تطلبها

لم تكن ساره تعلم حق العلم ما يجب ان تفعله كبرصاء من ملازمة حدود البرص والتحرز من مخالطة الاصحاء ولذلك لما انحدرت من وكرها الى البئر لتستقي لم تقف عند الحد المضروب للبرص بل تخطته قليلا واذا ببعض الحاضرين ينادونها ان قفي فلم تنتبه المسكينة واذا بالرجل الواقف لا نتشال الماء قد تناول حجراً ورماها به فاخطأها وانصب عليها الحاضرون باللعنات وهم يصرخون « نجس نجس » فلم يسع راحيل وهي تشاهد كل هذا الا ان نهضت مسرعة نحو المسكينة ونبهتها الى خطئها ولكنها اذ دنت منها عرفت انها هي ساره الجميلة لان ملامح وجهها لم تزل تدل عليها

ولما سمعت ساره صوت راحيل ذكرتها حالاً وقالت اشكرك ايتها السيدة لعنايتك بي واني لاذكر سيدة بهذا الصوت كنت احبها وكانت تحبني وكان بين السيدتين مسافة خمسة امتار او ستة بحيث لا يخطئ النظر فتاكدت راحيل ان هذه التعيسة هي بعينها تلك الحسناء الحبيبة فسقطت على ركبتيها وهتفت

اواه يا الهي اين هي السيدة التي احبها اين تلك التي ربيتها على ذراعي اين التي كانت تعزيني في جميع مصائبي واحزاني اين تلك الجميلة التي كان يدعوها الناس « فتاة اسرائيل »

فتنهدت ساره الصعداء وقالت بقلب منكسر لا تحزني يا راحيل فان الله اسرائيل قد افتقدني بهذه المصائب والاوجاع لامجده فليكن اسم

الرب مباركاً الان والى الابد

قالت راحيل لدي ياسيدتي بعض انواع المأكولات ففي لاحضرها لك وسرعان ماذهبت فاحضرت السلة وارادت ان تدنو من ساره فاوقفتها هذه بقولها اياك ان تقربي مني فان القوم يرجمونك بل اتركي السلة واملأي جرتي التي امامك من الماء وهذا كل ماارجوه الان

فتناولت راحيل الجرة وسارت فملأتها وعادت بها فوضعتها بقرب السلة ورجعت الى الوراء فدنت ساره وتناولتها وقالت استودعك ياراحيل الى الابد فلا تعودي اليَّ فيما بعد حتى لاتزيدي في آلامي واحزاني

اما راحيل فكان الدمع يترقرق في عينيها ومع ذلك كانت تتجلد امامها واذ سمعت كلماتها ورأت انها تريد الانصراف تعجبت من شدة صبرها في مثل هذا الضيق وقالت لها امالك ياسيدتي من حاجة تساليني عنها

فمالت وجهها قليلاً وهي منصرفة وقالت وهل لاهل القبور وسكان المدافن من حوائج تقضى لهم فاذهبي فديتك واتركيني واذا شئت فاسألي لي الرحمة

قالت ساره اولا تسئليني ياسيدتي عن اولادك

فلما سمعت ساره هذه الكلمات تركت الجرة والسلة ومالت اليها وقالت ياراحيل ان اله اسرائيل يكتنفهم برحمته فلا يصيبهم ضر اواذية اما انا فلن اعود اغمرهم بذراعيَّ كلا ولا وسيلة لي الى تقبيلهم فخير لي ان لااراهم . اواه ياراحيل اني اعلم جيداً حبك لي ولا شك انك تحبين

اولادي وتعطفين اليهم بمقدار حبك لي وانعطافك نحوي وانا اكيد انك لهم احنى من الام كما كنت لي اماً حنوناً قالت هذا وصرخت صرخة دوى لها اطراف المتسع ثم قالت استودعك الله واياهم يا راحيل فانسي ذكري واجعليهم ان ينسوني وقولي لهم ان امكم قد ماتت انها انتقلت الى عالم الفناء وصارت في اعماق الجحيم واياك ان تخبريهم عن مقري او انك شاهدت معيشتي لئلا تزيدي في آلامهم قالت هذا وامالت وجهها تريد الانصراف فاستوقفتها راحيل بقولها ولكنهم يفتشون عليك وقد جاوا من البلاد النائية لاجلك

فعادت ساره وقالت لا تدعيهم يلاقوني بحقي عليك يا راحيل

قالت ولكن يعز عليّ ان اراهم يطلبون امهم وينشدونها ولا سبيل لهم اليها

قالت ساره اواه فهل تستطيعين ان تقولي لهم انك شاهدت امهم "التعيسة" بالصحة وانها متمتعة "برفاه المعيشه" ؟؟

فسكتت راحيل قليلا ثم قالت فلانصرف الان وانا في كل صباح آتي اليك بشيء من الطعام

قالت الاولى ان تعتني باولادي وتتركيني الى رحمة ربي حتى تنتهي احزاني واوجاعي بالموت قالت هذا وتناولت الجرة بيد والسلة باليد الاخرى وسارت في طريقها متثاقلة وراحيل تنظر اليها الى ان بلغت مدفنها فدخلته وعادت هذه الى بيتها وهي في حالتي الانفجاع والاضطراب

بلغت راحيل البيت فاذا انطونيوس على الباب ينتظرها فقرأ في عينيها وعلى اسارير وجهها ما اغناه عن الاستفسار فقال لها فهمت كل شيء

ان الحاله تعيسة والا ن ماذا نعمل

قالت لا اعلم يامولاي واخذت تبكي وتندب

قال لا محل للبكاء والعويل فما الراي عندك

قالت واي رأي لي ولا رجوى من حياة ساره وهي في اشد حالات البرص

قال وكيف تعيش

قالت انها عائشة بين الكلاب الشاردة توانسهم في نهارها وتساكنهم في ليلها ويالها من معيشة يهون في جنبها الموت

قال وهل ستبقى على هذه الحالة

قالت هذا ماتقضي به شريعتنا

قال وما ضرنا لو حملناها الى مكان منفرد واعتنينا بها ان لم يكن لاستعادة صحتها فرغبة في راحتها وتخفيف مصائبها

قالت ولكن اليهود يرجمونها

قال ان عندنا من السلطة الرومانية مالا نخاف معه همجية هذا الشعب القاسي

قالت حسناً وما رأيك في اولادها اذا طلبوا مشاهدتها

قال نقول لهم اننا طلبناها فما وجدناها واننا لم نزل نسعى لملاقاتها

فاستصوبت راحيل ما ارتاه انطونيوس وتركته ودخلت البيت اماهو فسار توا الى دار بيلاطس وقد كان يسكن قصر هيرودس على جبل صهيون فاستطال الطريق وكان يلعن اورشليم لكثرة الازقة الواطئة

والطويلة والكثيرة المنعرجات التي كان مضطراً ان يسير فيها

ولما دخل انطونيوس على بيلاطس قصَّ عليه كل ما كان من امر ساره وانها اليوم برصاء واخبره بان شريعة اليهود لا تسمح للبرص بمخالطة الاصحاء وانهم اذا شاهدوا الابرص في المدينة رجموه بالحجارة

فقال له بيلاطس ان شرايع اليهود واحكامهم غريبة غير انني لا استطيع مخالفتها لانهم يتمسكون بحرفيتها كل تمسك

قال ولكن يجب ان ننتشل ساره من هذا الشر الوبيل

قال وما تظن اننا نقدر ان نفعل

قال ان تتخذ لها داراً ونعين لها خدمة مخصوصين فيخدمونها ونعتني بمداواتها عسى ان تشفى

قال ان مطلبك لصعب فان المنزل لا يكفي ان نضع فيه خدماً بل اننا نحتاج الى حراسته بالجنود خوفاً من تعدي اليهود ومع ذلك فلا بأس من ان تتخذ لها داراً في قرب برج انطوني حيث تحرسها الجنود الرومانية وهكذا بعد ايام قليلة اصبحت ساره في بيت خاص وتعين لها من الخدم ما يكفل راحتها وصارت راحيل تتردد عليها لوحدها غير ان هذه المسكينة لم ترَ اولادها واولادها ايضاً لم يزالوا يتعللون بملاقات امهم



الفصل الثامن والثلاثون

﴿ ذبائح الصباح والمساء ﴾

كان ابراهيم ورفقه مع راحيل في صبيحة اليوم الاول الذي قدموا فيه اورشليم على سطح البيت الذي يسكنونه فاستلفت انظارهم بناء عظيم عرفوه بانه الهيكل المقدس من اسطحته الرخامية واسواره الرفيعة وابراجه المنيعة وبينما كانوا يتاملون في هذا المعبد العظيم واذا باشعة الشمس قد لاحت من خدرها وانبعثت الى الاقواس الذهبية القائمة في الباب الذي يفتح الى قدس الاقداس فتالقت كاكليل سموي بضياء مجد علوي فقالت رفقه لراحيل تبارك اسم يهوى الساكن في هذا الهيكل

ولم يمر الا القليل حتى شاهدوا سحابة ذبيحة الفجر صاعدة من الهيكل فاخذتهم رعدة التقى وهيبة التعبد فخروا ساجدين لله عزَّ وجل ثم انتبهوا لانفسهم واخذوا ينظرون الى الشمس البازغة على قمة جبل مريا المقدس الذي تجلى عليه العلي ثم اصغوا الى اصوات الابواق التي كانت صاعدة من اسوار الهيكل فتميد لها اساسات المدينة المقدسة واذا سكان اورشليم قد هبوا من رقادهم من جميع اطراف المدينة وصعدوا الاسطحة وحولوا وجوههم الى الهيكل ثم في التبويق الثاني الذي كان هتافه موسيقيا كصوت الله حين كلم موسى في جبل حوريب سجدت كل ركبة للمعبود الحي واشترك كل لسان في انشاد وترنيمة الحمد الصباحية وكان دوي الاصوات كعجيج الامواج المتكسرة على الشاطي واذ كانت رفقه

غير معتادة على نظر مثل هذه العبادة كانت واقفة بالا كثر كمشاهد متعجب من اعلى سطوحها الى ما جاور من الاسطحة وانه لمنظر رهيب اذا تصوره القراء الكرام

وفي اثناء ترديد ترنيمة الحمد شاهدت رفقه عمود دخان اسود صاعداً من وسط الهيكل ثم انبسط على المدينة كخيمة وقد صحبه عمود آخر اشد منه كثافة واقل سواداً فكان على هيئة اكليل وهذا العمود كان دخان البخور الذي احرق مع ذبيحة المحرقة

وبعد تبدد دخان الذبيحة والبخور وتفرق الناس الى مصالحهم دنت رفقه من راحيل وقالت لها هل اليهود يصلون هكذا في كل صباح

قالت نعم ولكن ذبيحة المساء اعجب وادهش فلبثت رفقه بفروغ صبر تنتظر المساء واذا في حال غروب الشمس وراء جبل الجباية سمعت هتاف طويل من افواه المبوقين على ابراج صهيون الغربية ثم عقب ذلك سكوت تام لم يظل كثيرا حتى سمعت صوت اهتزاز تبعه صوت الابواق المرعدة من اعالي اسوار الهيكل ثم اخذت سحب الذبائح ترتفع على اجنحة الجلال والوقار وتنزل كستار مرخي حول الجبل الالهي فيواريه عن النظر

وبينما كانت رفقه مندهشة مما ترى في اورشليم وتسمع من احاديث راحيل واذ خرج من قلعه" الرومانيين المتاخمة مدينة داود اصوات ابواق نحاسية مزعجة وتلاها عمود دخان كثيف كدخان الذبيحة صعد من اعالي قمة مدينة داود الحصينة فسالت رفقه عمتها عن هذه الذبيحة فقالت لها وهي منزعجة

ان الرومانيين اخذوا في عبادتهم لجوبيتير الههم الوثني قالت هذا واتبعته بصوت تاوه محزن وهي تقول « متى تتحرر المدينة المقدسة من تعييرات الغرباء فواهاً لاسرائيل »

اواه قالت رفقه فقد صدق فينا ارميا في مراثيه حيث قال « ان ميراثهم قد صار للغرباء وبيوتهم للاجانب ولم تصدق ملوك الارض وكل سكان المسكونة ان العدو والمبغض يدخلان ابواب اورشليم »

فاجابت راحيل بصوتها العذب الممتلي حنانا الابنة رفقه على كلماتها بقولها ان كهنة الهيكل فسدوا جميعهم يا بنية الا القليل واني لاخاف ان يكون في كهنتنا اللاويين عدا تظاهرهم في عبادة الله ما في كهنة تماثيل الرومان الذين لاهم لهم الا اظهار العظمة والجبروت والتسلط على افكار الشعب بعنف واستحلال كل محرم في سبيل اهوائهم النفسية واغراضهم الشخصية ولست انكر ان الله جل جلاله ربما لا يسر اليوم بذبائحنا اكثر من سروره بذبائحهم واخشى ان يقول لنا بفم اشعياء « لماذا الي كثرة ذبائحكم يقول الرب اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس لا اسر . لا تعودوا تاتون بتقدمة باطلة . البخور هو مكرهه لي ملت حملها فحين تبسطون ايديكم فاستر عيني عنكم وان اكثرتم من الصلاة لا اسمع . ايديكم ملآنة دماً . اغتسلوا تنقوا . اعزلوا شر افعالكم كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير » واستتلت راحيل كلماتها بقولها وقد لاحظت ان الاعتبار الحقيقي في الهيكل قد قل عما كان ولكني اجد ان مظاهر العظمة والمجد قد زادت في الهيكل واذا كنا اليوم في ظلال سحب

المحرقات التي تقدم على مذبح الرب فان فيها كثير من المظاهرات الكاذبة المأخوذة عن الرومانيين وغيرهم من عباد الاوثان ومقدمي المحرقات لهذه الاحجار الصم ولذلك لا أجد فرقاً كبيراً بين الدخان المتصاعد من هيكل سليمان وبين ذلك الدخان الذي رأيناه صاعداً من برج انطوني قالت هذا راحيل ولوائح الهم والغم كانت ظاهرة على وجهها

أما رفقه فلم تقابل حديث راحيل بالاهتمام الواجب لانها كانت ربيبة الرومانيين غير انها ككل يهودي ويهودية تعصبت لقومها من يوم علمت انها منهم وهذه مزية في اليهود محمودة لا نراها في غيرهم من الامم

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ غرام جديد ﴾

لما عادت راحيل من مقابلة ساره الى بيتها كان ابراهيم ورفقه ينتظرانها بفارغ الصبر وهما على أحر من الجمر وما أصعب مافاجئتها به راحيل من قولها انها لم تعثر على أمها وان كل الذي قالوه في حضرة بيلاطس لم يكن عن ساره وان هذه التعيسة لم تكن ضائعة غير انها لطفت حديثها بقولها ان لا بد من العثور على ساره بهمة حاكم اليهودية وحسن عناياته وماله من الصداقة المحكمة العرى مع انطونيوس وأشارت الى روميلوس بعينيها اشارة فهم منها هذا ان لا يعترضها فيما تقول ثم اختلت

به وحدثته عن كل شيء فاستحسن رأيها ولا سيما اذ علم ان انطونيوس يسعى بنقل تلك المنكودة الطالع الى بيت خاص يكفل لها الراحة

وبعد قليل عاد انطونيوس فأسر الى راحيل وروميلوس كلما فعله وانه أخذ يسعى في نقل ساره والعمل على راحتها وانه يؤمل أن تشفى من مرضها فشكرته راحيل على جميل عنايته

وصار همّ راحيل بعد كل هذا التجوال بابراهيم ورفقه في نواحي أورشليم لتسري عنها الكرب وتخفف عن عواتقها الاوصاب والاحزان

وفي ذات يوم خرجت راحيل برفقه وذهبتا الى الهيكل لمشاهدة الاحتفال في تقديم باكورة الاثمار لله عز وجل وبينما كانتا عائدتين سالت رفقه عمتها عن بناء عظيم كان قبالة الهيكل فقالت لها انه برج انطوني وقد أحزنهما مرأى هذا البرج العابس في وجه الهيكل ومن أعالي أسواره كانت تخفق أعلام النسر الرومانية فوقفت راحيل تتفرس في هذا المكان الذي طالما سمعت أحاديثه وتلت أخباره في تواريخ قومها ثم مالت نحو عمتها وسألتها ان تطوف بها تلك المعاهد فأجابتها الى سؤالها وبعد ان سارا قليلا بجوار ذلك البرج واذا بجنديين رومانيين قد اقتربا منهما وتقدم أحدهما فاعترض رفقه وتمسك بنقابها وحاولت راحيل ان ان تصيح وتستغيث فتقدم الثاني ومسكها وتهددها ان هي رفعت صوتها وبينما كانتا في أشد الضيقات وقد استولى عليها الرعب والفزع واذا بشاب قائد مئة لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره قد أقبل بجواده من القلعة وصرخ بالجنديين وعدا مسرعاً اليهما ومال نحوهما بسوط في يمينه فأشبعهما

ضرباً مبرحاً وسار بهما الى القلعة بعد ان مال نحو السيدتين فاعتذر لهما أجمل اعتذار ووعدهما بالا قتصاص الشديد من هذين المعتدين فشكرته راحيل على عنايته وعادت برفقه وهما في أشد حالات الفزع والخوف

وبينما كانتا راجعتين رأتا موكباً عظيماً تحف به الاعلام الرومانية والمبوقون والمركبات المذهبة فمالتا عن الطريق ليمر الموكب فاذا بمركبة حربية مذهبة عليها بيلاطس حاكم اليهودية تتقدمه فرقة من الفرسان وتظلله مظلة من الديباج الازرق مزركشة بالذهب تجرها أفراس بيضاء وعليها عدد فضية ورؤسها مزينة بالريش وتتبعه فرقة من الفرسان الشبان بأبهى الملابس وأجمل الزينات

ولما مر الموكب تأوهت راحيل تأوه المحزون فسألتها رفقه عن حزنها فقالت أمارأيت يارفقه هذا الموكب فان آبائي كانوا يمرون باورشليم بمثله فكيف سمح يهوه الاله العظيم لهؤلاء البرابرة بالصولجان الذي هو شرعاً ميراث الاسد من سبط يهوذا

ثم عادتا الى البيت فأخبرتا انطونيوس وروميلوس بكل ما كان فعرف انطونيوس ذلك القائد ان اسمه كرميليوس ووصفه بكل محمدة وروى عنه من الاخلاق الرضية والصفات المحمودة ماحببه الى السامعين

أما رفقه فكانت وهي تسمع أماديح الشاب كرميليوس تظهر على وجهها حمرة الخجل وأخذ قلبها ينبض نبضان الحب وقد دخل الهوى فؤادها بين تدري ولا تدري وقد شعرت راحيل وهي تنظر الى رفقه بما يخالج فؤادها فخافت عليها ان يصيبها في محبة هذا الروماني ما أصاب

أمها من قبل من حب انطونيوس فكاد يطير فؤادها جزعاً فما صدقت ان انتهى الحديث حتى نهضت الى حجرتها واستدعت رفقه اليها وقالت أي بنية ما رأيك في تجوالنا اليوم

قالت انه مسر ومخيف

قالت وكيف ذلك

قالت انه مخيف لما اعترضنا من الاهوال ومسر لاني رأيت فيه آثار عظمة أجدادنا

قالت وما رأيك في القائد الشاب الذي نجانا من ذينك الجنديين

قالت لقد شاقتني انسانيته وكرم أخلاقه ونبالة نفسه وبالحقيقة انه متجمل بكل محمدة ومتحل بأجمل صفات اللطف وجدير به ياعمتي ان يكون يهودياً وحبذا لو سهلت لي العناية الاجتماع به لأهوده واقنعه بوجوب ترك وثنيته والتعبد لله الحي

قالت انك مغرورة يارفقه فان هؤلاء الرومانيين يظهرون اللطف والظرف لكل جميلة غير انهم لا يمكن ان يتهودوا ولا سيما أشرافهم الذين يرون كل الامم أحط منهم حسباً ونسباً ومجداً وسؤدداً فاياك ان تفكري بعد اليوم بهذا الشاب أو تلتفتي اليه والا فيصيبك منه ما أصاب أمك من انطونيوس هذا الذي ترينه ساعياً معنا لانجادها فانه هو أصل كل هذا الشقاء والبلاء الذي نحن فيه

قالت وكيف كان ذلك

فأخذت راحيل تقص عليها حوادث انطونيوس في الاسكندرية وما كان من جراء حبه لامها ساره على ماجاء في روايتنا فتاة اسرائيل

فلما سمعت رفقه كلمات راحيل قالت اذاً ان الرومانيين على صدق في الهوى ونبالة في الغاية وهذا انطونيوس غير ملوم في كل ماحدث

قالت راحيل اذاً تتعرضين يابنية الى أهوال وأخطار في هذا الحب

قالت ربما كان ذلك ولكن لا أخفي عليك انني ملت الى هذا الشاب بجملتي وصرت أتمنى لو أتيح لي ان أقابله مرة أخرى ولا أعلم ما الذي يدفعني الى حبه

فصفقت راحيل كفاً بكف وأخذت تبكي وتعول فشاركتها رفقه بالبكاء والعويل ولكنها كانت تبكي لما سمعت من كلمات راحيل لا من الخوف الموهوم من حب هذا الروماني

وعلى هذا تركت راحيل رفقه وسارت الى حجرتها وهي لا تعي على شيء فدخل عليها ابراهيم ورآها على هذه الحالة فجزع ولكن لما أخبرته عمته عن سبب حزنها واضطرابها اطمئن خاطره وقال :

لاتستسلمي ياعمتي للجزع والحزن فان رفقه لم تزل في أول عهد الحب ولا نلبث ان نزيله من فؤادها بالحسنى وجميل الموعظة فصمتت راحيل جزعة اما رفقه فقد ذهبت الى حجرتها واختلت بنفسها واخذت تفكر بما سمعته من عمتها وهي تقول « رماني الهوى من حيث ادري ولا ادري »

الفصل الاربعون

يوحنا المعمدان

تركنا يعقوب في أورشليم يسعى وراء ساره ويتنسم أخبارها ولقد أبى ان يعود الى روميه مع راحيل وابراهيم بصحبة انطونيوس

وكان هـذا الخـادم الامين لاهمَّ له ولا يرتجي من دنياه سوى العثور على سيدته مكافأة لما كان لابيها عليه من الايادي والمنن

وكان يتجول كل هذه المدة بأطراف اليهودية ويتنقل من مدينـة الى مدينة ومن قرية الى قرية ويعاشر الناس على اختـلاف طبقاتهم كل ذلك ليتوصل الى سماع خبر عن ساره غير انه عبثاً كان يسعى بل كان من أمره في ظلمات متكاثفة بعضها فوق البعض

وفي ذات يوم سمع بظهور نبي جديد صادق من لدن الله ظهر في أريحا وانه يكرز بقوة لم يسمع بمثلها منـذ أيام ايليا واليشع ومسكنـه في مغارة وطعامه النبات والعسل البري ولا يشرب غير الماء القراح ولباسه من وبر الابل وانه ابن كاهن من كهنة الهيكل يدعى زكريا طعن في السن ولم يرزق أولاداً ثم بينما كان ذات يوم في قدس الاقداس بشر بحبل امرأته اليصابات التي كانت هي أيضاً طاعنـة في السن فاندهش وشكك بالامر فمني بالخرس الى ان ولدت امرأته هذا الرجل الذي ظهر بمظهر الانبياء في الثلاثين من عمره هـذا مجمل ماسمعه عنه فقصد ساحته ليرى ان كان يستطيع ان يفيده شيئاً عن أمر ساره

سار يعقوب الى برية أريحا لمقابلة النبي الجديد الذي ظهر مع الجموع

الكثيرة السائرة لمشاهدته من نساء ورجال وأولاد ومعهم زاد كثير في سلالهم على عادة الشعب الاسرائيلي في الصعود الى عيد الفصح ووجد بين هؤلاء المسافرين عدداً عديداً من الكهنة والقضاة والصدوقيين والفريسيين والاسينيين فسار معهم وكانوا جميعهم مشاة على الاقدام فانتهز يعقوب فرصة المسير ودنا من كبار الكهنة وأخذ يحادثهم في هذا النبي الجديد الذي كان اسمه يوحنا فوجدهم مصدقين رسالته وقال له واحد من الكهنة ان السبعين اسبوعاً التي ضربها دانيال أجلاً لمجيء ماسيا أوشكت ان تنتهي

فقال يعقوب اذاً أنت مصدق ان ماسيا المزمع ان يكون رئيساً وملكاً يملك من البحر الى أقاصي الارض يأتي الى البرية لابساً جلود الوحوش

قال لا أصدق بأن هذا النبي هو ماسيا لان المسيح حينما يأتي يدخل الهيكل وكلنا يجب ان نشاهده هناك ولكني أؤمل ان يكون هذا النبي الذي نحن نقصده سابق ماسيا الذي تنبأ عنه ملاخي

فشعر يعقوب بفرح لامزيد عليه ونسي وقتئذ ساره لان نبأ ظهور هذا النبي مع كلمات الكاهن قد أنعشا فيه أمل التخلص من عبودية الرومانيين

وكان بجانب الكاهن ويعقوب رجل من الفريسيين يسمع حديثهما فقال لهما ان الذين سمعوا هذا النبي حدثونا عنه بأنه يشهد علانية وبأفصح بيان انه السابق لماسيا وليس هو ماسيا بعينه وسمعت آخرين يقولون انه ايليا وغيرهم انه اخنوخ وقد نزل من السماء وغيرهم انه أشعيا وهوذا نحن سائرون لنرى من الرجل

فتبسم الكاهن وقال ان شهادته عن نفسه هي الحقيقة واليقين لا يزول بالشك

وهكذا كان يعقوب يقطع الطريق مع رفاقه بالبحث في أمر ذلك النبي الى ان وصلوا الى تل يقال ان شجرة معرفة الخير والشر كانت فيه وكذا السلم التي رآها يعقوب هناك وفي اعتقاد الكثيرين ان الصالحين بعد القيامة سوف يصعدون من ذلك المكان الى السماء الثالثة لان عرش الله منصوب فوقه تماماً فسأل يعقوب الكاهن عن صحة هذه الحوادث فاجاب متبسماً انها من مطلق الاوهام التي لا يجوز لنا الاعتقاد بصحتها

وكانوا كلما ساروا في طريقهم ودنوا من اريحا يشاهدون العدد العديد من الزوار راجعين فيحدثونهم بالغرائب عن النبي الى ان اقبلوا بعد طول الشقة على مدينة اريحا وكانت هذه المدينة عامرة بالحصون والاسوار التي اقامها الرومانيون منذ جعلوها مقام الولاة في الشتاء وكان موقعها في منخفض من الارض تلوح مروجه الخضراء الخصبة

وقبل ان يدخلوا المدينة قال الكاهن ليعقوب اننا نمر يا ولدي باطلال حصن ايل الذي جدد بناءه اريحا في ايام الملوك وانظر الى ذلك الحقل وأشار الى اليمين فانه الحقل الذي نازل فيه الكلدانيون آباءنا وغلبوهم واخذوا الملك صدقيا اسيرا وعلى مسافة نصف فرسخ من شمال هذا المكان خرابات عاي وتل كمين الذي منه خرج رجال يشوع على المدينة وحرموها وهكذا كان الكاهن يشير الى يعقوب عن بعض الحوادث التاريخية التي حدثت في تلك الارجاء

ولما دخل يعقوب مدينة أريحا لقيها معمورة بحصون الرومان وقلاعهم لانها كانت مقام ولاتهم في الشتاء وشاقه موقعها الذي كان في منخفض تلوح مروجه الخضراء كانها بحر من زمرد فقال له رفيقه الكاهن اذكر ياولدي ونحن ندخل هذه المدينة المئة الف اسرائيلي حيث كانوا مشدودين بنعال لبسوها أربعين سنة في البرية وهم يدورون من حولها بنوع اهتزت له الارض بقيادة يشوع بن نون ويخيل لي اني أسمع رنين أبواق جند الله هاتفة سبع مرات وأسوار المدينة تسقط أمامهم فاجابه يعقوب اذكر كل ذلك ولكن هيهات ان تعزيني هذه الذكرى وأنا أرى الرومانيين متسلطين على المدينة يحكمونها بعنف

وكان يشاغل يعقوب مايراه من جمع الرومانيين المنتشرين في ذلك الوادي الخصيب طلباً للنزهة واهتم بالاكثر بموكب من الفتيات لابسات الملابس البيضاء وهن يفرشن طريقهن بالازهار وينشدن الاناشيد الدينية فسأل عنهن الكاهن فقال له انهن خارجات الى المقابر لزيارة ابنة يفتاح المدفونة في هذه المدينة التي سكنها يفتاح زمناً طويلاً قبل ان ينتقل الى المصفاة

ولما بلغا مع الجمع باب المدينة اعترضهم جندي روماني فاروه جوازات السفر والرسم المدفوع وباتوا ليلهم على ان يسيروا في الصباح الى ضفة الاردن لان الشمس كانت قد آذنت بالغروب

وما لاح الفجر حتى كان الزوار وبعقدمتهم يعقوب في الباب الشرقي

خارجين من مدينة أريحا طالبين الاردن وظلوا في طريقهم على مسافة ميلين بين جنائن غناء ورياض زاهرة حتى وصلوا الى سهل واسع شاهدوا فيه قطعان حمر الوحش ترعى آمنة مطمئنة وكان يعقوب قد أنس بصديقه الكاهن فلازمه ملازمة الظل للانسان فلما رأى تلك القطعان قال له اني أحسدها على حريتها فهي أفضل منا لانها غير مسودة من الرومانيين . فاجابه الكاهن لا تحزن ياولدي بل صلّ بحرارة لاتمام النبوات عن ماسيا الموعود به شعبنا ولنتضرع لاجل طلوع كوكب يعقوب وظهور رئيس السلام الذي يثبت كرسيه على جبل صهيون وقضيبه يكون قضيب برّ وفي أيامه يرفع اسرائيل رأسه ويسود على كل الامم

وبعد قليل وصلوا الى شاطيء الاردن تحت المخاضة مقابل أريحا على طريق القافلة الى بعلبك واشور ذلك الطريق الطويل الشاق الذي كثيراً ما سار فيه الاسرائيليون الى السبي ولما اجتازوا المخاضة عبروا مجرى الماء وانتهوا الى عمود حجارة مبنية على حافته فقال الكاهن بعد ما تنهد انه عمود الاثني عشر حجراً التي أقامها الاسرائيليون تذكاراً لعبورهم الاردن فبادر للحال يعقوب وعدها فاذا هي سبعة أحجار فقال الكاهن ان عوادي الايام قد انتزعت الخمسة ولعل الله سبحانه يفتقدنا بماسيا المنتظر قبل ان تزول بجملتها

ثم رأوا عن بعد شاباً على مرتفع من الارض بجانب الاردن في الثلاثين من سنيه وعليه أمائر السمو والسيادة وشعره طويل مسترسل

على كتفيه ولباسه ثوب مصنوع من وبر الابل ويده اليمنى عريانة الى الكتف وصورته تسيل رقة وجمالاً فوق مظاهر الابهة والعظمة فصاح الجمع هذا هو النبي الذي نقصده وأسرعوا اليه والتفوا من حوله

ولما رأى يوحنا الجموع قادمة نحوه أشرقت أسارير وجهه وتهلل بالله فرحاً ورفع صوته صارخاً فقال :

« ارجع يا اسرائيل الى الرب الهك فقد سقطت باثمك . خذ معك كلاما وارجع الى الرب وقل أزل يارب اثمنا واقبلنا منعماً . هوذا يأتي الذي يشفي ارتدادك ويحبك مجاناً ويكون لاسرائيل كالندا ويزهر كالنرجس وتخرج فروعه كارزلبنان فتمتد أغصانه ويكون جماله كشجرة الزيتون . وثمره يكون لشفاء الامم والذين يسكنون تحت ظله يرجعون ويسكنون الى الابد . وكل من يدعو باسم الرب يخلص لانه بدونه ليس مخلص »

فادنى يعقوب شفتيه من أذن الكاهن وقال له عمن يعني هذا النبي في كلماته تلك

فاجابه الكاهن اصغ يايعقوب هوذا كلماته بسيطة

أما النبي فاستتلى بكلماته قائلا « اهتفوا في صهيون لان يوم الرب آت لانه هوذا قد اقترب اليوم الذي فيه أرد سبي يهوذا . احمل المنجل فقد جاء وقت الحصاد واقترب اليوم الذي فيه يزأر الرب من صهيون وينطق بصوته من أورشليم »

أما يعقوب فلما رأى ان الكاهن قد ردَّه ولم يجبه على كلماته اشتدَّ معه الحماس فما وصل النبي لكلماته هذه ووقف هنيهة ريثما يستعيد قواه حتى صرخ بصوت عال قائلا « الست انت ايليا »

فقال النبي « أنا الذي كتب عنه صوت صارخ في البرية أعدوا طريقاً لالهنا هوذا يوم الرب قريب . أما أنا فانما أرسلت منادياً لتعدوا طريق الرب »

فنادته امرأة كانت بين الجموع قائلة « اولست انت ماسيا »

فاجابها النبي بملء الاتضاع « ان الذي يأتي بعدي هو أقوى مني ولست مستحقاً ان احلَّ سيور حزائه وسيأتي ومنجله في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه الى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ . لذلك توبوا توبوا . خذوا كلاما وارجعوا الى الرب الهكم . توبوا واعتمدوا لمغفرة خطاياكم لانه يأتي ذلك النور الذي يتقد كالتنور . فاحذروا لئلا تبيدوا وقد وضعت الفاس على أصل الشجر فكل شجرة لا تعطي ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار . »

فنادى الكاهن الذي كان بجانب يعقوب قائلاً « يا معلم النا نحن الاسرائيليين تقول هذا الكلام أم للامم والسامريين »

فاجابه النبي بغضب « اذهب وناد في أورشليم يقول الرب لان شعبي عمل شرين تركوني انا ينبوع الماء الحي واحتفروا لانفسهم آباراً مشققة لا تضبط الماء فالرب قد جعلني في هذا اليوم عموداً من حديد وسوراً من نحاس في وجه كل الارض . في وجه ملوك يهوذا والرؤساء والكهنة

وشعب الارض . ومع كل ذلك تقول يا اسرائيل لم تخطيء هوذا شرك يؤدبك وارتدادك يوبخك . فليتب كل واحد منكم ويصنع اعمالا تليق بالتوبة لانكم قد نجستم الارض فلا تقولوا أين الرب الذي أخرجنا من أرض مصر فقد أغظتموني كل يوم بقساوة قلوبكم وصلابة رقابكم . اصلحوا اصلحوا اعمالكم ولا تتكلموا عليَّ كلام الكذب قائلين هيكل الرب هيكل الرب وقد جعلتموه مغارة للصوص وباتت ذبائحكم فيه مكرهة الرب »

ويظهر ان الكاهن الذي كان بجانب يعقوب قد تغيظ من سماع هذا التوبيخ لانه كان يهم ان يقاطعه مراراً ويعقوب يستمهله حتى عيل صبره فقال بصوت عال « هذا الكلام يمسنا نحن كهنة العلي وحاشا ان نكون لصوصاً»

فتغيرت ملامح النبي واستول عليه الغضب وأجابه بصوت كأنه صوت الله من حوريب قائلاً « ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون رعيتي . اني اردّ عليكم شرّ أعمالكم كيف أسودّ الذهب وتغير الابريز الجيد وبنو صهيون الكرماء الموزونون بالذهب النقي كيف حسبوا اباريق خزف . كان نذر بيت شعبي انقى من الثلج واكثر بياضاً من اللبن وأجسامهم أشد حمرة من المرجان . صارت صورتهم أشد اسوداداً من ظلمة الليل . وهم يطعمون أولاد شعبي رماداً عوضاً عن الخبز . ويل لصهيون على خطايا أنبيائها وذنوب كهنتها . جولوا في شوارع أورشليم

وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً يعمل بالعدل ويطلب الحق . ان قالوا حيّ هو اسم الرب فانهم يحلفون بالكذب . فاسمعوا هذا ايها الكهنة واصغوا يابيت اسرائيل . ويل لكم ايها الكهنة لانكم اخطأتم وقد رايت من ابناء اورشليم امراً مخيفاً فهم يزنون ويمشون بالاكاذيب يقول الرب . شعبي قد اخطأ لعدم المعرفة لذلك اهملك يقول الرب . لاتعد الان كاهنا لي لانك نسيت ناموس الهك فالكهنة مثل الشعب . لذلك تنوح الارض وجميع الساكنين عليها يحزنون . لذلك احلفوا واكذبوا واقتلوا واسرقوا وازنوا وافسدوا في الارض لانه ليس حق ولا رحمة ولا معرفة الله . ويل لكم ايها الكهنة »

وما انتهى النبي من كلماته حتى ضجّ القوم وماجوا وظهرت عليهم لوائح التذمر وكان بمقدمة المتذمرين اللاويون الذين تقدموا ليفتكوا بالنبي واذا بالجموع من العامة وقفت بوجوههم فتركوا موقفهم وانصرفوا وهم يلعنونه ويتهددونه وفيهم الكاهن الذي كان بجانب يعقوب وبعد ان سكن هذا الشغب تقدم واحد من الناموسيين اصحاب اليسار وقال له يامعلم الا يخلص بواسطة ابراهيم شيوخ اسرائيل الذين هم من ذريته وليسوا بكهنة؟؟

فنظر النبي اليه بعينين سوداوين كلائين تنفذان سهاماً جارحة وقال له «لاتقولوا في انفسكم لنا ابراهيم اب» ثم تناول بعض الحصى من الارض واستلى قائلا « ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجارة نسلاً لابرهيم فكل من يفعل الصلاح ابن ابراهيم لذلك اقول توبوا واصنعوا اثماراً تليق بالتوبة»

فضجّ القوم من هذه الكلمات واضطربوا وكان اكثرهم من الفريسيين والصدوقيين وقالوا باعلى صوتهم اسكت ايها المجدف

فمال اليهم النبي وقال « يااولاد الافاعي مالي اراكم تهربون من الغضب الآتي فهو ذا الذي يجلس فيه الاتي منقياً بجانب اتونه فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة . اغسلوا قلوبكم حتى يطهركم »

فهدىء القوم وصاحوا انه صوت من عند الرب فسرّ النبي من تأثير مواعظه على قلوبهم واخذ يجيل نظره الحاد فيهم فرأى من بينهم بعض النسوة وكن في ملابس فاخرة وشعور مضفورة فصاح قائلاً « وانتن يابنات يهوذا ارجعن عن هذه الافكار الباطلة تمنطقن بالمسوح والنوح والعويل انزعن عنكن هذه المكروهات من امام عينيّ واخشين الرب . اذا لبستن قرمزاً اذا تزينتن بزينة من ذهب اذا كحلتن عيونكن بالاثمد باطلاً تحسنّ ذواتكنّ لاني اسمع صوت بنات صهيون يزفرن ويبسطن ايديهنّ في يوم سبيهنّ وذلهنّ لاجل اثامهنّ فتبن لان ملكوت السموات قريب »

فراى يعقوب في وجوه النساء حمرة الخجل من توبيخات النبي واخذن يتسترن باغطيتهن وكأن النبي قد سر من ذلك فالتفت الى الجمع وقال:

« اسمع يااسرائيل اني اله قريب ولست الهاً بعيداً يقول الرب . اسمعوا رسالة العلي لانه قد اقترب اليوم الذي فيه ياتي يهوه الى الارض ويكلم عباده وجهاً لوجه . ها ايام تاتي يقول الرب واقيم لداود غصن برّ فيملك ملكاً وينجح ويجري حقاً وعدلاً في الارض . وقد جاء اليوم الذي يخلص

يهوذا ويسكن اسرائيل حين اقيم عليهم رعاة يرعونهم ولا يفقد منهم شيء »

فضج القوم صارخين الى اورشليم يامعلم الى اورشليم انض خطواتك ليسمع كل اليهود كلماتك

فتبسم النبي مسرورا واشار بيمينه الى اورشليم وقال « قومي استنيري لانه قد جاء نورك اسمع يااسرائيل من اجل صهيون لا اسكت لا اهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد. قومي استنيري لانه قد جاء نورك ومجد الرب اشرق عليك. ها هي الظلمة تغطي وجه الارض والظلام الدامس يسود على الامم كما يقول اشعياء. اما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى فتسير الامم في نورك والملوك في ضياء اشراقك ويدعى الرب برنا . وتكونين اكليل جمال بيد الرب وتاجاً ملكياً بكف الهك. روح السيد الرب عليّ لانادي بسنة مقبولة لمجيئه اقامني حارساً على اسوارك يااورشليم لا اسكت الليل والنهار ولا اهدأ ولا استريح حتى ارسلني كارزاً قدام وجهه كيف يمكنني ان اسكت عن اذاعة البشارة وتأدية الرسالة المفرحة كيف لا اتكلم عن شهرته . ياتي بنوه من بعيد وتحمل بناته على الايدي كل الامم يطيرون كسحاب وكالحمام الى بيوتها لينظروه ويخروا له ساجدين . وتنتظر الجزائر شريعته والملوك يخدمونه فيعلم كل بشر اني انا الرب مخلصك وفاديك عزيز يعقوب . قولوا لابنة صهيون هوذا مخلصك آت وها اجرته معه وجزاؤه قدامه »

ثم وقف النبي قليلاً ريثما استراح ثم نادى في الجمع قائلا « ايها العطاش جميعاً هلموا اشتروا بلا فضة ولا ثمن خمراً ولبناً اميلوا اذانكم وهلموا اليه سريعاً

فتحيا نفوسكم ارجعوا احفظوا الحق واجروا العدل والانصاف واعدوا له كل قلب منسحق لانه هكذا قال العلي المرتفع ساكن الابد القدوس اسمه في الموضع المرتفع المقدس اسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح سلام سلام للبعيد وللقريب قال الرب »

كل هذا وامثاله كان يتكلم به النبي فيستتاب الباب سامعيه ومن بينهم يعقوب الذي كان يتصور انه لم يبق عليه سوى ان يلتفت حوله ليرى ماسيا مقبلا فنسي المهمة التي قدم لاجلها وهي ان يسأل النبي عن ساره ومقرها مع اولادها ثم راى هذا النبي قد امال نظره عن الجموع وهو يقول « كل من يريد ان يعتمد لاجل مغفرة خطاياه ويطهر قلبه استعداداً لمجيء قدوس الله فليتبعني الى شاطيء الاردن » قال هذا ونزل عن الدكة التي كان واقفاً عليها وسار نحو الاردن فتبعه اكثر الذين كانوا من حوله وفيهم صاحبنا يعقوب ولما وصل الى النهر اخذ يتناول بيمينه واحداً بعد واحد وينزل به الى النهر فيعمده وهو يقول له « اؤمن بالذي ياتي وهيء الطريق لاجل سكنه في قلبك بواسطة هذه المعمودية التي تتخذ رسمها علامة وعربوناً لمعرفة شيلوه حين ظهوره » وكان عدد الجموع الذين اعتمدوا كبيراً وكان يعقوب ينتظره الى ان فرغ من الجموع فكان في آخرهم فتقدم واعتمد وبعد ان خرج من النهر قال يا معلم اني انشد سيدتي وقد اختطفها الرومانيون مع اولادها فهل تعرف مقرها ؟؟؟

فنظر اليه النبي وقال ان التي تنشدها هي في اورشليم

قال واولادها

قال واولادها ايضاً

قال لي اربع وعشرين سنة وانا انشدهم في اورشليم وكل الارض ولم اقف لهم على اثر

قال تبارك اسم الرب فاذا سرت الساعة لاورشليم تجد من تطلب بغير ما عناء

قال هل لك ان تحدد لي المكان

قال لا حاجة الى ذلك وما اكمل كلماته هذه حتى امال وجهه واراد الانصراف فناداه يعقوب ثانية فلم يجب

واذ كانت الشمس قد غابت والشقة شاسعة لاورشليم والحجاج قد اثنوا الى اريحا ليعودوا في اليوم التالي الى المدينة المقدسة راى ان يعود معهم اليها الا ان كلمات النبي قد حركت به نار الشوق الى ملتقى ساره فقال في نفسه لابدّ لي ان اسير ليلي فاصبح صباحاً في الارض المقدسه وكانت ليلتئذ ليلة مبدرة فقال ما ضرني لو سامرت هذا البدر المنير في مسيري ولم يكد يخطر له هذا الفكر حتى قفل راجعاً الى مدينة صهيون وهو بين عاملين كانا يقويان عزيمته على السير عامل الشوق الى رؤيا ساره وبنيها وعامل الروح الالهية التي اثرت فيه من سماع كلمات هذا النبي



﴿ الفصل الحادي والاربعون ﴾

(ساره)

تركنا ساره في وادي الجحيم بين جماعات البرص على الحالة السيئة التعيسة التي اشرنا اليها ولما تركت راحيل وعادت الى مدفنها اخذت تشعر بشوق الى الحياة بعد ان كانت تتمنى في كل لحظة الموت لانها ذكرت راحيل وذكرت العهد بصحبتها وكذلك اخذت تذكر بنيها الذين خلفتهم صغاراً وهم اليوم في اشدهم مع انها ما كانت تعرف كم مرة عليها من الاعوام وبعد ثلاثة ايام من مقابلة راحيل لساره كان قبل بزوغ الشفق بعض الجنود الرومانيين ومعهم راحيل وانطونيوس على باب ذلك المدفن ينادون ساره باسمها فخالت التعيسة وقد انتبهت من نومها بعض الانتباه ان ملائكة السماء ينادونها ثم اذ تكررت الاصوات تأكدت ان الذين ينادونها هم احياء في عالم الاحياء فاخذت تكذب اذنها بما تسمع لانها كانت تضع يدها على جسمها فترى آثار البرص بادية ظاهرة فتقول من اين للبرصاء ان يأتي الناس لمخالطتها وهي عندهم بحكم المائت المعدوم

غير ان هذا الشك عندها لم يلبث ان تحول الى يقين حيث سمعت صوت راحيل نفسها تناديها ياساره اخرجي فخرجت المسكينة متثاقلة وهي تقول «نجس نجس» ابعدوا ولا تخالطوني فقالت لها راحيل لاتخافي ياساره فان الرب يفتقدك وهوذا قد اعددنا لك مكانا لاقامتك الى ان تشفي

فتاوهت ساره من اعماق فوادها وقالت هيهات ثم هيهات ان اشفى

من هذا الداء الوبيل فالى اين تاخذوني ألى منازل الاحياء الاصحاء لكي يرجموني

قالت مالك وهذا فامشي معنا الى ان نرى الله ماسيفعل فينا قالت هذا وتقدم خادمان فرفعاها وهي بين مكذب ومصدق ووضعاها على حمار وساروا بها يتبعهم انطونيوس وراحيل وبعض الجنود لاجل الحفظ ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى بيت اعدَّ لتكون فيه ساره وكان ذلك البيت بجوار برج انطوني منفرداً عن احياء المدينة كانه وجد لمثل هذه الغاية

واذ دخلت ساره البيت ذهبت بها اثنتان من الخادمات وقد استحضرتا لخدمتها الى حجرة مخصوصة وكانتا رومانيتين فغسلتاها والبستاها ثياباً جديدة ثم جاء ها طبيب الجيش الروماني فعادها ووصف لها ما كان يعرف الطب القديم مفيداً لهذا الداء العضال كل هذا وكانت ساره تحسب نفسها كمن في ثبات نوم عميق غير مصدقة شيئاً مما كان

ثم قدم لهذه التعيسة الطعام فاكلت هنيئاً مريئاً ثم انقلبت على سرير ناعم لم تبت عليه منذ اربع وعشرين سنة فتوسدت عليه بملء اطرافها ونامت نوماً هنيئاً لذيذاً

فقالت راحيل لانطونيوس هوذا قد نامت فاستراحت وعلينا ان نعود الى البيت فقد بزغت الشمس بل كاد ان يتضحى النهار لئلا تفتقدني رفقه ويطلبني ابراهيم قال هيابنا وذهبا بعد ما كررا التوصيات للخدم بوجوب العناية بامر هذه التعيسة وللجنود حتى لا يتركوا احداً يعلم ما في تلك الدار وانصرفا وهما في شغل شاغل من امر ساره والمصاب الاليم فيها

﴿ الفصل الثاني والاربعون ﴾

﴿ ملتقى يعقوب باولاد ساره ﴾

وبينما كانا سائرين في طريقهما واذا بصوت ينادي راحيل فلم تنتبه هذه الى الصوت الا بعدما تكرر ودنا منها فمالت بوجهها اليه فاذا هو يعقوب يهوي اليها راكضاً فعرفه انطونيوس ايضاً لانه كان يعرفه جيداً من يوم كان في روميه فوقفا الى ان وصل اليهما وهو ضاحك وقبل ان يسلم عليهما قال اين ساره واولادها وكان في سؤاله هذا نغمة العارف المحقق

فتبسمت راحيل وقالت وهل وقفت لها على اثر

قال بلى فان النبي الذي ظهر في برية اريحا قال لي انها في اورشليم مع اولادها وهوذا بدء تحقيق نبوته فقد لقيتكم حال وصولي المدينة

قالت ومن هو هذا النبي الجديد الذي ظهر في هذا الزمان فقد سمعت به من الناس ولكن لم اقف له على حقيقة

فاخذ يعقوب يقص عليها مجمل ماسمع وراى وقبل ان ينتظر سوالاً من راحيل قال لها والان مالنا والانبياء فاني اريد ان اقف على مقر ساره لاسجد لها

فقالت راحيل بورك فيك يايعقوب من خادم امين اما ساره فقد وجدناها ولكنها مريضة

قال مريضة واأسفاه وهل لا يرجى لها شفاء

قالت هيهات هيهات فانها برصاء

قال برصاء وانكبتاه واسيدتاه اذاً هي اليوم في عداد الاموات

قالت هو هكذا قال فهي اذا في وادي الجحيم

قالت كلا بل استحضرناها الى المدينة واخذت تقص عليه كل ماكان من امرها

فبكى يعقوب من اعماق فواده ثم قال واولادها

قالت ان ابراهيم ورفقه هماهنا واما يعقوب فلم يزل ضائعاً

قال بل يعقوب يجب ان يكون في اورشليم ايضاً لان النبي لم يستثن احداً من اولاد ساره ساعة قال لي انهم في اورشليم

قالت اذاً فانفتش عليه لعلنا نجده

قال حسناً والان الى اين سائران

قالت الى البيت ولكن اعلم جيداً اننا حتى الان لم نخبر ابراهيم ورفقه بامهما حتى لانزيد في اكتئابهما

قال او يصح لنا ذلك

قالت هذا الذي رايناه موافقاً الان

وما زالوا سائرين يتحدثون حتى وصلوا البيت فدخلوه ولما رأى يعقوب رفقه دنا منها وقبلها فعلا وجنتيها حمرة الخجل وقالت لعمتها من هذا

قالت هو يعقوب الخادم الامين لكم او ماتعرفينه

قالت من اين لي ان اعرفه وقد كنت طفلة يوم تركت دار ابي

قالت له اربع وعشرين عاماً يفتش عليكم من غير ماكلل ولا ملل وقصت لها طرفاً من حكايته فتنهدت رفقه وقالت عسى اله اسرائيل يجمع شملنا بامنا واخينا الضائع وبكت فبكى كل من حضر في ذلك المجلس

اما انطونيوس فكان في كل هذه الاحوال كالمأخوذ فانه من طرف كان يرى نفسه مديناً لهذه العائلة بكل ما اصيبت به من الالام والمصائب والاحزان ومن الطرف الآخر كان يرى نفسه بين هؤلاء الجماعات غريباً لان ما كان يستطيع ان يفهم شيئاً من اعمالهم وعوائدهم الغير مألوفة من الرومانيين ومع ذلك فقد آلى على نفسه ان لا يترك هذه العائلة حتى النهاية

وبينما كانوا جالسين يتحدثون واذا برسول من عند بيلاطس يدعو انطونيوس اليه فنهض لساعته فقالت له راحيل اذا حسن لدى سيدي فليطلب لنا من حاكم اليهودية جنديين يحرساننا للخروج الى برية اريحا فقد شاقني حديث هذا النبي واحب ان اراه مع اولاد ساره

قال حسنا سافعل

فقال يعقوب واذا كنت انا معكم فما الحاجة الى الحراس

قالت زيادة في الاحتياط

فقال أنطونيوس ومتى سترحلون الى البرية

قالت في صباح الغد

وبعد ان انصرف انطونيوس لدار الولاية أخذت راحيل تستفسر من يعقوب بالتفصيل ما أجمله عن هذا النبي فقالت أوليس بالامكان ان يشفي هذا النبي ساره مما بها من الاوجاع لنأمن به جميعاً

قال سنعرض عليه ذلك ولكن أراه يبشر بغيره ويطلب من الذين اعتمدوا منه ان يؤمنوا بالآتي

قالت لنرى في الغد ما سيكون من أمره معنا

وبينما كانوا يتحدثون بامر النبي ويعقوب يفيض بما سمعه من فيه العسجدي واذا بانطونيوس قد عاد ضاحكاً وسار براحيل على حدة وقال لها ان الوالي دعاني اليه ليخبرني بان اليهود قد سمعوا بامر ساره ودخولها المدينة واقامتها في ذلك البيت وارسلوا اليه يطلبون منه اعادتها الى وادي الجحيم فرفض طلبهم وقال لي اذا كنا نريد ان نزورها فلنجعل زيارتها ليلا بحيث لا يرانا احد حتى لا نحدث شغباً في المدينة

قالت تبارك الله اله اسرائيل فسنفعل حسب مشيئته ثم اذ عادا الى المجلس قالت له وهل ذكرت له سفرنا الى اريحا

قال بلى وقد عين لكم اربعة من رجاله يكونون بحراستكم وسيأتون الى هنا في صباح الغد قالت حسناً واخذت تستعد مع رفقه الى الرحيل وتعد ما يأكلونه في هذه الرحلة التي قدروا لها ثلاثة ايام

﴿ الفصل الثالث والاربعون ﴾ ﴿ نبأ عن يسوع ﴾

انتبهت راحيل على قدوم حراس بيلاطس الذين قرعوا الباب قبل انبثاق نور الفجر فاسرعت ونبهت ابراهيم ورفقه ويعقوب ذلك الخادم الامين وتقدم انطونيوس فقال وانا ايضاً اسير معكم فاما لا ومن بهذا النبي الجديد او اجعل ذلك فسحة لي وكانوا قد اعدوا لهم اربعاً من جياد الخيل فركبوها اما روميلوس فابى المسير لانه رجل كرام لا يهمه كثيراً كل ما كان يسمع ولذلك كان اقل عناية من الجميع بحادثه النبي ولو كان يستطيع فراق رفقه طرفة عين لما تاخر يوماً في اورشليم بل لما كان حضر معها على الاطلاق

ركبت رفقه مطهماً من جياد الخيل وأبى يعقوب الا ان يسير في ركابها وكان يحادثها بما يسرها من النوادر التي حدثت له وكان أنطونيوس على جواده بجانب جواد راحيل وكانا يتحدثان بموضوع لا يتعدى ساره والمصاب الاليم الذي منيت به أما ابرهيم فكان على جواده وهو مفكر لا يميل الى ما أمامه وحوله من المناظر البديعة وكان الحراس من حول الركب سائرين وقائدهم لا يرفع طرفه من رفقه وكاد يتميز من الغيظ غيرة على هذه الحسناء من يعقوب وكان يعجب بالاكثر لانه رأى بينهما من الالفة اكثر مما يقدر بين سيدة وخادم سائر في ركابها وكاد اكثر من مرة ان يتقدم من يعقوب فينتهره ثم يعود فيصبر نفسه الى ان كادت تأكله الغيرة فدنا من ابراهيم وقال له هل سيدي من أبناء هذه البلاد

قال نعم ولكني ربيت في رومية

قال وحضرة الآنسة

قال انها أختي

قال بسم الآلهة فقد تشابهتما خلقاً وخلقاً ومن هذا الرجل السائر في ركابها

قال هو خادم لنا أمين انفق عمره في سبيلنا الى ان عثر علينا اليوم

فهدىء روع كرميليوس وطابت نفسه واستطرد الحديث مع ابراهيم واخذ يقدم له كل ما يليق بمقامه من التجلة والاعتبار لانه أخو حبيبته

أما رفقه فلما بزغ نور الفجر وعرفت ان القائد السائر معهم هو

نفس الحبيب الذي شغفت به توردت وجنتاها خجلاً وأخذ فؤادها يخفق ويضطرب بحيث لو أصغى يعقوب الذي بجانبها لكان سمع دقاته ولكنه كان في شاغل عن ملاحظة أحوالها بما في صدره من السرور برؤياها وقد تركها ابنة سنتين فاذا هي في السادسة والعشرين ربيعاً من عمرها

وكانت راحيل في الوقت نفسه تقول لانطونيوس ان كرميليوس الذي امتدحته في الامس هو معنا فما الذي دعاه لمرافقتنا

قال ذلك من فضل بيلاطس فيجب ان نقابله بالشكر والثناء فانه ما اكتفى بارسال أربعاً من الجنود لحراستنا حتى عززهم بقائد من أمهر القواد والرومانيين على حداثة سنه

قالت بل أرى غير ذلك

قال وما الذي ترين

قالت ان لمجيئه سبباً ربما عرفته فيما بعد

قال انت كثيرة الظنون ياراحيل

قالت أولم تعلم ان سوء الظن من حسن الفطن

وما زالوا سائرين في طريقهم حتى بلغوا أريحا فاستقبلتهم الحامية الرومانية بغاية التجلة والاحترام وكان بمقدمتهم رجل كهل ما لبث ان رأى أنطونيوس حتى ارتمى عليه فقبله الوفاً من القبلات فقال له أنطونيوس أمن أجل بعيد أنت هنا يا برتس ؟؟

قال نعم يامولاي فقد حضرت بمعية بيلاطس بوظيفة سكرتير للحملة لرومانية المخيمة في هذه البلاد

قال عجباً ولكني لم أسمع بخبرك

قال وأنا أيضاً يا مولاي لم أسمع بقدومك أورشليم الا منذ يومين

قال ممن ؟؟

قال من كرميليوس الذي كان هنا وهو الذي أرسل ينبئني بقدومك اليوم فاعددت لك كل شيء في بيتي «ويذكر قراء روايتنا فتاة اسرائيل ان برتس هذا هو الصديق الحميم لانطونيوس يوم كانا في الاسكندرية وهو الذي سار معه الى رومية وتزوج في آخر امره بديانا ابنة الشاعر الشهير فيرجيل»

قال وهل أنت مسرور من معيشتك

قال نعم بحمد الالهة وهنا امرأتي أيضاً وأولادي وهم في البيت ينتظرونكم ولكن قل لي بحقي عليك وكان ينظر تارة الى راحيل وأخرى الى رفقه أما هذه العجوز التي معك هي راحيل وصيفة ساره وهذه الابنة الجميلة هي ابنة تلك المسكينة

قال من أين عرفت ذلك

قال ان ملامح راحيل لم تذهب عني بعد أما السيدة فهي تحكي أمها بكل ملامحها حتى لولا مرور الزمان لحكمت انها هي فاين ساره الآن

قال اترك هذا الحديث الى ما بعد حيث أخبرك عن كل شيء أما الآن فلنسر الى بيتك حيث نكون بضيافتك ولكن هل عندك مكان متسع يأوينا كلنا

قال اذا لم تسعكم الدار فتسعكم القلوب وهكذا ساروا جميعاً الى منزل برتس حيث استقبلتهم ديانا بمزيد التجلة والاعتبار وفي صبيحة اليوم التالي ساروا وسار معهم برتس أيضاً الى برية أريحا حيث صادفوا النبي يخطب ويعظ على ما علمنا من سابق أمره فلبثوا يومهم بقربه وهم معجبون بقوة جنانه وسلاطة لسانه وكانت راحيل تنقل الى أنطونيوس كل الذي يقوله النبي وتفسر ما يشكل عليه فهمه من الاشارات التاريخية التي كان النبي يشير اليها في حديثه

أما كرنيليوس فكان لا يفارق رفقة طرفة عين وهو ناظر اليها بكلتا عينيه وكانت رفقه مسرورة من كل جوارحها كلما رأت هذه العناية من ذاك الشاب غير انها كانت تنظر الى عمتها بعين الوجل والحذر وراحيل كانت لا تفوتها بادرة من كلما كان يجري بقربها من دلائل هذا الغرام الجديد حتى كادت ان تطلب من انطونيوس ان يصرف كرنيليوس غير انها تربصت تربص المحتار في أمره

وبعد ان انتهى النبي من وعظه وتقدم من الاردن ليعمد الالوف الذين أقبلوا عليه تقدم ابراهيم فطلب المعمودية فعمده النبي ثم تقدمت راحيل بعد انفراط الجمع وقالت يا نبي الله عندنا برصاء وهي عزيزة علينا وعلى اسرائيل فهل بوسعك ان تشفيها

فتبسم النبي وقال ان المعجزات ليست من شأني بل من شأن الذي سيأتي بعدي وما أنا الا ممهد طريق الرب ومعد سبله

قالت لو شفيتها لآمنا بكلامك جميعاً

قال كل من يأمن يخلص يقول الرب ولم يكمل كلماته هذه حتى أسرع وسار من وجه راحيل وهو لا يلوي على شيء فعادت حزينة الى أصحابها حيث قفلوا راجعين الى اريحا فباتوا ليلتهم الثانية في دار برتس وفي صباح اليوم التالي ساروا راجعين الى المدينة المقدسة

وبينما كانوا عائدين كان مجمل حديثهم عن هذا النبي الجديد والذي يبشر بظهوره وكان أنطونيوس يسأل راحيل بقوله ماذا يعني نبيكم في كل الكلام الذي قاله

قالت انه ينبيء عن قرب مجيء المخلص الذي ننتظر ظهوره منذ أجل بعيد مخلصاً لنا ومكفراً عن خطايانا

قال لله دركم يا معاشر اسرائيل فان لكم من الآمال في الغيب ما يخفف عنكم آلامكم وأحزانكم بخلاف الرومانيين الذين آمالهم منحصرة بحاضرهم وما يعدونه بأنفسهم لمستقبلهم

فتبسمت راحيل وقالت ان تاريخنا كله مملوء بالمعجزات والخوارق واني لابتهج اذا كان قدر لي ان أرى هذا الذي يشير اليه النبي وعسى احبه من كل قلبي وأبذل كل مساعيّ في سبيله فرحباً بقدومه المبارك

فناداها صوت فجائي قائلاً أترحبين يابنت اسرائيل بقدوم شخص حقير كالذي يشير اليه هذا النبي الجديد وكان هذا الذي كلمها شخص غريب مار بجانبها واذنظرت اليه راحيل ألفته نحيف الجسم شاحب اللون فقالت له بابتسام « نعم ولكنه سوف يكون ملكاً متسلطاً على العالم

وغاية في الجودة والصلاح »

فقال العريب « ان هذا الآتي ياسيدتي سوف يكون رجل أوجاع ومختبر الحزن مرفوضاً من اسرائيل ومحتقراً في يهوذا وسيرزله الذين يأتي ليباركهم لاجل حقارته وخموله وستكون حياته حياة دموع وتعب وانسحاق قلب وأخيراً يقطع من بين الاحياء بذنب أثيم » فهل ترحبين بقدومه بعد ذلك

فقالت له راحيل وهي مندهشة كيف علمت هذا ألعلك أنت ايضاً نبي

فقال كلا ياسيدتي وانما عرفت ذلك من تفتيشي كتب الانبياء ثم تأكدت صحته من هذا الرجل المقدس نفسه وهو يشير بشارته الى ذل المسيح اكثر مما الى عظمته أما طالعت أشعياء

قالت بل حفظته

قال فانه يشير الى ذل الآتي وحقارته والحكم عليه بالموت صراحة

فقال انطونيوس وكان يسمع كلامهما ويفهمه لانهما كانا يتكلمان باليونانية ان هذا النبأ ليس عن ملك أرضي عظيم بل تقرير محزن عن حياة ذل وخجل وازدراء

قال الرجل ياسيدي ان نبي الاردن هذا يعزز نبوة أشعياء ويطبق كلامه على الاتي بعده فعلينا اذاً نحن الذين اعتمدنا اليوم ان نتوقع ماسيا رجل أوجاع لا أميراً غالباً

فقالت راحيل بحدة ومملكة داود

قال عن يمين الله

قالت وملكه الذي يدوم الى الابد

قال يكون حيث الحياة الى الابد والا فكيف يمكن ان يسود في ملك دائم على الارض بدون ان يحيا هو ورعيته الى الابد

قالت لاتقرأ النبوات على هذا الاسلوب ياصاح فتزيد بالام اسرائيل

قال بل الحقيقة ما أقول ياسيدتي فكما ان آدم سقط وفقد الفردوس هكذا ماسيا كادم ثاني ينبغي ان يضع نفسه في الطبيعة البشرية كانسان ليكفر عن اثمنا وبعدما يكمل تكفيره عنا بموته يشتري ملكوت الفردوس للجنس البشري لكنه لا يرجعه لنا على الارض بل فوق في الاعالي حيث الملائكة يحرسونه خداماً في ملكوت الله . هذا هو الملكوت الذي يعلن نبي الاردن باقترابه

فقال انطونيوس اني لا أفهم شيئاً من هذا الحديث

قالت صعب عليك ان تفهم ذلك ما لم تطلع على اقوال انبيائنا واسرار ديانتنا

قال فلنترك ذلك للكهنة ورجال الدين

قالت ولكن يهمني امر هذا الاني فان النبي الذي حادثته وعدني بظهور من يشفي لنا ساره

قال وهل انت واثقة بذلك

قالت كل الوثوق فان انبياءنا تشهد بمجيئه وتشير اليه

قال من هؤلاء الانبياء الذين طالما سمعت بذكرهم في هذين اليومين

قالت هم رجال تقى وصلاح يخبرون بالمستقبل كالماضي بقوة من الله اله ابائنا

قال فاذاً هم كالعرافين عندنا

قالت ولكن شتان بين كلام مصدره اله الالهة وكلام هو من البشر

ثم مالت الى محدثها الغريب وقالت لقد اطربتني كلماتك يا هـذا فمن اين علمت هذه الحقائق اعن نبوة او وحي

قال كلا لست بنبي لكن تعلمت هذا كله من درس الاسفار وقد ساعدني على ذلك شخص في عمري يفوق جميع الناس حكمة وفهماً وهو لحسن الحظ صديق عزيز لي

قالت وما اسم هذا الحكيم الشاب لاذهب اليه

قال انه منقطع عن العالم ولا يكلم الا القليلين

قالت وكيف منظره

قال لاجمال منظر له انما ينبثق من محياه نور كرامـة ووقار ويتألق من عينيه ضياء سكينة وطهارة

قالت واين يسكن

قال هو الان نزيلنا في بيت عنيا ويسكن مع امه وهي ارملة تقية في الناصرة وهو يكد ويجد ليعولها

قالت لا بد انه نبي

قال لا يتنبأ ولا يكرز

قالت وما اسمه

قال « يسوع الناصري ابن يوسف النجار »

وكان يعقوب يسمع هذه المحاورة فلما ذكر امامه يوسف النجار قال أعرفه أعرفه وأعرف مريم امرأته واذكر ما ظهر من المعجزات في يوم ولادتها وما جرى في هذا الصديق سأل يعقوب بلهفة

قال انه مات منذ بضع سنوات

قال يعقوب وأنا أعرف مريم ايضاً واعرف « يسوع » طفلاً رضيعاً وقد جاء به ابواه من بيت لحم ليقدماه الى الهيكل ونزلا في دار سيدي يهوذا الغولونيتي رحمه الله

قال لا أعرف هذا

قال وهل تدلني على اسمك ايها الفاضل

قال انا « لعازر » المشهور بالكاتب

قال أنت الذي تنسخ التوراة وتبيعها انت ابن الحاخام هليل الشهير

قال نعم

فتقدمت راحيل وشكرته وقالت سنسير في فرصة أخرى الى بيت عنيا لزيارة « يسوع »

قال على الرحب والسعة يا سيدتي ولكن ربما لا يطيل الرجل مكوثه عندنا لانه يحب العزلة والانزواء

قالت واذا حضرنا بعد يومين

قال ربما تصادفونه عندنا ثم استأذن وانصرف وعاد الركب الى أورشليم

وبعد ان فارقوا العازر ووعدوه بزيارة يسوع تقدموا نحو اورشليم ولم يبلغوا المضيق الذي يقرب من بيت عنيا حتى خرج عليهم جماعة يبلغون الثلاثين عداً وبعد ما حدجوا بابصارهم فيهم برهة لووا أعنة خيولهم وخفوا الى التقهقر في سفح الهضاب يسابقون الرياح وذلك لان كرنيليوس لما شعر بهم هجم على جنوده الاربع في تأثرهم فهربوا من وجهه منذعرين فقال انطونيوس لراحيل الآن لقد حلّ الاشكال ووقفت على جواب سؤالك عن مصاحبة كرنيليوس لنا فانهم يعلمون الطريق مهددة بالاخطار ولم يشاؤا ان يذكروا لنا ذلك حتى لا يتولانا الفزع وبعد قليل عاد كرنيليوس ومن معه متعبين فقال له انطونيوس من هؤلاء ياترى

قال انهم قطاع طريق ياسيدي

قال وهل هم كامنون في هذه البرية منذ زمان

قال منذ اكثر من سنة فان زعيمهم يدعى باراباس كان قد قام بحركة ضد الرومانيين فخذلناه بسيوفنا وقتلنا عدد عديد من رجاله فلما رأى نفسه مقهوراً التجأ الى البرية وصار يقطع الطريق على السابلة ونحن نتأثره من ذلك الحين فلم نقو عليه لا لعجزنا بل لاننا نعلم ان له احزاب من نفس كهنة الهيكل ولذلك لما طلبتم من بيلاطس جنديين لحراستكم رأى ان ذلك لا يكفل لكم الامان وعزم ان يرسل معكم قوة من الجند فتقدمت اليه وقلت له ان ارسال شرذمة مع الشريف انطونيوس تخيف اهل بيته

فانا اتولى حراستهم بنفسي وبما انه يثق بشجاعتي أناط بي هذا الامر وهؤلاء الفرسان الاربعة يكفوني بمقابلة اربعماية من مثل باراباس واشياعه كان يقول هذا وهو ينظر بطرف عينه الى رفقه مفتخراً بشجاعته وبسالته

فشكره انطونيوس ومدح شجاعته ثم مال الى راحيل ورفقه وقال لهما لا بدّ انكما ارتعتما من مشهد هؤلاء اللصوص وكنتم وعدتم لعازر بزيارته فهل تروا ان نعرج على المدينة ونقضي فيها ليلنا

فابت راحيل ذلك وقالت بل الاولى ان نعود الى اورشليم لان حوادث الماضي قد جعلتني جزعة بعد ان كنت لا أرهب الموت اذا سطا فوافقها الجميع على رأيها

الفصل الرابع والاربعون

﴿ شغب في الهيكل ﴾

ما ذاعت تعاليم نبي البرية وتوبيخه رؤساء اليهود وكهنتهم حتى قامت قيامة هؤلاء وحدث هياج عظيم ضده وبادر كثيرون من اللاويين الى معارضة ما يقوله النبي في شوارع المدينة المقدسة وأخذوا يحاجون الكتبة والفريسيين وغيرهم ممن ذهب مذهب هذا النبي وأقرّ باحقية كلامه وان تطبيقه نبوات أشعيا وأرميا على كهنة ذلك العصر في محله واذ عظم الخطب أرسل رئيسا الكهنة حنان وقيافا رجلين من اللاويين يدعيان ملكي وهالي لدعوة هذا النبي اليهم ليباحثوه ويقفوا على حقيقة

أمره فذهبا وبعد خمسة أيام عادا بجواب النبي وهو :

« اذهبا واخبرا رئيس الكهنة الموقر اني صوت صارخ في البرية كما هو مكتوب في أشعياء اذ تنبأ عن يومي قائلاً : صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب واجعلوا سبله مستقيمة : فسوف يبصر كل انسان خلاص الرب وليس لي ان أدخل مدينة ولا هيكلا ولا بيتاً في اسرائيل فمن يروم سماع شهادتي للآتي بعدي فليأتي الى البرية حيث أوصيت ان ارفع صوتي حتى يأتي شيلوه »

فلما وقف الكهنة على هذا الجواب هاجوا وماجوا وقال بعضهم فليؤت به ويرجم للموت لانه ازدرى بعظيم الكهنة وقال غيرهم علينا ان نشكوه الى بيلاطس لانه يثير شغباً ويوقظ فتنة في اسرائيل وهكذا أقروا أخيراً ان يشكوه الى الرومانيين وان يكتب قيافا الى بيلاطس يظهر له مخاوفه من نبي الرامة ويشير بالاسراع بالقبض عليه قبلما يزداد شره ويتفاقم خطبه فيسمع القيصر طيباريوس بالامر ويظن انها ثورة عمومية قام بها اليهود لخلع الطاعة الواجبة للرومانيين على يد زعيم جديد

اما حنان فعارض بهذا الاجماع وقال ايها الاخوة تأنوا ولا تفعلوا فان كان هذا الرجل نبياً كاذباً فلسوف يبيد ويهلك سريعاً ولا نعود نسمع عنه شيئاً وان كان مرسلاً من لدن الله فلا ينبغي ان تسرعوا بمقاومته والايقاع به لئلا نصبح محاربين يهوى اله اسرائيل

فلم تحز كلماته قبولا من اكثر الكهنة الذين كانوا يتجاوزون الخمسماية عداً بل صرخوا جميعهم بصوت واحد فليكتب الى بيلاطس بالامر

وحينئذ تقدم ملكي وهالي اللذان أرسلا لدعوة النبي وقالا يا كهنة وشيوخ اسرائيل انصتوا فاننا اذ سرنا الى هذا النبي وسمعنا كلماته باصغاء لم نراه مجدفاً ولا هو نبي كاذب بل مرسل صادق امين من عند الرب فصدقناه واعتمدنا منه

فلما سمع الكهنة هذه الشهادة من هذين الكاهنين قابلوهما بالشتائم والسباب ولولا حرمة الهيكل لانقضوا عليهما وأهلكوهما وأمر قيافا عظيم الكهنة في الحال ان يقبض عليهما لاتيانهما ما لا يليق بكهنة الله العلي وقال لهما لقد حقرتما الهيكل ودستما حرمته بتصديقكما رجلاً خداعاً ثم مال الى الحاضرين وقال باعلى صوته « يارجال اسرائيل ايهما أعظم مذبح الرب أم مياه الاردن وكاهن العلي أو كارز البرية فعني بهذين المجدفين الخائنين الى حيثما يحاكمان ويقضى عليهما بموجب شريعتنا المقدسة » وللحال ارسل فاستحضر عدداً من جند الرومانيين قبضوا على الكاهنين وكبلوهما بالسلاسل وساقوهما الى السجن

ولم يكن بين الكهنة من يعارض هذا الهياج الاعاموس الذي كان كلما خلا بنفسه يطالع نبوات الانبياء وكان يزداد يوماً عن يوم اعتقاداً بصحة كرازة هذا النبي الجديد فتقدم من قيافا وتلطف في الحديث معه ليكف عن الكاهنين ويمتنع عن ارسال الرسالة فابى

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في الهيكل كان انطونيوس عند بيلاطس يتحادثان بامر باراباس الذي فاجأهم فقال بيلاطس كيف رأيت هذا النبي الجديد الذي ذهبت بمن عندك لزيارته

قال انه شاب ويظهر عليه غيرة متقدة على أمته وشعبه اسرائيل

قال ولكني اتخوف من ان يعقب ظهوره ثورة في اليهودية فتعبنا

قال لا أظن ذلك لان كل الذي ترجمته لي راحيل من كلماته لا يتعدى المسائل الروحية فهو يوبخ كهنة اليهود ويصمهم بوصمات من العار لتغافلهم عن شؤونهم الدينية وتطوحهم في شهواتهم العالمية

قال بالحقيقة انه مجنون ايها الشريف فان هؤلاء الكهنة يخيفون كل من في أورشليم حتى الرومانيين انفسهم ولا بدّ ان يعملوا على اهلاكه

قال لا أظن ذلك لاني رأيت اكثر المجتمعين على رأيه وهم مصدقون دعوته فاذا ناله اذى كانت العاقبة وخيمة على مؤذيه

قال ولكن هؤلاء من عامة الشعب وفقرائهم والعبرة في الكهنة والشيوخ والاغنياء

وبينما كانوا في هذا الحديث واذا بكرميليوس داخل على بيلاطس وقال ان الكهنة ثائرون بالهيكل

فتأفف بيلاطس وقال وما الداعي الى هذه الثورة الآن وكل الذي يطلبونه نجريه لهم على قدر المستطاع

قال انهم يريدون اهلاك نبي الاردن وقد ارسلوا فسجنوا اثنين من الكهنة لانهما صدقا بنبوته واعتمدا منه

فنظر بيلاطس الى انطونيوس وقال له اما قلت لك انهم سيهلكونه والصحيح لقد سئمت نفسي من حكم هذه الامة وكل يوم في شغب جديد

قال وما الذي ستفعله

قال لا أعلم ولكني انظر باديء بدء الى وجه الشكوى التي سيرفعونها الي ولم يكمل كلماته حتى دخل الحاجب وقال رسول من قيافا

قال فليدخل

فدخل كاهن قد خط عارضيه الشيب فسلم وجلس وأخرج من عبه رقاً وسلمه الى بيلاطس فتناوله هذا وتلاه أولاً وثانياً وثالثاً ثم دفعه الى انطونيوس فتلاه وتقدم نحو بيلاطس وقال له اذا رأيت مناسباً فادع راحيل الى هذا المجلس لتدافع عن الرجل ونرى ماذا يكون بينها وبين هذا الكاهن فامر بيلاطس كرنيليوس ان يذهب ويأتي بها ثم قال للكاهن انتظرني قليلاً

قال لا وقت للانتظار يامولاي فان هذا الرجل الذي ظهر في البرية يحرض الشعب ضدنا لاننا خاضعين للرومانيين ويرمينا بقوارص كلماته لاجل ذلك وما هو الا يوم وليلة حتى يهب الشعب للثورة وتكون النتيجة هلاك الاسرائيليين وبوارهم

قال حسناً فلننظر في الامر

الفصل الخامس والاربعون

﴿ بحث في دعوة يوحنا ﴾

لم يمض القليل حتى دخلت راحيل على بيلاطس فسلمت وجلست بقرب انطونيوس فنظر اليها حاكم اليهودية باحترام وقال لها ان كهنة اليهود

يشكون نبي البرية ويدعون انه يثير خواطر العامة على الرومانيين وبما انك واقفة على اسرار دين اسرائيل وقد شاهدت هـذا النبي وسمعت كلماته دعوناك لنقف منك على حقيقة امره لان هذه التهمة لو ثبتت عليه لكان نصيبه الموت لا محالة

فنظرت راحيل الى الكاهن فاذا هو في حلة سوداء مرسلةوفوقها وشاح من كتان ابيض وعلى رأسه فوق ضفائره البيض الثلجية قلنسوة قرمزية تحيته تحية الكهنة وقالت له بماذا تشكون هذا النبي الجديد

قال انا نشكوه لانه يثير العامة على الكهنة لينجم عن ذلك ثورة على الرومانيين تكون نتيجتها هلاك الاسرائيليين بالسيوف الرومانية

قالت وهل شاهدته ايها الجليل

قال كلا ولكني سمعت من أفواه الذي شاهدوه مابنيت عليه هذا الحكم ليس أنا فقط بل جميع كهنة الله العلي حتى حبر أحبارنا

قالت ولكنه لا يتعرض الى السياسة وغاية ما هنالك انه يبشر أمة اسرائيل بمجيء المخلص

قال وهل أنت ايضاً مصدقة هذا الرجل ومؤمنة بدعوته

قالت كل التصديق ونهاية الايمان

قال اذاً لا عتب على الجهلاء فان ماسيا الحقيقي لا يمكن ان يسبق برسول صغير كهذا يلبس الوبر ويأكل الجراد ويكرز في البرية وان الطريق قدامه يمكن ان تعد بواسطة الملائكة وعلامات السماء لا برجل البرية المتوحش

قالت فمن هذا الرجل اذاً

قال ينبغي ان يكون كاذبا وساقطاً والا لم يقل ان المسيح سوف يكون محتقراً ومرذولاً ولقد قام ياولدي دعاة كذبة وانبياء كذبة كثيرون تبعهم بنو اسرائيل كما يتبعون الآن هذا الاردني وكانت النتيجة انهم هلكوا في القفر فتمسكي جيداً يا ابنتي بديانة أبائنا ولا تؤثرن على عواطفك هذه المظاهر الخادعة فلكوت مسيا ليست ملكوت توبة وخشوع بل ملكوت انتصار ومجد وسلطان اما نبوات الاحتقار التي سمعتيها من فم يوحنا فاعلمي انها لا تنطبق أقل انطباق على رئيسنا شلوه المنتظر بل تشير الى نبي احقر يظهر سابقاً للمسيح الحقيقي أو كما يعتقد البعض وخصوصاً الفريسيون انه سيكون مسيحان أحدهما يأتي في ذل وآلام الى الامم ليكفر عن خطاياهم والآخر يأتي الينا في قوة ومجد وعظمة لم تكن لملك قبله فيجعل أورشليم عاصمة كل الارض ويضع كل الملوك تحت الجزية فهكذا يكون مسيحنا رب الجنود الذي يرسله لنا اله يعقوب لينتشل يهوذا من حضيض الذل ويمسح عن اسرائيل غبار العار فان كان هذا الشخص الحقير الذي يشهد به نبي الاردن ماسيا حقيقة فهو للامم الذين خطاياهم الكثيرة تقضي بالانسحاق والا تضاع على من يأتي من الامم ليكفر عنها ولكنه ليس ماسيا اسرائيل ولا الرئيس القدير الذي سوف يجلس على كرسي داود في صهيون وبالاجمال أقول لك كابنة اسرائيلية مالك وهذه البدعة الآتية من البرية التي أخذ بها نحو نصف اليهودية وتبعوها بحماقة زائدة تخلي عنك

هذه الوساوس واصبري فلا بد ان ينبثق يوماً فجر مجد اسرائيل وحينما يأتي ماسيا الذي ننتظره يعلن قدومه بواسطة أناس أفاضل أعظم من شاب لا يتجاوز الثلاثين يلبس الوبر ويأكل الجراد ولا يعلم أحد شيئاً عن حقيقة أمره ولا بد انه يدعو الى ثورة ضد طيباريوس أو هؤلاء الرومانيين الذين يحكموننا

قالت يا كاهن الاله العلي تأنى ولا تعجل فاذا كان هذا الشاب يسر غير ما يعلن فلا بدّ ان تظهر نواياه بعد قليل فلماذا تعجلون بطلب قتله واذا كان كما قلت انه مرسل ليعدّ الطريق امام أحد المسيحين المرسل الى الامم من لدن يهوى الاله الحي فلماذا تعاكسون احكام الله وتضطهدون رسله وانباءه اما كفى ما حل بنا من الذل والهوان حتى ترغبون اليوم بتوسيع ...انكم ولو في هلاك اسرائيل اما انا فمقتنعة كل الاقتناع بنبي البرية وانه مرسل من عند الرب ليمهد سبل هذا الذي نحن ننتظره اما زعمكم بان الرومانيين يضطهدوننا لاجله فهو زعم فاسد لانهم قد اطلقوا في كل مستعمراتهم ملء الحرية للشعوب الخاضعين لهم على ان يدينوا كيفما يشاؤون وعلى هذا فارى من الخطأ المحض ان تهجموا على نبي لم يظهر عليه حتى الآن الا دلائل الصلاح وخلوص النية في تأدية الرسالة التي القيت اليه من العلي وعلى هذا فارجعوا عن محاربة الرجل وتربصوا الى ان يحصحص الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً

فلم ير الكاهن وسيلة لضحض كلمات راحيل الا بقوله انك مفتتنة بهذا الشاب كغيرك الذين لا يعرفون الحق من الباطل وسوف ترين عقبى

هذه النبوة وكيف ستؤدي الى هلاك اسرائيل ثم مال الى بيلاطس وقال ان الكهنة ينتظروني في الهيكل فبماذا أجيبهم

قال قل لهم ان بيلاطس سيبذل كل ما في وسعه حتى لا يحدث شغب في اليهودية

وبعد ان انصرف الكاهن قالت راحيل ان نبي البرية يفضح أعمال الكهنة المخالفة لشرائعنا ولهذا يريدون ان يتخلصوا منه بتسليمه الى الموت

قال بيلاطس ولكنه مخطئ أو هو مجنون فان هؤلاء الكهنة مسلطون على الشعب فاذا أرادوا في كل وقت يستطيعون ان يثيروه ليس على هذا الشاب المسكين ليهلكوه فقط بل علينا نحن جماعة الرومانيين حكام البلاد وحماتها

قالت هيهات ياسيدي فانهم اليوم لا يقدرون على تحريض الشعب ضد هذا الشاب الناطق بكلمة الحق بل بالعكس ان الشعب كله قد أصبح ناقماً على هؤلاء الكهنة الاشرار

قال إذاً انت لا تعرفي كهنة اسرائيل بالرغم عن كونك اسرائيلية فانهم كالالهة يعملون ما يشاؤون والشعب بايديهم كما يشاؤون وليس من يعارضهم في امر

قالت وما ستعمل ياسيدي بهذا النبي الجديد

قال سأحاول ان لا أمسه بشرّ غير انك اذا كنت تريدين ان يبقى سليماً شوري عليه ان يسكت عن كرازته مخافة ان يغضبهم بالاكثر فيهموا الى الانتقام منه سواء رضيت أو ابيت

قالت فليتمجد اسم الرب اله اسرائيل واستأذنت فانصرفت وتبعها أنطونيوس

الفصل السادس والاربعون

حوادث وشؤون

ولما بلغا البيت سألا عن رفقه وابراهيم فقيل لهما انهما سارا مع يعقوب للتجوال في ضواحي أورشليم قالت ذلك خادمة البيت

فقالت راحيل وهل ساروا راكبين

قالت بل مشياً على الاقدام

قالت اذاً نحن ايضاً نخرج فنتبعهم

قال انطونيوس والى اين نسير

قالت الى بركة بيت حسدا

قال وما يوجد هناك

قالت سوف ترى

وسار انطونيوس وراحيل في طريق باب الضان فقالت راحيل لانطونيوس هل ذهبت اليوم الى زيارة ساره

قال نعم وأنت

قالت انا كنت عندها مع يعقوب في مساء الامس كما تعلم وقد

شاهدتها مستريحة ولكنها طلبت مني ان ترى ولديها

قال وقد طلبت مني اليوم ذلك الطلب

قالت وأظن رفقه قد أحست بالامر لانها منذ أيام وهي تسألني عن اهمالنا أمر السعي في سبيلها فاجبتها انا بثثنا عليها العيون والارصاد

قال أظن ان الامر لا نهاية له والاحسن ان ترى ولديها فيريانها فالى متى هذا الانتظار

قالت لا أعلم ولكننا نصبر قليلاً

قال اتؤملين بشفائها بوقت قريب

قالت نعم اذا ظهر ماسيا

قال ما أسرعك يا راحيل بتصديق الخرافات

قالت بل حقائق يا مولاي

وما زالا سائرين حتى بلغا باب الضان فلقيا جماعات آتين من القرى والضياع وعلى بغالهم اقفاص كبيرة ملأى حماماً ويماماً فقال انطونيوس لماذا هذا الاهتمام بمثل هذه الطيور يا راحيل

فخجلت راحيل من الجواب الا انها تشجعت لعلمها ان دين اله اسرائيل هو دين الحق ولا حرج على الذي يقول الحق وقالت يسيرون بها الى الهيكل حيث يبيعونها ذبائح لتقدم على مذبح الرب كفارة عن خطاياهم

فضحك انطونيوس وقال ممازحاً أهكذا اصبح اليهود دائمة في عيني الههم

حتى اقتضى ان يموت مثل هذه الطيور البرية لاجلهم ولم ينته من كلماته هذه حتى دنا منها رجل فقير أعمى يقود حمل وفي عبه حمامتان فمسك بتلابيب اذياله ممازحاً وقال لراحيل اسأليه الى أين يذهب فتقدمت هذه وسألته

فقال الى الهيكل لاجل تقديم الحمل والحمامتين وهذا نذري أقدمه للرب لان أبي مرض مرضاً شديداً للموت فنذرت له احد حمامتيّ التي لا أملك سواهما وقد عنيت بتعليمهما بعض الالعاب لاكسب بواسطتهما عيشي من الاولاد الذين يفرحون بالعابهما ثم مرضت امي التي أعالتني وأحبتني وانا مولود أعمى فنذرت لها الحمامة الاخرى ثم مرضت ابنتي وهي عمياء ايضاً لا أراها ولا تراني فنذرت لها هذا الحمل الذي هو دليلي والآن أسير الى الهيكل فرحاً لاقدم الحمل والحمامتين

قالت ولكن الحمل على ما تقول يقودك في طريقك والحمامتين مصدر عيشك فكيف تفرط بحاجياتك هذه

قال يتحتم عليَّ ان أفي ما نذرت وحيٌّ هو الله لا يدع برتيماوس في ضيق بعد ان يرى انه قدم على مذبحه كل ما يملك

فتأثرت راحيل من كلمات هذا الشاب الاعمى وترجمت كلماته لانطونيوس فتأثر وناوله قطعة من الذهب وقالت له راحيل استعن بهذه على أمرك ولا تفرط بحاجياتك وضروريات معاشك وانثنيا وراحيل تقول اني اغبط هذا المسكين لثقته بالهه .

ثم خرجا من باب الضأن وعرجا على بركة عين حسدا على اليمين فشاهدا منظراً مؤثراً للغاية حيث كانت الاروقة الخمسة غاصة بالمرضى

والمصابين من عرج ومقعدين وعمي وصم فسأل انطونيوس هل هنا مستشفى لليهود يا راحيل

قلت كلا ياسيدي بل ان هؤلاء المرضى يجتمعون هنا توقعاً لتحريك الماء فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء يشفى

فضحك انطونيوس وقال يا لها من خرافة

قالت لا تقول خرافة يامولاي بل حقيقة فان الله يرسل ملائكه أحياناً فينزل في البركة ويحرك الماء

ولم تكد راحيل تنتهي من كلامها حتى تحرك الماء فجأة بعد ان كان ساكناً واصبح كانه في غليان وأخذ يمتد مندفعاً يتموج من جانب الى آخر فارتفع صراخ أولئك المرضى البائسين المزدحمين على ضفاف البركة وطفقت الاقدام تزدحم والارجل تضطرب والاجسام تموج وكل من قدر ان يحمل نفسه من أولئك المصابين ارتمى في الماء مندفعين بعضهم فوق البعض وعلا الصراخ والشتائم واللعنات المخيفة حتى خال انطونيوس وراحيل ان قد نفخ بالبوق وقامت الساعة ولما كثر الضجيج تقدم الجند الروماني بسيوفهم فقتلوا من قتلوا الى ان عادت السكينة بسكون الماء فقال انطونيوس ان زائر اليهودية يرى في كل يوم عجباً ثم قال امكن ان يكون هذا التحريك من عمل الهي؟؟

قالت ليس من ريب ان تحريك الماء عجيبة بعمل الملاك الصالح الذي يمنح قوة شفاء الامراض

قال اذاً لماذا لا نأتي بساره الى هنا ونلقيها في هذا الماء لتشفى

قالت لكونها برصاء ولا يجوز في شريعتنا ان يخالط الاصحاء البرص

قال نقدر ان نخلي هذه البركة من جميع من فيها بامر بيلاطس

قالت هيهات ياسيدي فان ذلك يعد تعدياً على الحرية الدينية

وبينما كانا يتحدثان بما ذكرنا وانطونيوس غير معتقد بعجائب البركة واذا بابرهيم ورفقه ويعقوب فقال انطونيوس اين كنتم ؟؟

قال كنا في هـذه البرية حيث كان يعقوب يقص علينا حوادثها التاريخية على ما في كتب آبائنا ولقد تأثرت من مشاهدة عامود ابيشالوم حيث انبسط أمامي تاريخ ذلك الفتى السيء الادارة وكيف ان ذلك الشعر الذهبي الذي كان يزين طلعته كان سبباً لهلاكه وقص على انطونيوس قصة ابيشالوم وهربه من وجه أبيه داود الملك وكيف وهو فار تعلق شعره بالشجر مما لا يجهله القراء الكرام

قال انطونيوس والالهة ان حوادثكم عجيبة وتواريخكم أعجب والآن الى أين تذهبون

قالوا الى البيت وهكذا ساروا عائدين نحو المدينة واذا برجل عظيم الجثة اسود الشعر حالك اللحية رث اللباس ومعه رجل قصير القامة قبيح المنظر زري اللباس فتعلقا يعقوب وقالا له هات الجزية الرومانية

قال ويلك يامتى العشار ايليق بك ان تسير ورفيقك يهوذا الاسخريوطي لتجمعا الجزية من المتنزهين في البراري

قال متى نحن لا يهمنا الا اتباع دافعي الجزية اينما كانوا ولا سيما في

هذه الايام التي ظهر فيها نبي جديد لا يلذ له الا ان يكرز في البرية فاخلى المدن من سكانها فهل ترى ان نبقى نحن جماعة العشارين في البطالة ونملأ بيوت الجباية أو ان نتبع الناس حيثما ذهبوا وكيفما رحلوا

قال يعقوب أصبت فانك تسعى وراء مصلحتك وأما أنا فلا أدفع الجزية لاني روماني أولاني ألوذ بالرومانيين

فضحك متى من جواب يعقوب وقال انت روماني ومتى كان ذلك

قال هذا لا يهمك وليس من شأنك ان تسأل عنه

فتقدم الاسخريوطي بغضب وقال بل من شأني ان أسوقك الى السجن او ان تدفع آخر فلس عليك وتعلق بتلابيبه واراد ان يجره

اما انطونيوس فلم يكن منتبها الى ما يجري وقد أشغله حديث راحيل الا انه اذ مال نظره رأى يهوذا ماسكاً بيعقوب ومتى يقول له الافضل ان تدفع ما عليك من العشر فانقضَّ انطونيوس عليهما ولطم يهوذا على صفحة وجهه وثنى بمتى فصاحا واذا بكرميليوس على ظهر حصانه وسرعان ما وصل حتى انتهرهما ومال الى الشريف انطونيوس يتلطف به ويستسمحه من خشونة هؤلاء العشارين

فلما رأت راحيل مجيء كرميليوس استنكرت ذلك وخطر لها انه كان يتأثرهم او انه كان يتأثر رفقه وابرهيم وارادت ان تقف على حقيقة امره فقالت له يجب ان نشكر حسن اهتمامك بنا ايها الشريف فانك تتأثرنا في جميع خطواتنا

فادرك كرميليوس ما وراء هذه الكلمات من المغامز وكان شعر من قبل انها قد احست بحبه لرفقه وانها غير راضية عن مثل هـذا الهوى فاستدرك امره وقال اني ياسيدتي مأمور بتأثر الخبيث باراباس الذي يقطع الطريق عن السابلة ولذلك لا انفك عن المسير في هذه الفلوات

قالت ولكن الذين يتأثرون اللصوص يجب ان يكون معهم قوة من الجند فاين جندك

قال انهم في القرب من هذا المكان فاذا امرت احضرهم في الحال

نخافت رفقه تمادي عمتها في الحـديث الى ما يغضب كرميليوس وهي تحبه فقاطعتها وهي تقول بابتسام نعم ياسيدتي فان هذا القائد الكريم قد قابلناه في ضحى هـذا اليوم بشرذمة من جنوده البواسل في قرب عامود ابيشالوم وبين تلك الادغال التي ذكرت التوراة انا بيشالوم قدمات معلقاً بشعره الذهبي في اغصان احدى اشجارها

قالت اذا لهذا الشريف فضل علينا يجب ان نشكره عليه لانه يريد ان نكون في امان واطمئنان فيتبعنا حيثما سرنا وكيفما رحلنا

فنظر كرميليوس الى رفقه نظرة من يقول لها انظري كيف عمتك تريد ان تنغص علينا مسرة هذا الهوى العذري فاجابته رفقه بنظرة لا تقل افصاحاً عن نظرته وهي تقول ان عمتي تريد المزاح

ثم رجعوا جميعاً الى المدينة وكل يغني على ليلاه

الفصل السابع والاربعون

معمودية يسوع

بعد أيام من هذه الحوادث شاع في اليهودية ان نبي الاردن قد تحول في كرازته الى شاطيء الاردن الشرقي بقرب بيت عبرا وأخذ الناس يتقولون في سبب تحوله هذا فمنهم من يقول ان الكهنة ارسلوا اليه من يريد ان يبطش به فحمته اهالي بيت عبرا فسار الى جوارهم ومنهم من يقول انه يريد ان يأتي هناك بالعجائب والمعجزات ومنهم من كان يقول غير ذلك وكلها ظنون وأقاويل الا ان تحوله هذا جعل الناس يقصدونه حباً لاستطلاع على الغريب

وكانت راحيل منصرفة جهدها الى تتبع خطوات هذا النبي لانها من جهة كانت البقية الباقية لملك اليهود المندرس كما رأينا في ترجمتها ومن الجهة الاخرى كان أملها وطيداً بان مجيء ماسيا يشفي ساره مما بها من الآلام والاسقام ولذلك اذ سمعت بتحول هذا النبي أسرعت اليه مرة أخرى وكان معها ابرهيم ورفقه ويعقوب وقد عرض عليها انطونيوس ان يرسل برفقها شرذمة من الجند فرفضت تخلصاً من كرميليوس الذي لابد ان يكون هو حارسهم وهي تتمنى ان لا تراه غير ان انطونيوس لم يصغ اليها بل بادر بعد رحيلها مع ولدي ساره الى بيلاطس ليسأله ارسال الجند بأثرهم فالتقى وهو داخل الى القصر كرميليوس ومعه جنوده فسلم عليه

قال الى أين ؟؟

قال الى البرية فان الشقي باراباس مازال يتعبنا

قال اذاً لا حاجة لان أوصيك براحيل

قال أهي سائرة الى البرية لملاقاة هذا النبي الجديد قال نعم

قال كن باطمئنان فان الطريق أمينة بظل قيصرنا العظيم وودعه وانطلق انطلاق السهم وهو يقول بنفسه لعل رفقه معها فاستصبح بوجهها الصبوح وانها لفرصة لا يجب ان تضيع

ولم تبعد راحيل ومن معها مسافة ساعتين عن المدينة الا وسمعت وراءها قرقعة الخيل فاضطربت وخافت العقبى وأخذت تلوم نفسها لرفضها طلب الحماية ولكن سرعان ما اطمأنت لانها رأت كرميليوس وجنوده قد التفوا من حول هذه القافلة الصغيرة فسلموا عليه وساروا جميعاً تحرسهم السلامة الى أريحا حيث باتوا فيها وكانوا يرون على عرض الطريق قوافل المسافرين أفواجاً وفي اليوم التالي قبيل الظهر أطلوا على برج مربع قائم بين غياض الاشجار المحيطة بقرية بيت عبرا فقالت راحيل لابراهيم انظر الى هذا البرج فانه قائم فوق المغارة التي نزلها ايليا قديماً وفيها اختبأ أيضاً أشعيا من أعدائه وانظر أيضاً الى الرابية التي عن الشمال فان منها صعد ايليا الى السماء بمركبة نارية ثم أشارت بيمينها الى صخرة بجانبها وقالت من هذه الصخرة شق اليشع الاردن بالرداء الذي طرحه له النبي ايليا وهو صاعد

فاخذ ابراهيم يحدق بنظره في هذه المشاهد التاريخية وكانوا يسعون

اليها خبباً حتى ظهر لهـم مشهد أذهلهم اذ رأوا النهر متعرجاً ومقوساً على شكل نصف دائرة وقرية بيت عبرا قائمة هناك ورأوا على ذلك الشاطئ الفسيح المتقوّس ألوفاً من الناس بعضهم فوق البعض فساقوا خيولهـم الى ان بلغوا ذلك المزدحم فتقدم كرميليوس ومن معه واخترقوا الجموع عنوة وأدخلوا راحيل ومن معها الى قرب النهر حيث كان النبي في وسط الماء وحواليه ما يقرب من مئة غـلام فنزلوا حينئذ عن خيولهـم فتسلمها الجنـد وصار الناس يتنحون عنهم خوفاً من أولئـك الجنود الرومانيـين وعند وصولهم سمعوا النبي يقول:

« ليس من مغفرة للخطية بدون سفك دم . ان معمودية الماء التي أعمدكم بها الآن هي للتوبة ولـكن ينبغي ان يهرق دم قبلما تغسل الخطية»

فتقدم صاحبنا يعقوب وقال يانبي الله ألا يكفي ما تقدم على مذبح الرب يومياً من دماء العجول والتيوس والحملان والطيور لمغفرة الخطية ؟

فتبسم النبي وقال « قال الرب ليست مسرته بمجاري هذه الدماء»

فلم يتمالك يعقوب ان قال له « اذاً لماذا وضعت الذبائح في ناموس موسى ولاي شيء أيها النبي العظيم أقيم المذبح في الهيكل وذيحة الحمل يومياً»

فقال النبي بتؤدة وتمهل اصغ ياولدي « فقد سنّ موسى سنة الذبائح لتكون رمزاً وظلاً للذيحة الحقيقية الصحيحة المعينة من الله منذ تأسيس العالم . فافتكر كيف يقدر الانسان ان يذبح خروفاً من قطيعـه لاجل خطية نفسـه وان كان الله يريد حياتك فهـل يرضى بحياة حيوان . كلا يارجل اسرائيل . فان اليوم الذي تنفتح فيه عيونكم قد اقترب ودنت

الساعة التي فيها تقفون على المعنى الحقيقي المراد من الذبيحة اليومية فهوذا ماسيا يأتي وأنتم سترونه وتؤمنون »

ولم يكد النبي يكمل كلماته حتى هرع اليه الكثيرون واشتغل النبي في تعميدهم وكانت راحيل تحادث ابراهيم في هذا الذي سمعته وتقول ليعقوب لله درك فقد أصبحت من علماء الدين أما رفقه فكانت منجذبة القلب الى كرميليوس الذي كان ينظر اليها بشغف ويستلفت أنظارها الى ما امامهم من المناظر الطبيعية الجميلة وهي ترى في وجهه ماهو أزهى وأجمل

وبينما كانت تلفت استوقف نظرها مرأى شابين لاحا على الرابية التي صعد منها ايليا الى السماء فنادت عمتها قائلة انظري ياسيدتي فهوذا لعازر الذي كنا شاهدناه وخاطبناه في طريقنا يوم كنا عائدين من أريحا الى أورشليم فنظرت راحيل الى الرابية قليلاً ثم قالت من ترى هذا الشاب الذي معه وعليه سيماء المهابة والجلال والوقار

قالت رفقه لا بد انه صديق لعازر الذي سماه يسوع انظري ياعمتي كيف يتفرس بالجموع بملء الهدو والسكينة وانظري فديتك هذا الرداء الازرق الطويل الذي يزيده جلالاً وجمالاً

قالت نعم وان منظره هكذا مكشوف الشعر بشعره المرسل الطويل يزيده تقرباً من القلوب

وكان حديث راحيل ورفقه قد رنّ في أذن النبي وكانتا على مقربة منه فالتفت واذ رآه مدّ يده اليمنى نحوه وقال بصوت جهوري رنّ في آذان الحضور « هوذا » ووقف كالصنم جامداً وللحال اتجهت انظار

الجمهور الى تلك الراية. وبعد قليل مال النبي الى الجموع وقال « سالتموني لماذا يذبح الخروف اليومي فقد جاء الذي تبطل به هـذه الذبيحة هوذا » قال هذا ومد كلتا يديه الى ذاك الشاب الذي على راية ايليا ثم عاد فقال « هوذا الذي يرفع خطايا الناس والذي يأتي بعدي صار قدامي. هوذا الذي اشهد له انه ماسيا ابن العلي. هوذا مسيح الله الحمل الوحيد الذي دمه يغسل خطايا الجميع قد سكن بينكم وجال في شوارعكم وجلس في بيوتكم ولم أعرفه حتى شاهدت فيه الآن علامة ماسيا ولهذا أعرف انه فادي اسرائيل »

وبينما كان النبي يقول هذه الكلمات كان الشاب يسوع قد أخذ ينزل بهدو عن الراية ومازال يتقدم من النبي بجلال وكمال وسكينة والابصار محدقة به والناس يتنحون من طريقه الى ان دنا من النهر فقال له النبي « ماذا تريد من عبدك يا نبي الله القدير »

فقال يسوع بصوت عذب مطرب « أريد ان اعتمد منك »

فاجابه النبي بغاية الخشوع والخضوع والخشية والاضطراب « انا محتاج ان اعتمد منك وانت تأتي الي »

فقال يسوع بسكينته المعهودة « يليق بنا ان نكمل كل برّ »

فدنا منه النبي ومسكه بيمينه الى وسط النهر وأخذ يعمده بما ينبغي من الاجلال والاحترام واذ حدث ما أدهش الحاضرين اذ سمعوا صوتاً من فوق كانه صوت الرعد القاصف وشاهدوا مجداً باهراً اضوأ من الشمس ونشبت منه أشعة نورانية كالسهام واستقرت على رأس يسوع

وابصروا هيئة حمامة في هذه القبسة النورية وصوت يقول(هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت) ولما سمع القوم هـذا الصوت الداوي خروا سجوداً ثم انتبهوا لانفسهم فاذا النور تواري وارتفعت الحمامة الى السماء مغادرة هالة من المجد الالهي حول رأس (ابن الله) الذي ظل في وسط المنظر المخيف هادئاً ثم صعد الى شاطيء النهر واختفى عن الابصار

اما الناس فبعد ما افاقوا من ثبات الاندهاش اخذوا يفتشون باعينهم عن هـذا الذي دعي ابنا للذي في السموات وكان بعضهم ينظر في الماء وبعضهم ينظر في الفضاء وآخرون رفعوا انظارهم الى السماء متوقعين ان يشاهدوه صاعداً بمركبة من سحاب الى عرش الهه وابيه وبينهم راحيل ورفقه اللتان ظنتا انه نقل الى السماء وقالت راحيل وا أسفاه فقد خاب الامل

فقال كرميليوس وكان بجانبها ماهذا الامل الذي خاب؟؟

فقالت كنت ارجو هذا الذي ظهر ليشفي ساره

قال وأين هو لاتبعه وآتي به اليك

قالت اختطفه ذلك النور الذي ظهر عليه

فضحك كرميليوس وقال ان هذا لسحر ياسيدتي فلا تتكدري وفي استطاعة هذا واشار الى النبي ان يعيد لنا سحره اذا كان لكي فائدة منه بما نبذله له من المال وان ابى فبقوة هذا السيف وجرد سيفه

فقالت كلا ياسيدي فما هذا بسحر ولكنه معجزة من اله اسرائيل

واذا برجل كان بجانبها وهو يضحك بملء شدقيه ويقول لاتغتري ياسيدتي فان هذا الذي النأي عايناه عبارة عن برق ورعد

فنظرت راحيل الى القائل بسخرية وهزء وازدراء واجابته باحتقار وقالت ليس من سحابة في السماء فمن اين يأتي الآن البرق والرعد يا ابن اسرائيل ثم مالت الى النبي فرأته مبغوتاً مندهشاً شاخص البصر الى السماء ويداه ممسكتان يبعضهما فتقدمت اليه راحيل بينما كان الناس منصرفين عنه لانشغالهم بذاك الشاب العجيب الذي ما ظهر حتى اختفى وقالت له يانبي الله القدوس من هذا الذي اعتمد منك الساعة

فانتبه النبي الى هذا السؤال الذي اسدي اليه كمن كان في ثبات وقال بسكون ورباطة جأش « هذا الذي قلت عنه انه يأتي رجل بعدي فصار قدامي لانه كان قبلي وانا لم اكن اعرفه لكن الذي ارسلني لاكرز بالتوبة واعمد بالماء قال لي ان الذي ترى الروح نازلا ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس »

فقالت له راحيل والى اين انطلق ياترى ؟؟

قال هذا لم اكن لاعرفه لانه ينبغى ان يزيد وانا انقص سواء بقي على الارض او صعد الى السماء وقد اصبحت مهمتي على وشك النهاية لان الذي أرسلت لاشهد له قد جاء

قالت هل جاء لينطلق هكذا سريعاً ولا نعود نظره بعد

قال السرائر للرب الهنا فلا اعلم من اين جاء ولا الى اين ذهب لاني لا اعرفه في كل مجده سوى انه نبي وابن انسان حتى نزل الروح واستقر عليه وقد سمعتم شهادتي ان هذا هو ماسيا ابن الله قال هذا يوحنا وتحول

عن المرأة يريد الانصراف فمسكته راحيل وقالت له يانبي الله ان لي حاجة كبرى ولا يقضيها الا يسوع وانت ادرى الناس بموضعه

فاجابها النبي بكل تأني لا تعترضي سبيلي يا ابنة اسرائيل بل دعيني انطلق وسوف يحقق الرب رجاءك قال هذا وسار في طريقه متوغلا بين ادغال تلك الاحراش ولبثت راحيل مبهوتة وكان ابرهيم ورفقه ينظران الى دهشتها بالاستغراب وتقدم كرميليوس منها وهو يريد ان يخدمها خدمة تكسبه رضاءها وقال لها مالك ياسيدتي وما الذي تأمرين أتحبين ان اسير برجالي واعيد لك هذا الرجل كرهاً

قالت كلا ياسيدي بل دعه في طريقه

قال وهل تأمرين بالعود الى اريحا او الدخول الى بيت عبرا

قالت لا هذا ولا ذاك بل اريد ان انطلق في البرية

قال كما تحبين وامر الجنود فقدموا خيولهم الى راحيل ورفقه وابرهيم وركبوا جميعاً سائرين على شاطيء الاردن ثم توغلوا بين تلك الادغال الملتفة اغصانها وما زالوا سائرين وليس لهم وجهة معلومة وكل يفكر بامره الى ان وصلوا الى سهل ممتد نحو اريحا والبادية واذ ابصروا عن بعد رجلا يسير خبياً وتظلله غمامة من نور فامرت راحيل رفاقها ان يزيدوا في الجري حتى دنوا منه فقالت له راحيل ارحمنا يا ابن الله

فادار يسوع وجهه فاذا صفرة الحزن قد كللته فترجلوا ودنوا منه وقالت راحيل ارحمنا ياسيدي

فقال يسوع ان الرحمة من الاله الذي في السماء اما انا فدعوني اذهب في طريقي.

قالت ولكنا نريد ان نراك ايها السيد

قال ستروني في يوم آخر اما الآن فاني ذاهب الى البرية امتثالاً للروح الذي يقودني الى هناك

فقالت وهل نقدر ان نذهب معك حيث نكون في خدمتك

قال كلا فليس لاحد ان يكون معي ويساعدني وليس لانسان ان يصحبني ويعضدني بل وضع لي ان القى التجارب وحدي

قالت ولكننا نرجوك لاسرائيل

قال ان الله لا ينسى شعبه

قالت ونرجوك لشفاء ساره وليس لنا رجوى بسواك

قال كل من ارتجى الله بايمان ثابت لا يخيب الله رجاه قال هذا وتركهم ومضى فعادوا ادراجهم حيث ركبوا خيولهم فقالت رفقه يظهر ياعمتي ان هذا الرجل خائف من مسيره جزع من التجارب التي قال انه سائر ليلاقيها ولذلك تبدلت انوار وجهه الى صفرة كصفرة الموت

قالت وانا ايضاً شاهدت ذلك وتفطر قلبي كمداً على هذا الشاب السائر الى برية مجهولة ربما لا يسلم من بوائقها غير ان الله معه

اما كرميليوس فما كان يفهم شيئاً من كل هذا الذي رآه وسمعه غير انه شعر بميل الى هذا الشاب فتقدم من راحيل وقال لها الى اين سار هذا المسكين

قالت كما رأيت انه قد توغل في البرية

قال ولكني اشعر بميل غريزي اليه حتى اتمنى ان ارافقه بجنودي لادفع عنه كلما يمكن ان يصيبه من الارزاء

قالت ولكنه لا يريد مساعدة احد على الاطلاق كما اخبرني

قال ولكن ظهر لي من ملامحه انه من الالهة لانه يجذب كل من نظر اليه وحادثه

قالت ونحن نعتقد انه مرسل من عند الله فلا تنسب بعد الآن ما شاهدته في الاردن الى عمل السحر

وبعد قليل وصلوا الى اريحا حيث قضوا ليلهم هناك ولا حديث لهم الا معجزة الاردن وفي اليوم التالي عادوا الى أورشليم

﴿ الفصل الثامن والاربعون ﴾

« يسوع في البرية »

عادت راحيل الى أورشليم وهي دون كل آل بيتها كانت ممتلئة مخيلتها من الامل بالشاب يسوع وما قاله لها وكان اكثر اهتمامها به لانها كانت تعتقد من كل جوارحها انه سيشفي ساره وكانت في كل يوم تستطلع أخباره وتحادث يعقوب بشأنه وكان يعقوب في كل يوم يتنقل في مجالس اليهود ولا هم له الا السؤال عن هذا الذي وعد راحيل بانها ستراه يوماً واذ مرت الايام ولم يظهر له اثر ولا جرى بذكره فمّ ترجح لها

انه قد لاقى حتفه في البرية فرأى يعقوب وقد اوقف نفسه لخدمة ساره ان يسير بنفسه للتفتيش عنه في البرية فركب جواداً وسار الى تلك الجهات التي تركوا فيها يسوع وبعد ان عانوا المشقات الكبرى على غير جدوى توغل في قلب الصحراء حيث لم تطأ قدم بشر فصار يرى خطوات في الرمل فقال في نفسه انها خطواته واخذ يتأثرها فكان يرى اثاراً لجلوس رجل فاعتقد انه في تلك الجهات ثم رأى على الرمل آثار رجل قد اضطجع ونام فقال في نفسه لا بد ان وحشاً قد افترسه اذ نام في هذه الفلوات غير انه كان في كل يوم يرى آثار جديدة لخطى انسان فيتجدد فيه الامل بانه حي الى ذات يوم حيث شاهد يسوع بغتة جاثياً على ركبتيه وسمعه يئن كمتألم فترجل عن جواده ودنا منه وقال يا معلم لقد قصدتك منذ ايام وانا افتش عليك لاشاركك في آلامك واحزانك فنظر اليه بعينين قد ذبلتا من كثرة السهر والبكاء ومد اليه يدين قد انحلهما العياء وتبسم تبسماً لطيفاً يشف عن خوار العزيمة وقال له :

« يا بنيّ انت عزيز جداً عليّ وسوف تتألم معي يوماً ما ولكن ليس الآن وحينئذ تفهم سر وجودي هنا اتألم في البرية »

فقال يعقوب دعني ابقى معك يا ابن الله

فاجابه بلسان المحبة اذاً انت تؤمن اني انا هو فارتمى يعقوب على قدميه فكان ذلك كاحسن جواب

فمد يسوع اليه يده وانهضه وقال له اذهب الآن في طريقك وحين ينقضي وقت صيامي وتجربتي اعود فاراك ثانية

فقال كلا يا سيدي لا اتركك بل سابقى في خدمتك

فاجابه يسوع بتوبيخ لطيف ان كنت تحبني يا حبيبي فيجب ان تطيعني . فقال يعقوب اذاً معي قليلاً من الخبز والسمك فهلا تأكل وهوذا الماء فهلا تشرب

فاجابه يسوع بحزن انك لا تعرف اية تجربة تجربني بما تقدمه لي وليس معك ما يسد احتياجاتك الى ان تعود الى أورشليم فاذهب ودعني اتغلب على الشيطان رئيس هذا العالم الذي قادني الروح الى هنا لمقابلته

فلم ير يعقوب بداً من الانصراف فانصرف وهو معجب بما رآه فيه من النحول والهزال حتى انه اصبح كالخيال واندهش بالاكثر من وجوده حياً بغير طعام وقد مضى اربع اسابيع على مفارقته له من يوم قابله مع يعقوب على اثر معموديته

واذ ترك يسوع اطلق لجواده العنان فوصل بعد يومين الى اورشليم وأخبر راحيل بكل ما كان فقالت له اذا كان لم يزل حياً فلا يبعد ان يموت على ما نقلت عن نحوله

قال كلا بل سيحيا ويعود قريباً

قالت اذاً فلنسع اليــه وفي اليوم التالي ركبت ويعقوب جوادين كريمين وصارا الى جهات البرية لملاقاة يسوع

﴿ الفصل التاسع والاربعون ﴾

« ظهور يسوع »

وصل يعقوب وراحيل الى اريحا فسمعوا ان النبي لم يزل على ما كان عليه يعظ ويعلم ويعمد فقالت راحيل اننا نسير اليه أولاً ونسأله عن يسوع ونقص عليه ما كان من امره اذا كان جاهله

وهكذا سارا الى جهات الاردن فرأوا يوحنا بين تلاميذه يعظ ويعلم فتقدم منه يعقوب وقال له يا نبي الله لقد زرت يسوع في بريته وشاهدته يغالب ابليس

فاخذ يوحنا يستفسر منه عما كان من امره مع يسوع واخذ يعقوب يقص عليه كيف شاهده واذا بالنبي قد انتصب واقفاً مقاطعاً ليعقوب وقال « انظروا ثانية حمل الله الذي يرفع خطايا العالم هوذا قد خرج من الاتون كالذهب المصفى سبع مرات في النار هوذا الذي وحده حل عليه روح الله »

فالتفت الحاضرون وهم في اتم حالات الاندهاش واذا يسوع آت ووجهه مصفر وهو على اتم حالات السكون ومظاهر السلام فاسرع يعقوب اليه وسجد عند قدميه فانهضه وقال له ايها الامين والممتلي حباً هل تتبعني ؟؟

فقال نعم ولن اتركك الى الابد

أما يوحنا فاذ دنا منه يسوع سلم عليه كغريب وانطلق في سبيله في طريق البرية وتقدم يسوع الى بيت عبرا وكان تلاميذ يوحنا يتقدمون منه ويرتمون على الارض امامه فينهضهم بشفقة وحنان ويطيب خواطرهم

بعذب كلماته ثم مضى الى بيت عبرا فتبعته راحيل وقالت له يا سيد الست القادم لخلاص اسرائيل

قال ليس ذلك مشيئتي بل مشيئة الذي ارسلني

قالت وهلا تأتي أورشليم وتزور الهيكل

قال ان زيارتي الهيكل لها وقت معين من لدن ابي الذي في السموات

قالت وهل تخبرني عن المهمة التي جئت لاجلها

قال جئت لاخلص ما قد هلك وأسس ملكاً أزلياً يدوم الى الابد

قالت واين يمكن لي ان اراك

قال سابقى هنا حتى صباح الغد ثم انطلق الى الجليل فالناصرة حيث تمكث ابي الحزينة

فسرت راحيل وابتهجت لانها رأت بكلامه من الطلاوة والعذوبة ما حرك فيها روح الميل اليه وسرها بالاكثر انباؤه لها عن المحل الذي يوجد فيه وهكذا ودعته بمزيد الاحترام وانثنت راجعة الى اورشليم

ولما وصلت المدينة تلقاها انطونيوس باهتمام وسألها عن رحلته فقصت عليه كل ما شاهدته من يسوع فقال لها وهل يسوع هذا ذو مجد وسلطان

قالت ليس عليه شيء من امائر السلطة

قال وهل رأيت في استعداده الظهور بمظهر الملك القدير والميل الى محاربة الرومانيين

قالت بل بالعكس تدل ظواهره على انه روح سلام ووداعة

قال لا اخفي عنك ان انباوه قد جعلت بيلاطس باضطراب وقلق

حتى انه بادر وأرسل الى قيافا عظيم الكهنة يسأله اذا كان هذا النبي الجديد هو المسيح الذي ينتظرونه

فلما سمعت راحيل ذلك اضطربت في داخلها وقالت له ولماذا هذا الاهتمام من بيلاطس

قال ان واجباته تقضي عليه بذلك حتى اذا كان هذا هو ماسيا الذي ينتظره اليهود ليعيد لهم ملك اجدادهم ليبادر ويلقي القبض عليه قبل ان يستفحل امره ويعظم الخطب به

ولم يكمل انطونيوس كلماته حتى اصفر وجه راحيل واضطربت أعصابها وقالت بصوت تخنقه الدموع وما أجاب قيافا

قال انه جمع عددا كبيراً من الكهنة وتداول معهم في الامر وبعد البحث والتنقيب وجدوا ذلك الشاب دجالاً وهذا كان جوابهم اما انت فما هذا الاضطراب الذي ظهر عليك

قالت خفت ان يكون جوابهم انه ماسيا فيرسل بيلاطس من يفتك به لا سمح الله

قال او تهمك حياته بهذا المقدار

قالت بلا شك حتى ولو كان ليس المسيح المنتظر لان نظره المدهش يجعل الناس يحبونه ويتعشقونه

قال انتم معاشر النساء تغركم الظواهر وتخدعكم المناظر فاني مع بيلاطس وغيره من كبار الرومانيين المقيمين في هذه المدينة لم نر على

هذا الشاب الذي وصفوا لنا هيئته سيماء من يظهر ليملك ويسود

قالت اذاً لا ضرر عليه من بيلاطس

قال كلا فقد ارتاح باله من قبله فهدئي روعك

قالت ناشدتك بالشرف وبحبك الاكيد لساره ان تكون عوناً لهذا الشاب اذا وشى عليه واش لانه هو الذي سيشفي ساره من آلامها

فضحك أنطونيوس وقال فلتحقق الآلهة امانيك

الفصل الخمسون

«عرس في قانا الجليل»

بعد مضي بضع أسابيع دعي أنطونيوس وآل بيته الى فرح أحد كبار اليهود هناك وكان هـذا من موظفي الرومانيين وكانت دعوته باشارة من بيلاطس الذي اراد ان يحضر أنطونيوس حفلة هذا العرس ترويحاً للنفس من جهة ولكي يطلع على عوائد اليهود بافراحهم من الجهة الاخرى فجاء الى بيته وطلب من راحيل ورفقه وابراهيم ان يرافقوه لحضور هذا الاحتفال فلبوا الدعوة وساروا في اليوم المعين الى تلك المدينة وبوصولهم رأوا الجموع تفد على تلك الدار التي كانت مزدانة بالزهور والرياحين فاستقبلهم آل العريس بكل حفاوة واكرام كما يليق بمقامهم ولم يستقر بهم المقام حتى دخل الدار يسوع وأمه فقالت راحيل لانطونيوس انظر فان هذا هو النبي فنظر اليه انطونيوس بامعان ثم التفت الى راحيل

وقال حقاً ان هذا الشاب يجذب القلوب الى حبه حتى اني صرت اشعر من نفسي بالميل اليه والدفاع عنه عند الاقتضاء

ولم يكمل انطونيوس كلماته حتى قالت رفقه لراحيل انظري يا عمتي هذه السيدة التي مع يسوع فانها تشبهه بملامح وجهه واظن انها امه

قالت نعم انها أمه ولا شك واني لم ار جميلة في النساء تحاكيها مع انها كادت تبلغ الخامسة والاربعين سنة من عمرها على مايظهر

وكان صاحب الدعوة وعقيلته يرحبان بيسوع وامه وسارا بهما الى صدر المنزل حيث راحيل ورفقه وانطونيوس وابراهيم فاجلساهما هناك بعد ان احتفيا بهما فتقدمت راحيل من يسوع وقالت له انك يا سيدي مصدر حياة هذه الامة

فنظر اليها يسوع نظرة المعاتب على هذه الكلمات وقال ان مصدر الحياة هو ابونا الذي في السموات

ثم تقدمت راحيل من المرأة التي كانت مع يسوع وقالت لها افرحي بهذا الشاب الذي افتقدنا اله اسرائيل به فشكرتها مريم شكراً جزيلا

وكان الناس لم يزالوا يردون افواجاً من جميع أطراف اليهودية بين يهود ورومانيين ومن بينهم امرأة عجوز اكل الدهر عليها وشرب فالتفتت مريم الى راحيل وقالت لها ان هذه العجوز هي خالتي اليصابات وهي أم يوحنا نبي البرية ومنذ أجل بعيد لم اشاهدها فلعها كانت منشغلة بابنها وتقدمت نحو العجوز فقبلت يديها فقبلتها العجوز قبلات حارة ثم القت بنظرها الى يسوع وقالت لمريم آه كم انت سعيدة يا مريم لان ابنك

دائماً معك خلافاً لي فاني بعد ان رزقت غلاماً في شيخوختي فقد فقدته لانه ما بلغ الثانيـة عشرة من ربيع عمره حتى تركني ومضى الى البرية فاضعته وكدت أحسبه في عداد الاموات الى ان ظهر منذ ستة أشهر في كرازته .

فقالت لها مريم لا تحزني يا خالتي المحبوبة فان لالهنا أحكام لا بد ان تجري على ما يريد فليكن اسمه مباركاً والآن أين هو ولدك

قالت لا أعلم يا بنيتي فانه منذ أيام اختفى ولم يظهر ولعله كعادته سار الى البرية قالت هذا واخذت تمسح عينيها المغرورقتين بالدموع

ثم أعلن الحضور ببدء الاحتفال ودخلت العروس المتكأ بين جماهير النساء وتبويق الابواق وقرع الطبول ونغمات القيثارة وانشاد الملحنين وشرع الخدام بتقديم الخمور للضيوف وباشر الكهنة باتمام عقد الزواج حسب السنة الدينية

وبينما الناس في سرورهم واذا برئيس الخدامين قد دنا من مريم أم يسوع وقال لها يا سيدتي ارحميني من غضب سيدي فقد علمت ان ابنك هذا « وأشار الى يسوع الذي كان بجانبها يحادث رئيس المتكا » هو ماسيا المنتظر نبي الله

قالت بافتخار وما الرحمة التي تحتاجها .

قال ان الخمر القليلة التي عندنا قد نفدت ورئيس القرية قد أمر باملاء انية الخمر التي قد فرغت وكنت انتظر الخمر التي أرسلت استجلبها من دمشق فاذا القافلة قد تأخرت في الطريق

فقالت مريم وهي تنظر اليه بعظمة وافتخار لا تجزع فانا اكفيك عناء هذا الملام ثم أدنت فمها من أذن ابنها وقالت له يا بني لم يبق للقوم خمر يشربونها فهل لك ان تأتيهم بمعجزة تجعلهم كلهم مؤمنين بك وبمن أرسلك

فالتفت يسوع اليها برصانة وخاطبها بلسان التوبيخ قائلا يا امرأة مالي ولملتمسك هذا انت تريدين ان اصنع عجيبة امام المتكئين لكي يشاهدوها ويؤمنوا بي لكن ساعة اعلان مجدي للعالم لم تأت بعد ومع كل ذلك فاطاعة لارادتك الوالدية سوف اعمل ما تحبين

فسرت مريم من اهتمام ولدها بتلبية ارادتها وخصوصاً فيما يجلب مسرة المتكئين وأصحاب الدعوة ويعلن قدرة وحيدها ونادت الخدم فحضر منهم اثنان فامرتهما ان يكونا طوع اشارة يسوع فوقفا ينتظران امره اماهو فاشرق وجهه بنور مجيد لا يوصف وابرقت عيناه بضياء يشف عن ادراكه القوة التي فيه ثم سار الى اجران الخمر والخادمان يتبعانه فقال لهما املآ الاجران ماء قراحاً فاندفعا الى البئر واخذا يملآن الجرار ويفرغونها في الاجران الى ان امتلأت وكانت ستاً

وبينما كان يسوع مهتم بامر اجران الخمر كان رئيس المتكأ منشغلا بمحادثة ضيوفه الى ان اخبرهم عن النزاع الذي حدث مؤخراً بين بيلاطس البنطي والي اليهودية الروماني وهيرودس ملك الجليل فان بيلاطس بينما كان سائراً من قيصرية فيليبوس الى اورشليم ليحضر مع جنوده عيد الفصح جاء ليلا الى فندق كان هيرودس نازلا فيه برجاله فاخرجه منه

ليتسع المكان له ولحاشيته بدعوى ان الوالي الروماني على اليهودية اعظم من رئيس ربع يهودي على الجليل فكان لهذه القصة وقع مدهش عند اليهود الذين سمعوا الحديث فاظهروا ما اظهروا من الاستهجان فاراد رئيس المتكا ان يبدل الحديث فقال ولكن علمت ان هذا النزاع الذي حدث بينهما سوف ينتهي بالتي هي احسن في وقت قريب اما نحن فقد نسينا الخمر فاين راعوث (اسم رئيس الخدامين) فدنا الرجل للحال وهو وجل من سيده وقال لبيك

قال لماذا تأخرت علينا بالخمر واين آنيتك

قال سمعاً وطاعة وانثنى ليحضر الخمر وهو يقول في نفسه هلكت لا محالة ولما وصل الى الاجران شاهد يسوع واقفا والعبدان قد اتما املاء الجرن الاخير فقال له يا سيدي طلب مني الخمر ولا خمر لدينا

فقال استقِ يا عزيزي فهوذا الاجران ملأى

قال راعوث نعم انها ملاى ولكن من ماء البئر فهل أقدم للمتكئين ماء

قال تقدم وانظر وما اعظم دهشة راعوث اذ تقدم من الاجران التي عرف من قبل انها فارغة وان عبديه قد ملآها من البئر ماء قراحاً فاذا هي خمر جيدة حمراء اللون فاسرع وملأ كاساً وشربه فاذا الخمر من اجود الانواع فشكر يسوع واسرع فملأ الآنية ودار بها على الحضور وتقدم من رئيس المتكا اولاً فقدم له كاساً فشربه مسروراً ومال الى العريس الذي كان متصدراً بجانب عروسه وقال له قد عهدنا القوم يقدمون

الخمر الجيدة للمتكئين عند حضورهم حتى اذا سكروا قدموا له الخمر القليلة الجودة اما انت فقد خالفت هذه القاعدة وابقيت الخمر الجيدة الى الآن وهذا نهاية الكرم

فاندهش العريس من كلمات رئيس المتكا وطلب كاساً من الخمر فشربه وقال من اتى بهذه الخمر فاني لم اشرب مثلها في حياتي ولا اعلم من اين هي

فضحك راعوث بملء شدقيه وقال انها خمر من السماء يا مولاي

قال العريس والحضور كلهم قد اصغوا ليعلموا ان كانت السماء قد أخذت تورد انواع الخمور مزاحمة لسكان الارض ومن اين اتيت بالخمر السماوية؟

قال راعوث اني يا مولاي كنت أوصيت القافلة التي تتردد بيننا وبين دمشق على ما يكفي من الخمر فتأخر حضورها بسبب الفتنة التي حدثت قرب قيصرية وكان يذكرها رئيس المتكا الآن فاضطربت في نفسي والتجأت الى مريم أم يسوع لما لها من الدالة الوالدية على ابنها فطيبت نفسي وسألته اسعافي فسار الى الاجران وكانت فارغة وأمر الخدام فملأوها ماء قراحاً من البئر ثم دنوت فقال تقدم واملأ آنيتك واسق الحضور فحسبت أولا انه يستهزئ بي لاني شاهدت بعيني رأسي الاجران فارغة والعبيد يملأونها من البئر غير اني لما نظرت اليها وجدتها حمراء قانية فملأت كاساً وشربته فاذا دهشتي لا تقل عن اندهاشكم

لاني لم أزق في حياتي خمراً جيدة كهذه

ولم يكمل راعوث كلماته والقوم سكوت كأن على رؤوسهم الطير مصغين الى هذا الحديث الغريب المدهش حتى اندفعوا الى الاجران وأخذوا يستقون منها تلك الخمر اللذيذة الطعم وحينئذ صرخ رئيس المتكا بصوت عال حقاً ان بيننا نبياً جديداً ونحن لم نعلم وهذه معجزة من معجزاته وتصريح عام بقوته الالهية

فصرخ الجميع أين هو لنسجد له ونؤمن به وأخذوا يفتشون عليه فلم يجدوه لانه كان قد ترك الحضور واختفى فتقدموا من أمه واعترفوا امامها بايمانهم بابنها يسوع وكانت هذه الاعجوبة سبباً لمضاعفة سرور المتكئين

أما راحيل وانطونيوس فلم يكونا اقل اندهاشاً من القوم فقال انطونيوس لراحيل حقا ان هذا الشاب ساحر كبير

قالت لا تقل هكذا يا مولاي فانه نبي مرسل من عند الله

قال اذا نتبعه لننظر اذا كان يشفي ساره فنؤمن به

قالت نعم ولكن لا نعرف أين هو ثم التفتت الى يعقوب وكان في خدمتها وقالت له اذهب وانظر لنا اين الشاب يسوع

فضحك يعقوب وقال ألم يكن الآن بينكم وقد حول الماء الى خمر

قالت ولكنه ذهب

قال كيف يذهب وحده ولم يدر به احد ولم ينتظر جواب ساره بل انطلق لساعته في طلب يسوع

ولم يمض على يعقوب الاجل الطويل حتى عاد الى راحيل مسروراً وانبأها انه قابل يسوع بين البساتين والادغال منفرداً وانه انطرح عند قدميه في تلك الخلوة وسمع من شفتيه اعلانه بانه هو ابن الله

فابتهجت راحيل وطربت ومالت الى انطونيوس قائلة بشرى لنا يامولاي فقد قرب الوقت الذي فيه ستنال ساره الشفاء

قال كيف ذلك

قالت ان هذا الذي حول الماء القراح خمراً لذيذة الطعم لا يصعب عليه ان يحول امراض ساره الى صحة

قال فليكن لك كقولك

وما انقضت تلك الليلة وانقضت حفلة الزفاف حتى توزع الناس في اطراف البلاد يلهجون بتلك المعجزة التي اظهرها يسوع ويبشرون الناس بظهور ماسيا المنتظر وطفأ القوم يتحدثون بذكره من ذلك الحين وانعكف الكهنة على مطالعة النبوات وتطبيقها على ما يسمعونه من حوادث الشاب يسوع

الفصل الواحد والخمسون

﴿ ساره وأولادها ﴾

ان تمثيل حالة ساره المزعجة في كل هذه المدة مما يعجز عنه القلم فانها كانت تعلم نفسها من جهة ان داءها الويل لا شفاء له وانها في نظر قومها

نجسة لا يجوز لاحد ان يدنو منها ومن الجهة الاخرى صارت تريد الحياة بعد ما علمت ان ولديها اصبحا شابين ولذلك أخذت تلح على راحيل وانطونيوس طالبة مشاهدتهما وهما كانا يسوفانها كما كانا ينكر ان وجودها على ولديها ويشاغلانهما بالامل

غير ان الولدين ايضاً لم يطل الاجل الطويل حتى شعرا بان امهما في الوجود وانها قريبة منهما فرأت راحيل بعد الجهد ان لا بد من اجتماعهما بامهما فسارت بهما قبيل ذهابها الى عرس قانا الجليل لمقابلة والدتهما وكان معهم انطونيوس وروميلوس ايضاً وكان ذلك بعد ان اخبروا ساره حتى لا تكون مقابلتهم لها على حين بغتة مخافة ان يؤثر ذلك على صحتها وجعلوا موعد هذا اللقاء ليلاً تحت جنح الظلام حتى لا يشعر بهم اليهود فيرجمونهم لمخالطتهم هذه البرصاء النجسة

ولما علمت ساره ان ولديها سيزورانها اخذت تعد الدقائق واللحظات وانتعشت قواها وصارت تحدث نفسها بهذا الملتقى البهج وما زالت على احر من الجمر الى ان غربت الشمس وساد الظلام شيئاً فشيئاً على الحجرة التي كانت تأويها وجاءت الخادمة فاولعت سراجاً من زيت الزيتون فانارت تلك الغرفة المظلمة التي لم يكن فيها سوى سرير تلك التعيسة وحصيراً من اغصان النخيل وبعد قليل تقدمت الخادمة بالطعام لسيدتها فلم تتناول شيئاً منه لان نفسها كانت قد تغذت بسرورها بقرب زيارة ولديها وحشاشة كبدها وكان صبرها قد نفذ لكثرة الانتظار فنهضت من فراشها متثاقلة واخذت تسير جيئة وذهاباً في حجرتها وهي في كل خطوة تصغي الى

الباب لعل به طارق وكانت تتململ اذ لم تكن تسمع صوتاً او حركة وتتأفف من هذا السكون الذي كان يزعجها

لم يمر الوقت الطويل ولكن ساره رأت الوقت طويلاً ولم يبطيء عليها زوارها بالقدوم ولكنها حسبتهم مبطئين الى ان مضى الهزيع الاول من الليل واذا بالباب يقرع فصاحت ساره بخادمتها قائلة ويلك افتحي الباب فقد وصل الاحباب وكانت تلك الخادم العجوز جالسة القرفصاء تنظر تارة الى قلق سيدتها باستغراب على خلاف ما كانت تعهدها الى ان تغلب عليها النعاس فاغمضت عينيها واستندت بظهرها الى الحائط حتى اذا ما صاحت بها ساره تلك الصيحة انتبهت مزعورة وقالت ومن هؤلاء الاحباب ياسيدتي هل انت في حلم ومتى كان لنا احباب يزوروننا

قالت ويلك افتحي الباب

قالت خففي روعك ايتها التعيسة فما في الباب طارق وان انت الا في سبات وغفلة ولم تكد تتم كلماتها حتى قرع الباب ثانية فقالت ساره او رأيت من منا في غفلة ايتها الدرديبس

فنهضت العجوز من مثواها وسارت نحو الباب ففتحته فدخل القوم وكانت علائم الاضطراب ظاهرة على وجوههم وان اخفاها الظلام ولو اصغت تلك العجوز لسمعت دقات قلوبهم من داخل صدورهم فتقدمتهم العجوز بعد ان عرفتهم ودخلت تلك الحجرة ودنت من ساره لتمنعها عن الالتصاق بهم

أما ساره فلما فتح الباب أخذت تصيح بملء صوتها الخافت قائلة

تعالا يا ولدي تعالا يا حشاشة كبدي وانظرا امكما التعيسة تعال يا ابراهيم وانظر أمك النجسة تعالي يا رفقه فهذا أمك ولكن لا تقربيها وكان هذا الصياح المزعج قد اثر على عواطف ابراهيم ورفقه فدنت هذه من راحيل واستندت عليها وهي مرتجفة أما ابراهيم فلم ير نفسه جباناً قبل ذلك الموقف المخيف

ولما دخلوا الباب هجمت ساره لتدنو من ولديها وتقبلهما وهجم الولدان لمثل ذلك ولكن يا للاسف لا يجوز في شريعة الاسرائيليين مخالطة الاصحاء البرص

وعلى هذا فتمسكت العجوز بساره ومنعتها عن التقدم كما تمسك انطونيوس وراحيل برفقه وابراهيم ومنعاهما عن الوصول الى أمهما فاغمي على الثلاثة في وقت واحد وأصبح ذلك المشهد من المشاهد المحزنة التي لا يقوى على وصفها أبلغ الادباء وأشعر الشعراء فليتصور القاريء الكريم ما يستطيع تصوره من حالة هذا المشهد المحزن

فاحتمل روميلوس وانطونيوس وراحيل ابراهيم ورفقه وساروا بهما عائدين الى البيت واحتملت العجوز ساره ووضعتها على فراشها

وفي اليوم التالي أصبح ابراهيم ورفقه في حالة من الحزن والانفجاع يرثى لها حتى كان ذهابهما الى زفاف قانا الجليل بالرغم عنهما لذلك لم نسمع لهما صوتاً في تلك الحفلة الحافلة

أما ساره فكانت طول ليلها تهذي بكلام متقطع لا رابط له وفي صباح اليوم التالي انتبهت لنفسها واخذت تبكي وتنوح وهي تقول :

رأيتها . نم رأيتها . ابراهيم يشبه اباه يهوذا ذلك الذي قتل ظلماً اواه يا الهي كيف سمحت بهذه المصائب والاحزان . ولكن فلتكن مشيئتك . اما رفقه فانها تشبهني . نم انها تمثلني بكل ملامحي وابرهيم يشبه اباه كانه متقمص فيه . ويلاه من هذه المصائب كان لم يكفني هلاك زوجي . واقامتي في ظلمات السجون كل هذه السنين الطويلة . وابتعادي عن اولادي . حتى دهمني هذا الداء العضال . فلماذا انا لا اموت ياربّاه ويلاه من هذا المصاب الكارث والخطب الاليم . لماذا انا ياترى في الوجود . قد رأيت ابرهيم . ونظرت رفقه بعينيّ . ولكنهم منعوني من الدنو منها فلماذا هذه القسوة هل لاني نجسة . نم نم انا نجسة انا نجسة . هكذا قضت راحيل ايامها التي تلت زيارة ولديها لها بحزن وانفجاع واكتئاب وكانت اذا فرغت من ترديد هذه الكلمات المتقطعة تعود الى النواح ثم تنتبه لنفسها فتصلي الى اله اسرائيل وتطلب معونته

الفصل الثاني والخمسون

شفاء ساره

ولما عادت راحيل من عرس قانا الجليل وقد علمت ان يسوع قد اعلن نفسه انه ابن الله تصورت ان على يديه سيكون شفاء ساره وارسلت يعقوب الى يسوع ليعلم مقره ويطلب منه شفاء هذه المسكينة التعيسة ولم يمر الاسبوع حتى عاد يعقوب في صبيحة ذات يوم الى راحيل

وقال لها بشراك يا سيدتي

قالت ماذا

قال ان يسوع يعمل المعجزات في جهات قانا الجليل وكفر ناحوم وتلك الارجاء والناس يأتون اليه بالمرضى من اغنياء وفقراء فيشفيهم وحيثما ذهب يتبعه الوف حتى ان والي فيليبن نزل في الطريق من مركبته ودخل بين الجموع حتى انتهى الى ماسيا هذا العجيب وسجد عند قدميه وسأله ن يشفي ابنه المفلوج فشفاه بكلمة منه مع انه كان بعيداً عنه عدة فراسخ فلما رأيت ذلك تقدمت من هـذا النبي وانطرحت على اقدامه بخشوع وقلت يا يسوع ابن داوود ارحم ساره سيدتي واشفيها من اوجاعها ثم رفعت نظري الى السيد فاذا هو يتفرس فيَّ ثم قال (عظيم ايمانك فكما آمنت يكون لك) فاخذت املأ الفضاء بهتاف الحمد والشكر لابن داود وسرت من ساعتي عائداً الى اورشليم وانا مؤمن ايماناً ثابتاً بان ساره هي بريئة من أمراضها

كان يعقوب يقول ذلك وراحيل مع من في البيت يسمعون كلماته باندهاش وتعجب ثم قامت رفقه قائلة استحلفكم باسم اله اسرائيل ان تسيروا بامي التعيسة الى هذا النبي القدير لعله يشفيها واخذت تبكي وتنتحب

فهب ابراهيم هبة الاسد الشجاع وقال انا الذي يجب ان اعتني دون الناس بامي وأسير بها الى هذا القديس فسكته راحيل وقالت له تأنى يا بنيَّ فان أمك برصاء واذا سرت بها بين الجموع رجموك واياها وقد علمت ان يسوع سوف يزور اورشليم فنلتمس منه ان يزورها وقتئذ

قال وان لم يزر هذه المدينة نكون قد اضعنا فرصة تكسبنا الحسرات أبد الدهر فما في كل وقت يظهر ماسيا ويشفي مرضانا

وقال انطونيوس انا اقدر ان احمل بيلاطس على ارسالها بقوة من الجند كبرى الى حيث يسوع فتصل بامان من كل اعتداء

فاستحسن الجميع هذا الرأي وهمّ انطونيوس بالذهاب الى بيلاطس واذا برسول بالباب من قبل حاكم اليهودية وبيده تذكرة الى انطونيوس ولم يكد يفتحها حتى صاح بملء شدقيه قائلاً هيوا بنا الى بيلاطس فانه يدعونا لامر عظيم فاسرعت راحيل واختطفت الكتاب وتلته فاذا فيه

عزيزي انطونيوس

احضر حالاً الى بيتي مع كل من في بيتك لتروا ما يسركم ويعيد احزانكم الى افراح ومسرات

بيلاطس حاكم اليهودية

فصاحت رفقه قائلة ومثل ماذا هذه الافراح

قالت راحيل نذهب ونرى

فلندع انطونيوس وآل بيته ذاهبين الى دار بيلاطس ولنعد الى ساره فانها في الليلة التي وصل في صباحها يعقوب واخبر راحيل بما كان من أمر يسوع كانت في غاية الاضطراب والانفجاع وقد اشتدت عليها الاحزان واستحكم منها اليأس فلم تنم حتى ولم تستطع ان تأوي الى سريرها الى الهزيع الثالث من الليل فشعرت بخوار وتعب شديدين فمالت الى سريرها

وتمددت عليه وذبلت عيناها فاغمضتا من غير ان تنام واذا هي بشاب جميل الطلعة حسن المحيا تتلألأ في وجهه الانوار قد دخل عليها وجلس على سريرها فقالت له كيف تجلس على فراشي أيها الشاب وأنا برصاء نجسة ألا تخاف من شر العدوى وانت شاب جميل وفي مقتبل العمر

قال لا خوف عليَّ يا بنت اسرائيل لانك لم تعودي برصاء

قالت وكيف ذلك يا سيدي وآثار البرص قد ملأت كل جسمي

قال ولكنها زائلة وأنت صحيحة

قالت أشكرك على هذه البشرى

قال بل اشكر الله اله اسرائيل ولكن قولي لي أوليس لك أولاد

قالت بلى

قال ومن هم

قالت ابراهيم ورفقه وهما بعناية سيدة قدربتني وقدر لها وا أسفاه ان تربيهما وتعتني بهما دون والديهما

قال بل لك ولد ثالث واسمه اسحق

قالت نعم ولكنه مات

قال ومن أين علمت ذلك

قالت لاني لم أسمع ذكر اسمه من راحيل

قال بل هو في الوجود وهو بين معسكر الرومانيين فاطلبيه تجديه هناك

قالت ربما اذا طلبته لا أعرفه وهو لا يعرفني

فنظر اليها ذلك الشاب بعينين تتقدان ذكاءً وقال لها يابنت اسرائيل الا تذكري شيئاً من العلامات الفارقه في جسم ابنك هذا الصغير

قالت لقد كرت الاعوام عليّ بالاهوال فانستني نفسي بحيث صرت أجهل ذاتي فمن أين لي ان اذكر ولدي وقد تركته وهو في دون العامين من عمره ولا يحسن الكلام جيداً

قال ولكن أعيدي على مخيلتك ذكر تلك الايام وانا أساعدك في ترديد هذه الذكرى وتفطني جيداً باولادك وبيتك

قالت لا تذكرني بآلامي يامولاي فتزيد في همومي واسقامي واوجاعي

قال ولكن الخير في هذه الذكرى فتعالي معي لنسير الى البيت الذي خرجت منه منذ خمسة وعشرين عاماً حتى اذا دخلتيه ذكرت كل شيء

قالت اومرّ على ذلك العهد ربع المئة من الاعوام اواه يا ربي انه لاجل طويل ولكن فلتكن مشيئتك وانما ياسيدي لا يجوز لي الخروج معك لان اليهود اذا رأوني وانا برصاء في الطريق يرجموني بالحجارة

قال قلت لك انك قد برئت من أوجاعك فهيّ معي لنسير الى دارك القديمة ولا تخافي مكروهاً

قالت وماذا أفعل في هذه العجوز فانها تقف في وجهي وتمنعني عن المسير كما منعتني عن تقبيل ولديّ يوم قدما لزيارتي

قال ولكنها نائمة وسوف لا تفيق الى ان تعودي

الفصل الثالث والخمسون

صفحة من الماضي

خرج الشاب بساره وسارا في الطريق وكانت ساره متكئة على كتف ذلك الشاب وهي تقول له حقاً ياسيدي أرى نفسي صحيحة وأرى في مفاصلي قوة على المشي لم أعهدها منذ دخلت ذلك السجن المظلم

فقال لها الشاب تقدمي ولا تخافي يا بنت اسرائيل وسيري معي بقدمين ثابتتين الى ان نبلغ ذلك البيت

قالت وهل البيت خالي من السكان

قال نعم انه كما فارقتيه باثاثه ورياشه

قالت تبارك اسم الرب ومن انت ايها الشاب لاذكرك في ما بعد واشكرك

قال اما أنا فلا أرجو شكراً ولا أجراً بل اشكري الله اله اسرائيل الذي لا يهمل مختاريه

قالت حقاً انك ملك مرسل من السماء لتعزيني فالله يكافئك عني خيره

وما زالا يسيران على ما ذكرنا حتي بلغا تلك الدار فلما نظرت سارو الى الباب تنفست الصعداء وقالت انه بيتي ايها الشاب الجميل نعم هذا هاً البيت الذي سكنته مع زوجي يهوذا وهو الذي خرجت منه الى السجن ولا بد ان يعقوب يفتح لنا فندخل بسلام وأمان ولكن هل أرى فيه

يا ترى زوجي وأولادي

قال أما زوجك فهو في العالم الابدي واما اولادك فهم في رغد من العيش واما خادمك الامين يعقوب فهو لم يزل كما كان

قالت بارك الله فيه ومدت يدها فقرعت الباب ففتح لها واذا بيعقوب تقدم منها وقال لقد اطلت الغيبة يا سيدتي

قالت هكذا شاء اله اسرائيل فليكن اسمه مباركاً

ولما دخلا الدار قال الشاب تفكري اذاً يا بنت اسرائيل بكل مامرّ عليك في هذا المكان فرفعت يدها الى جبينها وقالت نعم تذكرت كل شيء الى هذه الدار جئت مع ابي رحمه الله ونحن عائدون من مصر فارون من حاكمها فنزلناها بسرور وهناء وفي هذه الدار أيضاً اقترنت بيهوذا ذاك الغيور على شعب الله . وفي هذه الحجرة وأشارت الى غرفة عن يمينها ولدت أولادي الثلاثة ابراهيم فرفقه فاسحق وفي هذه الغرفة مات أبي واأسفاه عليه نعم في هذه الغرفة فارقت روحه هذا العالم الى الابدية ومات وهو يباركني مع أولادي وأشارت الى غرفة عن يسارها

قال الشاب او هذا كل الذي تذكرينه

قالت لا بل اذكر أشياء أخرى جرت لي أيضاً في هذه الدار فان فيها كان يجتمع كهنة الاسرائيليين ورؤساؤهم للاحتجاج على أولاد هيرودس والحكام الرومانيين

ولي ايضاً ذكرى ينتعش لها فؤادي فاني اذكر امرأة بارعة في الجمال ولدت في بيت لحم غلاماً جميل الطلعة وظهرت انواع من العجائب في

مولده وقد جاء به والده الى أورشليم يوم قدماه للهيكل فنزلا في هـذه الدار ايضاً فهل تعرف تلك المرأة التي كلما كنت اتصور جمالها ووداعتها في سجني ازداد صبراً واحتمالاً لعذاباتي وآلامي فهل تعرف هـذه السيدة الطاهرة

قال أعرفها وهي لم تزل متمتعة بالصحة

قالت وزوجها ذلك الشيخ الساذج النقي القلب مافعل الله به

قال انه مات

قالت اذاً هي في حالة من الفقر واأسفاه لاني عرفتها لا تملك شيئاً

قال ولكن ابنها الوحيد أخذ يشتغل بمهنة أبيه النجارة ويعولها بعرق جبهته

قالت حياه الله وبياه فارجوك اذا رأيتها ان تبثها سلامي

قال ومن ثم قالت كنت أجلس في هذه الغرفة حيث أقضي نهاري معتنية في أولادي نعم وكان يعجبني في ابراهيم شعره الاشقر وفي رفقه عيناها السوداوان وشعرها الاسود الفاحم وقد رأيتهما في الامس ولكني لم أحدق النظر فيهما أواه واأسفاه

قال الشاب لا تتأسفي يابنت اسرائيل ولا تتأوهي فغداً تساكنيهم وتجتمعي بهم ولكن تذكري جيداً ولدك الثالث اسحق كيف كانت ملامح وجهه

فاطرقت ساره الى الارض هنيهة ثم قالت . نعم . نعم ذكرت اسحق تصورته جيداً . اتصوره وهو بالكاد يمشي . بالكاد كان يقول . ماما . با با

نعم نعم . اما جماله ففتان . واما لحظه فساحر . نعم ايها الشاب ذكرت الآن جيداً فان اسحق كان يوماً يتخطر في فناء هذه الدار واذا بابيه يهوذا داخل وفي يده سل من الرمان والتفاح فهجم عليه وتبعه ابرهيم الذي كانت خطواته أوسع فمرّ به والقاه على الارض فجرحت جبهته جرحاً بليغاً نخفنا خوفاً شديداً واسرع يعقوب فاحضر طبيباً ضمد الجرح واذكر ان علامة هذا الجرح كانت ثابتة الى يوم فارقته

قال اذاً ان الذي ترينه وعلى جبهته الجرح فهو ابنك اسحق

قالت ولكن ربما غابت تلك الاشارة مع هذا الزمن الطويل الذي ذكرته

قال انها لم تغب يابنت اسرائيل بل هي لم تزل في ذلك الوجه الوضاح الذي يمثلك احسن تمثيل لتعرفيه منها قال الشاب هذا ومال عنها يريد الانصراف واذا بساره قد تمسكت به وقالت الى اين انت ذاهب ياسيدي خذني معك

قال دعيني فما عاد لك بي من حاجة ولم ينه كلماته حتى تخلص من ساره واسرع بخطاه فهمت ساره ان تتبعه فوقعت من فراشها الى الارض وانتبهت مزعورة واذا الفجر قد لالا بانواره الزهية فجلا ظلام الليل الدامس وخادمتها لم تزل نائمة على فراشها الخشن وهي تغط غطيطاً فدنت منها وايقظتها وهي تقول ويلك انهضي وانظري

فنهضت العجوز مزعورة وقالت ماذا جرى ياسيدتي ؟؟

قالت ساره لقد شفيت نعم وهذا انا بالصحة

فدمدمت العجوز دمدمة المستهزيء وقالت وهي تضحك ومن الذي شفاك في ظلمات هذا الليل

قالت ملاك الرب فانه ظهر لي في الحلم بصورة شاب جميل الطلعة بازغ النور وبشرني بهذا الشفاء العجيب وهداني الى ابني اسحق الحبيب

قالت انك تهزي يا سيدتي فعودي الى فراشك طلباً للراحة وهنذا أرسل لك الطبيب

قالت وما الحاجة الى الاطباء وما عاد بي اثر للمرض ويلك حدقي بي جيداً وانظري جسمي السليم وآمني بالملاك الذي شفاني

فنظرت العجوز الى ساره فاذا جسمها نقي لا تشقق فيه ووجهها قد تورد واضاء واشرقت أساريره فاندهشت من هذا المرأى العجيب وقالت فليكن اسم الرب مباركاً

قالت فاسرعي بي الى حيثما أرى أولادي

قالت تمهلي لاخبر الحاكم لاني لا أعرف مثوى بنيك

قالت اذا هيّ بنا اليه

وقد علم القراء ان حاكم اليهودية بيلاطس قد ارسل الى انطونيوس يستدعيه مع أهل بيته وكان ذلك ليقابلهم بساره التي جاءته وأخبرته بما رأت في الحلم وكيف انها اصبحت بصحة وعافية وكان هو وآل بيته في مقدمة المندهشين

الفصل الرابع والخمسون

كرميليوس

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهل وما اختاره ،ضنى به وله عقل
فان رمت ان تحيا سعيداً فمت به شهيداً والا فالغرام له أهل

عرفنا كرميليوس قائد مئة في جند الرومانيين في أورشليم ولكنا حتى الآن لم نقف على أصل هذا الشاب ومنشأه فلنبق ذلك الى الايام وهي تكفل لنا جلاء كل غامض

غير اننا عرفنا من سياق الحديث ان كرميليوس قد شغف برفقه ابنة ساره وأحبها حباً مبرحاً وان هذه الحسناء هي ايضاً قد شغفت في هذا الشاب وتعشقته بالرغم عن تحذير عمتها التي كانت تحسب لهذا الحب الف حساب وحساب ولا سيما لأنها كانت تعلم ان نكبات سيدتها ساره لم تتأت لها الا من حب انطونيوس الروماني

ولم يكن كرميليوس ليهدأ روعه الا بمرأى تلك التي سلبت فؤاده بعينيها فكان يتأثر خطواتها في كل يوم ويتبعها حيثما سارت كما رأيناو كان اذا خلا في ليله نفر عنه الرقاد وتمثل أمام عينيه خيال حبيبته فيناجيها بحبه ولقد شعر باضطرابه الكثيرون من رؤسائه واصدقائه غير انهم لم يكونوا ليعلموا السبب الذي جعله كثير الافكار قليل الكلام خلافاً لسابق عهدهم به

وكان بيلاطس حاكم الرومانيين يحب هذا الشاب كرميليوس لشجاعته ويدنيه من مجلسه ويقابله بكل حفاوة واكرام فسأله في ذات

يوم عن سبب اضطرابه وعرض عليه مساعدته فابى ان يجيب وظل صامتاً غير ان

دلائل الحب لا تخفى على أحد　　كحامل المسك لايخلو من العبق

فقال له بيلاطس وهل انت عاشق أيها الشاب النبيل

فسكت ولم يجب

فقال بيلاطس لا تخفي ما فعلت بك الاشواق وافصح هواك فكلنا عشاق وقل لي من التي تهواها لازيل المصاعب التي تحول بينك وبينها لانك انت الوحيد في هذه الديار الذي عليه أعول في دفع الاخطار

فتنفس كرميليوس الصعداء وشعر بحمل ثقيل قد انحط عن عاتقه وقال بصوت مرتجف وقلب خافق نعم يامولاي أنا عاشق ولهان ومتيم حزين

قال ومن هذه التي ملكت فؤادك واسرت لبك

قال تلك الحسناء اليهودية الرومانية يامولاي

قال أتريد بها رفقه

قال نعم

قال يالك من جاهل فهل ترضى لنفسك يهودية وانت من أركان الجيش الروماني وامامك من المستقبل الحسن مايجعل اكرم الكرائم الرومانيات ان تتمنى الاقتران بك فاعدل عن هذا الحب الذي لا أرضاه لك وانت فيما بعد سوف لا ترضاه لنفسك

قال هيهات هيهات فقد سبق السيف العزل واذا كان لا بد لي من الابتعاد عن رفقه فما أمامي الا حياة النكد او الموت الزؤام

واذ رأى بيلاطس ان الشاب متيم ولهان وان لاحيلة في ثنيه عن الحب المبرح وهو يحبه لفطانته وذكائه ونشاطه طيب خاطره ووعده بتسهيل كل العقبات التي تحول بينه وبين من يهوى تعجيلاً لقرانه وكان يعجب من هذه العلائق التي تربط الرومانيين بعائلة ساره ولا سيما اذ يرى انطونيوس الشريف الروماني تاركاً بيته ووطنه سهراً على ساره وأولادها وكذلك حال روميليوس الذي ترك مزارعه سهراً على ربيبته رفقه وهذا كرميليوس قد ترك كل شيء واشتغل بهوى هذه الحسناء وقال في نفسه بعد كل هذا ان لا بد من محرك غير طبيعي يحرك هؤلاء على خدمة ساره لانه هو نفسه كان يشعر بالارتياح لخدمتها وخدمة بنيها

اما كرميليوس فقد شعر منذ فاتحه بيلاطس بهواه بما خفف عن عاتقه ثقل هذا الغرام وأحس بارتياح وسرور كان فقدهما منذ عرف رفقه وأشغله هواها وصار يرجو الخير على يد بيلاطس وكان كلما رأى انعطافاً أو التفاتاً من انطونيوس نسب ذلك الى وساطة بيلاطس غير انه ما كان يجرأ على مفاتحة الشريف بأمر رفقه ولا سيما اذ كان يرى من راحيل كل نفور

وبالفعل ان بيلاطس حدث انطونيوس بامر رفقه وكرميليوس وسأله ان كان بالامكان التوسط بامر قرانهما فاجابه باستحالة ذلك لان راحيل تكره هذا الحب وتتوقع الشر من نتيجته وكذلك حال روميليوس الذى لا يرضى عن طيب نفس ان تتزوج رفقه وهو يتمنى ان تبقى له ربيبة

وحبيبة الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً .

وبعد ان وعى بيلاطس خفايا كلا السببين قال وما رأي الابنة يا ترى

قال انها تحب كرميليوس حباً مبرحاً ولولا ضغط راحيل على عواطفها لجاهرت بهذا الحب

قال او من العدل ان تحول قسوة راحيل وروميليوس بين قلبين قد ائتلفا على الهوى

قال اذا لم يكن ذلك من العدل فهو من الامور الواقعة الواجب مقابلتها بالتسليم بغير جدال والخيرة بالواقع

قال ولكني اتمنى راحة كرميليوس ولا راحة له على ما رأيت الا بهذا القران

قال وأنا لا أتأخر عن مساعدتك في هذا الشأن لاني أحب رفقه واتمنى لها السعادة ولا سعادة لها الا بقرب كرميليوس على ما علمت وهكذا انصرف الصديقان على ان يكونا عوناً للعاشقين

وبعد ان مرت أيام على حوادث روايتنا هذه تلقى بيلاطس عدة تشكيات من اطراف اليهودية من فظائع ما يأتيه باراباس من الجرائم والموبقات وآخرها انه قتل رجلاً من كبار الفريسيين بينما كان مسافراً من اورشليم الى اريحا طمعاً بما معه من الاموال فاستدعى للحال كرميليوس وقال له أو لم تزل عاشقاً متيماً ؟؟

قال نعم

قال أو لم تحل عن هواك ؟قال :

قالوا اصطبر قلت صبري لا يطاوعني   قالوا اسلها قلت وجدي غير منصرم
فانني سوف أسلوها اذا عدمت   روحي واحييت بعد الموت والعدم

قال ولكن للعشاق معجزات يأتونها ليبرهنوا على صادق حبهم

قال اقترح عليّ ما تشاء من الاعمال لاقضيها في سبيل هذا الهوى

قال وللخرائد المحصنات مهر مهما غلا يقدمه العريس عن طيبة خاطر

قال لا أبخل ببذل الروح في سبيل الحصول على رفقه

قال ان باراباس لقد عاث فساداً في أطراف البلاد فاذا قبضت عليه حياً أو ميتاً كانت رفقه لك عروساً فهذا هو المهر المطلوب وهذه هي المعجزة التي يقدمها المحب الى المحبوب

قال حسناً ولا يمضي خمسة أيام الا وباراباس في ظلمات السجون أو ظلمات القبور ولم يتم كلماته حتى انثنى من حيث اتى وبيلاطس معجب بشجاعته وصادق حبه

الفصل الخامس والخمسون

« جمع الشمل »

كان بيلاطس يحادث ساره وهو مندهش لشفائها اندهاشه من جمالها وطلاقة لسانها ويسألها السؤالات الشتى عن سابق حوادثها وهي تجيبه الاجوبة المسددة فتزيده رغبة في محادثتها

وبينما هما على تلك الحالة واذ دخل كرميليوس بغير استئذان وعلامات

البشر والسرور طافحة على وجهه وهو يقول مولاي لقد توفقت بالقبض على الشقي باراباس في ضواحي المدينة مع اثنين من اتباعه وزجيتهم في ظلمات السجون لينالوا من صارم القصاص جزاء ماجنته ايديهم فان سرتك هذه البشرى فانم عليّ بمثلها بشرى برضى رفقه بي عروساً

كان كرميليوس يروي هذه البشرى لمولاه الوالي وبيلاطس يصغي بجملته الى حديثه وساره تحدق فيه النظر بجاذب طبيعي لم تعلم سره الى ان وصل الى كلماته الاخيرة وادار وجهه وقد ظن بساره رفقه حبيبته لانها كانت مثال أمها فلمحت ساره للحال تلك العلامة في وجهه وهجمت عليه وعانقته وقالت ابني وسقطت بين يديه اما كرميليوس فاحتضنها وأخذ يبكي والوالي وقف مندهشاً ولم ينبث ببنت شفة وعلى هذه الحالة دخل انطونيوس وروميليوس وابرهيم ويعقوب وراحيل ورفقه دخلوا فرأوا ساره بين يدي كرميليوس لا حراك بها وهذا يبكي والوالي مندهشاً مبغوتاً فاسرع انطونيوس واحضر ماء رش به وجه ساره فانتبهت وقالت ابني نعم ابني كان ضالاً فوجد وميتاً فعاش

فقال الوالي وهل لك ايتها السيدة ابن غير ابرهيم ورفقه

قالت نعم فان ثالثهم اسحق

فقال كرميليوس نعم انا اسحق وانعطف على والدته فقبل يديها واذا بابراهيم ورفقه قد هجما على ساره واسحق وعانقاهما وكان مشهد سرور وفرح يعجز القلم عن وصفه فليقدر القاريء ما يشاء من لذة هذا الملتقى بعد طول البعاد

أما انطونيوس فاذ رأى المشهد اهلياً خرج ودعا اليه بيلاطس وروميليوس ويعقوب وقال دعوهم يقضون ساعة اللقاء ويتشاكون ألم الجوى

وبعد ان مضت ساعات على ساره واولادها قصت عليهم كيف كان شفاؤها واخذ كل من الاخوة يقص عليها ما فعل الله به وما شام من الاهوال وهم يذرفون الدموع ثم خرجت مع اولادها يطلبون انطونيوس فاذا هو مع بيلاطس وروميليوس فشكرتهم شكر والدة قيض الله لها من يكفل بنيها ويهتم بهم ثم مالت الى راحيل وقالت لها حقاً انك سليلة الملوك وما حملك على العناية باولادي الا اصلك الذكي الشريف

وقال بيلاطس لكرميليوس وهل انت حقاً ابن ساره وما حديثك قبل ان تأتي اورشليم ؟؟

فقال اما انا فربيت في نعمة رجل كريم وسيد همام من اكابر قواد الجند الرومانيين في دمشق وكنت اظنني ابنه وما زلت معه هكذا حتى مرض مربيّ او بالحري ابي ولما شعر بدنو الاجل دعاني اليه وقال : ياولدي انت ليس بابني فاضطربت اذ قال لي ذلك وظننت انه يريد ان يحرمني من ميراثه لذنب جنيته ووقعت على يديه اقبلهما وانا استسمحه اذا كنت قد جنيت ذنباً او اجترمت جريمة فأخذ يطيب خاطري باعذب الكلمات قائلاً لست بآثم ياولدي وما انا بالغاضب عليك ولكني اذ قربت من الموت رأيت ان اطلعك على اصلك لعلك في يوم ما تهتدي الى اخوانك وامك

وما سمعت هذه الكلمات حتى عرتني البغتة وقلت هل لي يامولاي اخوة وام في هذا الوجود

قال نعم فانت يهودي من نسل بطل شجاع اسمه يهوذا وكان يحرض الناس ضد الرومانيين فقتلوه بمعركة هائلة ولك ام واخ واخت

قلت واين هم يامولاي فقال واسفي عليه انهما في روميه واغمض للحال عينيه واسلم الروح فبكيته بكاء ابن بار باب فاضل غير اني لم اعن بالتفتيش عن امي واخي واختي ظناً مني ان والدي قال ما قال وهو في سكرات الموت الا انني كنت من ذلك اليوم افكر بكلمات والدي واتمنى لو قدر الله لي معرفة أمي واخوي.. ثم اذ دفنت مربيّ كفلني اخ له بناء على وصيته وارسلني الى انطاكية لمدرسة الاشراف حيث اقمت اربع سنوات وفي نهايتها دخلت بالجيش الروماني ولم البث ان ارسلت الى اورشليم وكان ذلك بناء على طلبي على امل ان اقف بها على خبر من جهة امي او اخويّ فخاب ظني

ثم اذ رأيت رفقه لاول مرة شعرت بميل اليها عجيب فحسبت ذلك ميل حب وهوى فقلت في نفسي اني اهواها وصرت بجاذب هذا الحب اتتبع خطواتها واغار عليها من نسيم الصبح اذا سرى ومع اني كنت أرى مجافاة من هذه السيده وأشار الى راحيل لم أشعر قط بكرهها وكنت أحسب ذلك من عوامل الحب والهيام

وما زال حالي على ما ذكرت الى صبيحة هذا اليوم حيث فزت باسر باراباس وجئت لاتقاضى من مولاي الوعد فاذا أمي عنده فلم انتبه لها باديء بدء الى ان اتممت كلماتي ولمحتها فشعرت بجاذب اليها يحكي ما كان يجذبني الى رفقه ولم أعلم الا وهجمت عليّ تقول ابني فذكرت

حينئذ كلمات مربيّ واخذت ابكي

كان كرميليوس يحدث القوم بحديثه وهم يبكون بدموع السرور ثم نهضت رفقه وقالت اما انا فقد شعرت بميل عجيب نحو هذا الشاب منذ رأيته وملت اليه بجملتي بالرغم عن النصائح التي كانت تلقيها عليَّ عمتي اما الآن وقد عرفته انه أخي فوا مرحباً بهذا الاخ الحبيب

وهكذا انجلت احزان القوم وتبدلت اتراحهم بالافراح وعادوا من دار بيلاطس الى بيتهم وقد نسوا الذي كان علة هذه المسرات فشفى ساره من آلامها واوجاعها وهداها الى ابنها الضائع وقد خلق الانسان كنوداً

مقتل يوحنا

تركنا يوحنا منصرفاً بعد ما شاهد يسوع وافصح انه الآتي المنتظر وما كان انصرافه الا الى اريحا حيث كان يأوي تلك الفلوات التي تجاورها في الليل حتى اذا اصبح الصباح وبلغت الشمس الضحى كان يدخل المدينة ويأخذ بالكرازة بملكوت الله ويوبخ الناس على تهاونهم في أمر دينهم وانغماسهم في الملاهي والملذات

وكان هيرودس حاكم الجليل من اولاد هيرودس الكبير وكان كابيه رجلاً شريراً عاتياً وكان منغمساً في ملاهيه وملاذه حتى توصل ان أغرى هيروديا امرأة اخيه فيلبس على الاقتران به فتركت هذه زوجها فعلاً وانضمت اليه غير مصغية الى شرفها ولا الى تقولات الناس عنها فكانت

أحدوثة ذلك الزمان واذ بلغ الحادث يوحنا اخذ يشنع فيه في عرض الشوارع الى ذات يوم حيث لقي هيرودس في طريقه بموكبه الحافل فتقدم منه واخذ يؤنبه ويوبخه فلم يبد هيرودس اعتراضاً وقد أراد البعض من حاشيته القاء القبض عليه فمنعهم غير انه بعد يوم دعاه اليه وعرض عليه كثيراً من الهدايا والتحف ليكف عنه فابى استكباراً وخرج وهو يتوعد ويتهدد

ولما عاد هيرودس الى الجليل مركز حكمه بلغ هيروديا ما كان من أمر يوحنا المعمدان فاضطربت ودخلت على زوجها وسألته بالحاح سجن نبي الاردن فاصغى اليها بعامل الهوى وانفذ امره بالقبض على يوحنا وارساله الى الجليل مكبلاً بالقيود وهكذا كان حيث سجن فجاءه كثيرون من تلامذته وسألوه ان كان يسمح لهم بمظاهرة ترغم هيرودس على اخلاء سبيله فمنعهم واوصاهم ان لا يعودوا يهتمون به لان حياته قاربت النهاية بل يجب ان يحولوا انظارهم نحو شمس البر التي يدوم اشراقها الى الابد فانثنوا عنه آسفين

وكانت من عادة هيرودس ان يقيم مرقصاً حافلاً في قصره في كل عام احتفاء بمولده على سنة الملوك وكان يدعو اليه كل كبير وعظيم وفي ذلك العام دعا الى هذا المرقص بيلاطس حاكم اليهودية وجعل ذلك سبباً لازالة اسباب النفور التي كانت حدثت بينه وبين حاكم اليهودية الذي كان اخرجه من الفندق بينما كان مسافراً على مامر فقبل بيلاطس هذه الدعوة حسماً للاشكال وسار الى الجليل ومعه انطونيوس وروميليوس وساره واولادها

واذ وصلوا الى الجليل قابلهم هيرودس بمزيد الحفاوة وأحلهم على الرحب والسعة كيف لا وكان ابن هيرودس الكبير مضطراً الى ارضاء الرومانيين حفظاً لمركزه وتأييداً لامارته التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية أو حسب تعريف سياسي هذا العصر داخلة في نطاق النفوذ الروماني

أقام الرومانيون أياماً في الجليل عاصمة ملك هيرودس كانوا فيها موضع احترام القوم واجلالهم وكانوا يتجولون في الشوارع فيقابلهم الناس بالدعاء خضوعاً للقوة وهذا شأن الناس من قديم الزمان

واذ علم تلامذة يوحنا وما كانوا بالعدد القليل ان ساره وراحيل يهوديتين وانهما صاحبتا نفوذ لدى بيلاطس حاكم اليهودية قصدوهما وعرضوا عليهما ظلامة يوحنا وسألوهما تخليصه من هذا الشرك الذي نصب له فوعدتاهم خيراً وصرفتاهم على هذا الوعد الحسن

وما أصبح صباح اليوم المعين للاحتفال بعيد مولد هيرودس حتى كانت سرايه مزدانة بانواع الزهور والرياحين وتخفق على صروحها الاعلام اليهودية والرومانية واخذا كابر القوم ووجهاؤهم يتوافدون زرافات ووحداناً لتهنئة أميرهم فكان يقابلهم بالطلاقة والبشاشة والايناس كما هي العادة في مثل هذه الايام وكان اتباع هيرودس يوزعون على الفقراء العطايا والمنح وبالاجمال ان ذلك اليوم كان عيداً مشهوداً وطنياً لجميع سكان الجليل

وعند الظهر أقيمت مادبة حافلة في سراي هيرودس تصدرت بها هيروديا وابنتها فيلبيه من زوجها فيلبس أخي هيرودس وكانتا من الجمال

على نصيب مدهش فاستجلبتا انظار الحضور ولعبتا بنفوسهم وبعد ان انتهت المأدبة تقدم انطونيوس من راحيل وقال لها حقاً ان هيروديا من البارعات في الجمال ولا اجمل منها الا ابنتها فيلبيه وعندي ان واعظ الاردن لو رآهما لافتتن بهما وعذر هيرودس على تخطيه حدود الشريعة وتسطيه على أخذ امرأته

قالت وهل انت ايضاً تجيز المحرمات

قال كلا ولكن لكل قاعدة شذوذ فما دامت هيروديا بهذا الجمال المفرط فلا حرج على هيرودس قال هذا وهو يضحك

قالت اذاً رجعت عن وعدك لي بنجاة يوحنا من اسره واطلاق سبيله

قال كلا بل طلبت من بيلاطس ذلك وهو خابر هيرودس ووعده هذا باخلاء سبيله بعد استنزال . فو هيروديا التي يحبها ويخافها في وقت معاً ولكن اذا اخلى سبيل يوحنا سأشترط عليه ان لا يعود الى التنديد بهذه الحسناء

فتبسمت راحيل وقالت تباً لكم أيها الرجال كم تستحلون المحرمات ارضاء لشهواتكم

واذ غربت الشمس وسدل الليل قناعه اضيئت الانوار بدار هيرودس وأخذ المدعوون يفدون أزواجاً وافراداً على دار هيرودس بين نساء ورجال حتى غصت بهم صاعة الاستقبال على رحبها واخذ المطربون يشنفون الاسماع برقيق الالحان وكانت كؤوس الخمر اللذيذة تدور على جميع المتكئين فيشربون هنيئاً على محبة الامير ومحبة بيلاطس حاكم اليهودية الروماني

ولم ينتصف الليل حتى كانت الخمرة قد انعشت النفوس ولعبت بالعقول وانبرت العذارى في ميدان الرقص فعبن بالباب الحاضرين ثم نهضت فيليبه بدعوة من هيرودس وكانت الخمرة قد زادت في تورد وجنتيها وبهاء طلعتها واخذت ترقص بغنجها المعهود ودلالها المنشود فتوجهت اليها الانظار وتعشقتها الالباب فما كان يسمع في تلك الحفلة الحافلة الا اصوات الاستحسان من النساء والشبان وكان بمقدمة الجميع سروراً وانشراحاً هيرودس الذي كان يترنح سكراً من فعل الخمرة ولحاظ هذه الفتاة السكرى الى ان انتهت من رقصها فدعاها اليه وقبلها من بين عيناها وقال لها تمني ما تشائين فوالله وقسماً بتربة ابي اليمين الغموس سأعطيك ما تطلبين ولو نصف ملكي

فنظرت فيليبه اليه نظرة دلال نفذت الى اعماق فؤاده ثم ذهبت كالغزال النافر الى حيث أمها فحدثتها قليلاً ثم عادت اليه وقالت على مسمع من الحضور وهل تبر بيمينك اذا انا تمنيت عليك

قال اطلبي ما تشائين يا ذات الدلال

قالت اعطني الآن رأس يوحنا المعمدان على طبق لارقص به امامك

ولم تكد تنطق بكلماتها هذه حتى صحا هيرودس من سكرته وانتبه من غفلته وعلا على محياه صفرة الغيظ والوجل واجاب وهو عابس ان أمك ولا شك قد لقنتك هذا الطلب المزعج فهل أرضى يا ترى بسفك هذا الدم الزكي ولا سيما في يوم مولدي ثم غير من حدته وتلطف بالحديث وقال اطلبي يا حبيبتي ما تشائين من اموالي اطلبي حلياً وحلل اطلبي نصف

مملكتي فاعطيه لك عن رضى ولا تطلبي رأس يوحنا

اما فيلبه فكانت امام هيرودس متجلدة ولم يظهر عليها شيء من الخور لدى سماعها كلمات هيرودس اما امها فاذ لحظت على وجه هيرودس هذا التغير تقدمت منه وقالت له بهيئة السخرية والازدراء وهل تحنث بيمينك

قال لا ولكن لا أرضى ان اهب هذه الفتاة مالا فائدة لها فيه

قالت هذا ليس بشرط وما دمت قد اقسمت فعليك ان تبرّ بقسمك شأن الملوك وأصحاب الشرف من الامراء

فتأثر هيرودس من كلمات هيروديا واخار لحاظها قواه فتنهد تنهد الاسيف المضطرب وقال لاجل القسم والذين سمعوه ولاجلك انت مليكتي المحبوبة امنحك مشتهاك ثم التفت الى رئيس الحراس وأمره ان يذهب الى يوحنا المعمدان في السجن ويأتي برأسه على طبق قال هذا وأطرق بنظره الى الارض وقد ضاقت الدنيا بوجهه

اما هيروديا فتركت هيرودس وعادت فرحة الى حيث كانت ترحب بضيوفها ولم يمض الا القليل حتى دخل الرئيس ومن ورائه الجلاد يحمل رأس يوحنا مضرجاً بدمه على طبق من الذهب الابريز فخفت فيلبه واختطفت الطبق وأخذت ترقص فيه امام الحضور الذين اضطربوا من هذه القسوة وهموا بالانصراف

اما راحيل وساره فنظرتا الى انطونيوس نظرة من يتقاضاه وفاء الوعد وهذا نظر الى بيلاطس تلك النظرة المخيفة فمال اليه بيلاطس وقال بمثل هذه الاعمال الفظيعة قد اضاع اولاد هيرودس ملكهم فلا تعتبوا

وهكذا انتهت تلك الليلة الراقصة بالحزن والانفجاع وانصرف الناس وهم مندهشون من انتقام المرأة الفاسدة التي تريد ان تأتي انواع المساوي والموبقات والناس ساكتون لا يبدون اعتراضاً واذا اعترض احدهم على فجورها عاملتهم بمثل هذا الانتقام الدني السافل الخالي من كل شهامة واي شهامة ترجى من امرأة تدوس شرفها وشرف زوجها ارضاء لشهواتها وهل في الامكان حجب اشعة الشمس بالاكف

وفي صباح اليوم التالي خفّ تلامذة يوحنا وكانوا بالعدد العديد الى دار هيرودس متظاهرين بالسخط وطلبوا منه ان يسمح لهم بجثة يوحنا فسمح لهم بها فاخذوها ودفنوها باجلال وطلبوا الرأس فاجابهم انه عند هيروديا فاطلبوه منها فدخل واحد منهم عليها وقال اين ذلك الرأس الذي طلبتيه لترقصي به قالت لقد طرحته للكلاب قال الويل لك يا امرأة وانصرف

وعاد بيلاطس ومن معه الى اليهودية يتحدثون بفظاعة ما جرى وهم ناقمون على هيرودس وامرأته الحسناء وابنتها الجميلة الا يعقوب فانه تركهم وانصرف متتبعاً اثر تلاميذ يوحنا

الفصل السابع والخمسون

انباء عن يسوع

انضم يعقوب الى تلامذة يوحنا وقد عرفنا هذا الرجل صادقاً وشجاعاً وقام معهم بواجب دفنه ثم اذ رأى هؤلاء قسوة هيرودس مع هذا الرجل

البار انصرفوا الى البرية الى حيث كان يسوع يكرز ويعلم ويأتي بالمعجزات واخبروه بموت يوحنا على ذلك الشكل المخيف فتأثر وحزن وترك القوم الملتفين من حوله وانفرد يصلي وينوح ثم عاد فرأى ان تلاميذ يوحنا قد التفوا من حوله مع جماهير كبرى قصدوه ليسمعوا كرازته وكان ذلك الموضع خلاء وبعيداً عن العمران واذ الهتهم مواعظ يسوع عن انفسهم نفد منهم الزاد فجاءوا وقاموا يطلبون ما يأكلون

فتقدم تلاميذ يسوع وسألوه ان يصرف الجموع الى المدن والقرى ليبتاعوا لهم شيئاً من الزاد فاجابهم يسوع لا حاجة لهم ان يمضوا اعطوهم انتم ليأكلوا

وكان من بين هؤلاء التلاميذ صياد معروف ببداهة الجواب اسمه سمعان فتقدم هذا من يسوع وقال له ياسيد من اين لنا خبز يكفي عدداً كهذا كبيراً وليس عندنا سوى خمسة ارغفة وسمكتين صغيرتين

فتبسم يسوع تبسم المندهش من قلة ايمان سمعان بعد كل الذي شاهده من معجزاته وقال هذه تكفي ياسمعان فأتني بها الى هنا

فاسرع سمعان وهو غير مصدق وجمع تلك الارغفة الخمس ووضع فوقها السمكتين وجاء بها الى حيث وضعها على صخر امام يسوع ورجع الى الوراء وهو ينظر فتقدم يسوع من الخبزات ووضع يديه عليها ورفع نظره الى السماء وباركها ثم كسرها وقال لتلاميذه وزعوها على الحضور فيأكلون ويشبعون فاخذ التلاميذ يتداولون منها ويوزعون وهي تزيد حتى

اكل الكل وشبعوا ولما لم يبق من يطلب الطعام أمر يسوع تلاميذه ان يجمعوا ما تبقى فملأوا منها اثني عشرة سلة فضلت عن ذلك الجمع المحتشد الذي كان يربو عدده عن الخمسة آلاف نفساً

وقد عرف يعقوب في هذه المرة ان يسوع ذاك الذي ما كان يعرفه احد قد اصبح والناس بالالوف يقصدونه وعرف انه اختص لنفسه اثني عشر رجلا ليعاونوه في الكرازة فتأكد له ان قد دنا يوم ظهوره بمظهر ماسيا وانقلب مسرعاً الى اورشليم ليخبر ساره وراحيل بكل ما كان

وبينما كان يعقوب عائدا الى اورشليم كان يرى طريقه غاصة بالامم والشعوب وكلهم يتحدثون عن هذا الصديق الذي ظهر وعن معجزاته التي كان يأتيها فعرف حينئذ ان مسألة الخمسة ارغفة واشباع الخمسة آلاف منها لم تكن الا واحدة من مئات من المعجزات مما لو اعتنينا بنشره لملأ المجلدات الضخمة

ولما وصل الى اورشليم سار رأساً الى بيت ساره حيث بادرته راحيل قائلة وهل قابلت يسوع

قال نعم

قالت وهل سمع بمقتل يوحنا

قال بلى واضطرب وحزن

قالت وهل عنده من يقوى على صيانة حياته لو فوجيء بشر

قال ان من حوله ما يربو على الخمسة آلاف نفساً بين رجال ونساء

واطفال ورأيت اكثر من هذا العدد على الطريق ممن يقصدونه لسماع مواعظه ومشاهدة معجزاته وآياته

قالت وهكذا كان الناس يفعلون يوم كان يوحنا يعظ ويعلم ولكنه لما سيق الى السجن لم يوجد في اسرائيل من يعترض والسفاه حتى قتل شر قتلة

قال والآن

قالت ان الكهنة في اضطراب من هذا الرجل وهم يتقصدونه بالشر ولا يبعد ان يحملوا بيلاطس على قتله

قال ومن اين علمت ذلك

قالت من اسحق ابن ساره

قال اوكرنيلوس روى ذلك

قالت لا بل شاهد هياج الكهنة بنفسه اذ كان مأموراً في ملاحظة الهيكل

قال وهل لك ان تروي لي ما كان في الهيكل لاذهب الى يسوع واحذره

قالت ان ما ذاع عن يسوع من باهر المعجزات وحكيم المواعظ قد اسخط الكهنة واغاظهم وقد اجتمعوا عدة اجتماعات علا فيها الاضطراب حتى خاف بيلاطس الشر وارسل كرميلوس بفئة من الجند احاطت باسوار الهيكل

قال وبماذا يشتكون على يسوع

قالت انهم يقولون انه يصرف الشعب عن تقدمة الذبائح ويعلم ناموسا

يخالف ناموس موسى ويأكل مع الخطاة ويدخل بيوتاً للسامريين ويفضل الجليل على أورشليم وقد اتخذوا ذلك كله دليلا على كونه ساحراً وليس المسيح الذي ينبغي « ان يأتي الى الهيكل ويخرج شريعته من اورشليم »

وما هذا كل الذي قالوا بل انهم نسبوا هذه الايات التي يرويها الجميع عن يسوع الى قوة سحرية او معاونة بعلزبول رئيس الشياطين

فضحك يعقوب من كلمات راحيل التي نقلتها عن كرميليوس عن الكهنة وقال لا تخافي ياراحيل فان يسوع فوق ما يتحدثون وانه ما دام يشفي المرضى ويطهر البرص ويخرج الشياطين فبالاحرى ان يقي نفسه فلا تصل اليه أيدي أعدائه ولو كانوا كهنة الهيكل وابطال الرومانيين

الفصل الثامن والخمسون

« وصول المسيح الى أورشليم »

لم تمض على هذه الحوادث بضع أسابيع حتى أصبحت ساره في ذات يوم وهي مضطربة ونبهت راحيل قائلة لها لقد زارني ذاك الذي بشرني بالشفاء في الحلم وقال لي انه سيحضر الى أورشليم وسيكون لحضوره حادث عظيم في اليهودية وسوف يلاقي الاوجاع والالام في هذه المدينة

قالت لعل ذلك ياساره من كثرة الهجس بما هو دائر على الالسنة من شغب الكهنة وانصارهم ضد يسوع ومعجزاته

قالت كلا يا عزيزتي فان هذا الشاب نفسه قد زارني في الحلم ومن فمه المجدي سمعت هذه الكلمات فلا أشك بصدقها

ولم تنته سارة من كلماتها هذه حتى قرع الباب ودخل رسول من قبل بيلاطس يطلب كرميليوس في الحال فان هذا الشاب من يوم عرف أمه سكن معها ولم يعد يفارقها الا لمزاولة وظيفته في الجندية فنبهوه وسرعان ما ارتدى ملابسه وتبع يعقوب الذي كان لا يبارح ساره وأولادها الا لاستطلاع أخبار يسوع

سار القائد كرميليوس بسرعة ويعقوب يتبعه الى ان وصلا الى دار بيلاطس فدخل عليه القائد واذا هو يتخطر في حجرته ذهاباً واياباً ويده على عثنون لحيته وهو مطرق الى الارض فقال له لبيك يا سيدي

فانتبه بيلاطس لكلمات كرميليوس وقال له اسرع بفرقة من الجند الى الهيكل فاليهود في هرج واضطراب حتى ان ضوضاء الجماهير المتالبة في الشوارع والمزدحمة في الساحات البعيدة ترنّ في أذني وقد بلغني حدوث فتنة بين الشعب ولكنها ليست ضد سلطة الرومانيين كلا بل لظهور هذا الذي يسمونه يسوع وأخاف ان تتعدى هذه الفتنة الى الرومانيين وتكون نتيجة ذلك انفصالي عن ولايتي وانت تعلم ياولدي اني غير مسرور من تولي اليهودية لكثرة متاعبها وقلاقلها ولكن لا أريد ان يكون انفصالي عنها بسبب فتنة تظهر لان ذلك مما يؤثر على سمعتي في البلاط الامبراطوري في رومية

فسلم كرميليوس سلام الطاعة وخرج فتبعه يعقوب مستفسراً فقص

عليه بمجمل الخبر وسار الى الثكنة حيث اصطحب فرقة من الفرسان وسار بهم مخترقاً الجموع المتجمعة الى ان وصل الهيكل فعسكر من حوله واختلط يعقوب بالشعب الهائج ففهم ان شاع بينهم بان يسوع عزم على الدخول الى أورشليم في عيد الفصح وكان ذلك سبب هذا الهيجان ولم يمض الكثير واذا بمناد يقول ان يسوع دنا من باب اريحا فازداد اضطراب الجموع لهذا النبأ وتزاحمت الاقدام في طريق ذلك الباب وخف كرميليوس بجنوده متبعين الجموع محافظة على السكينة وكان يعقوب بمقدمة أولئك المحتشدين الذين التقوا بيسوع عند البوابة واذ نظروه هتفوا له هتافاً عالياً وانشطروا شطرين مر من بينهما يسوع كملك رفيع وسار في منعطف عند جبل الزيتون وصعد الى جبل المريا المقدس مجتازا الى الهيكل وكان الناس يتبعونه ولا يختلطون به اجلالا واصوات الترحيب في افواههم ولما وصل الهيكل دخله باحترام والناس من خلفه وبين يديه واذ دخل الباب الخارجي من الهيكل تغيرت ملامحه وتحول وجهه النير الى مظاهر غضب بينما كان يجيل نظره في فسحات الهيكل الملأى بالتجار والصيارف وباعة المواشي ورأى اقسام القدس مقطعة الى زرائب لمئات من الغنم والمواشي وهنا وهناك رجال يشتغلون في صرف الدراهم الاجنبية التي يأتي بها اليهود من بلاد اليونان ومصر وعيلام وقرنتيا وافريقيا واستبدالها بنقود رومانية لا يقبل الباعة قبض سواها ثمن مواشيهم (كما اذا اردنا ان نمثل ذلك بباعة الشمع في كنائسنا بعض التمثيل) وبينما كان يسير غاضباً الى القسم الداخلي من الهيكل اعترضته الزرائب والموائد وكانت تضطره تارة الى ان يدور

حولها وطورا لان يرجع ويستطرق سبيلا آخر وكان ذلك يزيده غضباً الى ان وصل أخيرا الى ذات اسكفة دار الكهنة ووجد عليها كاهناً جالساً على مائدة صرافة (كالكاهن الذي يجلس الى الراتب في كنائسنا مثلا) وبجانبه لاوي عنده اقفاص حمام وطيور اخر ليبيعها للساجدين المصلين فوقف يسوع عندها والتفت ملقياً بنظره الى المشهد القائمة فيه جلبة المتاجرة والمقايضة فتحولت جميع الوجوه نحوه ووقفت حركة البيع والشراء خشية ورعباً من مرآه على تلك الحالة الرهيبة وحدث سكوت رهيب في ذلك المكان مع كثرة الجمع المحتشد وفتح يسوع فاه بصوت جهير كانه هتاف البوق الذي هز اركان جبل سيناء يوم اعطي الناموس وقال:

«مكتوب بيت ابي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص» ثم امال بنظره الى الارض فنظر حبلا مفتولا فالتقطه وتقدم ففر من امامه الصيارف والكهنة واللاويون وباعة الثيران والغنم والحمام مذعورين مما شاهدوه في وجهه من العبوسة والانقباض وبينما كانوا هاربين من امام وجهه كان يصرخ قائلا «ارفعوا هذه جميعها من هنا ولا تجعلوا بيت ابي بيت تجارة»

وللحال تسارع الناس في الهرب كالعصافة امام الريح وقلبت موائد الصيارف وقد تراءى للجميع ان هذا الصوت الذي يد يسوع كسيف من نار في يد ملاك ارسل لاهلاكهم فلم يعد احد يبالي بسوى الخوف والهرب طلباً للنجاة وما هي الا دقائق معدودات حتى خلت دار الكهنة اما يسوع

فلم يتبع الجمع الهارب بل القى الصوت من يده وتحولت هيئته من العبوسة والانقباض الى التعطف والرفق

اما الجموع فما وصلوا الباب حتى التقى بهم الفرسان الرومانيون فاشهروا عليهم الحراب فوقعوا في مضيق لا يعلمون له مخرجاً فمن هنا الرومانيون باسلحتهم يتهددون كل خارج بالقتل وهناك يسوع يطاردهم بغضبه من بيت ابيه الا ان كرميليوس اذ علم سبب هربهم من الهيكل اخلى لهم الباب فانطلقوا في الشوارع والازقة وهم ينادون بملء أفواههم النبي المخيف . الملاك المنتقم

ولم يمض على هذه الحالة شطر الساعة حتى تقدم قيافا رئيس الكهنة ووقف امامه بخشوع وخوف وقال له لماذا فعلت ذلك كله يا ابن اسرائيل

فقال يسوع لا ينبغي ان يكون بيت أبي بيت تجارة وان الغيرة على مجد هيكله دعتني ان افعل ما فعلت

فقال قيافا وهو لا يزال واقفاً عن بعد ولا يجسر ان يتقدم من يسوع أأنت المسيح ؟؟

فقال يسوع اذا قلت لك اني انا هو فلا تصدقني

فقال رئيس الكهنة حينما يأتي المسيح يرد كل شيء

فقال يسوع وهنذا ابتدأت بهذا الرد وهنذا اخرجت من الهيكل الذين ينجسونه واعدته بيتاً للصلاة كما جعله ابي

فقال قيافا من هو ابوك يا ابن يوسف النجار

فقال يسوع الله ابي وقد أتيت الى العالم لكي أصنع مشيئته ولم آت من نفسي بل هو الذي ارسلني لانه مكتوب عني « ويأتي بغتة الى هيكله ويجلس ممحصاً ومنقياً للفضة »

فقال قيافا اية آية ترينا برهاناً على انك مرسل من عند الله ولك سلطان ان تفعل في الهيكل ما فعلت اليوم

فتبسم يسوع وقال الم يكن لك اليوم برهان كاف لاقناعك بسلطاني السموي وفي كلمة مني خرج الناس يتعثرون باذيالهم واني اقول لك « انقضوا هذا الهيكل فاقيمه في ثلاثة ايام » ولتكن هذه لك ايها الكاهن العظيم ولكل يهوذا اني مرسل من ابي الذي في السماوات وكما امرني افعل

وكان الكهنة واقفون من بعيد ينصتون هذا الحديث فاذ وصل يسوع الى كلمته الاخيرة تقدم حنان مع عدد من الكهنة يعض الجرأة وقال حنان لقيافا « لا يمكن ان يكون هذا الانسان صالحاً وليس هو ممن يكرمون الله مادام يسألنا ان ننقض الهيكل »

واستلى كاهن آخر فقال : « فمن اين له هذه القوات ان لم يكن مرسلا من عند الله »

فقال حنان بصوت عال « انما يفعل هذه بقوة بعلزبول الذي هو بلا ريب نبي له وما كان النبي الحقيقي ليطلب خراب بيت الله المقدس »

وعندئذ تجدد الهجس والشغب في الكهنة وكان اكثرهم يعلنون ايمانهم قائلين ان يسوع رجل صالح ونبي الله

واخيرا تقدم قيافا وامر الكهنة ان يسكتوا ودنا من يسوع بخشية

ورهب وقال له « انت مسيح الانبياء ؟؟؟»

فاجابه يسوع بملء السكينة « نعم اني انا هو » ثم رفع نظره نحو السماء وقال بصوت مؤثر « اني مرسل من عند الله »

ولما سمع حنان كلمات يسوع رفع صوته وصرخ هاتفاً « قد سمعتم تجديفه فهلموا نخرجه خارج الهيكل الذي يدنسه » ولكن يا للاسف لم يجسر أحد من الكهنة ان يمد اليه يداً

أما يسوع فظهرت عليه مظاهر الحزن وقال « اشهدوا اني جئت الى خاصتي ولم تقبلوني فاعلموا ان هيكل أبي هذا الذي منه تخرجونني الان لا يبقى طويلا بيتاً ومذبحاً للاله العلي وسيأتي يوم فيه يؤخذ كهنوتكم منكم ويعطى لاخرين ويقام لابي بين الامم على كل اكمة وفي كل وادفي الارض هيا كل مقدسة يسر الله ان يسكن فيها ولا يعود الناس يحتاجون الى السجود في صهيون بل في كل مكان تقدم الصلوات والتسابيح وهذا الهيكل الذي دنستموه سوف يخرب وانتم تتشتتون بين الامم لانكم لم تعرفوا وقت رحمة الله»

واذ قال هذا خرج من الهيكل وترك رئيس الكهنة مع الكهنة واللاويين يتفرسون فيه ولا يستطيعون ان يكلموه بكلمة وانطلق بدون ان يلتفت اليهم

وكان يعقوب ملازما باب الهيكل وقدوعى كل ما كان حتى اذا خرج يسوع تبعه ودعاه الى بيت ساره ليأ كل الفصح فابى وقال ينبغي ان اعود الى حيثما أتيت وبينما كان خارجا ويعقوب يتبعه واذا بمفلوج يقول ارحمني

بابن داود فلمسه واذ هو قد شفي وأخذ يجأر بالشكر فقال يعقوب في نفسه ان هذا الرجل القدير لم يكفّ ان يفعل الخير وانطلق لساعتـه الى بيت سيدته ليقص كل الذي رآه

﴿ الفصل التاسع والخمسون ﴾

(شغب الكهنة)

ما أصبح الصباح التالي حتى شوهد يسوع في المدينة فتألبت عليه الجموع من كل صوب وحدب وكانوا يصرخون بملء أفواههم . هوذا النبي يأتي . هوذا النبي قادم . وكان الناظر يرى الجموع من حول يسوع كالبحر المتماوج بحيث لم تبلغ الشمس الضحى حتى كان كل من في أورشليم من رجال ونساء واطفال من حول يسوع وكانوا مشهرين اغصان النخل والزيتون احتفاء به

وكان بيلاطس قد استدرك ذلك من قبل فامر كرميليوس ان لا يفارق بجنده المدينة المقدسة لذلك كان جيشه محتاطا بذلك المزدحم

اما يسوع فكان على الرغم من تلك المظاهرات يسير سيرا رزيناً هادئاً وكان الشعب متأخراً عنه هيبة ووقارا ولم يكن الناظر اليه يقدر له انه في الثالثة والثلاثين من عمره لان الشيب كان قد وخط شعر رأسه ورسم الاهتمام والحزن خطوطاً ظاهرة وتقاطيع جلية في وجهه المنير وكانت لحيته مرسلة على صدره وعيناه شاخصتين في الجموع ترسلان اليه أشعة الرأفة والسلام وفيما هو يتقدم كان يشاهد منه الجلال الملوكي

على حلم ووداعة وكان يكسبه ذلك حباً في نفوس الناظرين اليه

ولما اقترب يسوع من كرميليوس الذي كان واقفاً بفرسانه لحفظ الامن العام أشار اليه بالسلام فلم يكن من ذلك القائد الشاب الا انه نزل عن جواده باحترام ورد له السلام باجلال وهكذا فعل الفرسان وكان احترام القائد الروماني ليسوع قد أغاظ أعداءه وللحال علت الاصوات وكثر الضجيج والصراخ اذ كان حنان الكاهن مع عدد وافر من الكهنة قد سمعوا يسوع قادماً الى المدينة فخفوا لمناوأته وحدث ساعة وصولهم انهم رأوا احترام القائد الروماني له فطفقوا يقولون: اننا ندعوك أيها القائد ان تقبض على هذا الرجل. أيها الرومان اننا نشكو اليكم هذا الجليلي الذي أثار الفتنة بيننا واغتصب الهيكل منا فان لم تسرعوا الى القبض عليه لا يلبث ان يغتصب القلعة منكم وانتم وحدكم المسئولون عن وخامة العاقبة التي ستعود على المدينة والامة

فتقدم كرميليوس من حنان بكل لطف وقال له لا أرى يا صاح ما يوجب الحذر من هذا الرجل فهو اعزل وليس معه جيش تخاف سطوته فارجعوا الى هيكلكم فان هذا الشغب من نتائج صراخكم فتنحوا من وجهه واسرعوا الى مذابحكم والا فان حدثت ثورة في المدينة فانتم وحدكم المسئولون امام بيلاطس لاني لا أرى في أورشليم من يحدث الشغب والاضطراب غيركم

فاغتاظ حنان من هذا الجواب وقال اذاً نسير الى بيلاطس ونشكو

يسوع اليـه قال هذا وسار نحو القلعة حيث مقام بيلاطس يتبعه فريق الكهنة واللاويين والعصي في أيديهم والغيظ باد على وجوههم وأخـذ الناس يتفرقون واكثرهم تبعوا الكهنة ليروا ما يكون من أمرهم

وجعل يسوع يسير في طريقه الى ان دنا من بيت الرباني عاموس وكان هذا منذ ظهرت معجزات يسوع وذاع أمره قد أخذ يشتغل بتطبيق نبوات الانبياء عليـه حتى ترجح له انه هو المسيح المنتظر ولهذا خرج ودعاه للاستراحة في بيته فلبى الطلب ودخل بتلاميذه البيت فتقدم الرباني عاموس نفسه ونزع نعلي يسوع وغسلهما بيديه على ما كانت العادة في اكرام كبار الضيوف وتقدمت ابنته مريم بملاءة ثمينة كانت قد اعتنت بتطريزها لحفلة زفافها ونشفت بها قدميه فرفع نظره اليها وقال لها تعالي يا ابنتي وكوني من جملة أصدقائي فسوف تؤمني بي ويكون ايمانك عظيما ولما فرغ من كلامه مد لها يده فقبلتها بشوق واحترام

وبينما هم على هـذه الحالة سمعوا ضجيجاً من الخارج فخرج الرباني عاموس ليرى الداعي الى هـذا الضجيج فابصر جمهوراً من الصيارف الذين طردهم يسوع من الهيكل هاجمين على البيت وهم يطلبون يسوع ليفتكوا به فتصدى كرميليوس لارجاعهم ولكنه لم يشأ استعمال القوة مخافة استفحال الخطب واذ رأى ذلك عاموس تقدم اليهم وقال لهم ارجعوا عن غيكم يا أبناء اسرائيل فان كان يسوع هذا نبي الله فلا تكونوا محاربيه وان لم يكن نبياً فهو يسقط من نفسه ويكون سقوطه عظيما

فاغتاظ الصيارف من الرباني عاموس وقالوا له عار عليك أيها الرباني

ان تؤمن أنت أيضاً بهذا الساحر وهوذا نحن ذاهبون لا عن اقتناع بكلماتك ولكن اكراماً لك وهكذا تركوه وانصرفوا

وبقي يسوع أربعة ايام في بيت عاموس كان بخلالها يأتي بصنوف العجائب وغرائب المعجزات وأحدث ذلك تأثيراً عظيماً في الشعب حيث أصبح الاكثرون مقتنعين بنبوته ومصدقين رسالته وكذلك كان الحال بين الكهنة أنفسهم فقد انشطروا شطرين شطر كان يقر جهاراً بانه نبي وفيه قيافا وشطر كان يصرح علانية انه ساحر وخداع وفيه حنان الا ان الفريسيين اجمعوا على مقاومته لان تعاليمه كانت تخالف أعمالهم وقد وبخهم مراراً على خطاياهم وريائهم ولذلك كانوا يودون اهلاكه

وفي صباح اليوم الخامس ترك بيت عاموس واراد الانطلاق الى الجليل فودعه الرباني وآل بيته اجمل وداع وخرجوا لتشييعه ولم يبعدوا عن ذلك البيت بضع خطوات حتى رأوا مفلوجاً مقعداً فلمس طرف ثوب يسوع اذ مرّ به وقال يا معلم اشفني

فاجابه يسوع « يا ابني مغفورة لك خطايك » قال هذا واجتازه واذا بفئة من الفريسيين كانوا قد شاهدوا وسمعوا كل ذلك فصرخوا قائلين «ان هذا الانسان يجدف سواء كان نبياً او لم يكن لانه لا يغفر الخطايا الا الله وحده »

فوقف يسوع والتفت اليهم وقال « أيما أيسر ان يقال لهذا الانسان الذي لم يمش منذ اثنتي عشرة سنة ويداه ورجلاه يابسة كما ترون مغفورة لك خطاياك او قم وامش فان قلت له قم وامش وقام ومشي

قدامكم أفلا يكون ذلك برهاناً على ان لي سلطاناً ان أغفر له خطاياه أيضاً لان من يقدر ان يجعله يقوم ويمشي غير الله وحده الذي يغفر خطايا الناس ولم أقل هذا اليوم الا لكي تعلموا ان لابن الانسان سلطاناً على الارض ان يغفر الخطايا انظروا » ثم قال للمفلوج بصوت عال « قم احمل فراشك واذهب الى بيتك » فقام الرجل على قدميه في الحال وطفأ يعدو حاملاً فراشه وهو يشكر الرب يسوع وكان ذلك سبباً لايمان كثيرين

ولم يبلغ يسوع منتهى المدينة حتى كان الناس قد التفوا من حواليه أفواجاً فاخذوا يتسابقون الى لثم يديه وطلب بركته فانسل من بينهم بعد ان اشفى كل من كان بينهم من المرضى وذوي العاهات والاسقام

الفصل الستون

يسوع في الجليل

عاد كرميليوس الى بيته بعد ما قضى الخمسة ايام التي وجد فيها يسوع في أورشليم تعباً من العناية بالامن العام وقد أنيط به ذلك من قبل بيلاطس الذي كان في هذه الايام مرجع اليهود والفريسيين وكانوا يتسابقون اليه طالبين القبض على يسوع كمثير الفتن والقلاقل وقد مال بيلاطس مراراً لاجابة طلبهم غير انه توقف عن ذلك بالحاح راحيل وساره وأنطونيوس وروميلوس الذين كانوا يومياً يذهبون اليه ويبطلون الشكاوي التي تتقدم على يسوع .

وبعد بضع أشهر مرضت راحيل مرضاً الزمها الفراش وعجز نطس الاطباء عن شفائها واشاروا عليها بالذهاب الى الجليل للانتفاع بنسيمه العليل وقد سرت مع آل بيتها من مشورة الاطباء هذه لعلمها ان يسوع هناك وانها اذا ما دنت منه اشفاها كما يشفي الالوف من المرضى الذين يقصدونه وللحال اسرعوا جميعاً بالرحيل فساروا الى قرية نائين على سفح جبل طابور فقضوا هناك بضع اسابيع ونزلوا في بيت ارملة هناك في بستان مقابل ذلك الجبل

وفي ذات يوم بينما كانت رفقة مع امها ساره واخيها ابراهيم يتجولون في رحبات ذلك البستان والارملة صاحبة البيت تتبعهم واذا برجلين يعلوهما غبار السفر قد وقفا في الباب وقالا « سلام لهذا البيت ولجميع من فيه »

فتقدمت الارملة منهما وقالت لهما ادخلا وخذا ماء لارجلكما وخبزاً تسدان به جوعكما

فدخل الضيفان وسلما على ساره واولادها واسرعت الارملة فاحضرت لهما ما تيسر من الماء والطعام فغسلا ارجلهما واكلا وقالا « في هذا اليوم حصل الخلاص لهذا البيت وانما نحن رسولان من قبل يسوع الناصري نطوف مدينة بعد اخرى ونكرز بقرب يوم الرب لان ماسيا قد جاء » قالا هذا وعلائم الايمان ظاهرة على وجهيهما

وحينئذ هتفت ساره ورفقة قائلتين اننا رأينا يسوع في اورشليم وآمنا به فنظر الضيفان اليهما بسرور واخذا يقصان انباء يسوع واخبرا انه

اليوم في السامرة يكرز ويصنع الايات والمعجزات

فقالت ساره أفلا يأتي الى نائين ؟

فقالا بلى سوف يأتي الى هنا وبوصوله سوف يزور هـذا البيت المبارك لانه لا ينسى كاس ماء تسقى لاحد تلاميذه

ثم انطلق التلميذان ولم يمض على انطلاقهما ردح من الزمن حتى سمعت ساره وأولادها ضجيجاً في السوق فصعدوا الى أعلى السطح فرأوا ذينك الرجلين واقفين على دكة وهما يكرزان باقتراب ملكوت الله ويدعوان السامعين الى التوبة بكلام كانوا يسمعونه لان ذلك المنزل لم يكن بعيداً عن السوق

ولم ينطق الرجلان ببعض الكلمات عن يسوع ومعجزاته حتى علا ضجيج القوم وجعلوا يصرخون ضد يسوع وتناول بعضهم الحجارة وجعلوا يرجمونهما بها وللحال خلع احدهما نعليه واخذ ينفض عنها الغبار وهو يقول « بما انكم رفضتم كلمات الحياة فخطاياكم ترد عليكم كما ارد لكم الآن غبار مدينتكم »

واذ رأى ابرهيم هذه التعديات أسرع الى السوق فرأى الرجلين هاربين واللاويون يتبعونهما مع كثيرين من الرعاع والاجلاف فسأل واحدا من المجتمعين عن سبب هذه المعاملة القاسية فقال له ان مجلس اليهود الاعلى أصدر امره الى كل المجامع والكهنة بوجوب نبذ وأهانة كل من يكرز بيسوع مسيحاً ونبياً

وانقضى الاسبوع بعد ذلك بسلام على ساره واولادها وكانوا مسرورين بتقدم راحيل من الصحة الا انهم كانوا مستائين جداً من هؤلاء الذين طردوا تلميذي يسوع واهانوا ذكره عنوة حتى ان انطونيوس اذ سمع بجلية الخبر اغتاظ واقسم بشرفه انه في حال وصوله لاورشليم سيحمل بيلاطس على التنكيل باهالي تلك القرية ولو انها تابعة في الاحكام لهيرودس

وفي اوائل الاسبوع التالي عادت راحيل فانتكست واصابتها حمى شديدة واخذت تهذي هذياناً فاسرعوا باستدعاء نطس الاطباء ولكن ما ينفع الطب اذا استحكم الداء ولم يمض يومان حتى اصبحت راحيل على شفا الهلاك فجزع الجميع وكانوا يقولون اين يسوع يا ترى انه وحده يستطيع ان يشفيها ولكن اين هو انه في السامرة وا اسفاه

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت راحيل في اعلى درجات الحرارة وقد يئس الجميع من شفائها وباتوا يتوقعون موتها من لحظة الى لحظة وهم على اتم حالات الجزع والاضطراب ولما مضى الهزيع الثاني من الليل بلغت راحيل حد الموت ودنت من الهلاك فهمدت انفاسها وخف نبضها وشخصت عيناها ولم يبق بينها وبين هاوية الابدية الا لحظات

وبينما راحيل على ما ذكرنا من خطر الموت ورفقه راكعة عند سريرها شاخصة اليها وهي تتمنى ان تفتديها ولو بحياتها وساره واقفة عند رأسها بجمود كأن الايام علمتها ان لا تفرح بمولود ولا تحزن لمفقود

واذا يعقوب داخل عليهم فظنته رفقه ملكاً هابطاً من السماء ودنت منه وهي تقول أين أنت في كل هذه المدة

قال بخدمة سيدي يسوع

قالت وهل أنت أيضاً انضممت الى خدمة هذ النبي الجديد

قال نعم

قالت وأراك نسيتنا ياصاح فلم تعد تذكرنا ونحن في مثل هذا الضيق

قال اما اني نسيتكم فلتنسني يميني ان انا نسيتكم واما ملازمتي لماسيا المنتظر فقد رأيت من نفسي دافعاً يدفعني الى مثل هذه الخدمة المقدسة .

قالت وما سبب قدومك في مثل هذا الوقت

قال أمر من سيدي يسوع

قالت وبماذا أمرك

قال ان اقصدكم في هذا المكان وأخفف ما أنتم عليه من الشدة باسمه الاقدس

قالت انظر يايعقوب فان راحيل تموت

قال كلا فانها نائمة

قالت ويلك ألا ترى شارات الموت كللت وجهها

قال بل أرى انها في صحة

فأمالت رفقه وجهها واذا براحيل نائمة نوماً هادئاً فقالت تبارك

اسم يسوع الذي أرسلك فان هـذه المرأة كادت تفقد الحياة وتغدو في عداد الاموات والآن أين هو يسوع ألا يأتي الى هنا

قال انه آت وربما يكون في هذا الصباح في المدينة

قالت أو يجوز لنا ان ننبه راحيل من رقادها

قال ولماذا تزعجونها؟

وكانت ساره تنظر الى يعقوب وقدومه بعيني الاستغراب حتى انها ما عادت تنتبـه الى راحيل كان ذكرى الماضي يوم كانت السيدة الآمرة الناهية قد أشغلتها عما هو حاضر لديها من جلال الموت وهيبته وزاد استغرابها بالاكثر ما شاهدته في يعقوب من طلاقة اللسان بحيث أصبح ذلك الخادم الحقير فصيحاً لسناً حكيماً

وكان انطونيوس يكرم راحيل غاية الاكرام ويحترمها ما فوق الاحترام ولذلك كان منفجعاً عليها اتم الانفجاع فلما رأى ان الداء قد اشتد عليها ترك سريرها وسار الى مخدع آخر وقد استسلم الى الحزن والالتياع وذهب ابراهيم لتسليته والتسري عنه وبينما هما على تلك الحالة واذا برفقه داخلة عليهما تبشرهما بأن راحيل قد أصبحت في صحة وعافية باسم الرب يسوع الذي أرسـل يعقوب رسولا اليهم نخفا الى تلك الحجرة وشاهدا راحيل وقد زالت عن جسمها حرارة الحمى وعاد لونها الى سابق عادته ولكنها كانت نائمة فتقدما من يعقوب وسألاه عـدة أسئلة عن يسوع وزاد احترامهما له ولا سيما ذلك الشريف الروماني الذي كانت هـذه

الحوادث تؤثر على طواطفه فجعل يعتقد ان روح جوبتير أبي الآلهة ساكنة في جسم ذلك الشاب يسوع

ولما لاح الفجر وصل يسوع القرية عن طريق وادي جبل تابور وكان معه اثنا عشر رجلا شاع انهم صحابته وسار تواً الى ذلك البيت الذي كان يأوي راحيل وأهل البيت وبدخوله عرج على الغرفة حيث كانت راحيل على سريرها نائمة ونادا عاقائلا يا راحيل هبي من رقادك فانتبهت راحيل بسرعة كانها لم تكن مريضة الامس ووقعت على قدميه تقبلهما وهب الجميع لشكره فانسل من بينهم وخرج يتبعه اصحابه الى الخلاء وتبعهم يعقوب تاركا اهل البيت في اتم حالات الاندهاش وهم يسبحون الرب يسوع

الفصل الحادي والستون

تهود روميلوس

تركنا روميلوس في اورشليم ومضى علينا ردح من الزمن لم نر له ذكرا غير ان الرجل لم يبارح هذه المدينة وكيف يبارحها وفيها رفقه

ان روميلوس احب رفقه حباً مبرحاً ورباها وهي طفلة ملء النفس انها اذا بلغت يتزوجها ويعيش معها عيشاً هنيأ وكانت رفقه لا تحب روميلوس محبة المعشوق للعاشق ولكنها كانت تحترمه لاحسانه اليها وقد ساعدتها الاقدار على ان لا تقترن به لما ذكرنا من الداء الذي اصابه

فاعجزه من الزواج غير انه مع ذلك كان يتمنى ان تبقى عنده ليتمتع بمشاهدة انوار جمالها الفتان وكان يحاول جهد الطاقة ان لا يزوجها من الكثيرين الذين تقدموا اليها من أهل قريته

ولما علم انها عازمة على العود الى اورشليم ترك املاكه ومقتنياته وكل شيء وتبعها مقتفيا خطواتها وبقي بأورشليم كل هذه المدة ولا لسان يتكلم ولا قصد له من كل ذلك سوى مشاهدتها

غير انه اذ سمع في تلك الايام بظهور نبي في اليهودية يشفي المرض خطر له ان يلتجيء اليه ليشفى منه ولكنه خطر له ايضاً انه لو شفي لا يمكن ان يصل الى حبيبته وقد خرجت من يده الى كنف والدتها بحمى انطونيوس الشريف الروماني فاعمل الفكرة في كل هذا ناذا امنيته ابعد مما يفتكر فخطر له باديء بدء ان يتظاهر في اليهودية ويعتنق دين سيدنا موسى

وبما ان الاسرائيليين يعتقدون انفسهم اشرف من باقي الناس حسباً ونسباً لحفظ انسابهم في الهيكل واكثرهم ينتمون الى اصول معروفة ترجع الى الاسباط الاثني عشر كان الدخول في دين اليهود ليس بالامر السهل ولذلك اذ فاتح في فكرته هذه واحداً من كهنة اليهود رأى ان الواجب عليه ان يدرس اصول هذا الدين ويسعى في تلقي احكامه وفعلا اخذ بتلاوة التوراة السبعينية التي كانت ترجمت الى اليونانية قبل ذلك العهد بزمن في مدينة الاسكندرية ويستفسر عما يشكل عليه من ذلك الكاهن فاتضح له ان دين الله غير دين الوثنية وان حقائق الوحدة الالهية تبدد ظلمات تلك الاوهام التي تلقاها عن كهنة الاصنام وعرف بعين البصيرة ان هذه

الاحجار الموضوعة في هياكل الوثنيين لا قيمة لها على الاطلاق وان اعتقاد عبدة الاوثان بتعدد الآلهة ناشيء عن الجهل وان مصدره هو الدين الالهي الذي يرجع الى عبادة الله الواحد ولو سموه جوبتير ودعوه ابا الآلهة وان الفكرة بوجود الهة للجمال واخرى للحب واخرى للهواء واخرى للقوة الخ الخ ارادوا بها في الاصل الرجوع الى قوى الاله الواحد جل شأنه وربما ارادوا بها توزيع السلطة في السماء توصلا الى توزيع السلطة في الارض كل هذا انتبه اليه روميلوس وهو يدرس ناموس سيدنا موسى عليه السلام

وبعد ان اكمل روميلوس دروسه صار يشعر من نفسه بدافع آخر الى التهود غير الدافع الاصلي وهو الشفاء من مرضه والتوصل الى رفقه وما ذلك الدافع الا انتماؤه الى الحقيقة وميله الى الوصول الى نعمة الخلود بعد الموت وتقدم بعد ذلك من قيافا الحبر الاعظم وساله الاحتفال بتهوده رسمياً فجمع هذا مجمعاً من الكهنة وعلماء الناموس واخذ يمتحنه في كل شيء فرآه واقفاً على اسرار الديانة الموسوية ثم أخذ يفحصه في النية التي لاجلها يطلب ان يترك وثنيته ودين وقومه الرومان حتى اذا كان هنالك نية غير صالحة وغاية فاسدة تحمله على ذلك فلم ير فيه عيباً يعيقه عن التهود فاعلن ان ستكون حفلة تهوده بعد ثلاثة أيام فرض عليه الاختتان في اثنائها وسار الى بيلاطس ليعلمه بامره خوفا من ان يكون قبول الرجل وهو روماني في دين اسرائيل مما يوجب غضب الرومانيين

اما بيلاطس فلما سمع من قيافا امر الرجل تبسم وقال اننا لا نشتغل بامور الدين ولكل روماني ملء الحرية ان يدخل في الدين الذي يريده

على شريطة ان يحافظ على الاخلاص لقيصر ويسرني ان ارى بعض الرومانيين يهودا ليعلم اليهود عدالة حكم الرومانيين وميلهم الى هذا الشعب واني سأحضر هذا الاحتفال بنفسي برهانا على ما اقول

واذ ذاع في اليهودية نبأ تهود روميلوس وان بيلاطس سيحضر الاحتفال تهللوا بالروح وفي صباح اليوم الموعود توافدوا ذرافات على الهيكل وكانوا يدخلونه من أبوابه الاربع بازدحام هائل ثم قدم بيلاطس بموكبه الفخيم ودخل الهيكل بعظمة الملوك فاستقبله الكهنة بالاجلال وساروا به الى ردهة كبرى طولها نحو مئة ذراع مسقوفة بالذهب النقي وفيها الف عامود وعامود من حجر البرفير والرخام واجلس على سدة تليق بمقامه الرفيع

ثم تقدم نحو ستمائة كاهن من المذبح وفي يد كل منهم مبخرة ذهبية والى الوراء كان تابوت العهد وعليه الكاروبان وبينهما كرسي الرحمة وكان هواء الهيكل معطراً باريج البخور الذي كان يتصاعد من المحرقة واذ ذبحت الذبائح وتصاعد دخانها سقط الشعب على وجوههم وسجدوا لله وبعد سكوت بضع دقائق ارتفع صوت بوق اهتزت له نفوس ذلك الجمع الكبير ثم عقبه اصوات هتاف ارتج لها الهواء من افواه منشدين يتجاوز عددهم الالفين من شبان وعذارى من بني وبنات لاوي المنقطعين للخدمة في الهيكل الذين دخلوا من الدار الجنوبية وتقدموا ينشدون الاغاني الروحية ويضربون على العود والسنطير والرباب وغيرها من الآلات الموسيقية حتى انتهوا الى صدر بيت الله وهناك امتزجت اصواتهم باصوات

الموسيقى وكانوا ينشدون احد مزامير داود ولما فرغ المنشدون من الترنيم أجابهم جميع الشعب بكلمة «آمين آمين» بصوت عميق اشبه بريح قوية هبت فجأة وهزت اساسات الهيكل

ثم أخذ الحبر الاعظم يدور حول الهيكل ثلاثاً وفريق من الكهنة يتبعه وبعد ذلك تقدم روميلوس يصحبه اثنا عشر شيخاً من اللاويين بلحى بيضاء تستر صدورهم وثياب نقية بيضاء تجللهم وتجعلهم مهيبين في عيون الناظرين اما روميلوس فكان متوشحاً بثوب اسود يستر كل جسمه من الرأس الى القدم وعند ما اقترب من المرحضة أتى اليه كاهنان ونزعا عنه الثوب الاسود والبساه حلة بيضاء ثم أخذاه الى خلوة حيث اغتسل من ادران دينه القديم وبعد خروجه نقياً نودي به دخيلا في عائلة ابراهيم وأعطي اسماً جديداً فدعي شاوول وعلى الاثر صوتت الابواق الفضية اعلاناً لتهوده وهتف الشعب باصوات التهلل فرحاً به وتقدموا منه يصافحونه

كل هذا تم وجرى في أورشليم بينما كانت رفقه واهلها في الجليل واذ انتهى من الاحتفال وعاد الى بيته لم ير امامه الا ان يقصد يسوع طالباً منه الشفاء واذ علم انه في الجليل امتطى جواداً وسار في اليوم التالي متأثراً خطواته وما وصل الى نائين حتى علم انه خرج منها ولكن بلغه ان قومه هناك فسار اليهم ودخل وهو يضحك

فقالت له رفقه ما بالك يا سيدي تضحك وهل لديك نبأ يسرنا

فازداد روميلوس تبسماً وقال لا تدعني يا رفقه بعد اليوم بروميلوس وما انا الا شاوول وهو الاسم الذي اتحفني به قيافا الحبر الاعظم بعد ان

احتفل رسمياً بادخالي في عائلة ابراهيم

فضحك الحضور من كلماته هذه وظنوا انه يمزحهم لانه كان منذ أجل بعيد يخبرهم بعزمه على التهود وهم يضحكون ظناً منهم انه يمازحهم غير انهم في هذه المرة اذ رأوا عليه نغمة الجد استفسروه عما يقول فاخبرهم في كل ما كان فسروا جميعاً وفرحوا الا انطونيوس الذي استصغر عقل الرجل وسخر به لتركه دين آبائه وشرف رومانيته وانضوائه الى قوم هم مستعبدون من الرومانيين

أما رفقه فاذ علمت ان سيدها ومربيها قد اصبح يهودياً شعرت للحال بحب له ما بعده من حب ودنت منه بنغمة الدلال وطلبت منه الرضى عنها والعناية بها فسر من اقبال رفقه عليه وعنايتها به وقبلها و كانت تلك القبلة وحدها هي الاولى التي أثرت على فؤادي الاثنين

ثم سأل عن وجهة يسوع فلم يكن من يعرف ذلك فقال سوف اسعى اليه اينما كان

فقالت له رفقه وهل أنت ياسيدي من محبي ايضاً

قال نعم ولاجله قد دخلت في اليهودية لاني شاهدت من المعجزات على يديه مايدهش الالباب

فقالت الحمد لالهنا الذي جمع شملنا بك

وفي اليوم التالي سار روميلوس في طلب يسوع وعادت ساره واولادها وراحيل الى اورشليم

الفصل الثاني والستون

سار روميلوس ولا يعرف له وجهة وكان ينتقل من قرية الى قرية ويجتمع بالكثيرين من اليهود الذين لم يكن لهم حديث الا عن يسوع ومعجزاته وكانوا يرحبون بهذا الروماني المتهود خصيصاً ولا سيما اذيرون فيه محافظة على دين اسرائيل تفوق الاسرائيليين انفسهم وما زال تائهاً في القرى الى ان وصل بيت عنيا فسمع من الاهلين ان كثيرا ما يتردد يسوع على هذه المدينة وانه ينزل غالبا في بيت رجل من كتبة الانبياء يدعى لعاذر ولا صناعة له الا تحرير الاسفار المقدسة وبيعها فسار اليه رأساً واذ دخل الدار قابله لعاذر ببشاشة وأذ علم منه انه دخل في دين سيدنا موسى واصبح من ابناء اسرائيل ازداد في الحفاوة به كما ازداد به حباً لما علم انه من محبي يسوع وهو يطلبه وسأله ان يبقى ضيفاً عليه الى ان يحضر يسوع الى المدينة او يسمعون نبأ عنه فيقصدونه

وكان يسمع في الايام التي أقام بها في بيت لعاذر كثيرا من الحوادث عن يسوع ولا سيما من اختي لعاذر اللتين كانتا كثيرتي العناية بيسوع وقد خدمتاه باخلاص وبذلتا كل مرتخص وغال في سبيل راحته

وكان روميلوس أو بالحري شاوول مسرورا جدا من اقامته في هذا البيت الذي بني على القداسة والتقوى وكرم الاخلاق فعزم ان يبقى فيه الى أن يقدم يسوع الى تلك المدينة لانه علم ان هذا النبي الجديد

ذو علاقة كبرى في هذا البيت وأمل انه بوساطة صديقه لعاذر سيشفى لا محالة حيث كان يظن ان يسوع كملوك الارض وحكامهم ورؤسائهم الذين لا يعتنون بانسان الا اذا اسعده الحظ وكان له وسيط في مجالسهم

وبعد ان أقام شاوول (روميلوس) أياماً في دار لعاذر سأله ان يكتب له أسفار موسى الخمسة ووعده بمبلغ كبير من المال لقاء ذلك غير انه ألح عليه بسرعة كتابتها ليتملى من تلاوتها فعكف لعاذر على نسخ الاسفار المذكورة لضيفه ليلا نهاراً على مدة أسبوع لم يذق فيه لذة الكرى أو راحة السكون حتى اكمل نسخ الاسفار في هذه المدة القصيرة وكان روميلوس يعجب من صبر هذا الكاتب على العمل وسرعة يده في تمشية القلم حتى كان كالآلة العربية الحديثة للكتابة التي عملت باسم (ادريس وحداد) في هذه الايام

غير ان هذا المسكين لعاذر الذي اجتهد في نسخ الاسفار بهذه السرعة رغبة في نيل أجرتها لينفقها على نفسه وعلى أختيه مريم ومرثا في عيد الفصح الذي كان قد دنا وأراد أيضاً ان يخص منها قسما يسوع وأتباعه ولذلك لم يكد يسلم النسخة لصاحبها ويستلم أجرتها حتى سقط على الارض مغشياً عليه وبعد ما أنهضته أختاه وطرحتاه على فراشه أخذته حمى شديدة واستحكم فيه الهذيان بحيث لم يعد يعرف أحداً ممن حوله

أما روميلوس فاذ رأى ما حل باليعاذر وان ذلك كان بسببه سقط في يده وخصوصاً بعد يومين حيث ثقلت عليه وطأة الحمى فارسل الى رفقه

ربيبته في أورشليم يطلب منها ارسال الاطباء فبادر أنطونيوس وسير اليه أشهر أطباء أورشليم واذ وصلوا الى بيت عنيا وشاهدوا المريض اختلفوا في تشخيص الداء كما اختلفوا في وصف الدواء غير انهم أخذوا يعالجونه بكل ما في وسعهم ولكن وا أسفاه اذا استحكم الداء ضاعت حيل الطب والاطباء وفي اليوم الرابع أعلنوا بان لعاذر في طور النزع وخطر الموت وان لا شفاء له وتركوا بيت عنيا وعادوا ادراجهم وعكفت الاختان مريم ومرثا تندبان وتنوحان أخاهما ومعيلهما الوحيد واليأس ملئ قلبيهما

واذ رأى روميلوس ما رأى تقدم من مرثا وهو يريد تخفيف لوعتها وقال لها اصبري يا عزيزتي فان لنا رجاء بشفاء لعاذر بعد

فدقت مرثا يداً بيد وقالت هيهات يا سيدي فقد انقطع كل الرجاء وحم القضاء

قال ان رجاءنا بعد يسوع فانه يشفيه فارسلي استدعيه يا مرثا فيأتي ويعيده صحيحاً معافى كما كان

وكانت مريم بجانبهما تسمع الحديث وقد اصغت اليه خصيصاً لانه كان يتعلق بشفاء أخيها ولذلك بادرت وقالت له نعم ان يسوع يستطيع ان يشفيه وهو يحبه كثيراً ولو سمع انه مريض لاسرع الينا ولكن أين هو يا ترى ؟؟؟

ولم تكد تكمل حديثها حتى دخل عليها رجل من أصدقاء لعاذر ومن اهالي بيت عنيا وقبل ان يسلم قال لقد وصلت حديثاً الى هذه المدينة فبلغني مرض صديقي لعاذر وانه في خطر الموت فلماذا لا ترسلوا

وتخبروا يسوع

قالت واين هو يسوع فمنذ مدة بعيدة لم نسمع عنه نبأ

قال هو في بيت عبرا وقد تركته هناك يعظ ويعلم ويصنع المعجزات

فسرت مريم لهذا النبأ وبادرت فاخذت قطعة من رق وكتبت عليها ما يأتي

« يا سيدي يسوع »

« ان الذي تحبه مريض فاسرع الينا لكي يحيا اذ لا شيء غير مستطاع لديك . مريم »

ولم تكد مريم تنتهي من تسطير رسالتها المختصرة حتى أسرع وتناولها روميلوس وركب جواده وسار باسرع من لمح البصر بعد ان علم ان بيت عبرا في عبر الاردن



الفصل الثالث والستون

موت لعاذر

سار روميلوس يحمل رسالة مريم الي يسوع ولكن وا أسفاه قد سار بعد اوانه لان بيت عبرا النازل فيها يسوع تبعد عن بيت عنيا مسافة يوم بطوله فلا يبلغها روميلوس مهما اجهد خطى فرسه قبل نصف الليل ولعاذر قد بلغ حد الموت وهو على باب الابدية

شيعت مريم ومرثا شاوول شيعتاه وكلهما رجاء بوصول الرسول الى يسوع والمجيء به قبل ان يفتك الموت بحياته ثم عادتا الى الغرفة ونظرتا الى أخيهما فاذا صفرة الموت قد كللت وجهه فيا له من مشهد مزعج

واذ غربت شمس ذلك اليوم تغيرت ملامح لعاذر تغيراً كلياً أزاد اليأس من حياته في فؤادي اختيه التعيستين اللتين لا تعزية لهما بعده فان عينيه قد تضاعف حجمهما وازدادتا تألقاً من عظم الحرارة التي كانت منبثة في جسمه وناهيك بحرارة الحمى ثم رأتا التنفس قد تصعب عليه بحيث كاد ان يختنق فتقدمت مريم واحاطت المريض بذراعيها اللتين تفوقان الثلج في بياضهما واسندت رأسه على صدرها فسهلت بذلك على اخيها التنفس اما مرثا فكانت لا تحيد نظرها عن وجه اخيها مراقبة باشد الانتباه كل تغيير يحدثه الموت المسرع في بسط جناحيه عليه وكانت في كل برهة تمسح بمنديل في يدها الدم الذي كان يتدفق من فيه

وما مضى الهزيع الاول من الليل حتى كان لعاذر قد مات بعدما تدرج في الانحلال من شدة نزف الدم وازدياد النحول حتى اغمضت

عيناه وانقطع نبضان قلبه الى الراحة الابدية

وكان بيت لعازر ممتلئاً من كثيرين من وجوه الشعب لان هذا الشاب قضى حياته في خدمة الشعب فلما رأى الحاضرون انه قد مات اخذوا الاختين لحجرة اخرى حيث استسلمتا الى النواح والعويل مما يصم الاذان ويفتت القلوب وقد بكى الكثيرون لبكائهما لان موت هذا الشاب قد احزن الجميع

وفي صباح اليوم التالي ذاع نعي هذا الشاب في اورشليم فخف الجميع لزيارته والاحتفال بدفنه وكان في جملة من ساروا لهذا الغرض لوسيا تيلا امرأة بيلاطس حاكم اليهودية ومعها راحيل وساره ورفقه قدمن بمركبة يحف بها الجند اجلالا لهذا الفقيد الذي قدم لها جملة خدمات في حياته

وعند ما بلغت الشمس الظهيرة خرجوا بمشهد لعاذر بازدحام يفوق الوصف وما زالوا سائرين به الى ان بلغوا واد عميق تظلله اشجار السرو والنخل والرمان وفوقه احد ورات مغشاة باشجار الزيتون ولما وصلوا بالنعش الى قمة الوادي رفع منه الميت وحمله اربعة من شبان اسرائيل ونزلوا به الى المقبرة يتبعهم الجمع في بطن الوادي وعند ما بلغوا به باب القبر هجمت مريم ومرثا واستوقفتاهم ريثما تتزودان من أخيهما بآخر نظرة وتقبلانه قبلة الوداع الى حيث لا ملتقى فوقفوا وانزلوا الميت عن اكتافهم فسقطت الاختان عليه تغسلان وجهه بدموعهما وتقبلانه قبلات حارة نار الجحيم ابردها واذ طال بهما النواح نزلت لوسيا امرأة الوالي نفسها مع رفقه وساره وراحيل وارجعن الاختين وهن يلطفن بعذب كلماتهن عظم خطبهما

بينما خفَّ أولئك الشبان فغطوا وجه الميت بمنديل وبادرت فتيات القرية فغطين رأسه وجثمانه بالازهار التي كن احضرنها لهذا الغرض وهكذا وضعوا الميت في قبره ودحرجوا حجراً كبيراً على باب القبر وعادوا وما فيهم الاحزين مكتئب وباك متفجع ودامت الحفلة الى عصارى النهار والشمس مائلة نحو مغربها وكان الهواء في سكوت وسكون كمشارك لهؤلاء المشيعين في هذه المصيبة الفادحة

واذ وصل المشيعون الى البيت جلسوا برهة للعزاء ثم انصرفوا وهكذا امرأة الوالي أيضاً انصرفت ومعها ساره اما راحيل ورفقه فانهما ظلتا في بيت لعاذر المرحوم مجاملة لاختيه الحزينتين اللتين لا سبيل لتعزيتهما وكان ذلك بطلب امرأة الوالي وهكذا:

يعزي المعزي ثم يعود لبيته ويبقى المعزَّى في أحرَّ من الجمر
ويسلو المعزى عن قريب مصابه ويبقى المعزى فيه في وحشة القبر

وبعد ان خلا البيت ولم يبق فيه الا هاته العذارى الاربع نظرت مريم الى رفقه وعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت اشعر بقوة في نفسي واحس ان قلبي نال نصيباً كافياً من الهدو والسلام بعد ذلك الجزع وأرى ان نفسي تبسم عن صفاء ونقاء وامن واني اخال ان روح لعاذر تكتنف جميع ما انظر وتبارك كل ما ارى فلست بباكية بعد ولا ريب في انه سعيد الآن نعم سعيد جداً فلنسع في اتباع خطواته في سبيل البر والقداسة تأهباً للذهاب اليه لانه لا يستطيع ان يرجع الينا

واذ سمعت راحيل هذه الكلمات من مريم اضطربت في داخلها

ومالت على رفقه وقالت لها مسكينة هذه الصبية فانها قد جنت على مايظهر الا ان مرثا التي كانت اكثر تجلداً على احتمال هذا المصاب اذ سمعت كلمات اختها اخذت تعول وتنوح فشاركتها راحيل ورفقه ببكائهما

غير ان مريم التي كانت لا تريد ان تتعزى وقد اتتها التعزية من العلاء تبسمت لبكاء رفيقاتها وقالت لهن اصبرن فان شاوول (وتريد روميليوس) قد سار في طلب سيدنا العزيز ولا بد عندما يحضر بكلمة منه ينهض اخي من قبره

فتبعتها مرثا قائلة نعم فكثيرون لم يعرفهم منحهم الشفاء بلمس يده فكم بالحري يشفي لعاذر الذي يحبه كاخ آه ليت شاوول يفرغ جهده في الاسراع اليه

قالت رفقه نعم ان يسوع يشفي المرضى ولكن هل باستطاعته ان يقيم الموتى ياترى ؟

فقاطعتها راحيل قائلة لا تشكي بقدرة يسوع فان الذي يشفي الاسقام والاوجاع والامراض لا يعجز عن احياء الموتى

قالت مرثا عسى ان يأتي عاجلا اذا والا اذا مضى الزمن الطويل يصبح ذلك مستحيلا

فمدت مريم عينيها السوداوين وهما تبرقان بنور الايمان وقالت اسكتي يا مرثا فليس على يسوع من مستحيل

وهكذا قضين ليلتهنّ بالنواح والعويل وذكر يسوع وتمني حضوره واذ اصبح صباح اليوم التالي اخذن يعللن انفسهن بمجيء يسوع مع شاوول

« اورروميلوس» نخاب ظنهن فقضين بياض نهارهن وسواد ليلهن نائحات باكيات وكان المعزون يترافدون عليهن من كل صوب وحدب

وفي صباح اليوم الثالث قبل ان تبزغ الغزالة من خدرها سمعن قرعا خفيفاً على الباب . فهجمن لينظرن القادم وهنَّ لا يشككن بانه يسوع واذا روميلوس وحده فبادرته مريم قائلة هل وجدت يسوع

قال روميلوس نعم لقد وجدته على شاطيء الاردن الاقصى حيث كان يوحنا يعمد ورايته نازلا مع اصحابه في بيت حقير في ضواحي بيت عبرا يعلم الاشياء المختصة بملكوت الله ويفسر النبوات لكثيرين من اتباعه

فلم تمهله مرثا ليتم حديثه بل قاطعته وهي تقول هل قابلته وسلمته الرسالة وهل اخبرته ان لعاذر على فراش الموت

قال نعم فقد دنوت منه وسلمته الرسالة

قالت مريم وماذا قال لك بعدما قرأها وهل رأيت تغيراً في وجهه

قال كلا لم أر في وجهه شيئاً من علامات الدهشة والانذهال وقال لي بكل هدو وسكون «انا اعلم هذا يابني ان هذا المرض ليس للموت بل لمجد الله فبهذا يمهد لي ابي ان اتمجد بأن يرى الناس معجزاتي ويؤمنون اني حقاً اتيت من عند الله»

فاستغربت مرثا ما سمعت عن يسوع من عدم الاهتمام باخيها ولم تفهم ماوراء كلماته من المغامز وقالت وعليها امارات الاكتئاب والارتياب وماذا قال لك غير هذا ؟؟

قال لاشيء واذ لم يكن عليَّ الا البلاغ لم ألبث بعد ماسلمته الرسالة

ان سألته شفائي فشفاني مما بي وباركني ورجعت ادراجي

فاذ سمعت ذلك مريم دقت يداً بيد وقالت اواه خاب كل رجاء يا ليت كان يعرف يسوع كم كان لعاذر متألماً من مرضه ولو علم لما قال ان مرضه ليس للموت بل كان اسرع في مجيئه بغير ماتردد

أما رفقه فاذ سمعت ان روميلوس (أوشاوول) قد شفي من دائه ورأت في نظرات عينيه ما يحقق ذلك احمرت وجنتاها خجلاً وأطرقت بنظرها الى الارض ولكنها شعرت في داخلها بميل اليه جديد وحنان الى الاقتران به وسرها ان عمتها راحيل نظرت الى روميلوس نظر الراضية عنه وقالت له اذاً أنت حصلت على نعمة من يسوع

قال نعم وهو الهي ومخلصي وان انا الا عبد من عبيده

قالت راحيل أو لم يذكر لك السيد انه آت الى هنا

قال كلا

قالت انه سيتكدر جداً اذا سمع ان لعاذر صديقه قد مات

قال وهل مات لعاذر

قالت نعم وهذا سر وجودنا في هذا المكان فان امرأة بيلاطس استصحبتنا معها يوم الدفن وأوصتنا بان نبقى هنا بضع ايام لتعزية هاتين الحزينتين ونحن لم نرفض ذلك حباً بعمل الخير

قال أسفاً على هذا الشاب فان خسارته لا تعوض

قالت مرثا ولكنا نرجو ان يأتي يسوع ليقيمه من قبره

قال لا أظن مجيء يسوع الى هنا بعد الآن يفيدنا

فعارضته مريم وقد ظهرت على اسرتها انوار الايمان الصحيح قائلة لا تقول هذا يا شاول فان الذي يشفي المرضى لا يستحيل عليه ان يقيم الموتى

واتبعتها مرثا قائلة ويلاه ان لعاذر قد مات ويسوع باق بعيداً وهو لا يريد ان يحضر فلعله نسينا وكان ينبغي ان يحضر على الاقل لاجل تعزيتنا في مصيبتنا هذه التي تفوق طور الاحتمال وينفد دون هولها كل صبر

فاجابتها مريم قائلة سكني روعك يا اختي ولا تسيئي الظن بصديق لعاذر وثقي نظيري بانه لو رأى مناسباً لشفى أخانا بكلمة منه وهو في بيت عبرا كما فعل يوم شفى لوسيوس بن القائد وكان بعيداً عنه سفر يوم

واذ سمعت مرثا هذه الكلمة صاحت بحرارة قائلة اذا لماذا لم يشف أخانا يا ترى؟!

فاجابتها مريم بسرعة اننا لا نعلم الحكمة التي ارادها وما علينا الا التسليم لارادته وان ننتظر الى ان يأتي او لم تسمعي ما قاله لشاوول بان مرض اخينا سيكون لاجل مجد قوته

قالت مرثا قال ذلك عن مرضه وليس عن موته يا مريم فقد مضت ثلاثة ايام ولعاذر في وحشة القبر فهل تستطيع رفاته اليوم ان تعطي مجداً لله او لقوة يسوع وهل يستطيع يسوع اليوم ان يقيم لعاذر بعد ما فسد جسمه وعبث به الدود فلا تعودي فتكلميني عن النبي فانه لا يحب لعاذر

او انه لم يستطع ان يخلصه من مخالب الموت

فقالت مريم بلسان التوبيخ المحزن أهكذا يا عزيزتي مرثا يضعف ايمانك سريعاً بيسوع لاقل تجربة حقاً لقد اخطأت واثمت بعدم ثقتك بمحبته لنا واهتمامه بنا

فاجابتها مرثا وهي منفعلة نعم انه يستطيع شفاء ابن القائد المتكبر لثروته وسعة جاهه لكنه لا يبالي بتوسلات الفقراء نظيرنا

فنظرت اليها مريم نظر الآسف المشفق وقالت لها مرثا مرثا لا تجعلي للحزن تأثيراً على قلبك أنسيت تعاليم السيد الذي قال ان امه واخوته لا يهتم بهم وانما هو يهتم باخوته الذين يتممون مشيئة الآب العام لجميع البشر لانه لا تتوقف غبطة وسعادة الانسان على الاهل والاقارب بل على حياته الروحية

أولم يقل يسوع من فمه المسجدي يا مرثا طوبى لاولئك الذين يحفظون كلمة الآب في نفوسهم لانه لا يوجد مسكن للانسان العائش بالروح على الارض

اولم يقل ايضاً ان الانسان الذي سلم نفسه ومحضها لخدمة الله لا يجوز له ان يرهب الموت الجسدي لان حياة الروح لا تتوقف على موت الجسد ومن يؤمن بحياة الروح فلا يخشى شيئاً ولا يجب ان تحول بينه وبين الروح جميع اهتمامات هذا العالم وملذاته

ألم يقل ايضاً انه لا يجب ان يحول ايضاً الاهتمام بالاهل والاقارب بين الانسان والروح

ألم يقل أيضاً ان من يسعى للحصول على الحياة الحقيقية المتوقفة على اتمام مشيئة الله ينبغي عليه ان لا يهتم بهذه الحياة الدنيا ويدبر شؤون معيشته كما يريد بل يطلب منه ان ينكر جميع ملذات الحياة وشهواتها ويكون مستعدا في كل آونة لاحتمال العذاب والاهانة والاضطهاد والآلام والاحزان

انسيت يامرثا يوم وبخك يسوع قائلا : مرثا مرثا اراك تهتمين باشياء كثيرة والحاجة الى واحد

وهكذا كانت مريم تعزي اختها وتقوي ايمانها بما حفظته من كرازة يسوع وتعاليمه وكان روميلوس يخفف احزان الاختين بما يرويه عن معجزات يسوع التي شاهدها في رحلته وراحيل ورفقه تعيد ان كلمات يسوع لروميلوس وتفسر انها بأكمل وضوح على انه سيحضر ويقيم المائت من القبر وكان كثيرون من يهود اورشليم قدموا خصيصاً لبيت عنيا التعزية الاختين على اخيهما الذي كان محبوباً جدا من الجميع

الفصل الرابع والستون

﴿ قيامة لعاذر ﴾

ومابزغ فجر اليوم التالي حتى كاد يفرغ صبر الاختين بينما كان روميلوس يفكر برفقه ويهتم باستجلاب رضاها ويتقدم من راحيل ويتزلف اليها وهكذا كل يغني على ليلاه

انتبه روميلوس في ذلك الصباح على قرع الباب بينما كان يحلم برفقه

وانها عما قريب تصبح عروسه فينال اقصى ما كان يشتهيه من دنياه نخف الى الباب وفتحه واذا برسول متقطع الانفاس من شدة الركض يقول النبي الناصري جاء وكان هذا الرسول فلاحا يحب المرحوم لعاذر وقد تلقى على يديه حب يسوع وشاهد كثيرا من معجزاته وبينما كان ذاهباً في فجر ذلك اليوم الى حقله واذ ابصر يسوع قادماً بتلاميذه فعلم انه يريد بيت لعاذر لتعزية اختيه فاسرع ليبشرهما بقدومه

فقال له روميلوس واين رأيت يسوع ؟؟

قال الفلاح انه على ابواب القرية وقد تركته وهو يدخلها بتلاميذه

وفي هذه الاثناء كانت مريم ومرثا قد اسرعتا الى الباب فسمعتا كلمات هذا الفلاح فلم تتمهل مرثا ان خرجت محلولة الشعر بثوب النوم محمولة على اجنحة الفرح الفجائي لملاقاة يسوع وتبعها روميلوس وراحيل ورفقه اما مريم فلبثت في البيت تعد ما يلزم لراحة يسوع وتهيئة الطعام له وكانت تقول في نفسها علمت انه يأتي ولا يهملنا في ساعة حزننا

ولما اقتربت مرثا من يسوع وهو داخل بيت عنيا ماشياً اسرعت اليه وسقطت على قدميه وقالت والبكاء يكاد يخنقها آه ياسيدي لو كنت هنا لم يمت اخي

فانهضها يسوع بيمينه وقد ظهرت عليه مظاهر الحزن والكآبة وقال لها « يامرثا ان لعاذر لم يمت بل هو نائم وقد جئت لاقظه »

فازدادت مرثا بكاء وقالت له ياسيد لو كان اخي نائماً فقط لما كنا دفناه تحت الثرى والصحيح انه قد مات منذ أربعة أيام

فقال يسوع « ان موت أحباء أبي هو رقاد فالصالح لا يموت ولعاذر لم يمت بل هو نائم وسوف يقوم ثانية »

فقالت مرثا والدموع تتساقط على وجهها انا أعلم أيها السيد انه يقوم في اليوم الاخير

فقال يسوع وهو رافع نظره الى السماء « انا هو القيامة والحياة كل من يؤمن بي وان مات فسيحيا وكل من كان حياً وآمن بي فلن يمت الى لابد اتؤمنين يامرثا بهذا ؟؟ »

فقالت مرثا نعم اؤمن ياسيد انك انت المسيح ابن الله الآتي الى العالم واعلم ان كل ما تطلب من الله يعطيك وانك الآن تستطيع ان ترد لاخينا المائت نعمة الحياة

فاجاب يسوع « فرحت لان ايمانك بي قد عاد الى قلبك فانك يا قليلة الايمان شككت بي وقلت انى لا اقدر ان ألبي دعوتكما فقد كان من الضروري ان يموت اخوك لكي تظهر قوة الله باقامته ففي هذا اليوم يتمجد ابي ويعلم العالم اني بالحق اتيت ممن هو حياة ومعطي الحياة فاذهبي واستدعي اختك الى هنا »

فابتهجت مرثا وسرى الله عنها حزنها وقفلت راجعة الى البيت وهي مندهشة في كيف ان يسوع عرف ما قالت ووبخها على قلة ايمانها وكانت تعدو في طريقها والذين يرونها على تلك الحالة يعجبون الى ان بلغت البيت فدخلته وهي تصرخ : لقد رأيت الرب وهو يدعوك يا مريم فتعالي وانظريه جالساً عند عين اشعياء بقرب السوق

فأسرعت مريم وفؤادها يخفق طرباً وسرورا تتبعها مرثا وكان الكثيرون من اهل بيت عينا يتبعونهما وهم يقولون انهما جنتا ولا شك والا لما كانتا تعدوان في اسواق المدينة ولما وصلتا العين والناس يتبعونهما رأتا يسوع يغسل رجليه من الغبار ويخاطب المجتمعين حوله عن قيامة الموتى وحينما نظر مريم مد لها يده لتقبلها لكنها سقطت عند رجليه باكية وهي تقول لو كنت هنا ياسيد لم يمت اخي واخذت تبكي بكاء مرا اثر على جميع الحاضرين فاخذوا يشاركونها بدموعهم

وحينما رأى يسوع شدة حزنها وحزن الباكين معها تنهد بالروح واضطرب ورسمت على وجهه امائر الحزن وقال لمن حوله « هلموا بنا نذهب الى القبر حيث لعاذر مضطجع اين وضعتموه ؟؟ »

فاجابت مريم « تعال يا سيدي العزيز وانظر » قالت هذا ومسكته بطرف ثوبه وسارت امامه الى المقبرة في وادي الزيتون وتبعهما الجموع المتجمعة وكانت علامات التعجب بادية على وجوههم والسكينة مستولية عليهم والرهبة مخامرة افئدتهم بحيث ما كان منهم من يفتح فاه او ينطق ببنت شفة .

ولما وصل الجمع الى المقبرة دخل يسوع في مقدمتهم ووقف امام قبر صديقه وظل برهة ساكتاً يمعن نظره في الحجر المدحرج على باب القبر والناس من حوله كلهم اعين تنظر اليه وهم بين مصدق ومكذب ومؤمن ومرتاب اما مريم ومرثا اختا العاذر فتقدمتا اليه وسجدتا عند قدميه متفرستين في وجهه بعين الرجاء والاتكال فنظر اليهما يسوع بعين الرأفة

والحنو ثم تطلع نحو القبر وبكى بكاء مراً

أما الناس فمنهم من قال انظروا كيف كان يحبه وآخرون قالوا الا يقدر هـذا الذي فتح عيني الاعمى ان يجعل هذا ايضاً لا يموت وغيرهم قال غير ذلك

وكانت كلمات القوم ترن باذن السيد وهو لا يلتفت الى احـد ثم تنهد تنهدا عميقاً ودنا من القبر وقال ارفعوا الحجر

فقالت مرثا يا سيد ان اخانا قد انتن لان له اربعة ايام وهو مستريح في قبره.

فاجابها يسوع «ألم اقل لك من برهة يسيرة انك اذا آمنت باني استطيع اقامة اخيك ترينه حياً ثانية ؟؟ فآمني لتري مجد الله»

وكان الرجال قد رفعوا الحجر بصعوبة عن باب القبر وانبعثت من ظلماته روائح منتنة لم يقو الواقفون على استنشاقها وظهر جسد لعاذر ملفوفاً ووجهه مغطى بمنديل

وحينئذ رفع يسوع يديه نحو السماء وشخص بعينيه المملوئتين دموعاً وقال «ايها الاب اشكرك لانك سمعت لي وانا علمت انك في كل حين تسمع لي ولـكن ليؤمن هـذا الجمع الواقف ارسلتني» ثم التفت نحو القبر ومد يده وصرخ بصوت عال اضطربت له قلوب الحاضرين

لعاذر هلم خارجا

وللحال انتصب الجسد واقفاً داخل المغارة ويداه ورجلاه مربطة ووجهه ملفوف بمنديل فعندما أبصره الواقفون اخذتهم الرعدة وانتصب الشعر في رؤوسهم وتولتهم الرهبة ورجعوا الى الوراء مندعرين كيف لا وهم انفسهم منذ اربعة ايام شاهدوا العاذر الذي يكلمهم ويجالسهم باعين رؤوسهم مائتاً وجاؤا به الى هذا المكان ودفنوه فيه واليوم يشاهدونه حياً يتحرك ويتكلم كان لم يكن فيه شيء مما كان

أما مرثا فلم تتمالك اذ رأت اخاها حياً ان صاحت « لعاذر » ووقعت على الارض مغشياً عليها بينما كان يسوع يقول « حلوا هذا الرجل من أربطته ودعوه يذهب »

غير ان مريم كانت اشجع من في المكان فلما سمعت امر السيد أسرعت الى اخيها بجرأة مدهشة ورفعت المنديل عن وجهه فظهر ذلك الوجه الذي عهدناه مصفراً يسطع بهاء واذ رأى القوم شجاعة الفتاة تقدموا منه وحلوا اربطته ونزعوا عنه الاكفان وللحال رفع صوته قائلا « المجد لله في الاعالي وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة » وانطرح على اقدام سيده وصديقه يسوع ليشكره على نعمة الحياة فانهضه بيمينه وسار به الى الخارج حيث رأى اخته منطرحة مغشياً عليها فاحتضنها

وناداها باسمها فانتبهت على صوته العذب وطفقت تقول (الحمد لله المجد ليسوع نبي الله)

وهكذا قفل يسوع ولعاذر عن يمينه راجعين الى البيت وكان الجمع يتبعهما وهو يمجد الله باصوات التهليل والحان التسبيح وكان ذلك اليوم عظيما في بيت عنيا

وبقي يسوع في هذه القرية مدة ايام يعظ ويبشر ويعلم ويصنع المعجزات والناس تؤمه من اورشليم وغيرها لسماع كرازته ومشاهدة لعاذر الذي اقامه من بين الاموات فكان معجزة حية تبشر باسمه

وفي مساء يوم الخميس اقام رجل من اهالي القرية يدعى سمعان الابرص (وكان نسيباً الى لعاذر وقد شفاه يسوع من مرضه) مادبة ليسوع دعي اليها تلاميذ السيد وكثيرون فيهم راحيل ورفقه وروميلوس نزلاء ليعاذر وبينما كانوا متكئين على المائدة استلفت نظر رفقه رجلان كانا مع التلاميذ فمالت الى راحيل وقالت لها انظري هذين الرجلين فاذكر اني اعرفهما

فقالت راحيل نعم انهما متى ويهوذا اللذان مسكا يعقوب خارج اورشليم يطالبانه بمال الجباية وخلصه انطونيوس من ايديهما

قالت اني لاعجب كيف تركا صنعتهما والتفا من حول يسوع هذا السيد الفقير الذي لا يملك شروى نقير

قالت لا ادرك لهذا الامر حلا ولكن لعل ذلك من جملة اعمال يسوع التي سيتمجد بها

وكانت مريم ومرثا تخدمان المتكئين وهما ناظرتان بملء اعينهما الى اخيهما لعاذر وكأن مريم ارادت ان تبرهن على شكرها للسيد فجاءت بقارورة طيب من سنبل النار دين اثمين وافاضته على رأسه وافرغت ما بقي على قدميه ومسحتهما بشعرها فامتلأ البيت من رائحة الطيب فاثنى المعلم الالهي على اخلاصها بينما ظهر على تلاميذ يسوع مظهر الغضب وتقدم يهوذا وقال « لم لم يبع هذا الطيب بثلاث مئة دينار ويدفع للمساكين »

اما يسوع فتبسم وقال «دعوها لماذا تعنفونها فقد صنعت بي صنعاً حسناً ان المساكين هم عندكم في كل حين فتقدرون ان تحسنوا اليهم متى شئتم واما انا فلست عندكم في كل حين انها صنعت ما في وسعها وقد سبقت فطيبت جسدي للدفن الحق أقول لكم انه حيثما كرز بهذا الانجيل في العالم كله يخبر بما صنعته هذه تذكاراً لها »

فقالت راحيل حينئذ لرفقة انظري هذا الرجل واشارت الى يهوذا فانه لص لامحالة والا لما استكثر مثل هذا الاكرام لهذ السيد من اخت رأت اخاها حياً بعد ان مات وارادت ان تشكر محييه بما لديها

قالت وكيف اعتقد بلصوصيته وقد قبله يسوع في جملة تلاميذه واصحابه وهو يطلب ان يعطى المال للفقراء

قالت سوف تسمعين ما يكون من امره فيما بعد فان ملامح وجهه تدل على انه يبطن غير ما يظهر

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في بيت عنيا كان نبأ قيامة لعاذر قد اتصل الى مسامع الكتبة والفريسيين في اورشليم فهاجوا وماجوا

لان هذه المعجزة كانت اعظم معجزات يسوع التي قدروا في انتشارها اجماع الامة على الاعتقاد بنبوته ولذلك اجتمع الكهنة في دار قيافا زعيمهم واقروا فيه على قتل يسوع والعاذر معاً

وما حمل الكهنة على هذا الاقرار الا لان يسوع كان في تعاليمه ومواعظه يضطهد اعمالهم المنافية لروح شريعة موسى لانهم كانوا كبعض اكليرسنا اليوم قد انحرفوا عن الشريعة الالهية وانغمسوا في رذائلهم ومساويهم انغماساً معيباً مخجلاً وصموا اذانهم عن الحقائق التي كان يكرز بها السيد وتقرر لديهم ان سيادة يسوع ستقضي على نفوذهم ووجودهم معاً وان من مصلحتهم مقاومته الى النهاية وبعد ان تم اتفاقهم على اهلاك يسوع اعلنوا في الهيكل بأن كل من رأى يسوع فليدلهم عليه ليمسكوه



الفصل الخامس والستون

دخول يسوع إلى اورشليم



« قولوا لابنة صهيون هوذا ملكك يأتيك وديعا راكبا على اتان وجحش ابن اتان »
(ذكريا النبي)

كانت عادة اليهود انهم يأتون حجيجاً الى المدينة المقدسة ليشهدوا حفلة عيد الفصح وكانوا يتمنون ان يصلوا قبل العيد ليطهروا انفسهم من الاوزار التي ارتكبوها ضد الشريعة بتقديمهم الذبائح تاهباً للاشتراك بالخاروف الفصحي وهم طاهرون

واذ كانت حوادثنا جارية قبيل عيد الفصح كان شغب الكهنة ضد يسوع ذا شأن عظيم عند الرومانيين لان المدينة المقدسة اصبحت غاصة

بالحجاج حتى كادت تضيق على رحبها بهم

وكان اكثر هؤلاء الحجاج قد عاينوا السيد وشاهدوا معجزاته اما الذين كانوا من اطراف بعيدة فانهم سمعوا انباءه ولم يروه ولذلك كانوا مشتاقين الى مشاهدته اشتياقا غريباً لان ظهوره يهم كل يهودي من ابناء اسرائيل غير انهم اذ سمعوا بمؤامرة الكهنة والفريسيين على قتله اصبحوا يشكون بحضوره الى اورشليم وباتوا يتساءلون قائلين وهم في الهيكل ماذا تظنون العله لا يأتي الى العيد غير انهم اذ سمعوا بوصوله الى بيت عنيا تقرر لديهم انه سيزور المدينة المقدسة ويتمتعون بمشاهدته وبعضهم لم يتمهل بل سار اليه على اجنحة الرغبة بمشاهدة الجديد وبعضهم ذهب اليه بدافع الايمان والبعض ساروا خصيصاً لمشاهدة لعاذر الذي قام من بين الاموات فما اصبح صباح يوم الاحد السابق لعيد الفصح حتى كانت الطريق بين اورشليم وبيت عنيا ممتلئة بالناس غاصة بهم

اما يسوع ففي ليلة الاحد تلك كان راقداً في بيت لعاذر وقد قضى ليلته وهو يخبر تلاميذه بانه سيسير الى اورشليم ومزمع ان يتألم ويموت وسيقوم بعد ثلاثة ايام وكان يوصيهم الوصايا النصوحة المفيدة ويقوي ايمانهم الا انهم ما كانوا يفهمون مايعني على وضوح كلماته

واذ اصبح صباح الاحد برح يسوع بيت عنيا مع تلاميذه قاصدين اورشليم لحضور عيد الفصح فرأوا وفود الناس داخلين القرية واذ رأوه انضم الى موكبه بعضهم وارتد البعض مسرعين الى اورشليم ليبشروا الحجاج بقدومه واذ سار يسوع قليلا دنا من قرية بيت فاجي عند جبل الزيتون فتوقف

عن المسير واشار الى اثنين من تلاميذه قائلا « اذهبا الى القرية التي امامكما وعندما تدخلانها تجدان اتانا مربوطة وجحشاً مربوطاً معها لم يركب عليه أحد من الناس قط فحلاها وائتياني بهما »

فقال التلميذان لا بد ايها السيد ان يكون لهما صاحب فماذا نجيبه اذا عارضنا في أخذهما

قال « قولا ان الرب يحتاج اليهما فيرسلهما للحال »

فذهب التلميذان مسرعين وكانت القرية على خطوات يسيرة ووجدا كما قال لهما يسوع الاتان والجحش فأخذا يحلانهما واذا بصاحبهما آت فقال لهما لماذا تحلان الجحشين فقالا ان الرب يحتاج اليهما فلم يعارضهما وبعد ان حلا رباطيهما استاقاهما واتيا بهما الى حيث يسوع وتلاميذه والجموع التي كانت تزداد رويداً رويداً من حوله وبحال وصولهما بالجحشين القى التلاميذ بعض زوائد البستهم على الجحش وتقدم يسوع فركبه وسار بمقدمة الجمع

اما بطرس احد تلاميذ يسوع واكثرهم غيرة على سيده فقد اندهش اذ راى معلمه راكباً وهم لم يروه قبل ذلك اليوم كذلك ومال الى رفيقه المدعو توما وقال له ألست متعجب مثلي من مشاهدة يسوع راكباً وهو لم يركب قط على حيوان

فاجابه توما قائلاً ربما انه عزم على اظهار نفسه ملكاً وهو ما نتوقعه ونرجو تحقيقه يوماً بعد يوم

وكان القادمون من اورشليم عندما يلتقون بيسوع ينزعون ثيابهم ويفرشونها في طريقه ليمر بجحشه عليها وكان بعضهم يقطعون اغصان

الاشجار ويفرشونها في طريقه

ولما قرب موكب يسوع من منحدر جبل الزيتون المطل على اورشليم طفق جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عال قائلين «مبارك الآتي باسم الرب السلام على الارض والمجد في العلاء » وكان الشعب ينادون بملء افواههم « هو شعنا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب ومباركة مملكة ابينا داود الآتية هوشعنا في الاعالي »

وقد احدثت هذه الاصوات دوياً هائلاً في اورشليم سمعه الحجاج الذين كانوا في خيامهم المضروبة حول المدينة فاقبل منهم خلق كثير واخذوا سعف النخل وخرجوا الى لقائه واذ انضموا الى موكبه مشوا امامه وهم يصرخون « هو شعنا مبارك الآتي باسم الرب ملك اسرائيل» وكان يسوع سائراً على حماره بين اصوات التهليل والتمجيد وهو صامت ينظر بعينيه النيرتين الى أورشليم وعظمة هيكلها وقصورها ولما رأى المدينة عن بعد أخذ يبكي وهو يقول على مسمع صاحبه بطرس الذي كان يلازمه ملازمة الظل (ايتها المدينة حبذا لو علمت انت أيضاً في يومك ما هو لسلامك لكنه الآن خفي عن عينيك انها ستأتي عليك ايام يحيط بك فيها اعداؤك بمترسة ويحاصرونك ويضيقون عليك من كل جهة ويهدمونك وبنوك فيك ولا يتركون فيك حجر على حجر لانك لم تعرفي زمان افتقادك»

فلما رأى تلاميذه ان يسوع يبكي ويتكلم دنوا منه وهم قلقون وقال له بطرس الى ماذا تشير ايها السيد

قال اني اشير اشير الى ما ستعلمونه فيما بعد ولا تقدرون ان تفهموه الان الا ان هـذا كله لم يؤثر على بهجة المحتفلين بيسوع الذين لم يكفوا عن انشادهم وتهليلهم وتكبيرهم

ولما بلغ يسوع بموكبه الى اسفل الجبل وصار على مرمى حجر من المدينة اعترضه فرقة من الفريسيين وكانوا قد سمعوا بنبأ قدومه وأغاظهم ما رأوه من هذه الحفاوة التي قوبل بها وقالوا له « يا معلم انتهر تلاميذك »

فتبسم يسوع تبسم الحزين ونظر اليهم بعيني الآسف وقال لهم « ان سكت هؤلاء لنطقت الحجارة » قال هذا وظل سائراً في طريقه والجموع المتجمعة تتبعه باناشيدها

ولما رأى الفريسيون ان لا قبل لهم على ارجاع الشعب عن يسوع وقد التفوا عليه بعد ان علموا باقامته لعاذر قال بعضهم لبعض « انظروا انكم لا تستفيدون شيئاً ها ان العالم قد تبعه » وانقلبوا على اعقابهم وفي نفوسهم ان يهلكوه ليتخلصوا من سيطرته التي قدروا ان بها يتقلص ظل مجدهم

ولما وصل يسوع بموكبه الى الهيكل بابهة الملك القادر اخذ يتفقد جميع ما فيه ولما تفقد الاشياء كلها وقد اقبل المساء خرج الى بيت عنيا مع الاثنى عشر تلميذا وبات هناك في دار لعاذر صديقه

﴿ الفصل السادس والستون ﴾

﴿ حديث مع بيلاطس ﴾

من البديهي ان روميلوس وراحيل ورفقه كانوا مع يسوع في موكبه

الذي نزل به الى اورشليم وكذلك لعاذر واختاه نزلوا المدينة ايضاً وقد ساروا بدعوة من راحيل الى البيت الذي يضم ساره وانطونيوس واذ دخلوا ذلك البيت قصوا ما كان من امر يسوع في بيت عنيا وكان لعاذر معجزة يسوع الناطقة يخبر بمجده بطلاقة وفصاحة

وقد اندهشت ساره بعد ما علمت ان روميلوس المتهود الذي دعي شاوول قد اصبح بصحة وعافية بعد ان علمت بامر مرضه من قبل وزاد اندهاشها انها رأت ابنتها متعلقة به وكان انطونيوس معجبا بكل ما يسمع وهو يسخر تارة برؤياتهم وطورا يعتقد بصحتها ولا سيما اذ شاهد لعاذر وسمع من فيه وافواه الحاضرين نبأ موته وقيامته كما سمع من صاحبه روميلوس انه اصبح صحيحاً وقد بريء من علته وهو مستعد ان يقترن برفقه على شريعة موسى واقر الجميع على اقامة حفلة حافلة لهذا الفرح يدعون اليها يسوع بعد انقضاء عيد الفصح

وكان روميلوس اشد تمسكا من اليهود انفسهم بسنة موسى شأن كل دخيل في دين جديد ولذلك كان يتتبع بكل دقة ما فرض على اليهود من الفرائض

هذه كانت حالة هؤلاء الذين جعلتهم حوادث الايام عائلة واحدة تضم شريفاً من الرومانيين وشريفة من اليهود وارملة زعيم الثورة يهوذا واولادها الذين كانوا في ذروة المجد اذ ان اكبرهم كان ابناً لانطونيوس ووريثاً له واسحق كان باسم كرميلوس قائدا لفرقة من الجند الروماني وانها وأيم الحق لعائلة من المدهشات امر ائتلافها على هذا الشكل

وبعد ظهر ذلك اليوم سار لعاذر واختاه ومعهم ساره والعائلة لزيارة امرأة بيلاطس شكرا لها على انعطافها لحضور جنازة ليعاذر وانه لشكر مدهش اذ يقوم به ذاك الذي احتفل بدفنه

ولا بد ان القراء الكرام يحبون الوقوف على العلائق التي كانت بين لعاذر وامرأة بيلاطس التي تكبدت بنفسها عناء المسير الى بيت عنيا لحضور الدفن فان هذه الامرأة الصالحة كانت من ربات الذكاء كما كانت كثيرة العناية في امر العلم فحفظت شيئاً كثيرا من الفلسفة الرومانية واليونانية ولما وصلت الى اليهودية احبت الاطلاع على شريعة موسى وغيرها من اداب اليهود وفلسفتهم فرأت في ذلك مصاعب شتى لان اليهود كانوا اعداء للرومانيين ومن طبيعتهم عدم التطوح مع الاجانب ولاسيما في كل ما له مساس بأمر الدين وبعد الجهد توفقت الى التعرف باليعاذر وذلك انها استكتبته اسفار سيدنا موسى المترجمة من الشيوخ السبعين في الاسكندرية ثم لم تكتف بهذا بل اخذت تدرس هذه الاسفار عليه وترجع اليه فيما يغمض عليها فهمه ومن المعلوم ان لحمة الادب اقوى ارتباطاً من لحمة النسب بل كثيرا ما نرى افراد العائلة الواحدة حتى الاخوة يتشاحنون ويتنافسون وكل منهم يسعى لاسقاط نسيبه وابن عمه توصلا للتفرد باوهام الشهرة او للاستئثار بمنفعة موهومة خلافاً للادباء والعلماء الذين اذا جمعتهم رابطة العلم الصحيح كانوا اخوان على السراء والضراء هذا اذا كان هؤلاء من ذوي المدارك السامية لا كمتأدبي هذا الزمان الذين ينهشون اعراض بعضهم بعضاً في صحفهم على ما يشاهد الجمهور في هذا العصر

في مصر في هذه الجرائد المنتشرة

فهذا هو السبب الذي حمل امرأة بيلاطس على شرف قدرها وعظم شأنها ان تذهب لجنازة لعاذر وان تستصحب معها راحيل ورفقه ثم تكلفهما ان تبقيا عند اختيه اياماً لتسليتهما كما سبق وذكرنا في سياق الحديث

وكانت امرأة الوالي قد علمت بقيامه لعاذر من القبر حياً مما سمعته عرضاً ولكنها اذ رأت بنفسها ان الرجل قد مات وشهدت دفنه لم تعبأ بهذا النبأ وحسبته حديث خرافة ولكنها مع ذلك كانت كل يوم تسأل عن رفقه وراحيل وان كانتا قد حضرتا من بيت عنيا ام لا وكانت تستنتج من تأخرها هناك ما يرجح لها حدوث خارقة حملتهما على الاقامة كل تلك المدة لان حوادث المعجزات التي كان يأتيها يسوع في تلك الايام كانت ملء افواه الجميع من يهود ورومانيين

ففي ظهر ذلك اليوم كان بيلاطس على المائدة يتناول الطعام مع امرأته وكان كرميليوس يحدثهما عن يسوع ودخوله المدينة راكباً على جحش واحتفاء اليهود به ذلك الاحتفاء الغريب وبعد ان قص على الوالي كل ما كان

قال الوالي هل يخشى من فتنة تثور في اليهودية في هذه الايام

قال كرميليوس ان ذلك ليس ببعيد يامولاي لان اليهود في هرج

قال انها عادتهم فانهم في كل سنة في عيد الفصح اذ يجتمع شتيتهم في هذه المدينة يقومون بمثل هذه الحركة وربما كان في انفسهم ان يحركوا مثل هذه السواكن في هذا العام

قال هذا ما ظهر لي

قال ارى ان الاولى ان تترقب الجليليين فان هؤلاء اكثر استعدادا للثورة من غيرهم حتى اننا منذ سنتين اذ اهلكنا عددا منهم اصاخ الاسرائيليون الى السكينة ولكن قل لي هل في مظاهر الشاب يسوع ما يحملنا على الريبة من امره والتحرص من شره

قال كلا يامولاي وغاية اعتقادي في هذا الرجل انه رجل صلاح وسلام واري ان الحكومة الرومانية اذا ساعدته قويت بواسطته على توطيد قدمها في هذه البلاد اذ لا يخفى على مولاي ان الكهنة والفريسيين متسلطون على الشعب باسم الدين والشعب خاضع الى كهنته خضوعا اعمى لاعتقاده ان هؤلاء ائمة دينه وفي ايديهم سعادته وشقاؤه ليس في هذه الحياة بل بعد الموت ايضاً وناهيك بسلطة الدين وتأثيرها اما هذا الشاب يسوع فقد اخذ منذ ظهر يخطب ويعظ منددا بهؤلاء الكهنة والفريسيين وبقوة معجزاته قد جذب الشعب اليه وابعده عن كهنته فاذا ساعده الرومانيون قوي على اسقاط هؤلاء الذين لا شكوى لنا الا منهم

ولم يكد ينتهي كرميليوس من حديثه حتى دخل انطونيوس ومعه آل بيته ولعاذر واختاه دخلوا جميعاً فاندهش الوالي وامرأته اذ رأوا لعاذر حياً وأخذا ينظران اليه محملقين وهما يكادان يكذبان اعينهما وبعد ان تأكدا من انفسهما ان نظرهما لم يخطيء وان هذا هو نفس لعاذر الذي مات وقبر هنئاه بسلامته ثم دار الحديث بينهم على يسوع ومن الطبع كان جلساء بيلاطس كلهم من احزاب يسوع وضد الكهنة مما حمل بيلاطس على القيام بناصر هذا الشاب اذا اعتدى عليه الكهنة وامر كرميليوس ببذل ما

في الوسع لحمايته والدفاع عنه ثم استطرأ في حديثه فقال وهو يخاطب لعاذر اشر على هذا الشاب ان يخرج من اورشليم لان وجوده في هذه المدينة مما يعود عليه بالشر لان هؤلاء الكهنة قد اتعبوا حكومة القيصر الممتد سلطانه على عموم الارض

فقال له لعاذر هيهات ياسيدي هيهات فان هذا السيد الشاب منذ ايام أخذ يخبرنا بانه سيلاقي الآلام وانه سيموت ثم يقوم وانك اذا اجتمعت به في هذه الايام تراه حزيناً واذا ما خلا بنفسه اطلق لنفسه العنان فبكى بكاء مراً مما لا ندرك له سراً

قال اني لآسف على هذا الشاب فان اعداءه اقوياء نرهبهم نحن فكيف به وهو شاب مفرد وحيد

وفي مثل هذا الحديث قضى ضيوف بيلاطس ردحا من الزمن في حضرته ثم انصرفوا من حيث اتوا اما لعازر واختاه فقد ذهبوا تواً الى بيت عنيا لانهما علما ان السيد سيعود اليها ويبات في دارهما

الفصل السابع والستون

﴿ رجوع يسوع الى اورشليم ﴾

قضى يسوع تلك الليلة في بيت لعازر وكان فيها حزيناً جداً وقد بين لتلاميذه والمجتمعين عليه ان هذه الليلة هي الاخيرة التي يزور فيها بيت عنيا وانه مستعد ان يذهب الى اورشليم حيث يتألم ويموت وبعد ثلاثة ايام يقوم وكان الحاضرون لا يفقهون معنى ما يقول

وفي غلس يوم "الاثنين خرج بتلاميذه من بيت عنيا قاصداً المدينة

المقدسة وبينما هو في الطريق شعر بجوع ونظر عن بعد شجرة تين مورقة فسار اليها على رجا ان يرى فيها ثمراً يسد به رمقه نخاب ظنه لان لم يكن وقتئذ اوان التين فقال لها «لا يأكل أحد ثمرة منك الى الابد»

وكان التلاميذ يسمعونه فقال بطرس لبرثلماوس رفيقه الا يعلم السيد ان ليس فيها ثمر فكيف دنا منها ولماذا لعنها اذ لم يكن اوان اثمارها

فقال برثلماوس ان السيد يريد ولا شك في هذا ان يشخص حالة اليهود الذين سبق ومثلهم بالتينة انسيت ذلك المثل الذي ضربه لنا

قال بطرس اعده على سماعي

قال قال يسوع «كان لرجل تينة مغروسة في كرمه فجاء يطلب فيها ثمرا فلم يجد فقال للكرام ها ان لي ثلاث سنوات آتي واطلب ثمراً في هذه التينة فلا أجد فاقطعها فلماذا تعطل الارض فاجاب وقال له ياسيد دعها هذه السنة ايضاً حتى اعتني بها فان اثمرت تركناها والا قطعناها وجعلناها طعاماً للنار»

قال حسناً ولكن لماذا لعنها

قال ربما انه يرمز عن انتقامه من شعب اسرائيل وبعد ان اكملا حديثهما هذا التفتا الى التينة فرأيا ان اوراقها يبست فاندهشا من هذه المعجزة أيضاً

وما زال يسوع سائرا والتلاميذ وراءه الى ان وصلوا اورشليم وساروا توا الى الهيكل فجعل يسوع كما فعل من قبل ينتهر الباعة ويخرجهم خارجا وقلب موائد الصيارفة ومنع الناس من نقل مبيوعاتهم وهو يردد قول

اشعياء « بيت ابي بيت صلاة يدعى مجتمع الامم وانتم جعلتموه مغارة للصوص » والغريب ان الحاضرين على اختلاف مراتبهم واجناسهم لم يتجرأ أحد منهم على معارضته وهدئ اللغط وسكنت الجلبة ونظرت العيون اليه وفي الحال تقدم اليه عميان وعرج فشفاهم واذ رأى الناس ساكتين وما فيهم من ينبس ببنت شفة شرع يعلمهم وكانوا مندهشين من تعاليمه

وكان في الهيكل صبيان لخدمة الهيكل وانشاد التسابيح على الاسلوب الذي يتعلمونه من الكهنة فاذ رأى هؤلاء الصبيان هيبة السيد وجلاله وخضوع كل نفس اليه وسماع اقواله الدرية تقدموا منه وأخذوا ينشدون « هوشعنا لابن داود مبارك الاتي باسم الرب »

اما الكهنة والفريسيون فكاد الغيظ والحنق يأ كلهم وهم يرون اعمالهم السيد التي اضاعت نفوذهم وازاد في غيظهم سماعهم الصبيان يرنمون الانشودة الخصيصة بماسيا فتقدموا حينئذ من السيد وقالوا له بغضب اتسمع ما يقول هؤلاء ؟

فتبسم يسوع وقال لهم « او ما اقرأتم قط من افواه الاطفال والرضعان صنعت لي سبحاً »

واذ سمع هؤلاء هذا الجواب سكتوا وهم يرددون قول الشاعر

اذا انت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

وظل يسوع بياض نهاره يعظ ويعلم ويصنع المعجزات في ذلك الهيكل وكان الناس ملتفون من حوله وفي قلوب الاكثرين نعمة الايمان الا فريق الكهنة والفريسيين الذين انزووا يتداولون في ماذا يجب ان

يصنعوا ليهلكوا يسوع وبعد المداولة خطر لهم ما لم يخطر على قلب ابليس وذلك انهم رأوا كرميليوس بجنده قد دخلوا الهيكل للمحافظة على السلام فارسلوا من يجرب يسوع ليرمونه بالتهم السياسية

وفعلاً تقدم رسولهم الى يسوع وقال له يامعلم ايجوز لنا ان ندفع الجزية لقيصر؟

فنظر يسوع الى هذا السائل نظرة العارف بخبيئة صدره ولا سيما اذ رأى من حوله نفراً تدل نظرات أعينهم على انهم شركاؤه في هذا السؤال وقال لهم « لماذا تجربوني يا مراؤون » ألستم في حاضرة اليهودية وعندكم أئمة الدين وحملة الناموس

قالوا ولكنا نريد ان نعرف رأيك في هذا الامر لان في تثنية الاشتراع أصحاح ١٧ عدد ١٥ جاء « فاقم عليك ملكاً من يختاره الرب الهك من بين اخوتك تقيم عليك ملكاً وليس لك ان تقيم عليك رجلاً أجنبياً ليس بأخيك »

قال حسناً « أروني نقد الجزية »

وللحال تقدم واحد منهم وأعطى يسوع ديناراً فتناوله السيد بين ابهامه وسبابته وعرضه على انظار الحاضرين وقال « لمن هذه الكتابة وهذا الرسم؟؟ »

فقالوا جميعاً انه رسم قيصر واسمه

قال « اعطوا اذاً ما لله لله وما لقيصر لقيصر »

فانخذل هذا السائل ورفاقه وتعجبوا وتركوه وانصرفوا ولم يستطيعوا

ان يأخذوه بكلمة امام الشعب أو امام الرومانيين

وكان اندراوس بجانب يسوع بين تلاميذه فاذ سمع هذا الجواب المسدد لم يفطن الى قوته فتقدم من اخيه بطرس الذي كان معروفاً بين التلاميذ بغيرته على السيد وشقشقة لسانه في الحديث وسرعة خاطره في فهم كلام سيده الالهي وقال له ما الذي عناه معلمنا بهذا القول

قال بطرس ان هذا الدينار عليه رسم قيصر واسمه فالدينار اذاً هو له وفي تداول اليهود الدنانير القيصرية برهان على انهم خاضعون لسلطانه فيحق له اذاً ان يأخذ منهم جزيةأو خراجاً ولا يمكنهم ان يمتنعوا عن ادائه

وما زال يسوع يعظ ويعلم في الهيكل بياض يومه وفي المساء انصرف بتلاميذه الى ضواحي المدينة وباتوا هناك

وفي اليوم التالي (الثلاثاء) جاء الهيكل وجاهر بالاكثر بمناواة الكتبة والفريسيين وأخذ يحذر الناس ولا سيما تلاميذه منهم حيث كان يقول « ان الكتبة والفريسيين جالسون على كرسي موسى فمهما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به واما مثل أعمالهم فلا تعملوا لانهم يقولون ولا يفعلون لانهم يحزمون احمالاً ثقيلة شاقة الحمل ويجعلونها على مناكب الناس ولا يريدون ان يحركوها باحدى اصابعهم . كل اعمالهم يصنعونها رياء امام الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهدابهم ويحبون اول المتكآت في العشاء وصدور المجالس في المجامع والمشي بالحلل والتحيات في الاسواق وان يدعوهم الناس معلمين اما انتم فلا تدعوا معلمين فان معلمكم واحد وانتم جميعكم اخوة ولا تدعوا لكم اباً على الارض فان اباكم

واحد هو الذي في السماوات ولا تدعو مدبرين لان مدبركم واحد وهو المسيح والكبير فيكم فليكن لكم خادماً فمن رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع » حاشية (اسمعوا يا رجال الدين المسيحي اسمعوا بحقي عليكم ما قال يسوع في الهيكل عن الكتبة والفريسيين وطبقوا ذلك على اعمالكم لئلا يوجد فيكم من تنطبق حالته على احوال هؤلاء)

ولم يكتف يسوع بتحذير تلاميذه بل عطف على الكتبة والفريسيين بالتوبيخ والملام فقال « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤن فانكم تغلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس فلا انتم تدخلون ولا تتركوا الداخلين يدخلون . الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤن فانكم تاكلون بيوت الارامل بعلة تطويل صلواتكم ومن اجل هذا ستنالكم دينونة اعظم . الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤن فانكم تطوفون البر والبحر لتربحوا دخيلاً واحداً فاذا ربحتموه جعلتموه ابن جهنم ضعف ما انتم عليه » وهكذا طفق يسوع يرميهم بالويل والثبور وياخذهم بعظائم الامور (اسمعوا يا رجال الاكليرس ويا رسالات التبشير اسمعي)

ثم انعكف المعلم الالهي على اورشليم فدعاها قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين وانحى عليها بالملام وتنبأ لها بالخراب بحيث لا يبقى فيها حجر على حجر واذ انتهى من خطابه تحول عن الرواق الذي كان قائماً فيه وجاء ساحة الامم وجلس امام الخزانة التي تلقى فيها تقدمات اليهود للهيكل وجلس هناك على مقعد يحف به تلاميذه وجعل ينظر الى الزوار

كيف يلقون النحاس في الخزانة وبينما هو ينظر والناس على اختلاف مراتبهم وثرواتهم يتقدمون ويلقون عن كرم ما تسمح به انفسهم واذ بارملة تدل ظواهرها على انها فقيرة تقدمت من الخزانة والقت فلسين قيمتهما ربع الآس (الآس عملة رومانية نحاسية تساوي اثني عشر بارة او مليمين ونصف المليم) فسرّ يسوع من هذه التقدمة على حقارتها وحسن في عينيه صنيع هذه الارملة وكرم نفسها والتفت الى تلاميذه وقال لهم « الحق اقول لكم ان هذه الارملة الفقيرة قد القت اكثر من كل الذين القوا في الخزانة لان الجميع القوا من فضلات ما عندهم اما هذه فمن عوزها القت كل مالها وكل ما في يدها »

حاشية (فيا ايها الارثوذكسيون السوريون النازلون في القاهرة اجتمعتم يوم الاحد الفارط ٢ افريل سنة ١٩٠٥ لاقامة كنيسة لكم تقيمون بها شعائر دينكم وتكون واسطة تعارفكم فانظروا الى كلمات يسوع فانه قد سر من فلسي الارملة لانها دفعت للهيكل ما فوق احتمالها وانتم فيكم كثيرون يبخلون عن دفع مالا يؤثر على ثرواتكم فان كنتم مسيحيين حقيقة فعليكم ان تعملوا ما فيه مسرة السيد وتهبوا لتشييد بيعة لكم تعبدون فيها ربكم وتكون لكم مجتمعاً فيه تتعارفون وتأتلفون)

وفي مساء ذلك اليوم خرج يسوع من الهيكل يتبعه تلاميذه وهو ينوي الا يعود اليه وبينما كانوا خارجين اخذ التلاميذ يجيلون ابصارهم في الهيكل وما هنالك من فخامة البناء واحكام الصنعة فتذكروا للحال نبوة يسوع عنه اذ قال « هوذا بيتكم يترك لكم خراباً » واذ جاءت في

ضمائرهم هذه الفكرة تقدم احدهم من يسوع وقال « يا معلم انظر اي حجارة واي ابنية هذه » وقال آخر « انه مزين بالحجارة الحسنة »

فنظر اليهم يسوع وقال لهم (انظروا هذا كله الحق اقول لكم انه لا يترك ههنا حجر على حجر الا وينقض)

وخرجوا بعد ذلك خارج الهيكل وساروا في طريق جبل الزيتون فعلوه وجلسوا قبالة الهيكل وجعل يسوع ينظر اليه والى قصور المدينة وشارات الاسف بادية على وجهه بينما كان تلاميذه ينظرون الى هذا المقام المقدس وفخامته وكأني بهم يفكرون فيما سيحيق به من الخراب الذي أنبأهم به معلمهم

وبعد ان ساد السكوت عليهم مدة دنا بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس من يسوع وسالوه على انفراد عن زمن حدوث هذا الخراب ووقت مجيئه الثاني والعلامة الدالة عليه قائلين « قل لنا متى يكون هذا وما علامة مجيئك ومنتهى الدهر »

فقال يسوع « احذروا ان يضلكم احد لان كثيرين سيأتون باسمي قائلين انا المسيح والزمان قد اقترب ويضلون كثيرين فلا تتبعوهم وستسمعون بحروب وباخبار حروب وفتن انظروا ولا تقلقوا فانه لا بد ان يكون هذا كله اولاً ولكن لا يكون المنتهى اذ ذاك ستكون امة على امة ومملكة على مملكة وتكون اوبئة ومجاعات وزلازل شديدة في اماكن شتى وتكون من السماء مخاوف وعلامات عظيمة وهذا كله اول المخاض فانظروا لانفسكم فانهم قبل هذا كله يلقون ايديهم عليكم ويضطهدونكم

ويسلمونكم الى المحافل والسجون وتضربون في الجامع وتقادون الى الملوك والولاة لاجل اسمي فيؤول ذلك لكم شهادة فضعوا في قلوبكم الا تفكروا من قبل فيما تحتجون به فاني اعطيكم نعماً وحكمة لا يقدر جميع مناصبيكم على مقاومتها ولا مناقضتها لانكم لستم انتم المتكلمين لكن الروح القدس وسيسلم الاخ اخاه للموت والاب ابنه ويقوم الاولاد على والديهم ويقتلونهم وحينئذ يشك كثيرون ويمقت بعضهم بعضاً وستسلمون من الوالدين والاخوة والاقارب والاصدقاء ويقتلون منكم وتكونون مبغضين من الكل من اجل اسمي ولا يهلك من رؤوسكم شعرة ويقوم كثيرون من الانبياء الكذبة ولكثرة الاثم تبرد المحبة من الكثيرين ومن يصبر الى المنتهى يخلص وسيكرز بانجيل الملكوت هذا في المسكونة شهادة لكل الامم وحينئذ يأتي المنتهى »

« واذا رأيتم اورشليم قد احاطت بها الجنود فاعلموا حينئذ ان خرابها قد اقترب فمتى رأيتم رجاسة الخراب التي قيل عنها بدانيال النبي قائمة في المكان المقدس فحينئذ الذين في اليهودية فليهربوا الى الجبال والذين في داخلها فليخرجوا والذين في البلاد فلا يدخلوها والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ شيئاً من بيته والذي في الحقل فلا يرجع ليأخذ ثوبه لان هذه ايام انتقام لكي يتم كل ما كتب . الويل للحبالى والمرضعات في تلك الايام »

« صلوا لئلا يكون هربكم في شتاء أو في سبت لانه سيكون حينئذ ضيق شديد في الارض وسخط على هذا الشعب لم يكن مثله منذ ابتداء

العالم حتى الآن ولن يكون ويسقطون بحد السيف ويسبون الى جميع الامم . وتدوس الامم اورشليم الى ان تتم ازمنة الامم . ولولا ان الرب سيقصر الايام لما كان يخلص ذو جسد لكن لاجل المختارين ستقصر تلك الايام . حينئذ ان قال لكم احد ان المسيح ههنا او هناك فلا تصدقوا . فسيقوم مسحاء كذبة وانبياء كذبة ويعطون علامات عظيمة وعجائب لكي يضلوا المختارين ايضاً ان امكن . فاحذروا انتم فهذا قد تقدمت وقلت لكم كل شيء . فان قالوا لكم انه في البرية فلا تخرجوا وانه في المخادع فلا تصدقوا فمثل البرق الذي يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب كذلك يكون مجيء ابن البشر . فانه حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور »

« وعلى اثر ضيق تلك الايام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والكواكب تتساقط من السماء وقوات السماء تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن البشر في السماء وتنوح حينئذ جميع قبائل الارض حيرة من عجيج البحر وجيشانه وتزهق الناس من الخوف وانتظار ما يأتي على المسكونة وحينئذ يشاهدون ابن البشر آتياً على سحابة بقوة وجلال عظيمين ويرسل ملائكته ببوق وصوت عظيم فيجمعون مختاريه من الرياح الاربع من اقاصي السماوات الى اقاصيها »

« واذا اخذ يقع هذا فانتصبوا واحنوا رؤوسكم لان فداءكم قريب ومن التينة تعلموا المثل فانها اذا لانت اغصانها واخرجت اوراقا علمتم ان الصيف قد دنا كذلك انتم اذا رايتم هذا كله فاعلموا ان ملكوت الله على الابواب . الحق اقول لكم انه لا يزول هذا الجيل حتى يكون هذا

كله . السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول . فاما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها احد ولا ملائكة السماوات ولا الابن الا الآب وحده وكما كانت ايام نوح كذلك يكون مجيء ابن البشر . فانه كما كانوا قبل ايام الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون الى يوم دخل نوح التابوت ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وذهب بالجميع كذلك يكون مجيء ابن البشر . حينئذ يكون اثنان في حقل فيؤخذ الواحد ويترك الآخر . واثنتان تطحنان على رحى فتؤخذ الواحدة وتترك الاخرى »

«فاسهروا اذاً لانكم لا تدرون في اية ساعة يأتي الرب واعلموا هذا انه لو علم رب البيت في آية ساعة يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب فلذلك كونوا مستعدين لانه يأتي ابن البشر في ساعة لا تعلمونها »

« فاحترسوا لانفسكم ان لا تثقل على قلوبكم في الخلاعة والسكر والهموم المعاشية فيقبل عليكم بغتة ذلك اليوم لانه مثل الفخ يطبق على جميع المقيمين على وجه الارض كلها فاسهروا وصلوا في كل حين لكي تستحقوا ان تنجوا من جميع هذه المنتظر ان تكون وان تقفوا بين يدي ابن البشر »

« ومتى جاء ابن البشر في مجده وجميع الملائكة معه فحينئذ يجلس على عرش مجده وتجمع لديه كل الامم فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخرفان من الجداء ويقيم الخرفان عن يمينه والجداء عن يساره حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء

العالم ويقول ايضاً للذين عن يساره اذهبوا عني ياملاعين الى النار المعدة لابليس وملائكته فيذهب هؤلاء الى العذاب الابدي والصديقون الى الحياة الابدية »

ولما اتم يسوع هذا الكلام كله وهو على سفح ذلك الجبل قال لتلاميذه « تعلمون انه بعد يومين (الخميس) يكون الفصح وابن البشر يسلم ليصلب » قال هذا وتركهم وتوغل في الجبل واخذ يصلي تاركا تلاميذه بحيرة واندهاش

الفصل الثامن والستون

يهوذا الاسخريوطي

يذكر القاريء الكريم يهوذا الاسخريوطي وقد رأيناه مرة مع متى ماسكين بتلابيب يعقوب خادم ساره خارج مدينة اورشليم يطلبون منه الجزية ورأيناهما مرة اخرى مع يسوع يوم كان على مائدة سمعان الابرص ورأينا اعتراض يهوذا على مريم اخت لعاذر التي نضحت السيد بالطيب وكيف كان جواب يسوع

فيهوذا هذا كان رجلا شريرا طماعا كثير الجشع الى جمع المال من اي وجهة كانت وقد استوت عنده المحرمات والمحللات حتى انه كان معروفا بين قومه بالسرقة وتلوث الذمة واتيان الموبقات وهو مع ذلك

دني الاصل ساقط النسب كان يطمع بالتقدم والعلو ولا يرى وسيلة لنيل امانيه ورغائبه الامن وراء جمع المال مهما كانت السبل دنية

وبعد ان ارتكب في شبوبيته انواع الموبقات وخرج منها ملوث السمعة انضم الى متى العشار في تحصيل الجزيه من اليهود ومن البديهي ان هذه الحرفة كانت في نظر العموم من ادنى الحرف ومحرمة على المتدينين لان الاسرائيليين كانوا يعتقدون بتحريم دفع الجزية نفسها الى الرومانيين فما قولك بمن يجبيها لهم

وكان متى العشار يعمل هذا العمل نفسه الا انه لم يكن باخلاق فاسدة ومزايا ردية ولذلك اضطر الى اصطحاب يهوذا معه ليستعين به على مطالبة الناس بالقحة والفجور وهي الاوصاف اللازمة لمن يريد ان يتولى مثل هذا العمل بين قوم يحرمونه

واذ رأى هذان العشاران ان اليهود اخذوا يخرجون الى يوحنا في البرية لسماع كرازته ثم صاروا يتبعون يسوع انتهزا هذه الفرصة للتضييق على اليهود وجمع الاموال منهم واخذوا يتتبعونهم الى ضواحي المدينة كما رايناهما متمسكين بيعقوب على انهما اذ سمعا كلمات السيد وشاهدا معجزاته تركا صنعتهما الدنية وانضويا الى يسوع وما زالا حتى حسبا في جملة اصحابه الاثني عشر الذين ارسلهما للكرازة بالانجيل

اما متى فكان تلميذاً اميناً وقد آمن بالسيد من كل قلبه وثبت على حبه خلافاً ليهوذا الذي لم يدخل في خدمة السيد عن اعتقاد بصحة ما جاء به ولكنه اتخذ ذلك وسيلة الى الاثراء والتمجد لانه كان يعتقد

كل اليهود وقتئذ ان ماسيا سيأتي بشكل ملك ارضي عظيم الجاه واسع السلطان تخضع له القبائل والشعوب غير انه مع مرور الايام لم يرَ في مظاهر السيد واقواله ما يدل على ذلك لانه كان يعظ ويعلم بما يختص بملكوت السموات ويحارب الاغنياء ويهددهم بالعذابات الجهنمية ان لم يفتحوا ايديهم بسخاء لاطعام الجياع واكساء العراة واسعاف الفقراء وكانت امثال يسوع لمستقبل محبي المال مما ابعد يهوذا عنه وجعله غير راض عن اتباعه كيف لا وهو ماتبع يسوع الا للسيادة والغنى

والظاهر ان السيد له المجد كان عارفاً بنوايا يهوذا الفاسدة وافكاره الشريرة لذلك اوكل اليه حفظ الاموال التي كانت تعطى لتلاميذ يسوع واشار مرة الى قلة ايمانه يوم ساله اليهود عن تلاميذه وكيف يأكلون بغير ان يغسلوا ايديهم فقال « الروح هو الذي يحيي واما اللحم فلا يفيد شيئاً والكلام الذي كلمتكم به هو روح حياة لكن قوماً منكم لا يؤمنون واشار يوحنا الرسول الانجيلي عند روايته هذا الحديث عن يسوع الى انه كان عارفاً منذ الابتداء من الذين لا يؤمنون ومن الذي سيسلمه

والذي ازاد يهوذا كرهاً في يسوع توبيخه له عند سمعان الابرص ومن تلك الليلة تحولت افكاره بتاتاً عن متابعة خدمة الانجيل والعمل في كرم الرب واخذ يفكر في تركه مرضاة لاهوائه الشريرة التي كانت متغلبة عليه وهيهات ان يصلح العطار ما أفسد الدهر

وكان يهوذا في تلك الليلة ينظر الى رفقه نظر حب وغرام وقد رأينا انها كانت في جملة المتكئين وحكمت على هذا الرجل بانه لص لاعتراضه على

اخت لعاذر وطلبه قيمة الطيب ليدفع للمساكين ولما نزل مع معلمه الى اورشليم يوم الاحد اخذ يسأل عن رفقه ومازال حتى علم من يعقوب بحقيقة امرها ولكنه رأى من صعوبة الوصول اليها مالا يستخف به ويستهان بامره على ان من كان منطبعاً على الشر ومعتادا عليه لا يستصعب بلوغ امانيه من طريق الشر فبعد ان اعمل فكرته ورجع بنفسه الى ماضي ايامه اخذ يتبسم ابتسامة الفوز والانتصار وقال في نفسه ليس بالامر البعيد الوصول الى رفقه وقد سبق وسبينا راحيل من دار ابن هيرودس عنوة خدمة لشاوول ولا بد ان شاوول هذا يعينني على سرقة رفقه وواحدة بواحدة جزاء ولكن اين هو شاوول ياترى ؟

ويذكر القراء الكرام قصة راحيل وسبيها من دار ابن هيرودس الكبير وما كان من امرها غير ان شاوول من ذلك العهد لم نعثر له على اثر وقد كان له دور مهم في تهريب فتاة اسرائيل خدمة ليهوذا الغولونيتي ودور اهم في فاتحة هذه الرواية على ان الاسخريوطي لم تطل حيرته في الامر فانه بينما كان في صحن الهيكل في يوم الثلاثاء رأى رجلا يشبه بملامحه صاحبه شاوول وان يكن قد لاحت عليه لوائح الكبر فخالط الشيب شعر رأسه الفاحم وغارت عيناه بعض الغوران فدنا منه وهو مشكك في حقيقته وسلم عليه وقال أأنت شاوول صديقي القديم

فحدق شاوول بنظره الى مكلمه وبعد قليل جذبه الى طرف الهيكل في خلوة وقال الست يهوذا الاسخريوطي قال نعم قال فما فعل الله بك في كل هذه المدة فلم اسمع عنك خبراً قال بعد ان انفرطت حلقتنا وتشتت

شملنا تبت الى الله عن تلك الموبقات وانضممت الى متى العشار في جبي الخراج ثم طمعت في معالي الرتب فدخلت في خدمة الشاب الذي يدعى يسوع على رجاء ان يكون هو ماسيا المنتظر وان سيكون له ملك فخيم

قال والان ما رأيك فيه واني اسمع الناس يصدقونه ويعتقدون بانه هو نفس ماسيا ولذلك استقبلوه من يومين استقبال الملوك

قال الذي اراه انه رجل فقير حقير ولا يرمي الا لغرض واحد وهو حض الناس على التقوى وترغيبهم عن الدنيا بالآخرة ولذلك يضطهد الاغنياء ويحتقر المال ويكره كل مجد عالمي

قال اذاً صفقتك خاسره

قال نعم وياخيبة المسمى يا يهوذا

قال وعلى ماذا عولت ؟؟

قال بنفسي امر اريد ان تسعفني به ولكن قل لي اولاً ما كان من امرك في كل هذه المدة

قال لقد سئمت ملذات العالم بعد ان تركتني راحيل واخذوني سجينا فقضيت اعواماً في ظلمات السجون وانعكفت على حراثة الارض وزرعها في الجهات البعيدة عن اورشليم حتى نسيني الناس ونسيتهم انا ايضاً

قال وما جرى لراحيل ؟؟

قال في كل هذه المدة لم اسمع عنها خبراً

قال الاسخريوطي وهو يضحك اما انا فقد رأيتها مرأى العين

فحملق شاوول بعينيه وقال بلهفة اين لقيتها يا يهوذا ؟؟

قال بينما كان يسوع من منذ سنة تقريباً في اورشليم وفي هذا الهيكل ايضاً يعظ ويعلم قدم الكتبة والفريسيون اليه امرأة اخذت في زنى واقاموها في الوسط وقالوا يامعلم ان هذه المرأة تزني وقد اوصى موسى في الناموس ان ترجم مثل هذه فماذا تقول انت اما انا فاذ حدقت النظر فيها عرفتها في الحال انها هي هي نفس راحيل ربيتنا

فاضطرب شاوول وقال قل بحقي عليك ماذا فعلوا بها بعد ذلك ولماذا احضروها الى يسوع

قال انهم أحضروها ليجربوا يسوع حتى اذا قال لهم فلترجم شكوه الى الرومانيين لان الامر بالاعدام مهما كان شكله فهو من حقوق الرومانيين وان منع رجمها قاموا عليه يتهمونه بنقض ناموس سيدناموسى ومخالفته له

قال وبماذا اجابهم يسوع ؟؟

قال انه اكب يخط باصبعه على الارض وهم يرددون عليه السوال الى ان اكمل فكرته فانتصب وقال لهم « من كان منكم بلا خطية فليبدأ ويرجمها بحجر » ثم جلس واكب ثانية يخط باصبعه على الارض اما اولئك فلما سمعوا جوابه طفقوا يخرجون واحداً فواحداً وكان الشيوخ اول الخارجين وبقي يسوع وحده وراحيل منتصبة امامه وبعد ان خلا المكان انتصب يسوع ثانية وقال لراحيل « يا امرأة اين الذين يشكونك اما حكم عليك احد ؟؟ »

قالت راحيل « لا يارب »

فقال يسوع « ولا انا احكم عليك اذهبي ولا تعودي تخطئين »

قال شاوول اذا قد نجت راحيل من الهلاك ؟

قال نعم

قال واين هي الان

قال قد انعكفت على التقوى وانضمت الى ام يسوع وهي حتى الآن قائمة في خدمتها ولكن لم تزل عليها مسحة ذلك الجمال الباهر الذي يذهب بمجامع القلوب ويترك الزاهد في مقدمة المتهتكين

قال شاوول أليس من سبيل الى الاجتماع بها

قال ذلك ميسور ولكن ليس الآن

قال ومتى ؟؟

قال بعد ان تقوم لي بخدمة اريد ان تعينني على مضائها

قال اني لك كما تشتهي

قال اقسم لي بشريعة موسى انك تعضدني فيما أريد

فاكد شاوول وعده بمغلظ الايمان فقال له يهوذا اني لقد سئمت من معاشرة يسوع والعيش معه على الزهد واحتمال النصب وفضلا عن ذلك فانا عاشق ولهان ومغرم مبتلي بهوى الحسان

فضحك شاوول حتى كاد يستلقي على ظهره وقال ويل أمك هل انت عاشق وقد وخط الشيب عارضيك واصبحت في عداد الكهول

قال وهل يحرم العشق على من تجاوز الخمسين من عمره

قال نعم والا فما الذي تركت للشبان الا تعلم ان زمن التصابي قد فات

قال اذاً فلماذا تتلهف انت الى مرأى راحيل

قال انها ذكرى قديمة وهوى بعيد لا يزال له في صدري غصة

قال اما انا فهواي جديد وغرامي شديد والفتاة التي احببتها تسلب الالباب وتلعب بالعقول

قال من هي عشيقتك

قال رفقه ابنة صديقنا يهوذا

قال وهل ليهوذا اليوم صبية معروفة وكنت سمعت بعد نكبته ان امرأته سبيت مع اولادها وحسبتهم قد اصبحوا في عداد الاموات

قال ولكن اله اسرائيل قد جمع شمل تلك المرأة الحسناء باولادها وقص عليه كل ما عرفه من امرهم كما سمع ذلك من يعقوب يوم اخذيهم بمعرفة رفقه

قال عجباً وهل تطمع ان تخون صديقنا ورئيسنا في قبره بالاساءة الى ابنته

قال واي اساءة تعني

قال ان تهوى تلك الصبية الحسناء وانت كهل وفقير ولا يبعد انك تطلب مني ان اعضدك في سبيها

قال ولكنا بهذا نقدم خدمة لها ولصديقنا المرحوم نفسه

قال ومثل ماذا هذه الخدمة

قال ان نخلصها من ايدي الرومانيين

قال ويل امك يايهوذا فانها على ما قصصت عليَّ من امرها في نعم ويسار عند الرومانيين حتى ان انطونيوس قد تبنى اخاها وترك وطنه وقدم هذه البلاد للتفتيش على امها ولم ار في اليهودية من امتاز بفضيلة الوفاء كهذا الشريف

قال ولكن هناك امر آخر

قال وما هو ؟؟

قال عندهم رجل روماني يدعى روميليوس وهذا قد ترك دين آبائه ودخل في دين اسرائيل طمعاً في هذه الفتاة

قال وما يمنع ان تقترن به بعد هذا

قال فانه كبير السن وليس بابن جلدتها

قال لا اظنه اكبر مني ومنك

قال ولكنك نسيت اننا من شعب الله الخاص المختار واننا اولى واحق ببناتنا من هؤلاء الرومانيين الدخلاء وعدا هذا وذاك هل نسيت كراهة ابيها يهوذا الغولونيتي رحمه الله لهؤلاء الرومانيين فكيف نرضى ان تزف ابنته الى واحد منهم

قال والقصارى انك مصرّ على خطف الفتاة من حضن امها ومن بين اخويها لتتمتع بجمالها

قال نعم

قال ومن اين لنا ذلك وهي في حمى الشريف انطونيوس وفي كنف بيلاطس حاكم اليهودية

قال لقد افتكرت بالامر ملياً وتوصلت الى حل هذا الاشكال باهون سبب واقرب سبيل

قال وكيف ذلك؟؟

قال انك ترى ياشاوول ان عامة اليهود قد اصبحوا متعلقين بالشاب يسوع ومؤمنين به وهم يعتقدون انه ماسيا المنتظر وقد جاء ليمهد الطريق لشعبه ويجلس على كرسي داود جده الا ان الكتبة والفريسيين والكهنة يقاومون هذا الرجل وهم ناقمون عليه لان تعاليمه لا تنطبق على تعاليمهم ومباديه تخالف مباديهم وعلى ما سمعت انهم يضمرون له الشر وقد اعلنوا العداء له واقروا على قتله وارجح ان هذا الشاب يسوع بقوة معجزاته السحرية اذا علم بمؤامرتهم هذه يتفلت من ايديهم كما نرى في الهيكل حيث يستهزيء بهم ويحتقرهم وما منهم من يجسر ان يمد اليه يداً ولذلك خطر لي ان اذهب اليهم واتفق معهم على تسليم يسوع لايديهم ولا اشك ان اليهود سيثورون على اثر ذلك فتصبح الحالة فوضى فنغتنم الفرصة ونختطف الفتاة في الوقت الذي فيه يكون بيلاطس وجنده منشغلين بتسكين الاضطراب

قال انها واله اسرائيل لفكرة لم تخطر يوماً على قلب بعلزبول اركون الشياطين فقبحاً لك من شرير تسعى لتسلم سيدك للموت وامتك للهلاك لتفوز بفتاة سوف لا تحبك طبعاً ولا ترضاك حليلا او خليلا وهيهات ان تحب ناهدة مغتصباً لها اما انا فاعضدك في مشروعك على كره مني

اذا كنت تعدني بالحصول على راحيل وواحدة بواحدة جزاء

قال هذا ايسر امر تروم مني قضاءه فهيَّ بنا لنخابر الكهنة في امر تسليم يسوع اليهم

﴿ الفصل التاسع والستون ﴾

« المؤامرة على يسوع »

خرج يسوع في مساء يوم الثلاثا من الهيكل وهو يتنبأ بهدمه حجراً حجراً في الوقت الذي خرج فيه روساء الكهنة وشيوخ الشعب الى دار قيافا رئيس الاحبار ونار الغضب على يسوع تكاد تاكل صدورهم وكلهم يطلبون قتله لانه جعلهم محتقرين في نظر الشعب بعد تلك التوبيخات القاسية التي وجهها اليهم

وبعد ان استقر بهم المقام في دار قيافا اخذوا يشددون النكير على يسوع فقال قيافا اما حكمنا بقتله فلماذا لم تقتلوه وهو في وسط الهيكل

فجاوبه احد الحاضرين قائلاً واي يد كانت تجسر ان تمتد اليه والشعب بجملته ملتف من حوله ومحدق به ومؤمن على كلماته

قال اذاً ما الرأي عندكم

قال ان نعمل على مسكه فجأة وخفية عن الشعب ونسلمه الى الرومانيين وبهذا نامن غوائل الثورة ولاسيما في مثل هذه الايام والمدينة غاصة بالالوف المولفة من الحجاج

وبعد هذا اخذ الحاضرون يتداولون بالكيفية التي يمكن ان يقبضوا فيها على يسوع خلسة فلم يتفقوا على رأي سديد وعند منتصف الليل ارفض مجتمعهم على ان يجتمعوا في الغداة في المحفل الخصوصي في الهيكل الذي كانوا يسمونه « ردهة الحجارة المنحوتة »

وفي صباح يوم الاربعاء الثالث عشر من شهر نيسان عاد روساء الكهنة وشيوخ الشعب الى الاجتماع ثانية واستأنفوا البحث في امر تسليم يسوع وكانت العقدة التي لا تحل هي ازدحام حجاج اليهود في تلك المدينة وكان خوفهم بالاكثر من الجليليين مواطني يسوع الذين كانوا يعرفون بالبسالة ولم يحضروا عيداً في اورشليم على عهد الرومانيين الا وتظاهروا بالثورة والعصيان

وبينما كانوا يعملون الفكرة في هذا الامر ومنهم من يرى ان يتركوا يسوع الى ما بعد عيد الفصح وآخرون يقولون اننا اذا لم نهلكه قبل العيد سوف يفرّ من ايدينا بعده واذا يهوذا الاسخريوطي داخل عليهم وهو مبتسم الثغر فاستقبلوه بوجوه مقطبة ونظروا اليه شذراً لانهم كانوا يعرفونه من اصحاب يسوع الاخصاء وتلاميذه الاثني عشر

اما يهوذا فسلم اذ دخل وقال لهم لقد اصبحت ناقماً على هذا الشاب الساحر الذي لم يترك في الامس مسبة الا وصمها بكم يامعاشر الكهنة والفريسيين وشيوخ الشعب ولا اظنكم ترتابون بصدق قولي اذا تعهدت لكم بالمساعدة على اهلاكه وقد علمت انكم حكمتم عليه من مدة بالقتل

قالوا ولكن لا نريد ان نقبض عليه والشعب متعلق به ملتف من حوله وفي اورشليم العدد العديد من اهل الجليل وهم على ما تعلم

مواطنوه ونصراؤه

قال ان الامر لا سهل مما تظنون فان يسوع كثيراً ما ينفرد في فلوات جبل الزيتون حيث يصلي هناك لوحده فاقدر ان اذهب بنفر منكم وعندما ادنو من خلوته اتقدم منه فاقبله وللحال تنقضون عليه وتمسكونه

قالوا حسناً انك بذلك تخدم شريعة موسى

قال وماذا تعطوني من المكافأة على ذلك

قالوا ثلاثين من الفضة (اي ثلاثين شاقل فضه والشاقل يساوي ثلاثة دراهم وثلثا والدرهم يعادل ٩٣ سنتيماً فتكون قيمة الثلاثين فضة مبلغ ٩٣ فرنكا وهو مبلغ كبير في ذلك العهد)

قال ولكن مثل هذا المبلغ الزهيد

قالوا على انك اذا قمت في هذه المهمة على ما نريد فلك عندنا مكافأة اخرى تربو على هذا القدر

قال حسناً وسآتيكم في الوقت المناسب للقبض على يسوع قال هذا وقبض ذلك الجعل اليسير ثمن سيده وخرج يطلب شاوول لينبئه بما تمّ عليه الاتفاق

الفصل السبعون

عيد الفصح

الفصح كلمة عبرانية معناها الاجتياز أو العبور وقد جعلت اسماً

لاكبر وأعظم الاعياد عند الاسرائيليين لحادث تاريخي لابدّ من سرده لانه مصدر فصح المسيحيين والاضحى عند المسلمين

فان فرعون ملك مصر لما أبى على الاسرائيليين الخروج من أرض مصر أرسل الله ملاكه فضرب كل أبكار المصريين حتى أبكار البهائم أيضاً وكان قبيل ذلك قد أوصى بني اسرائيل على يد موسى أن يذبحوا حملاً من الضأن أو الماعز ويأخذوا طاقة زوفى ويغمسوها في دمه ويلطخوا بها العتبة العليا وعضادتي الباب وكان ملاك الرب وهو سائر ليضرب الابكار يتجاوز عن كل باب عليه شارة الدم وقد أمرهم الرب بأن يكون هذا اليوم تذكاراً يعيدونه عيداً للرب مدى أجيالهم بأن يتخذ كل واحد منهم حملاً ذكراً صحيحاً حولياً من الضأن أو الماعز ويؤكل لحمه فيما فيه رأسه واكارعه وجوفه شواء على النار بفطير مع أعشاب مرة ولا يؤكل منه شيء نيء ولا منضج بماء ويحظر ان يبقى منه شيء الى اليوم التالي وان بقي يحرق بالنار ويجب على آكليه ان تكون احقاؤهم مشدودة ونعالهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم وان يأكلوه بعجلة لانه فصح للرب أي لانه رمز لاجتياز ملاك الرب لبيوت الاسرائيليين ومن رسوم هذا العيد ما هو واضح من أمر موسى اذ يقول « سبعة أيام تأكلون فطيراً في اليوم الاول تخلون منازلكم من الخمير فان كل من أكل خميراً من اليوم الاول الى اليوم السابع تنقرض تلك النفس من اسرائيل ... واحفظوا هذا اليوم مدى أجيالكم فريضة أبدية . في الشهر الاول في اليوم الرابع عشر منه بالعشي كلوا فطيراً الى

اليوم الحادي والعشرين من الشهر بالعشي .... واذا دخلتم الارض التي يعطيكم الرب كما قال فاحفظوا هذه العبادة . واذا قال لكم بنوكم ما هذه العبادة لكم فقولوا هذه ذبيحة فصح للرب الذي عبر عن بيوت بني اسرائيل بمصر اذ ضرب المصريين وخلص بيوتنا » . ومن رسوم اكل هذا الفصح أيضاً ان الضيف والاجير لا يأكلان منه . والعبد المشترى يختتن أولاً ثم يأكل منه . ويحظر عليهم ان يخرجوا من البيت شيئاً من لحمه أو يكسروا عظماً منه (راجع سفر الخروج)

وما زال اليهود يعيدون عيد الفصح على هذا الاسلوب الذي وضعه سيدنا موسى عليه السلام الى ان تغلب الكلدانيون على الاسرائيليين فأسروا العدد العديد منهم وساروا بهم الى بلادهم ولما عادوا منها ادخلوا على عيد الفصح بعض تغييرات جوهرية فصاروا يحتفلون به هكذا

يجتمع المدعوون الذين لا يجوز ان يتجاوز عددهم العشرين ولا يقل عن العشرة ويجلسون على متكآت ويأخذ رب البيت كأس خمر ممزوجة بماء يسير ويباركها قائلاً « فليكن مباركاً الرب الذي أبدع ثمر الكرمة » ثم يرشف منها قليلاً ويدار بها بعد ذلك على المتكئين وهذه الكأس تدعى كاس المرارة

وعلى الاثر يأتون بطست ملآن ماء مع منشفة فيدار به عليهم ليغسلوا أيديهم وهذا الغسل هو تذكار عبورهم البحر الاحمر ثم يؤتى بالمائدة الى الوسط وعليها الحمل الفصحي وعلى جوانبه الاعشاب المرة كالقرة والجرجير والبقدونس ويهيأ لحم حمل ضأن أو ماعز مشوي ويوضع

مع الحمل ويؤتى أيضاً بالخبز الفطير ومرق فاتر مصنوع من البلح واللوز والتين والخل والقرفة وغيرها من الافاويه وهو يسمونه (الشاروسات) ويوضع في صحفة طويلة قليلة العرض واذ ذاك يأخذ رب البيت شيئاً من تلك الاعشاب ويغمسها في الشاروسات ويأكلها شاكراً الله على ابداعه خيرات الارض فيتبعه الآخرون ويأكلون منها شيئاً زهيداً

وعقيب ذلك يملأ رب البيت كأساً ثانية يدعونها كاس الفرح وحينئذ يسأله أصغر الحاضرين عن سبب هذه العادة فيجيبه باختصار مبيناً ان الحمل تذكار لمرور الملاك المبيد امام بيوتهم في مصر ولم يؤذهم والفطير ذكر لخبز الشدة الذي اكلوه فطيراً حين هربهم من مصر والاعشاب المرة رمز الى مرارة العبودية التي كانوا فيها والشاروسات يمثل بلونه الاحمر وخثوره طين فيتوم ورعمسيس المدينتين اللتين بناهما بنو اسرائيل لفرعون وبشكل صحفته يرمزون الى الاحجار التي كانوا يصنعونها لبنائهما وبعد هذا الشرح الموجز يحرضهم على تأدية الشكر لله وللحال يشرعون في ترنيم جزء من مزامير داود وفي اثناء الترنيم يشربون الكاس الثانية ثم يغسلون ايديهم ايضاً وهذا الغسل الثاني هو تذكار لعبورهم نهر الاردن عند دخولهم ارض الموعد

وبعد اتمام كل ذلك يتناول رب البيت الفطير ويكسره اشارة الى انه خبز الضيق ثم يباركه ويوزعه عليهم فيأكل كل واحد كسرة بعد ان يغمسها مع شيء من الاعشاب في الشاروسات

ومن عادتهم ان رب البيت يأخذ حيناً بعد حين في اثناء تناولهم الطعام كسرة من الفطير فيغمسها في المرق المذكور ويناولها مرة لهذا واخرى لذاك من الآكلين وفي الاخر يأتي دور الخروف الفصحي فيقطع ويوزع على الجلوس بحيث لا يبقى منه شيء بتة ولا يقدم من بعده طعام آخر اصلاً

ثم تملأ كاس ثالثة تدعى كاس البركة وعند نهاية شربهم لها يرنمون قوله « لا لنا يارب لا لنا لكن لاسمك اعطي المجد » ثم يشربون كأساً رابعة هي خاتمة العشاء الفصحي

« الفصل الواحد والسبعون »

« العشاء السري »

وفي صبيحة يوم الخميس الرابع عشر من نيسان كان مبدأ ايام الفطير فاسرع التلاميذ الى السيد وسالوه قائلين اين تريد ان تاكل الفصح

فقال يسوع فليذهب بطرس ويوحنا وليعدا لنا الفصح لنا كل

فقال له التلميذان اين تريد ان نعدّ

قال يسوع اذا دخلتما المدينة يلقاكما رجل حامل جرة ماء فاتبعاه الى البيت الذي يدخله وقولا لرب البيت المعلم يقول لك ان زمانه قد اقترب فاين هو المخدع الذي ياكل فيه مع تلاميذه وهو يريكما غرفة

كبيرة مفروشة فاعدا لنا هناك طعام الفصح

فخرج بطرس ويوحنا في طريق المدينة فقال يوحنا ترى لماذا لم يصرح لنا السيد عن اسم الرجل الذي ارسلنا اليه

قال بطرس لعلّ له حكمة في ذلك لا نعرفها ويغلب على ظني انه اراد بهذه التعمية عدم اظهار المكان المعين امام جميع التلاميذ لعدم ثقته فيهم او لعلّ له عذراً آخر لا نعلمه

وما زال التلميذان سائرين حتى بلغا المدينة فلقيا الرجل الذي اشار اليه يسوع وهو يحمل جرته على عاتقه فتتبعاه الى ان توسط المدينة ودخل منزلاً فخماً عرفه بطرس لاول وهلة ومال نحو يوحنا وقال له اتذكر اسم صاحب هذا البيت

قال نعم وهو كثير الايمان بالسيد وافر الخضوع له ثم دخلا البيت واخبرا صاحبه بما قاله يسوع فاصطحبهما الى مخدع مفروش فرشاً ثميناً وقال اعدا به ما تريدان فاسرعا الى السوق حيث استحضرا ما يلزم للعشاء وعادا الى السيد يخبرانه بما عملا

وفي مساء ذلك اليوم انطلق يسوع بتلاميذه الاثني عشر الى ذلك البيت واذ دخلوا الغرفة امر السيد بان يغلق الباب بحيث لا يدخل عليهم احد وجلس في المتكأ الاول الذي يجلس فيه بحسب العادة رب البيت

وبينما التلاميذ يهمون في الجلوس من عن يمين وعن يسار السيد اختلفوا في ايهم يحسب الاكبر وله حق التقدم واذ راى يسوع ذلك ساءه حبهم للفخفخة العالمية مع انه سبق وحذرهم من حب المجد وقال

لهم « ان ملوك الارض يسودونهم والمتسلطين عليهم يدعون محسنين واما انتم فلستم كذلك ولكن فليكن الاكبر فيكم كالاصغر والذي يتقدم كالذي يخدم . وانتم الذين ثبتم معي في تجاربي فانا اعدّ لكم الملكوت كما اعده لي ابي لتاكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر »

واذ سمع التلاميذ هذه الكلمات الدرية علت حمرة الخجل على وجوههم فجلسوا من حوله كما اتفق فسرّ يسوع وتهلل من خضوع التلاميذ لاوامره وقال « لقد اشتهيت شهوة ان آكل هذا الفصح معكم قبل ان اتالم فاني اقول لكم اني لا آكله بعد حتى يتم في ملكوت الله » ثم تناول كاساً وشكر وبعد ان شرب قليلاً منها اعطاها لهم قائلا «خذوا فاقتسموا بينكم فاني اقول لكم اني لا اشرب من عصير الكرمه حتى ياتي ملكوت الله »

وبعد ان شرب التلاميذ ما في الكاس غسل يسوع ورسله ايديهم ثم قدمت المائدة الى الوسط فبارك السيد الاعشاب المرّة وتناول منها شيئاً فغمسه في الشاروسات وحذا رسله حذوه وحنئذ وضع الحمل الفصحي على المائدة بازاء يسوع فطفق يشرح لهم سبب العيد وما تشير اليه تلك الاطعمة والترتيبات ولما انتهى من كلامه ابتدأوا يرنمون الجزء الاول من الهلال المولف من المزمورين ١١٢ و ١١٣ وبعد ذلك شربوا الكاس الثانية . ثم تناول يسوع بعض ارغفة الفطير وكسرها واكل منها كسرة بعد ان غمسها مع شيء من الاعشاب المرة في الشاروسات

ووزع البقية على التلاميذ ففعلوا فعله . وحينئذٍ بارك الحمل الفصحي اتماماً لرسوم الفصح الناموسي

ثم قام عن العشاء وخلع ثيابه واخذ منديلا واتزر به ثم صبّ ماء في مطهرة ليغسل ارجل التلاميذ فدنا من سمعان بطرس وسجد على قدميه وهمّ ان يتناولهما للغسل فتولى الخجل بطرس وقال له بلهجة المندهش من هذا الاتضاع الغريب أأنت يارب تغسل رجليّ ؟؟

فاجابه يسوع ان الذي اصنعه انا لا تعرفه انت الان ولكنك ستعرفه فيما بعد

قال بطرس كلا ياسيدي « لن تغسل رجليّ ابداً »

فقال يسوع وقد راى شدة تابيه « ان لم اغسلك فليس لك نصيب معي »

واذ سمع بطرس تهديد سيده انخلع قلبه وطارت نفسه شعاعاً لفقدانه نعمة الانتماء الى يسوع واراد ان يخفف من اتضاع سيده له فقال له « يارب لا تغسل رجليّ فقط بل يديّ وراسي ايضاً »

فقال يسوع « ان الذي قد اغتسل لا يحتاج الا الى غسل الارجل لانه كله نقي » واني لعالم انكم كلكم قد اغتسلتم قبل المجيء لهذه الغرفة حسب العوائد المتبعة عند الجميع فلا بد من غسل ارجلكم لازالة ما علق بها من غبار الطريق « وانتم انقياء ولكن ليس جميعكم »

وأذ رأى بطرس ان لا بد من التسليم اطاعة لامر سيده مدّ رجليه فغسلهما يسوع ونشفهما بالمنديل الذي كان مؤتزراً به ثم قام الى غيره فغيره الى ان اتم غسل ارجل التلاميذ الاثني عشر ثم عاد فلبس

ثيابه وجلس في صدر المتكأ وكان عن يساره بطرس وعن يمينه يوحنا فقال لهم « اعلمتم ماصنعت بكم ؟؟. انتم تدعوني معلماً ورباً وحسناً تقولون لاني كذلك فاذا كنت انا الرب والمعلم قد غسلت ارجلكم فيجب عليكم انتم ان يغسل بعضكم ارجل بعض لاني اعطيتكم قدوة حتى انكم كما صنعت انا بكم تصنعون انتم ايضاً . الحق الحق اقول لكم ليس عبد اعظم من سيده ولا رسول اعظم من مرسله . فاذا عرفتم هذا فالطوبى لكم اذا عملتم به . ولا اقول هذا عن جميعكم فاني عارف بمن اخترت ولكن ليتم ما كتب ان الذي اكل الخبز معي هو رفع عليّ عقبه (المزامير ص ٤٠ع٩) اقول هذا لكم الان قبل ان يكون حتى اذا كنتم تومنون اني انا هو . الحق الحق اقول لكم ان الذي يقبل من ارسله يقبلني والذي يقبلني يقبل الذي ارسلني » ثم اضطرب يسوع بالروح وظهرت على وجهه النير شارات الانزعاج والتأثر وقال « الحق الحق اقول لكم ان واحداً منكم سيسلمني وهو يأكل معي »

واذ رأى التلاميذ اضطراب يسوع وسمعوا كلماته الاخيرة اخذ ينظر بعضهم الى بعض وهم متحيرون فيمن هو الذي سيسلمه منهم وظهرت على وجوههم شارات الحزن والامتعاض وجعل كل واحد منهم يقول « لعلي انا هو يارب»

وكان السيد على ما وصفنا من الاضطراب يجيل نظره بافراد تلاميذه ثم قال لهم مقاطعاً « واحد من الاثني عشر الذي يغمس يده معي في الصحفة. وابن البشر ماض كما هو مكتوب عنه ولكن الويل لذلك الرجل

الذي يسلم ابن البشر قد كان خيراً له لو لم يولد »

اما يهوذا فقد اضطرب غاية الاضطراب لافتضاح امره وفهم كل الذي اراده السيد بكلامه وكاد هذا التوبيخ الخفي اللطيف ان يؤثر على عواطفه فيرعوي عن عزمه السيء فمال نحو السيد وقال له « لعلي انا هو يا معلم »

فحدق يسوع ببصره الى هذا التلميذ الخائن ليقرأ ما يجول في خلده ثم اجابه بصوت منخفض « انت قلت »

وفي الوقت نفسه كان بطرس اشد التلاميذ اضطراباً واكثرهم رغبة في معرفة هذا الخائن فأومأ الى يوحنا فانعطف هذا من وراء السيد فقال له بطرس همساً سل السيد من الذي يشير اليه

فاستند يوحنا على صدر يسوع وقال له « ربّ من هو »

فاجاب يسوع بصوت ضعيف « هو الذي اغمس لقمة واناوله » وللحال « غمس يسوع لقمة وناولها ليهوذا بن سمعان الاسخريوطي » ثم قال له يسوع « ما انت صانعه فاصنعه عاجلا »

اما يهوذا فبعد ان ثبطت عزائمه توبيخات السيد أخذ يتردد في نيته السوءى وفعله الشنيع غير انه اذ رأى ان امره قد افتضح وتصور ما يحلم به من الوصول الى رفقه « دخل فيه الشيطان وخرج للوقت وكان ليل »

اما الرسل فكانوا الا يوحنا لا يفقهون من كل هذا الذي جرى معنى يرجعون اليه « فظن بعضهم اذ كان الكيس عند يهوذا ان يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد وظن آخرون انه امره ان يعطي المساكين شيئاً »

ولما خرج ذلك التلميذ الخائن من تلك الغرفة تسرى الغم عن يسوع

وظهرت امائر الارتياح على وجهه وقال « الان تمجد ابن البشر وتمجد الله فيه فان كان الله قد تمجد فيه فالله يمجده في ذاته وسريعاً يمجده »

« وفيما كانوا يأكلون اخذ يسوع خبزًا وبارك وكسر واعطى تلاميذه وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يبذل لاجلكم اصنعوا هذا لذكري » وبعد ان تم العشاء وضعت امامه الكاس الثالثة المدعوة كاس البركة التي يشربونها قبل الترنيمة الاخيرة فاخذها « وشكر واعطاهم وقال اشربوا من هذا كلكم لان هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يهراق عن كثيرين لمغفرة الخطايا اقول لكم اني من الآن لا اشرب من عصير الكرمة هذا الى ذلك اليوم الذي فيه اشربه معكم جديداً في ملكوت ابي »

وبعد ان تم العشاء الناموسي حسب العوائد المرعية عند اليهود وكان لنصف الليل شطر الساعة اراد ان ينتهز هذه المدة القليلة ليبث في تلاميذه نصحه الاخير ويسمعهم كلمته الاخيرة فقال :

« يا اولادي انا معكم زماناً قليلا وستطلبوني وكما قلت لليهود حيث اذهب انا لا تقدرون انتم ان تأتوا كذلك اقول لكم الان اني اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً وان يكون حبكم بعضكم لبعض كما احببتكم انا وبهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً »

اما بطرس وقد عرفناه كثير الحب لسيده لم يسعه الا ان قاطع سيده قائلا « الى اين تذهب يارب »

فاجابه يسوع « حيث اذهب انا لا تقدر ان تتبعني الآن لكنك ستتبعني بعد حين » ثم استتلى كلامه فقال « سمعان سمعان هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة لكني صليت من اجلك لئلا ينقص ايمانك وانت متى رجعت فثبت اخوتك » ثم التفت الى باقي التلاميذ وقال لهم « كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة لانه مكتوب اضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية (ذ كريا ص ١٣ ع ٧) ولكن متى قمت اسبقكم الى الجليل »

فقال بطرس « لماذا لا اقدر اتبعك الآن فلو شك فيك جميعهم لا اشك انا . انا مستعد ان امضي معك الى السجن . والى الموت اني ابذل نفسي عنك »

قال يسوع « انت تبذل نفسك عني الحق الحق اقول لك انه لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات »

فقال بطرس « لو الجئت ان اموت معك ما انكرتك » ولم يكد ينتهي بطرس من كلماته هذه التي بالغ فيها بالاعتماد على نفسه حتى اسرع التلاميذ الآخرون وقالوا مثلما قال

حينئذ مال يسوع اليهم بجملته وقال لهم « لما ارسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا حزاء هل اعوزكم شيء ؟ » فقالوا لا فقال لهم « اما الان فمن له كيس فليأخذه وكذلك من له مزود ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً فاني اقول لكم انه ينبغي ان يتم فيَّ ايضاً هذا المكتوب ان قد احصي مع الائمة لان ما يختص بي آخذ في التمام (اشعيا ص٥٣ ع ١٢)

فصاح التلاميذ قائلين يارب ان هنا سيفين

فقال يسوع يكفي ثم أجال نظره فيهم فرأى على وجوههم امائر الكرب والغم فاراد ان يعزيهم بكلمات قلاقل فقال :

« لاتضطرب قلوبكم انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ايضاً ان في بيت أبي منازل كثيرة والا لقلت لكم فاني منطلق لاعد لكم مكاناً ثم آتي وآخذكم اليَّ لتكونوا انتم حيث اكون انا انتم عارفون الى اين اذهب وتعرفون الطريق »

فقال له توما يارب لسنا نعرف الى اين تذهب وكيف نعرف الطريق

فأجابه يسوع « انا الطريق والحق والحياة لا يأتي أحد الى الآب الابي لو كنتم تعرفوني لعرفتم ابي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه

فاعترضه فيلبس قائلا ارنا الآب وكفانا

ـ فقال لهم يسوع انا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفوني يا فيلبس من رآني فقد رأى الآب فكيف تقول ارنا الاب الا تؤمن اني أنا في الآب وان الآب فيَّ الكلام الذي كلمكم به لا أتكلم به من عندي بل الآب الذي هو مقيم فيَّ هو يعمل الاعمال آمنوا انى أنا في الآب وان الآب فيَّ والا فآمنوا لاجل الاعمال عينها الحق الحق اقول لكم ان من يؤمن بي يعمل الاعمال التي انا أعملها ويعمل أعظم منها لاني ماض الى ابي فكل ما تسألون الآب باسمي فانا افعله ليتمجد الآب في الابن وان سألتم باسمي شيئاً فانا أفعله ليتمجد الآب في الابن . وان سألتم باسمي شيئاً

فاني افعله . ان كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي واني اسأل الاب فيعطيكم معزياً آخر ليقيم معكم الى الابد . روح الحق الذي العالم لا يستطيع ان يقبله لانه لم يره ولم يعرفه اما انتم فتعرفونه لانه مقيم عندكم ويكون فيكم لا ادعكم يتامى اني آتي اليكم . عن قليل لا يراني العالم اما انتم فترونني لاني حيّ وانتم ستحيون في ذلك اليوم تعلمون اني انا في ابي وانتم فيّ وانا فيكم . من كانت عنده وصاياي وحفظها فهو الذي يحبني والذي يحبني يحبه ابي وانا احبه واظهر له ذاتي »

واذ انتهى يسوع من هذه الكلمات اعترضه يهوذا المدعو لا بي وهو غير الاسخريوطي قائلا : يارب كيف انت مزمع ان تظهر لنا ذاتك ولا تظهرها للعالم

فقال يسوع « ان احبني احد يحفظ كلمتي وابي يحبه واليه نأتي وعنده نجعل مقامنا . من لا يحبني لا يحفظ كلامي . والكلمة التي تسمعونها هي ليست لي بل للآب الذي ارسلني . كلمتكم بهذا وانا مقيم عندكم واما المعزي روح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قلته لكم . السلام استودعكم سلامي اعطيكم . لست كما يعطي العالم اعطيكم انا . لا تضطرب قلوبكم ولا تجزع . قد سمعتم ما قلت لكم باني ذاهب ثم آتي اليكم فلو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون باني ماض الى الآب لان الآب هو أعظم مني . والآن قلت لكم قبل ان يكون حتى متى كان تؤمنون . لا اكلمكم ايضاً كلاماً كثيراً لان رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء لكن ليعلم العالم اني أحب الآب واني

كما اوصاني الآب هكذا افعل . قوموا فننطلق من ههنا »

قال يسوع هذا وكان الليل قد انتصف ولا يجوز السهر في ليلة الفصح الى ما بعد نصف الليل حسب سنة اليهود ولذلك قام للحال فقام تلاميذه ايضاً ومضوا على عادتهم الى جبل الزيتون غير ان يسوع اذ خرج من باب الدار رأى الزوار مزدحمين وهم بين ذاهب وآيب واذ رأى ان هذا الازدحام سيحول بينه وبين تلاميذه فلا يتسنى له اتمام حديثه معهم وفي نفسه اشياء لا بد ان يرويها لهم لانه كان عالماً ان في تلك الليلة سيتم القبض عليه وسيسلم للموت اختار الطريق الاقرب من جنوب المدينة وخرج من احدى ابوابها القريب من العلية واذ صار مع تلاميذه في الخلاء يكتنفهم الهدؤ والسكينة وقف باذاء الكروم الكثيرة التي كانت وقتئذ في وادي قدرون وكانت قد نقيت قبل قليل ووضعت الاغصان اليابسة في وسطها اكواماً معدة للحريق ولم يبق على الدوالي الا الاغصان النضرة التي برزت اوراقها من الاكمام فكان منظرها بهجاً في تلك الليلة القمراء فسر السيد من هذه المناظر الطبيعية ومال نحو تلاميذه وقال :

« انا الكرمة الحقيقية وابي الكرام . كل غصن فيّ لا يأتي بثمر فينزعه . وكل ما يأتي بثمر ينقيه ليأتي بثمر اكثر . انتم الآن انقياء من اجل الكلام الذي كلمتكم به اثبتوا فيّ وانا فيكم . كما ان الغصن لا يستطيع ان ياتي بثمر من عنده او يثبت في الكرمة كذلك انتم ايضاً ان لم تثبتوا فيّ . انا الكرمة وانتم الاغصان . من يثبت فيّ وانا فيه فهو يأتي بثمر كثير لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً . ان كان احد

لا يثبت فيّ يطرح خارجا كالغصن فيقطع ٠فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق ٠ ان انتم ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم بهذا يتمجد ابى ان تأتوا بثمر كثير وتكونوا لي تلاميذ٠ كما احبني الآب كذلك انا احببتكم اثبتوا في محبتي ٠ ان حفظتم وصاياي ثبتم في محبتي كما انى حفظت وصايا ابى وانا ثابت في محبته ٠ كلمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم ويتم فرحكم . هذه هي وصيتي ان يحب بعضكم بعضاً كما انا احببتكم ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يبذل نفسه عن احبائه ٠ انتم احبائي ان صنعتم ما انا موصيكم به ٠ لا اسميكم عبيداً بعد لان العبد لا يعلم ما يصنع سيده ولكني سميتكم احبائي لانى اعلمتكم بكل ما سمعت من ابى ليس انتم اخترتمونى بل انا اخترتكم واقمتكم لتنطلقوا وتأتوا باثمار وتدوم اثماركم لكي يعطيكم الاب كل ماتسألونه باسمي بهذا اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً ان كان العالم يبغضكم فاعلموا انه قد ابغضني قبلكم ٠لو كنتم في العالم لكان العالم يحب ما هو له ٠ لكن بما انكم لستم من العالم بل انا اخترتكم من العالم لاجل هذا يبغضكم العالم ٠اذكروا الكلام الذي قلته لكم ان ليس عبد أفضل من سيده انكانوا اضطهدوني فسيضطهدونكم وان كانوا حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم وانما هم سيفعلون بكم هذا كله من أجل اسمي لانهم لا يعرفون الذي ارسلني لو لم آتي واكلمهم لم تكن لهم خطيئة وأما الان فليس لهم حجة في خطيئتهم من يبغضني فانه يبغض أبي ايضاً ٠ لو لم اعمل بينهم اعمالا لم يعملها آخر لما كانت لهم خطيئة اما الان فقد راوني وابغضوني انا وابي ٠ لكن ذلك

هو لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم انهم ابغضوني بلا سبب . ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم من عند الاب روح الحق الذي من الاب ينبثق فهو يشهد لي . وانتم تشهدون لانكم معي منذ الابتداء . كلمتكم بهذا لكي لا تشكوا . انهم سيخرجونكم من المجامع . بل ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم انه يقرب لله قرباناً وانما يفعلون هذا بكم لانهم لم يعرفوا ابي ولم يعرفوني لكني كلمتهم بهذا حتى اذا جاءت الساعة تذكرون حينئذ ما قلت لكم . ولم اخبركم بهذا من قبل لاني كنت معكم واما الان فاني منطلق الى الذي ارسلني وليس أحد منكم يسألني الى اين تنطلق ولكن لاني كلمتكم بهذا ملأت الكآبة قلوبكم . الا اني اقول لكم الحق ان في انطلاقي خيراً لكم لاني ان لم انطلق لا يأتيكم المعزي ولكن اذا مضيت ارسلته اليكم . ومتى جاء يبكت العالم على الخطيئة وعلى البر وعلى الدينونة . اما على الخطيئة فلانهم لم يؤمنوا بي واما على البر لاني منطلق الى الآب ولا تروني بعد . واما على الدينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين وان عندي كثيراً اقوله لكم ولكنكم لا تطيقون حمله الان ولكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لانه لا يتكلم من عنده ولكن يتكلم بكل ما سمع ويخبركم بما يأتي هو يمجدكم لانه يأخذ مما لي ويخبركم جميع ما للاب فهو لي من اجل هذا قلت لكم انه يأخذ مما لي ويخبركم . عما قليل لا تروني لاني منطلق الى الاب»

واذا اتم السيد كلماته لتلاميذه كان قد بلغ بهم الجسر القائم في وادي قدرون لمرور الناس فوقف عنده ورفع عينيه الى السماء وطفق يصلي

وتلاميذه ينظرون اليه وهم مندهشون من كل هذا الذي قال لهم وبعدان انتهى من صلاته التي كانت لذاته ولتلاميذه ولمن آمن به مرّ على ذلك الجسر والتلاميذ يتبعوه وانتهى بعد قليل الى قرية تدعى الجسماني وكان في ذلك المكان بستان فيه اشجار الزيتون بكثرة وكان السيد كثيراً ما يختلف اليه للصلاة وكان يجتمع هناك مع تلاميذه كثيراً فلما بلغوا ذلك البستان دخلوه وللحال بدت على وجه السيد علائم الحزن والالم وللحال التفت اليهم وقال «امكثوا ههنا حتى امضي واصلي هناك» وساربعد ان اصطحب ثلاثاً منهم وهم بطرس ويعقوب ويوحنا ابني زبدى وما زالوا سائرين حتى توسطوا البستان وبلغوا مكاناً فيه كانت اشجار الزيتون متقاربة متكاثفة وهناك وقف بهم في ظلال تلك الاشجار وطفق يرتاع ويكتئب وقال ان نفسي حزينة حتى الموت فامكثوا ههنا واسهروا معي ثم انفصل عنهم نحو رمية حجر وخرّ على ركبتيه وأخذ يصلي بحرارة مدة ساعة ثم أقبل نحو تلاميذه الثلاثة فوجدهم نياماً من الحزن فدنا من بطرس وقال له « ياسمعان هل انت نائم ا هكذا لم تقدروا ان تسهروا معي ساعة واحدة اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة اما الروح فمستعدواما الجسد فضعيف » قال هذا ولم ينتبه بطرس ولا رفيقاه فتركهم وعاد الى المكان الاول واستأنف الصلاة ثم رجع اليهم ثانية فوجدهم نياماً ايضاً لان اعينهم كانت ثقيلة فلم يدروا بماذا يجيبونه فلم يعاتبهم ابداً وتركهم ومضى يصلي ثالثة وفي هذه المرة كانت قد اشتدت آلامه الى حد انه أخذ في النزاع

ولما رأى من نفسه ازدياد الكرب اطال الصلاة وصار عرقه يتصبب من مسام جسمه كمن افواه القرب وحينئذ تراءى له ملاك من السماء يشدده فقام من الصلاة وجاء الى تلاميذه وقال لهم « ناموا الآن واستريحوا »

الفصل الثاني والسبعون

القبض على يسوع

مر بنا ان يهوذا الاسخريوطي ترك السيد والتلاميذ على العشاء وانطلق غاضباً الى بيت قيافا فوجد هناك الكهنة والكتبة والشيوخ وجدهم ينتظرون وعده لهم بتسليم السيد فلما دخل قابلوه بالترحاب فقال من سيسير معي للقبض على يسوع؟

فقال قيافا اجلس لندبر لك ماتريد وللحال تشاوروا فيما بينهم وارسلوا بعض الكهنة والشيوخ الى بيلاطس يطلبون منه فرقة من الجند ليقبضوا على يسوع وامروهم ان يهددوا بيلاطس بالشكوى لقيصر ان لم يجبهم الى طلبهم لان وجود يسوع في العيد مما يؤدي الى ثورة عامة تهراق فيها الدماء باورشليم

اما بيلاطس فكان اذ وصل هؤلاء اليه نائماً في سريره فطلبوا ان ينبهوه فانتبه وبعد ان وعى كل ما يطلبونه سألهم ان يتركوا كل شيء للغد فابوا عليه ذلك وما زالوا به حتى اقنعوه بضرورة القبض على يسوع

في جنح الظلام خوفاً من ان يؤدي القبض عليه في رائعة النهار الى ما يخافونه من الثورة فاقتنع بيلاطس مرغماً وارسل فطلب كرميليوس لينيط به هذه المهمة وسرعان ما حضر هذا فقال له بيلاطس اذهب ياصاح الى حيث يدلك هؤلاء واقبض على يسوع واعتن به الى ان ننظر غداً في امره

فقال كرميليوس فليسمح لي مولاي بعدم طاعته ولو مرة في العمر فاني لا أريد ان اقبض بالقوة على هذا البار الذي شاهدت من معجزات اعماله ما جعلني ان اومن به

فتبسم بيلاطس وقال وانا ارسلك بهذه المهمة لعلمي انك لا تسيء الى هذا الصديق وفي الوقت نفسه تنفذ رغائب كهنة اسرائيل الذين يرون في بقاء يسوع حياً خطراً على الراحة العمومية

قال حسناً وسلم وخرج فتبعه رسل الكهنة فسار معهم ومعه شرذمة من الجند الى دار قيافا رئيس الكهنة وهناك قابلهم يهوذا الاسخريوطي وسار امامهم نحو جبل الزيتون وتبعهم عدد من الكهنة ورؤساء الشعب وكان القمر متلالئاً والطقس بارداً جداً

سار الجمع والجند مسلحون والقوم متابطون العصي كأنهم سائرون لمقابلة عصبة لصوص لا رجل صديق كان قبل قليل سائراً في تلك الطريق نفسها وهو يعظ تلاميذه ويوصيهم الوصايا الدرية وكان يهوذا يتقدمهم وهو غير وجل ولا خائف ولا ضمير له يبكته على تسليم من احسن اليه وجعله في عداد اخصائه الى يد الموت وكان الذين تبعوا الجنود من الكهنة

وأنصارهم يحملون العصي والنبابيت وهم في طول طريقهم يشتمون ويلعنون ذاك الذى شفى مرضاهم وفتح أعين عميهم وطهر برصهم وكان يهوذا في مقدمة السائرين وهو يعدو في طريقه عدواً ويتمثل ما سيكون في الغد من ثورة اليهود في المدينة وكيف انه سيغتنم هذه الفرصة فيخطف رفقه من خدرها ويتنعم بقربها فيدفعه هذا الوهم الى الاسراع بجريمته

وما زالوا سائرين حتى دنوا من البستان حيث كان يسوع قد عاد من عند تلاميذه بعد ما قال لهم ناموا واستريحوا فلما شعر بخطواتهم عن بعد عاد الى تلاميذه وأيقظهم وهو يقول « يكفي فقد اتت الساعة. هوذا ابن البشر يسلم الى ايدي الخطأة قوموا لننطلق فقد قرب الذي يسلمني » فهب التلاميذ الثلاثة من رقادهم وساروا مع السيد وتبعهم التلاميذ الآخرون ولما بلغوا باب البستان وجدوا يهوذا الاسخريوطي مع من معه مقبلين والمشاعل والمصابيح تضيء طريقهم فوقف يسوع بازائهم ومن ورائه تلاميذه الاحد عشر وقال لهم « من تطلبون »؟

اما الذين كانوا قد دنوا منه فلم يعرفوه فقالوا له بعنف نريد يسوع الناصري اما يهوذا وقد كان معهم فاذ رأى يسوع تولته البغتة وتلعثم لسانه فلم ينبس ببنت شفة

فاجابهم يسوع «انا هو»

فلما سمع القوم جواب السيد انزعروا وارتدوا الى الوراء وسقطوا على الارض رهباً

فتبسم يسوع وسألهم ثانية « من تطلبون »

فاجابوا بصوت ضعيف يسوع الناصري

فقال يسوع « قد قلت لكم اني انا هو فان كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون » واشار بيده الى تلاميذه

فنظر اولئك المتجمهرون الى يهوذا يطلبون منه اجراء العلامة التي يدلهم بها على معلمه وللوقت دنا من يسوع وقال له السلام يامعلم وقبله

فقال له يسوع « ياصاح لاي شيء جئت ا بقبلة يايهوذا تسلم ابن البشر »

ولم يكد السيد يلفظ كلماته هذه حتى هجم الجند مع الذين يتبعونهم والقوا ايديهم على يسوع وامسكوه »

وللحال تقدم التلامذة وصاح واحد منهم قائلاً يامعلم انضرب بالسيف واسرع بطرس وهو المعروف دون غيره من التلامذة بحدة الطبع والغيرة الشديدة على معلمه واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع اذنه اليمنى وكان اسم العبد ملكس

اما يسوع فبادر وقال « قفوا لا تزيدوا » ثم مد يده الى اذن العبد ولمسها فبرأت وحينئذ التفت الى بطرس وقال له « اردد سيفك الى غمده لان كل من يأخذ بالسيف بالسيف يؤخذ . الكاس التي اعطاني الاب الا اشربها ؟؟ . اتظن اني لا استطيع ان اسأل ابي فيقيم لي في الحال اكثر من اثنتي عشر جوقة من الملائكة . ولكن كيف تتم الكتب ؟ فان هذا ما ينبغي ان يكون »

فامتثل التلاميذ أمره ولم يعودوا يبدون حراكاً واذ ذاك التفت

يسوع فرأى ان قد اقترب منه جماعة من رؤساء الكهنة وولاة الهيكل والشيوخ الذين كانوا مع الجند فنظر اليهم نظرة التوبيخ وقال « كانما خرجتم الى لص بسيوف وعصي لتأخذوني اني كل يوم كنت عندكم في الهيكل اعلم ولم تمسكوني . ولكن هذه ساعتكم وهذا سلطان الظلمة وانما كان هذا كله لتتم كتب الانبياء »

اما التلاميذ فاذ رأوا يسوع يمنعهم عن الوقوف في وجوه القابضين عليه واعلن لهؤلاء انه لا يطلب مدداً من السماء ارفضوا من حوله كما تفرق الخرفان اذا ضرب الراعي وانسابوا في مفاوز تلك البيداء يلتمسون النجاة وهكذا تركه تلاميذه كلهم وهربوا واذ رآهم يسوع هاربين ذكر ما سبق وقاله لهم وهو « ها انها تأتي ساعة وقد اتت تتفرقون فيها كل واحد منكم خاصته وتتركوني وحدي »

وللحال هجم اولئك القادمون للقبض عليه هجوم الضواري على الحمل الوديع واوثقوه وقادوه الى بيت رئيس الكهنة وكان يتبعه شاب عليه ازار على عريه فامسكوه فترك الازار وهرب منهم عرياناً؟

وهكذا قادوا يسوع وعادوا به من نفس الطريق التي كان جاء منها وجاؤا به الى حنان حمي قيافا الذي كان رئيس الكهنة في تلك السنة

الفصل الثالث والسبعون

يسوع في دار حنان

لا بد ان القاريء الكريم يتشوق الى معرفة الرجل الذي نسميه حنان لان يسوع ارسل اولاً اليه بعد القبض عليه فهذا الرجل كان حبرا اعظم لليهودية مدة سنين عديدة وكان داهية اليهود ذكاء ووجيه الامة بالاجماع وكان كل اسرائيلي ينظر اليه نظر الاحترام والاجلال وكانوا يعتبرونه رئيس الكهنة الحقيقي لانه عزل عن الحبرية العظمى بامر والاريوس غراتوس الذي تولى اليهودية قبل بيلاطس ولهذا كان الاسرائيليون يحفظون له المقام الاول

وكان مجمع السنهدريم اي المجمع الاعلى الذي يدير شؤون اليهودية قد اقرّ على ارسال يسوع اولا الى هذا الرجل المحترم من سواد اليهودية استجلاباً لرضاه ثم لتسكين كل حركة كانوا يتوقعون حدوثها بقوة نفوذ هذا الشيخ الجليل واذ عرضوا عليه ذلك رضي به واحيا تلك الليلة ساهرا في بيته وهو يتوقع مجيء يسوع مكبلاً وقتاً بعد آخر

وما مضى الهزيع الثالث من الليل حتى سمع حنان ضجيج القوم القادمين بيسوع فنهض لساعته ودخل الصالة الكبرى التي كان يستقبل بها ضيوفه وتصدرها واذ ذاك قرع الباب ودخل الجنود مع الرؤساء والشعب وكان يسوع بينهم مكبلاً بالقيود دخلوا به تلك الدار وهم يضجون ضجيج الانتصار ولما وصلوا الى الصاعة نادى حنان يسوع بعنف قائلاً تقدم لهنا ايها الاثيم

فتقدم يسوع وهو يرسف بقيوده ولم يجاوب

فقال حنان ماهو تعليمك وبماذا تدعي ومن هؤلاء الذين تسميهم تلاميذك

فاجاب يسوع بوداعة قائلا « انا كلمت العالم علانية وعلمت في كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث تجتمع كل اليهود ولم اتكلم شيء خفية فلمَ تسألني انا سل الذين سمعوا ما كلمتهم به فانهم يعرفون كل ما قلته»

ولم يكد السيد يتم كلماته هذه حتى بادر واحد من الخدام كان واقفاً ولطمه على خده وقال اهكذا تجاوب رئيس الكهنة

فنظر يسوع الى هذا الخادم بطول اناة وقال له برفق « ان كنت تكلمت بسوء فاشهد عليّ بالسوء او بخير فلماذا تضربني ؟؟»

اما حنان فاذ رأى من يسوع هذه الجوابات المسددة وان اطالة الجدال معه مما يفضي الى الاعتداء على هذا الرجل في بيته مما لم يكن ليرضاه لانه يحط من مقامه وربما يؤثر على سمعته لدي الرومانيين الذين كانوا يكرهونه وينتظرون كل فرصة للايقاع به واذ تدبر ذلك كله رأى الانسب ان يتخلص من كل تبعة فارسل يسوع موثقاً الى صهره قيافا رئيس الكهنة ليقضي عليه في محكمة المحفل الاكبر (السنهدريم) وكان يعلم انهم مجتمعون وينتظرون وصول يسوع للحكم عليه

وبينما كان يسوع بحضرة حنان على ما تقدم كان بطرس ويوحنا تلميذا يسوع يتبعانه خلافاً لباقي التلاميذ ولما وصلوا بيسوع الى دار حنان دخل يوحنا معه لانه كان معروفاً من رئيس الكهنة خلاف بطرس الذي كان غير معروف منهم فانه بقي واقفاً عند الباب ولما رأى يوحنا وهو

في الدار ان بطرس ظل خارجاً عاد الى جهة الباب وكلم البوابة وادخل بطرس

اما البوابة فلم تلبث ان توسمته جيدا فعرفته وقالت له اما انت من تلاميذ هذا الرجل

فقال بطرس ما انا منهم وظل داخلا وكان يوحنا قد سبقه الى ردهة الاستقبال فلم يجرأ ان يتبعه

وكان الخدام والعبيد قد اضرموا نارا في صحن الدار وجلسوا من حولها يصطلون لان تلك الليلة كانت باردة فتقدم بطرس ليصطلي وهو ينتظر العاقبة واذا بالبوابة نفسها مرت من هناك فرأته جالساً بين الخدم وعرفت من نور النار المستعرة من هو فتفرست فيه وقالت له انت كنت مع يسوع الجليلي

فانكر بطرس كلامها امام الجميع وقال لها لست ادري ما تقولين

فالتفتت البوابة الى الحاضرين وقالت لهم ان هذا ايضاً كان معه

فاعاد بطرس انكاره قائلاً يا امرأة اني لست اعرفه وترك القوم وخرج الى الدهليز وللحال صاح الديك للمرة الاولى

ثم خرج بطرس الى الباب فرأته جارية أخرى قد سمعت من البوابة بحقيقة امره فقالت للذين كانوا هناك انظروا ان هذا الرجل ايضاً كان مع يسوع الناصري

فانكر بطرس الامر ثانية وقال قسماً باله اسرائيل اني لا اعرف الرجل

ولم يكد يتم كلامه حتى مرت البوابة من هناك وسمعته يتبرأ من سيده فجعلت تقول للحاضرين ان هذا الرجل من تلاميذ الناصري

فانكر بطرس كل علاقة بيسوع وهو يقول لعل هذه المرأة تشبهني اما انا فلا علم لي بهذا الرجل

وللحال تقدم منه احد الحاضرين وقال له هل انت ايضاً منهم

فقال له بطرس يارجل انا لست منهم وعند ذلك عاد الى النار فراراً من الحاحهم في استنطاقه ولما استقر به المكان جعل يتحدث مع من كان بجانبه فتحقق هؤلاء من لهجة كلامه انه من الجليل فقالوا له بالحقيقة انك انت ايضاً منهم وهوذا لهجتك تنم عليك بانك جليلي

وقال واحد من عبيد رئيس الكهنة وهو نسيب العبد الذي قطع بطرس اذنه وكان يكثر من التحديق به اما رأيتك انا في البستان معه

فانكر بطرس ايضاً ولشدة خوفه جعل يلعن ويحلف انه لا يعرف هذا الرجل وللوقت صاح الديك ثانية

ولم يكد يصيح الديك حتى كان القوم خارجين بيسوع الى قيافا فمروا به اذ ذاك على مقربة من بطرس فالتفت الرب ونظر الى بطرس نظرة اثرت على هذا التلميذ الجاحد ونبهته الى سابق انذاره له فخرج الى خارج وبكى بكاءً مرا

الفصل الرابع والسبعون

يسوع في بيت قيافا

بينما كانت هذه الحوادث تجري كان اعضاء السنهدريم يتذاكرون فيما يجب ان يفعلوه لاهلاك يسوع مع الحيطة لكي لا يثور الشعب وكان

مجتمعهم في بيت قيافا نفسه لانهم رأوا بيت رئيس الكهنة هذا داعياً لستر مؤامرتهم عن الشعب مما لو التموا في مثل هذه الساعة من الليل في ردهة الحجارة المنحوتة في الهيكل ومع ان الرابي جمليل هو رئيس مجمع السنهدريم لم يروا ان يدعوه ليلتئذ الى الاجتماع لانه كان موصوفاً بالعدل والنزاهة وحرية الضمير وسبق ووبخهم على تحاملهم على يسوع في اجتماعاتهم السابقه وعدا هذا وذاك فانهم قد اختاروا دار رئيس الكهنة لمحاكمة يسوع لان الحكومة الرومانية كانت من قبل اربع سنوات حظرت على المحفل اليهودي الاكبر الحكم بالموت على احد جاعلة ذلك من اختصاصاتها

وقبل ان يصل يسوع ببرهة قليلة الى دار قيافا كان قد بلغه أمر قدومه لان دار حنان كانت بجوار داره فتصدر الجلسة وجلس اعضاء المحفل من عن يمينه وعن يساره بهيئة نصف دائرة وجلس عن اليمين كاتب الجلسة وامامه المحبرة والاقلام وورق البردى وكان هذا لتحرير ما يورد في المحاماة عنه وكان في اليسار كاتب آخر لتسطير الشكايات التي تتقدم عليه وبعد ان انتظم شمل المحفل دخل يسوع بين الجموع الذين كانوا يقودونه واوقفوه في الوسط وقفة المجرمين وكان يحيط به شرط المحفل وهم شاكو السلاح لان الرومانيين كانوا قد عادوا الى ثكنتهم بعد ان اوصلوا يسوع الى دار حنان

وكان اعضاء هذا المجمع اذ اعجزهم الحال من قبل على ايجاد ذنب يستذنبونه به من مثل التجديف ومخالفة وصية السبت مما كان يفحمهم يسوع باجوبته لهم في الهيكل عمدوا الى استحضار شهود زور تثبت عليه الجرائم

التي كانوا يريدون ان يلصقوها به ليتسنى لهم الحكم عليه بالموت

وبعد ان وقف يسوع في ذلك المجلس تلك الوقفة الهائلة طلب للحال رؤساء الكهنة وكل اعضاء المحفل الشهود فتقدم عدد منهم وكانوا يختلقون على يسوع الجرائم اختلاقاً الا ان شهاداتهم ما كانت تتفق بل بالعكس كانت بعدم انتظامها واختلاف الروايات باختلاف الراوين ما يوضح انها محض اختلاق ونفاق ثم وقف قوم بين يدي المجلس وقالوا انا سمعنا هذا الناصري يقول « اني انقض هذا الهيكل المصنوع بالايدي وفي ثلاثة ايام ابني هيكلاً آخر غير مصنوع بالايدي » غير ان هذه الشهادة مع بساطتها لم يتفق الشهود عليها فبعضهم روى النص كما ذكرناه والبعض الآخر روى ان يسوع قال انقضوا الهيكل وانا ابنيه في ثلاثة ايام وغيرهم قال غير ذلك وكان يسوع يسمع هذه الشهادات المزورة عليه وهو صامت لا ينبث ببنت شفة

اما اعضاء المحفل فانهم تمسكوا بهذه الجريمة وهي هدم الهيكل وقال احد الحاضرين يا اسياد تعلمون اننا نعظم شأن الهيكل ونتباهى به ولا نرضى ان نسمع كلمة تشير الى هدمه وخرابه وانتم تعلمون ان ارميا اذ تنبأ عنه قائلاً « فاني اجعل هذا البيت نظير شيلو » قبض عليه الكهنة والعلماء وكل الشعب وقالوا له لتموتن موتاً وقضوا عليه بالقتل

فقال آخر نعم ان هذه الاشارة لخراب بيت المقدس لموجبة الموت ولكنكم ترون ان الشهود لم يتفقوا برواياتهم

وحنئذ قام رئيس الكهنة في الوسط وسال يسوع قائلاً اما تجيب بشيء عما يشهد به هولاء عليك

فظل يسوع كما كان صامتا ولم يجب بشيء

فساء سكوته قيافا واراد ان يحمله على الكلام قائلاً : اقسم عليك بالله الحي ان تقول لنا هل انت المسيح ابن الله المبارك

فنظر اليه يسوع نظرة اخترقت سويداء فواده وقال « انا هو . وايضاً اقول لكم من الان ترون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله وآتياً على سحاب السماء »

ولم يكمل يسوع كلماته حتى شق رئيس الكهنة ثيابه وقال لقد جدف فما حاجتنا الى شهود . ها انكم قد سمعتم تجديفه فماذا ترون اما جاء في نص الناموس « ومن جدف على اسم الرب فليقتل قتلاً » (احبار ص ٢٤ ع ١٦)

فصاح الجميع قائلين انه مستوجب الموت فليمت

وللحال امر قيافا به فهجم عليه زمرة من خدام رئيس الكهنة واخذوا يهزوان به ويضربونه ويبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له تنبأ لنا ايها المسيح من الذي ضربك واشياء أخر كثيرة كانوا يقولونها له مجدفين وهم يلطمونه وعلى تلك الحال من القسوة ساقوه من المحفل الى غرفة في نفس الدار حيث حجروا عليه بها محتملاً آلام الاضطهاد مع آلام الجوع والبرد

كل ما تمّ ليسوع في الليل في بيتي حنان وقيافا يعد تمهيداً للمحاكمة

ولا يسمى محاكمه لان القوانين تقضي بان لا يجوز للسنهدريم ان يسمع دعوى ذات شان في الليل اي بين ذبيحة المساء وذبيحة الصباح

ولما كان النهار اجتمع شيوخ الشعب وروساء الكهنة والكتبة في نفس دار قيافا وطلبوا يسوع من سجنه ولما حضر بين السخرية والازدراء ابتدره قيافا ثانية بقوله له ان كنت انت المسيح فقل لنا

فقال يسوع « ان قلت لكم لا تؤمنون وان سالتكم لا تجيبوني ولا تطلقوني ولكن من الان يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله»

ولم يكد يتم كلماته حتى توجهت اليه انظار الجميع وقالوا له كلهم : اذاً انت ابن الله ???

فقال يسوع « اني انا هو »

فقالوا حنئذ ما حاجتنا الى شهادة الشهود انا قد سمعنا التجديف من فمه وعند ذلك قاموا اليه وشدوا وثاقه وسلموه الى عصابة سارت به الى بيلاطس اما روساء الكهنة والكهنة فانطلقوا راساً الى الهيكل لتقديم ذبيحة الصباح

﴿ الفصل الخامس والسبعون ﴾

« كلمة في الشريعة الاسرائيلية »

من المعلوم ان الشرائع سواء كانت الهية او بشرية توضع بما يناسب الزمان والمكان الذي وجدت فيه وبعبارة أفصح يعني واضعوا الشرائع بتطبيقها على ما يناسب الزمان والمكان

فان سيدنا موسى عليه السلام اذ اختاره الله وهو في مصر ربيب بيت فرعون لقيادة شعبه الخاص وجمع شتاته وتخليصه من مظالم المصريين وايراثه الارض التي تدر اللبن والعسل كان لا بد لتاليف ذلك الشعب المظلوم المتشتت الجاهل وحمله على ترك مواطنه من بث روح جديدة فيه ربما اليوم لا توافق روح المدنية الحاضرة

فان سيدنا موسى كان مضطراً في ذلك الوقت الحرج الى افهام الاسرائيليين انهم من طينة اشرف وانقى من طينة بقية الشعوب مع انه هو نفسه جعل للجنس البشري كله اباً واحداً هو آدم واماً واحدة هي حواء واقنعهم انهم هم وحدهم شعب الله المختار فلا يجوز لهم ان يخضعوا لسلطة اجنبي على الاطلاق بل يكون ملكهم او حاكمهم واحداً من اخوتهم واذ تقوى هذا الاعتقاد في نفوس الاسرائيليين شكلوا امة ذات عصبية قوية على ضعفهم او انهم اتخذوا من الضعف قوة فهربوا من مصر غير مكترثين ببطش فرعون وسلطانه وكانت عناية الله سبحانه تعضدهم وتساعدهم

واذ كانوا تربوا على الذل ونشاوا في الذل ابقاهم موسى اربعين

سنة في الصحراء بين مصر وفلسطين تائهين وهي المدة الكافية لتلاشي الجيل الذي لا يرجى منه الاستعداد للحرب والاقدام على المكاره يدلك على ذلك ما تقرأه في سفر الخروج من تقمقم الاسرائيليين على موسى كلما شعروا بجوع او بتعب مع انه هارب فيهم من ارض الذل والظلم

غير ان اولادهم اذ حلوا في محلهم كانوا قد تربوا على عزة النفس ونشاوا في مهد الحرية ورضعوا مع لبان امهاتهم تلك المبادي التي بثها موسى في عقولهم وهي ان الله سبحانه ينصرهم على اعدائهم وانهم هم الشعب المختار من الله وانهم ارقى واسمى من ان يشاكلوا اخوانهم في البشرية او يخضعوا للاجنبي وهكذا ساقهم الى فتح فلسطين وهي الارض التي اورثها الله لهم

وبما ان المغلوب مولع دائماً بعوائد الغالب كان الاسرائيليون مولعين بعوائد المصريين ويعتقدون ان مظاهرهم الدينية لها مساس في جوهر الدين ومن الصعب على مثل هذا الشعب الجاهل ان يفقه في ذلك الوقت ما يرمي اليه موسى من تحويل الافكار الى عبادة الاله الواحد عبادة منزهة عن هذه الاعراض التي عليها صبغة الوثنية واذ تاكد استحالة اقناع هذا الشعب ببسيط العبادة لانه راى قومه اذ تاخر في مخاطبة الله سبحانه وتعالى على الجبل بضع ايام انهم اخذوا حلي نساءهم وصاغوها عجلاً عبدوه اضطر ان يدخل على الدين الحقيقي تلك المظاهر الوثنية في ملابس الكهنة ومع ان الله في وصاياه العشر التي سلمها لموسى منعهم بتاتاً عن الصور والتماثيل لم ير بداً لارضاء شعبه من وضع الشاروبيم في قدس الاقداس بشكل مجسم

وكان الوثنيون يقدمون الذبائح لآلهتهم فلم يرَ موسى عليه السلام الا ادخال هذه العادة على الدين الاسرائيلي فامر بذبح الذبائح وجعل لها شاناً كبيراً في العبادة حتى كانت ذبائحهم تتقدم في كل صباح ومساء

كل هذا فعله موسى استجلاباً للشعب الى عبادة الاله الحقيقي وقوي به على حفظ هذه الامة بعصبية لا تقاوم وارتباط لا انفصام بعده

ونرى في تاريخ الاسرائيليين انهم حاربوا كثيرا وانتصروا كثيرا وغلبوا على امرهم كثيرا الا اننا رايناهم ايضاً في كل هذه الظروف التي تقلبوا بها متمسكين بعصبيتهم تمسكهم بدين آبائهم مبتعدين عن الاختلاط بالامم التي حكمتهم لانهم كانوا يعتقدون انفسهم انهم اشرف طينه واسمى منزلة وارفع شاناً منهم

ولما حكم على اليهودية انتيباتر وابنه هيرودس ولم يكونا يهوديين لاقيا من اليهود كل كراهية واحتقار وتعبا في سياسة هذه الامة كل التعب ولاقيا منها كل ما دلّ على انها ذات عصبية لا تقاوم

فاضطر هيرودس اخيراً الى الالتجاء للرومانيين لان الدولة الرومانية كانت وقتئذٍ هي الدولة السائدة على العالم المعروف ولو لم ينتم هيرودس الى الرومانيين لما طال عهد ملكه لان الرومانيين كان في استطاعتهم ان يعضدوا اليهود ويساعدوهم على اسقاط هيرودس عن عرشه الاعلى

ولما دخل الرومانيون بعد موت هيرودس اليهوديه وحكموها فعلاً كانوا يرون من المصاعب والفتن والثورات ما اتعبهم واضناهم بحيث لم تكن لتمر سنة بغير ثورة تهراق فيها الدماء كيف لا واليهود لا يمكن

بشكل من الاشكال ان يخضعوا لسلطان اجنبي عنهم غريب عن دينهم وكانت الحكومة الرومانية تقدر هذا الشعب حق قدره وتعامله بصورة مخصوصة وشكل مستثنى حتى كانت ولاية اليهودية ذات حكم ممتاز عن بقية الولايات الرومانية

ولقد مرَّ بنا ان طيباريوس قيصر اذ فوض ولاية اليهودية لبيلاطس اوصاه خصيصاً بالشعب الاسرائيلي ونبهه الى حراجة المركز وطلب منه ان يسوس الرعية باللين وكان بيلاطس من اكابر رجال العقول ودهاة السياسة تجاه اليهودية ولم يكتف فقط بسياستها باللين بل اخذ يدرس طبائع الاسرائيليين واعتقاداتهم بنفسه ليوفق بينهم وبين الرومانيين وكانت امرأته في الوقت نفسه ذات عقل راجح وذكاء غريب فاخذت هي على عاتقها امر التبحر بشريعة موسى ورأينا فيما مرَّ علاقتها الكبرى مع ليعاذر الذي اقامه يسوع من بين الاموات

ولما ظهر يوحنا في البرية يعظ ويعلم ثم تبعه ظهور المسيح كان بيلاطس في مقدمة المؤيدين لهما وكان يعمل سرًّا على منع كل اعتداء عنهما وكانت اكثر عنايته في يسوع لانه علم بفكره الثاقب ان ظهور يسوع سيقضي على الجامعة الاسرائيلية القضاء المبرم ويسقط السنهدريم من حالق مجده وقدر بعد ذلك الراحة للرومانيين في ارض اسرائيل

واذا علمنا ذلك كله اتضح لنا باجلى بيان ان بيلاطس ما كان يحب الفتك بيسوع بل بالعكس كان يميل الى تعضيده ونشر مباديه بين الاسرائيليين الا انه في الوقت نفسه ما كان باستطاعته تخليصه من ايدي

رؤساء الكهنة واحبار اليهودية لان كان لهم سلطان على النفوس مابعده من سلطان كتسلط الاكليرس المسيحي على الشعوب النصرانية في الاجيال المظلمة مما سيظهر لنا في الحلقات المقبلة ان شاء الله تعالى

وبعد ان جاء وفد المحفل الاعلى ليلاً وطلبوا منه القبض على يسوع ورای ان لا بد من التسليم مخافة الفتنة ارسل كرميليوس بفرقة من الجند للقبض على يسوع بعد ان اوصاه به خيراً الا انه احيا ما بقي من تلك الليلة مع امراته وهو يفكر بيسوع وان كان باستطاعته تخليصه من ايديهم

وكان لبيلاطس اعوان وارصاد من اليهود انفسهم ارسل ليلتئذ فاستدعى بعضهم اليه وبثهم عيوناً على المجمع ليخبروه بما يجري ويتم

وما انبثق الفجر حتى عادوا اليه واخبروه بكل ما تمّ وجرى في الليل فاخذ يستعد للدفاع عن يسوع بما في طاقته ساعة يسوقونه اليه

وبينما كان على هذه الحالة من الاضطراب في الافكار دخل عايه كرميليوس وهو يقول نعمت صباحاً يا مولاي . فنظر اليه بيلاطس نظرة كلها امل وقال له اهلاً وسهلاً فما وراؤك قال دسيسة يامولاي

فاضطرب بيلاطس بجملته وقال هل دسيسة عليّ ام على الرومانيين

قال لا هذا ولا ذاك ولكن الدسيسة على شقيقتي رفقه وكادت ان تتم لو لم ينتبه اليها روميلوس مربيها وخطيبها

قال حسناً وسنعود للبحث في امر هذه الدسيسة ولكن قل كيف كان يسوع لما قبضت عليه

قال كان هادئاً ساكناً يامولاي الا انه كان حزيناً ايضاً

قال وما جرى بعد ذلك

قال سرنا به الى دار حنان حتى اذا أوصلناه بسلام عدنا ونحن نسأل له الفرج بعد هذا الضيق

قال بيلاطس هيهات يا صاحبي هيهات فان الفريسة اذا تناولها الاسد وهو غاضب لابدَّ ان يبطش بها

الفصل السادس والسبعون

« محاكمة يسوع امام بيلاطس »

سار يسوع الى بيلاطس وهو يرسف بقيوده بين طغام من الناس كانوا يسمعونه في الطريق الكلام البذيء الشنيع حتى اذا وصلوا به دار الولاية دفعوه الى بيلاطس ولبثوا ازاء الباب في الطريق لئلا يتنجسوا فيمتنعوا عن اكل الفصح لانه قد حظر عليهم ان يدخلوا بيتاً فيه خمير

وكان دخول يسوع على بيلاطس في الوقت الذي كان يحادث فيه كرميليوس فاذ رآه بيلاطس أسرع فخرج خارجاً وقال ما هي شكواكم على هذا الرجل

فأجابه المتقدمون منهم لو لم يكن هذا الانسان مجرماً لما أتينا به اليك . فقال بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه بحسب ناموسكم قال هذا وهو يعلم ان ليس لليهود من سلطان بالحكم بالاعدام فيضطر

السنهدريم ليحكم عليه بالسجن الى أجل مسمى فيقوى بيلاطس على تخليصه من حبائلهم فيما بعد

فقالوا له لا يجوز أن نقتل أحداً وقد سلبت منا هذا الحق

قال بيلاطس وهل أتى هذا الرجل ما يستحق معه الموت

قالوا نعم فانه يفسد في الامة اذ يمنعها من تأدية الجزية لقيصر ويدعي انه هو المسيح الملك

فنظر بيلاطس الى يسوع فلم ير في مظاهر وجهه ما يحقق هذه التهم الموجهة اليه فضلاً عن ان جواسيسه كانوا يخبرونه بعكس ذلك فأراد ان يتحقق الامر بنفسه فدخل الى ردهة الاستقبال ودعا يسوع اليه فلما وقف بحضرته شعر كأن عظامه قد تيبست وشعره قد وقف في رأسه ويديه أصبحتا كالحديد ورجليه سمرتا على الرخام المفروشة به القاعة وكان في الوقت نفسه يحدق بهذا الرجل الداخل عليه فيندهش مما يرى فيه من الجمال والهيبة والوقار حتى رأى من نفسه ميلاً قسرياً الى احترامه وبعد ان سكن روعه قال له : يا يسوع اني مستبشر برؤياك ومنذ ثلاث سنين أراقبك وأعتني بأعمالك وتعاليمك فعلمت انك حرّ الضمير وانك ممتاز بالنزاهة والاستقامة ولا أدري ان كنت طالعت سقراط أو درست الحكمة على افلاطون أو تفقهت في مدارس الاسكندرية والذي عرفته بناءً على مارواه عنك الصادقون ان البساطة التامة المقرونة بالجلال ظاهرة في تعاليمك التي كنت تبثها بين الناس وعندي انه يليق بك ان تكون في الطبقة الاولى بين كل العلماء والحكماء والفلاسفة وانك ولا شك

تعلم جيداً ان استقامتك هيجت كثيرين ضدك ولا غرابة في ذلك فان سقراط قبلك قام الاشرار ضده وسقوه كاس السم لكن سقراط كان شيخاً أما أنت فانك لم تزل في مقتبل العمر وشرخ الشباب فأنا آسف ان ينالك أذى ولذلك ترى اني أميل كل الميل للدفاع عنك وبهذا أسألك بعض الاسئلة لاعرف كيف احتج ضد خصومك

فقال يسوع «أيها الحاكم الارضي ليس في امكانك ان توقف التيار المندفع أو ان تعارض شرائع القوة الالهية فالحق أقول لك ان دم البار سيسفك قبل ان تنضج الاثمار على الاشجار»

فقال بيلاطس اني لا أريد ان تموت لانك أعز عليّ من هؤلاء الفريسيين الكاذبين أواه من هؤلاء الاشقياء فانهم يعتبرون تنازل السلطنة الرومانية وطول اناتها ضعفاً ولا يدرون ان الذئب يتزيى أحياناً بشكل الحمل فتأكد اني أنا المحامي عنك وعندي ملجاؤك فالمحل الذي أنت فيه لا تدخله اليهود

فنظر يسوع الى محدثه نظرة الحب والوداعة واللطف ومعرفة الجميل وقال « اذا أتت الساعة المقررة عند الانبياء لا يكون لابن البشر ملجأ لا على الارض ولا تحت الثرى ومقر البار هناك في السماء وما ورد في الانبياء لا بد ان يتم ولكن الويل للذين لم يعرفوا يوم افتقادهم»

فقال بيلاطس أود ان تجيبني الآن هل أنت ملك

قال يسوع « انت تسألني ان كنت ملكاً بالمعنى الذي تفهمه ولكن لسان حالي يعطيك الجواب الوافي فاني لو كنت ملكاً ارضياً لما استطاع

اليهود ان يأتوا بي اليك مكبلاً بالقيود»

فقال بيلاطس اعتقد بانك محق ولكن اليهود ينسبون لك هذه الدعوى ولو اني أعرف عنك انك في مقدمة المطيعين قولاً وفعلاً لقيصر وحكومته فمن اين نجمت هذه الوشاية ؟؟؟

قال يسوع « توجد علاقات أدبية تفوق العالميات وتوجد اسرار لا يفهمها الا من انقاد لصوت العناية الالهية وعلى هذا اقول ان مملكتي ليست من هذا العالم »

قال بيلاطس اذن انت ملك

قال « انت قلت . ولكن ينبغي لك ان تفهم بان مملكتي روحية تطهر النفوس وتصلح الاخلاق وتقرب الناس الى الاب السموي ولقد كان واجباً على احبار اليهود وعلمائهم ان يفهموا ما اعلنه الله لهم بواسطة الانبياء بشأن هذه المملكة وملكها . والحق اقول لك اني لهذا قد أتيت الى العالم واني اشهد للحق »

اما بيلاطس فاذ سمع كلمات يسوع هذه شعر كأن سيفاً جاز في داخله وقال في نفسه ما هو الحق ومن يعرفه أو يريد ان يعرفه هل الحكام الذين ايديهم مملوءة من الرشوة والظلم وسيوفهم مخضبة بدماء الابرياء وهم الذين ينظرون الى مأمورياتهم كالى حقل يحصدون خيراته بدون ان يعتنوا بزرعه وحصده او الى كرم يجنون اثماره من غير ان يتعبوا في اصلاح تربته وتشذيب اغصانه وهل يعرف الحق اعيان الامة واغنياؤها الذين يدوسون حقوق شعبهم ويسلبون امواله جوراً واحتيالاً

أو الكهنة ورؤساء الكهنة وهم يموهون على البسطاء ليسودوا عليهم ويأكلوا اتعابهم كل هذا جال في فكر بيلاطس عند ما ذكر يسوع كلمة الحق ومال اليه بجملته وقال له ما هو الحق ومن ينادي به ومن يمتثل له الا ترى الوسط الذي نحن عائشون فيه وما فينا من يعرف الحق انظر رؤساء ملتك فانهم يضحون لغاياتهم العدل والاستقامة . فانت مصيب ايها الناصري بافكارك الا ان تعليمك يفوق مبلغ افهامنا فربما يفهمه عالم غير هذا العالم الذي نحن فيه قال هـذا وترك يسوع من غير ان ينتظر جوابه وخرج خارج الباب حيث كان الجمهور بانتظاره وقال لهم اني فحصت هذا الانسان طبقاً لواجباتي فلم اجد عليه علة واحدة فكفوا عن مناوأته ولا تطلبوا مالا تسمح به شرائع الدولة وأنتم تعلمون ان قيصر الرومانيين لا يرضى ان تسفك نقطة دم ظلماً وعدواناً

فصاحوا جميعاً قائلين : هذه خيانة . هذا افتراء علينا . ماذا تقول ايها الوالي هل المجرم عندك بريء . ان هـذا الرجل يفسد علينا ديننا ويغري جهلاءنا بالفتن ويدعي كذباً انه ملك قدير وانه مرسل من الله وانه ابن الله أيضاً

وبينما كان عامة الواقفين يصيحون بما تقدم كان الاعيان والفريسيون والكهنة يثيرون خواطر الشعب ويشجعونهم على مناهضة بيلاطس قائلين اكثروا من الضوضاء والحوا بطلب الاقتصاص من ذلك الاثيم وللحال ضج الجميع بصوت واحد قائلين اصلبه اصلبه بجلبة كادت تدكدك لهولها دار الولاية

اما بيلاطس فبغت من هذه المفاجأة واندهش لهذه الجراءة في وجهه فبعد ان صبر عليهم طويلاً وهم يصيحون ويضجون قال لهم والغيظ مالىء وجهه صيحوا جهدكم وقولوا مهما شئتم فان شرائع الدولة الرومانية عادلة حكيمة وبموجبها لا اجد على يسوع علة وبغير هذه الشرائع لايجوز لي ان احكم فان كنتم ترونه مذنباً حسب ناموسكم فحاكموه انتم والمسئولية تكون عليكم

وكان بيلاطس يخطب فيهم بما تقدم وهم يضجون وينادون بصوت واحد اصلبه اصلبه الا انه لما انتهى من كلامه تقدم منه واحد من الحاضرين وكان من اعضاء السنهدريم واشار الى رفاقه بالسكوت فسكتوا فقال اسمع لي ايها الوالي وع ما اقوله فاني اراك تدوس حقوق امتنا بدفاعك عن هذا الاثيم وهذا مما لا يجوز لك فانت تعلم ان لنا مجمعاً يتألف من اثنين وسبعين عضواً منتخبين من مشايخ واعيان الملة تحت رئاسة رئيس ديننا الاعظم وهذا المجمع يحكم في الامور الداخلية والدولة الرومانية تعرفه رسمياً وهو قد وجد هذا الانسان حسب ناموسنا مستوجب الموت ولا يخفاك ان هذا المجمع الذي نسميه السنهدريم هو ادرى منك في كل مايتعلق بالامور الدينية وبصوالح الملة فهل من باب الصواب ان تكذب هذا المحفل وتصدق انساناً يسحر سامعيه بسحر بيانه نحن نقول لك ان هذا الرجل يستوجب الموت وماعليك الا ان تنفذ حكم المجمع والا فنقيم عليك الحجة امام قيصر ونطلب منه حفظ كيان ديننا وتقرير حقوقنا المقدسة

فازداد غيظ بيلاطس من هذا الكلام واشتد حنقه فنظر شذراً الى محدثه وقال له صه ايها الفريسي واعرف قوة الكلام الذي تنطق به امامي فاني نائب قيصر الرومانيين في هذه الديار وليس بوسعي ان اسلم انساناً الى القتل بغير ان يخالف الشريعة الملكية اما انتم فلكم ان تحكموا كيفما تشاؤون وحسب اهوائكم ولكن ليس لكم ان تجبروني على تنفيذ احكامكم . نعم اني اراعي خواطركم ولكن ذلك الى حد معين لا يجب ان تتجاوزوه . فاسمع نصيحتي واقنع قومك ان يكفوا عن طلبهم هذا ولكي تتأكدوا اعتباري لكم واحترامي لحقوقكم الشرعية هوذا اصنع لكم ما يرضيكم ويحفظ كرامة محفلكم وذلك اني اسمح باعتبار هذا الرجل مذنباً امام شرائعكم ثم اطلقه اعتباراً لعيدكم القادم اما لكم عادة ان اطلق لكم مجرماً في عيد الفصح فهوذا انا اطلقه بصفة مجرم تثبيتاً لحكمكم

وما اكمل بيلاطس حديثه حتى انتهى اليه رسول من عند امرأته وهمس في أذنه قائلاً ان سيدتي تطلب منك ان تحذر من هؤلاء القوم واياك ان تسمح في اذية البار فانها تمرمرت كثيراً من اجله في الحلم

فاذ سمع بيلاطس كلمات الرسول ازداد تمسكاً برأيه واستأنف الحديث قائلاً هل يروق ذلك لقومك ايها الفريسي أجبني

فقال الفريسي هذا لا يمكن ان يكون، ولا بد من تسليم الرجل للموت

وتقدم رجل من الصادوقيين الى بيلاطس وقال لا تظن أيها الوالي ان هذا الانسان يرجع عن غيه مهما نبهت عليه ان يراعي صوالح امتنا وان

ابقيته حياً يزداد قحة وجراءة لانه اصبح رئيساً لحزب كبير في اليهودية ولا سيما في الجليل فالناصريون أرادوا مرة ان يرموه عن الجبل ولكنه نجا منهم بطريقة مستغربة وآخرون أرادوا ان يقيموه ملكاً عليهم ولكنه لم يرض بذلك لانه يرمي الى التملك على الدنيا باسرها واسأل أهل الجليل ان كنت لم تصدق ذلك وعلى هذا فلا بدّ من تعليقه على الصليب او اسمح لنا لنرجمه بالحجارة حسب شرائعنا .

وللحال أخذ الشعب يصيح اصلبه اصلبه

اما بيلاطس فقد رأى في كلمات هذا الصادوقي وجها لتطويل الامر فقال ما دامت أعماله مشهورة في الجليل وهو جليلي ايضا فالواجب ان يحاكم في الجليل وبما ان رئيس الربع موجود الآن في أورشليم فانا ارسله اليه في الحال وهو ينظر في امره لان من الواجب عليّ ان احافظ على اصول الشرائع وحقوق الحكام

فنادى الجموع قائلين لا نرضى بهذا ايضاً اصلبه اصلبه

فلم يكترث بيلاطس بصياحهم بل دخل الدار وكتب تحريراً الى هيرودس حاكم الجليل اوصاه فيه بيسوع وبعد قليل خرج يسوع وكرميليوس مع بعض الجنود محتاطين به وكان معهم كاتب بيلاطس يحمل الكتاب اكراماً لهيرودس وزيادة في التشديد في وجوب مراعاة يسوع فتبعه اليهود وهم يصرخون طول طريقهم فليصلب فليصلب وكان البعض يقولون لا تغرب شمس هذا اليوم الا ونراه معلقاً على الصليب

﴿ الفصل السابع والسبعون ﴾

﴿ الحلم ﴾

وما خرج يسوع من دار الولاية حتى شعر بيلاطس كأن حملاً ثقيلاً قد انزل عن عاتقه وللحال خف الى امراته فرآها مهمومة مغمومة ولم تكد تقع عيناها عليه حتى ابتدرته بلهفة قائلة ما فعلت بيسوع ؟؟

قال لقد تخلصت من هذا الشر بالتي هي احسن وارسلته الى هيرودس رئيس ربع الجليل ليحاكم هناك

فدقت بروكلا يداً بيد وقالت اخطات يابيلاطس فان هيرودس قليل العزيمة غليظ الكبد ولا يبعد ان يحكم بقتل يسوع اكراماً لليهود كما قتل يوحنا يوم حفلة مولده اكراماً لامراته وابنتها او نسيت كل هذا ؟؟؟

قال ولكني ارسلت له كتابا طلبت فيه ان يحافظ ما امكن على حياة هذا البار !!!

فتبسمت كلاوديا بروكلا تبسم الحزين الآسف وقالت هيهات يا سيدي ان ينجو يسوع من الموت

فاخذ بيلاطس يتلاطف بامراته ويطمنها على يسوع وقال لا تخافي فان ليس بامكان هيرودس ولا باستطاعة السنهدريم ان يهلكوا يسوع طالما انا لا اوافق على ذلك

قالت ولكنك انت ايضاً ستوافقهم لما اعلمه من ضعف عزيمتك امام اصرار الخصوم

قال وما الذي يحملك على الاهتمام بيسوع الى هذا الحد

قالت حب العدل اولا فان الرجل لا ذنب له ولاني رايت حلماً قد اثر على اعصابي كل التاثير

قال وهل لك ان تسمعيني هذا الحلم

قالت حباً وكرامة فقد رايت طائفة من الغربان كانت حائمة حول شجرة استظل بظلها انسان وان الشمس في الحال اظلمت وزوبعة هائلة كادت تقلع الشجرة من اصلها وصوت صارخ يقول لقد اريق دم زكي في وادي كدرون وتلوث وجه القيصر بالاوحال لان الحكام جاروا على الابرياء ولم ينصفوا رسولاً من السماء تكلم طفلاً في المهد وابكم العلماء صبياً واخضع لكلمته العناصر شاباً ومشى على الماء وطار في السحب وانحنت له الاشجار فانذعرت مما رايت وسمعت وانتبهت لنفسي فاذ انا في فراشي واليهود خارجاً يصيحون اصلبه اصلبه فانه مستوجب الموت

ثم عدت فنمت ثانية لان النعاس كان مالئاً جفنيَّ فرايت جموعاً محتشدة واقفة امام حاكم مهيب للدينونة ولقيتك بين الجمع يابيلاطس فطارت نفسي شعاعاً واخذت اندب وانوح فانتبهت واذا عيناي مغرورقتان بالدموع فبادرت بارسال خادمي اليك خوفاً من حدوث امر محزن مريع واني والالهة لا ازال مضطربة ولذلك اطلب منك بالحاح ان تستدرك الامور بحكمتك لئلا تحل عليك لعنة الشورى فتسقط تحت غضب

قيصر وتكون انت الشجرة التي لم تنفع المستظل بها والتي كادت الزوابع تقتلعها او تكون ذلك الحاكم الظالم الذي لم ينصف رسول السماء وتكون مشجوباً من ذلك الحاكم المهيب الذي يمثل جوبتير ابي الالهة

فاطرق بيلاطس الى الارض مفكراً في حلم امرأته العجيب بينما كانت هي تعيد وتكرر دليه جزعها من موت البار وظلا على ذلك مدة من الزمان استنفدت فيها بروكلا كل ما في وسعها لحفظ حياة يسوع وتخليصه من ايدي اعدائه وكان بيلاطس يبين لها ان ليس من مصلحته ولا من مصلحة الرومانيين انفسهم هلاك هذا الرجل غير ان تخليصه من ايدي اليهود يحتاج الى حكمة وحسن سياسة مخافة ان تثور ثائرتهم وتنتهي بمذبحة دموية تكون نتيجتها اغضاب قيصر عليه فيعزله من ولايته

وبينما كانا يتحدثان واذ سمعا ضجيجاً هائلاً وشغباً عظيماً واخذا يسمعان قولهم فليصلب فليمت وبعد قليل دخل عليهما مانيلوس كاتب يده وقال مولاي لقد سرنا بيسوع الى هيرودس وسلمناه امرك الكريم فبعد ان قرأه بادر للحال فكتب الجواب وهو هذا وامرنا باعادة يسوع اليك

فتقطبت اسارير وجه بيلاطس وتناول التحرير بيدين مرتجفتين وفتحه فاذا فيه

الى الشريف بيلاطس حاكم اليهودية من قبل قيصر الامبراطور العظيم من خادمه هيرودس رئيس ربع الجليل سلام واحترام

وبعد فقد تناولت الامر الكريم وطلبت يسوع وسألته عن مولده فاذا هو مولود في بيت لحم والدعوى اقيمت عليه في اورشليم عاصمة

اليهودية فرايت ان لا شأن لي في محاكمته ولهذا اعيده اليك لتنظر في امره ولا سيما فان اخصامه يقولون انه يدعو نفسه ملكا وهي تهمة سياسية يتعلق حلها بايدي الرومانيين كما لا يخفى عليك والسلام

فرمى بيلاطس بالرسالة الى الارض وقال لكاتبه قص عليّ ما كان من امر هيرودس ساعة وصلتم اليه

قال كان يا مولاي بين امراته هيروديا وابنتها وكان امامه الخمرة يشربها وهو يداعبهما فلما وصلنا الى داره دخلت عليه وحدي وبقي يسوع بين الجنود والشعب من ورائه هائج مائج يطلب موته مصلوباً فلما مثلت بين يديه واعطيته تحريرك فتحه وتلاه وقال اشكر بيلاطس الذي اراد اكرامي بارسال هذا الرجل اليّ

قال اذاً اعتبر ارسالي يسوع اليه كترضية له بعد ذلك الخلاف الكبير الذي كان بيني وبينه

قال ربما يكون ذلك

قال وما فعل بعد هذا

قال طلب يسوع اليه فادخلوه ولما وقف قال له هيرودس هل انت ملك اسرائيل ؟؟

قال يسوع « انت قلت » وكان قد دخل مع يسوع جمهور غفير من اليهود فاخذوا يطلبون موته ويصدّرون عليه دعاويهم كما كان حالهم في دار الولاية فاسكتهم هيرودس ثم مال الى يسوع ثانية وقال باستهزاء سمعت انك تصنع العجائب وتاتي المعجزات فاعمل لنا آية لنومن بك فلم

يجب هذا المستهزي ببنت شفة بل قابله بالاعراض وبعد ان كرَّر طلبه ليسلي امراته وابنتها قال له وما رايك في هذه التهم التي توجه اليك فازدرى يسوع به ولم يجاوبه ايضاً فاستشاط هيرودس غيظاً وغضباً وامر فنزعت عنه ثيابه والبسوه ثوبا ابيض براقاً شديد اللمعان من الثياب التي كان يلبسها ملوك اليهود استهزاءً به وضحكاً عليه ونهض فكتب جوابه الآنف الذكر وسلمه لي واعاد يسوع مع من معه اليك يامولاي

﴿ الفصل الثامن والسبعون ﴾

« الحكم على يسوع بالموت »

وبعد ان وعى بيلاطس كل ما كان خرج من ردهته وامراته تعيد عليه رجاءها طالبة حفظ حياة يسوع ولما بلغ الباب الخارجي رأى الجموع امامه قد تزايدت عما كانت عليه اذ كان كل من يمر بموكب يسوع ينضم اليه واضطرب لما رأى يسوع لابسا الثوب الملوكي الابيض وقال للجموع بصوت جهوري لقد البستم هذا الانسان الثوب الابيض فكان دليلاً على براءته واظن ان هيرودس نفسه لم يجد عليه علة

فثار الشعب واخذوا يتهددون بيلاطس بالتشكي عليه الى قيصر ويتهمونه بالخيانة وهم يقولون ان هيرودس انما رفع يده احتراماً لك يابيلاطس غير انه يوافق السنهدريم فيما حكم ويقرُّ على ان هذا الرجل يستوجب الموت فاخذ بيلاطس يستعطف روساء الكهنة والاعيان ويستنزل رضاهم

عن يسوع وقال لهم مكرراً كلامه اني اعتبره مجرماً احتراماً لمحفلكم ولكني لا اسلمه للموت بل اطلقه لاجل العيد بعد ان اجلده تأديباً له

فصاح الجميع قائلين اطلق لنا باراباس الذي حبسته منذ اشهر واصلب يسوع وغير هذا لا نرضى

فقال بيلاطس كمن انتبه الى امر كان قد سهي عنه وقال يا قوم انتم تعلمون ان باراباس من كبار الاشقياء وقد عاث في البلاد فساداً فسلب ونهب وقطع طريق السابلة ولم تبق من جريمة الا اجترمها حتى توجهت عليه الشكاوي من جميع اطراف اليهودية وطلب من السنهدريم نفسه مراراً اقتصاص اثره واهلاكه فمن تريدون ان اطلق لكم هل اطلق هذا الشرير باراباس ؟ ام اطلق يسوع الذي يقال له المسيح ؟

فاجاب الجميع اصلب يسوع واطلق لنا باراباس

فناداهم بيلاطس مرة ثانية وهو يريد ان يطلق يسوع ماذا تريدون ان اصنع بملك اليهود

فصرخوا قائلين اصلبه اصلبه

فقال بيلاطس ويكاد الغيظ يخنقه واي شرّ صنع هذا اني لم اجد عليه علة للموت فانا اؤدبه واطلقه

فصرخوا مكررين اصلبه اصلبه فليصلب فليصلب

فلما رأى بيلاطس انهم مصرون على اهلاك الرجل وان ليس بوسعه مخالفتهم لما رأى من استعدادهم للشر اخذ ماء وغسل يديه امام الجميع وقال اني بريء من دم هذا الصديق فانظروا انتم

فاجاب جميع الشعب قائلين دمه علينا وعلى اولادنا

ولما راى بيلاطس كل هذا اضطرب في داخله ولم يعد يعلم كيف يقوى على نجاة يسوع وتخليصه من اعدائه فامر بجلده وهو يظن ان اخصامه اذا راوه والسياط تنزل على جثمانه تخف حدتهم ويضعف شوقهم الى قتله وما كاد يصدر امره حتى بادر الجنود الرومانيون الذين كانوا يعاملون مذنبي اليهود بلا شفقة ولا رحمة ومسكوا يسوع وعروا القسم الاعلى من جسده وربطوه الى عمود قصير كان في صحن دار الولاية معد لتنفيذ مثل هذا القصاص واخذ الجلادون يغشونه بسياطهم حتى سال الدم وكان بيلاطس يتأثر من هذا الجلد وينظر الى اليهود وهو يتوقع كلمة من واحدهم يقول حسبنا هذا نخلّ سبيله غير انه خاب فأله فلم ير فيهم الا المسرور من هذا القصاص الهائل فامر حينئذ بالكف عن الجلد وللحال اخذ الجنود يسوع ونزعوا ثيابه والبسوه ثوباً قرمزياً وضفروا اكليلاً من الشوك وجعلوه على راسه وجعلوا في يمينه قصبة وهم يشيرون بالثوب القرمزي الى الارجوان الملكي وبالاكليل الشوكي الى التاج وبالقصبة الى الصولجان ثم جثوا على ركبهم امامه وطفقوا يسلمون عليه بقولهم « السلام عليك ياملك اليهود » وكان بعضهم يتقدم منه ويقول السلام عليك ياملك اليهود ويلطمه واخرون كانوا يبصقون عليه ويأخذون القصبة التى كانت في يمينه ويضربونه بها على قمة رأسه كانوا يعملون هذا بينما كان اليهود متجمعون على باب الولاية وبيلاطس في الداخل يضرب اخماساً لاسداس في امر يسوع وتخليصه ثم خطر له ان يخرج

يسوع لاخصامه لعلهم يشفقون عليه ويرحمونه فخرج يسوع وعليه اكليل الشوك وهو لابس الارجوان وماسك القصبة وقال لهم هوذا اخرجه اليكم لتعلموا اني لم اجد فيه علة هوذا الرجل الذي تريدون قتله انظروا اليه فهو مشوه بالجراح ملطخ بالدم والبصاق على وجهه انظروه جيداً فقد اصبح شاحب اللون خائر القوى عليه مسحة من الذل والهوان بما عليه من اكليل الشوك والرداء القرمزي الذين صار بهما اضحوكة للناظرين ومظهراً للمذلة والعار والاهانة

اما اليهود فلم يكادوا يرون يسوع على تلك الحالة التي تتفطر لها المرائر ويسمعون عبارة بيلاطس حتى صرخوا جميعاً قائلين . اصلبه . اصلبه . فاستشاط بيلاطس غيظاً وقال وهو يصر باسنانه خذوه انتم واصلبوه فاني لا اجد فيه علة

فاجابوه ان لنا ناموساً وبحسب ناموسنا هو مستوجب الموت لانه جعل نفسه ابن الله

فلما سمع بيلاطس هذا ازداد خوفا على يسوع وقال في نفسه ربما كان هذا الرجل ابنا لاحد الآلهة فينالني بسبب قتله شر جسيم اذ لابد ان تنتقم مني الآلهة حينئذ انتقاما هائلا ولما خطر له هذا الفكر دخل الي دار الولاية واستدعى يسوع وسرعان ماجاؤا به اليه فقال له من اين انت ؟؟ فلم يجاوبه يسوع فقال بيلاطس الا تكلمني الا تعلم ان لي سلطانا ان اطلقك ولي سلطانا ان اصلبك

فاجاب يسوع بطول اناة « ما كان لك عليّ من سلطان لو لم يعطك

الله من فوق من أجل هذا فالذي اسلمني اليك له خطيئة اعظم»

فاضطرب بيلاطس وصغر في عيني نفسه باذاء هـذا القاهر المقهور الماثل بين يديه كمجرم واحتار في امره ولم يعد يدري ماذا يصنع وللحال نادى من في دار الولاية من الموظفين وشاورهم في الامر فاختلفوا فيما بينهم فمن قائل ان لا دخل لنا نحن جماعة الرومانيين في ما يتعلق باليهود ودينهم ومن قال من الضروري مراعاة اليهود استدراكاً للفتنة ومنهم من أشار بتأجيل الدعوى الى ما بعد العيد ومنهم من كان يقول ان الرجل لبريء ومن العار علينا ان نظلم الابرياء انقياداً لاهواء رؤساء اليهودية واغتنم الفرصة كرميليوس قائد المئة وكان في كل هذه المدة مغتماً مما يحدث وغير قادر على الاعتراض وقال ان يسوع رجل جليل القدر عظيم الشأن محبوب من الشعب الذي استقبله كملك لما دخل أورشليم يوم الاحد الفارط على ظهر اتان وانه ماركب مثل هذا الحمار الا ليبرهن لنا انه ملك سلام لان الحمار يشير الى التعب والكد والجد ولو كان ملكاً محارباً لدخل المدينة على ظهر جواد من كرام الخيل لان الخيل تشير الى الغزو والحرب ولهذا فليس من مصلحتنا ان نحكم بالموت على انسان رايته راية السلام ولو قام رؤساء الكهنة واعيان الشعب ضده

فقال بيلاطس معترضاً ولكني أرى الشعب الذي كان بالامس يرحب بهذا الرجل قد انقلب عليه اليوم فاخرج خارجاً ترَ من عامة الشعب العدد العديد وكلهم يطلبون اعدام يسوع

قال كرميليوس ان انقلاب الشعب على يسوع لم يكن كبرهان قاطع على اقتناعهم بعدالة القصاص ولا أظن اجتماعهم هذا الا من قبيل الفرجة أو انهم مسوقون بغير مبدأ وبغير تعقل الى تنفيذ مآرب رؤسائهم وكثيراً ما كانت الشعوب العوبة في ايدي الافراد فيسفكون دماءهم بغير غرض وينفقون أموالهم بغير عوض

قال بيلاطس والآن ما الذي يمكن ان نعمله

قال كرميليوس ان تحجر على يسوع في دار الولاية وتؤجل محاكمته الى ما بعد العيد

وقال سكرتير الولاية بل يجب ان تلبي مطالب اليهود حيث لا يبعد ان يحدثوا ثورة تهراق فيها الدماء الذكية ويجعلوك سببها فينالك غضب قيصرنا العظيم ولا سيما فانت تعرف طيباريوس وانه كثير الشبهات ويميل دائماً الى تصديق الوشايات

وقال من حضر ذلك المجلس من رجال البطانة مثل هذا القول الا كرميليوس الذي رأى ان اصوات الحاضرين تغلبت على صوته فالتزم السكوت والسكون على رغمه

حينئذ خرج بيلاطس الى الجموع وقال لهم ماذا تريدون الآن ؟

قالوا نريد ان تصلب يسوع وان تطلق لنا باراباس

قال سبق وقلت لكم اني بريء من دم هذا الصديق

قالوا ان دمه علينا وعلى أولادنا

فضحك بيلاطس استهزاء وشر المصائب ما يضحك وقال لا اظن

ان ابناءكم سيكونون سعداء في هذا الميراث

قالوا هذا شغلنا ونحن بديننا ادرى

فلما سمع بيلاطس هذا الكلام امر بيسوع فجيء به اليه ثم جلس على كرسي القضاء وهي سدة الرئاسة التي كان يسميها الرومانيون ليتسروتس والعبرانيون جبعتا حيث كانت القوانين الرومانية تقضي بان لا يصدر حكم الموت الا عنها وبعد ان تربع على كرسيه صاح باليهود بعاطفة الاتهام والاستهزاء قائلا هوذا ملككم

فصرخ الحاضرون ارفعه . ارفعه . اصلبه . اصلبه

فقال لهم بيلاطس أأصلب ملككم فاجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك غير قيصر

حينئذ اشار بيلاطس الى سكرتير الولاية الذي كان يكتب صورة الحكم فوقف بالقوم وقرأ ما يأتي :

باسم طيباريوس أوغسطس قيصر امبراطور رومية العظيم والملك الاكبر الحاكم على كل الارض من المشارق الى المغارب

في جلسة اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس من السنة السابعة عشرة لحكم الامبراطور طيباريوس قيصر المالك سعيداً بحضور بيلاطس البنطي والي اليهودية وحاكما في منصة القضاء وبحضور رؤساء كهنة اليهود في مدينة اورشليم صدر الحكم الآتي في قضية السنهدريم وهو مجمع اليهود الاعلى ضد يسوع الناصري البالغ من العمر ٣٣ سنة والذي لا محل اقامة له بل هو متجول في براري اليهودية

حيث ان مجمع اليهود الاعلى قد نظر في امر يسوع الناصري وحكم عليه مبدئيا بالموت أولا لاغرائه جهال اليهود بنبذ شرائع آبائهم ليفسد عليهم دينهم وثانياً حضه اياهم على الثورة والهياج ضد السلطة الرومانية وثالثاً تظاهره بعداوة ناموس موسى رئيس اليهود الاعظم ومشترعهم الاسمى ورابعاً ادعاؤه بانه ابن الله وخامساً ادعاؤه بالكذب انه ملك اسرائيل وسادساً دخوله الهيكل كملك وامامه الناس يهللون وبايديهم سعف النخل ترحيباً به وبعد استجواب يسوع لم ينف ما نسب اليه وبعد سماع الشهود العديدين الذين كانوا يطلبون موته خوفاً من الثورة وبعد بذل الجهد في تعديل هذا الحكم واباء رؤساء اليهود ذلك وتحملهم كل تبعة تنجم عنه وبعد ان عرضنا على اليهود حسب عوائدنا ان نطلق مجرماً اكراماً لعيدهم الفصحي فطلبوا تكراراً وبالحاح ان يطلق لهم باراباس ويصلب يسوع وبما اننا مأمورون من لدن قيصر ان لا نعارض في كل ما له مساس بشرائع اليهود ودينهم

فلهذه الاسباب

حكمنا باعدام يسوع الناصري صلباً على جبل الجلجلة مع اللصين الذين سينفذ عليهما هذا الحكم ونامر كرميليوس قائد المئة بان يأتي بيسوع المذكور الي المحل المعد لاعدامه وان يحتاط بالقوة العسكرية لردع كل من يتقدم لنصرته وتخليصه

الفصل التاسع والسبعون

صلب يسوع

وبعد ان انتهى الكاتب من تلاوة هذا الحكم الصارم الغير منطبق على مبادي الشرائع العادلة هجمت الجموع على يسوع بضوضاء تصم الاذان فنزعوا عنه الارجوان والبسوه رداءه وابقوا على راسه اكليل الشوك وحملوه صليبه وبصعوبة كلية قدر كرميليوس قائد المئة مع الجنود الرومانيين ان يخلصوه من زمر اليهود الذين كانوا يستهزؤن به ويسخرون منه وكانوا قد احضروا من السجن اللصين المحكوم عليهما بالاعدام فاستاقوهما معه ايضاً ومشوا في شوارع اورشليم

اما يسوع فقد اثرت هذه العذابات عليه وانهكت قواه فلم يقو على المسير وهو حامل صليبه بل رزح تحته بعد قليل وسقط اولا وثانيا وفي سقوطه للمرة الثالثة تعذر انهاضه حنئذ تاثر له الجند وبينما هم ينظرون الى من يسخرونه بحمل الصليب واذا برجل شيخ آت من الحقل فنادوه وسخروه بحمل الصليب فلم يأب ذلك وكان هذا الرجل يدعى سمعان القيرواني ابو الاسكندر وروفس اللذين كانا معروفين من تلاميذ يسوع والمؤمنين به وكان يتبع يسوع جمهور كبير من الشعب والنساء اللواتي كنّ يلطمن وينحن عليه لما شاهدنه من تلك المعاملة السيئة والظلم الهائل

وبعد ان مشى يسوع اكثر الطريق طرق اذنيه نواح النساء فالتفت اليهنّ وقال « لاتبكين عليّ يابنات اورشليم بل ابكين على انفسكنّ وبنيكنّ فها انها تاتي ايام يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد

والثدي التي لم ترضع حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللآكام غطينا لانهم ان كانوا صنعوا هذا بالعود الرطب فماذا يكون باليابس » ثم استانف مسيره والناس على ما عهدناهم من السخرية والازدراء الى ان بلغوا المكان المسمى بالجلجلة ومعناه الجمجمة وللحال اعطوا يسوع خمراً ممزوجة بمرّ ليشرب تبعاً للعادة التي كانوا يتبعونها من القدم تخفيفاً على الذين كان يحكم عليهم بالموت لان هذا الشراب كان يستعمل لتخدير الاعصاب فيخف شعور المصلوب بالعذاب اما يسوع فتناول الكاس ووضعه على فيه ثم اعاده من غير ان يشرب لانه كان يريد ان يتحمل العذاب وهو صاح وكانت الساعة الثالثة وصلبوه بعد ذلك على شكل قاسي بربري ترتعد من ذكره الفرائص وتقشعر الجلود

جاؤا بيسوع وعروه من ثيابه وغطوا عواره بمئزر وهو شاحب اللون خائر القوى ثم القوه على تلك الخشبة التي كان يحملها واخذوا يربطون يديه ورجليه بالحبال حسب العادة المتبعة واذا بصائح يقول لا يكفي هذا فانه يقوى على ان يحل هذه الرباطات ويهرب بقوة بعلزبول بل سمروه تسميراً وللحال تقدم واحد من الحاضرين ويظن انه مرسل من قبل مجمع السنهدريم وقدم للذين يشتغلون بصلبه مساميراً كبيرة ومطرقة فتناولوها وسمروا بها يدي يسوع ورجليه على الصليب وهو يتالم ولا يفتح فاه وبعد ان انتهى عملهم هذا البربري رفعوا الصليب واركزوه في الحفرة التي حفروها له وكانت الدماء تنفجر من عروق يديه ورجليه ثم مالوا الى اللصين الاخرين فصلبوهما بالحبال واركزوهما عن يمين وعن

شمال السيد فتمت النبوة القائلة (واحصي مع الأئمة اشعيا ٥٣ : ١٢) وللحال فتح يسوع فمه وابتهل لاجل معذبيه قائلاً « يا ابت اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون »

وكان من عادة الرومانيين تعليق كتابة على صليب المجرم يعلن بها ذنبه وسبب قتله فجاؤا الى بيلاطس وسالوه عما يجب ان يكتب في عنق يسوع فقال اكتبوا انه ملك اليهود فاعترض اليهود قائلين لا تكتب انه ملك اليهود بل اكتب انه هو قال انه ملك اليهود فانتهرهم وقال هكذا قد امرت فكتبوا حينئذ لوحة بالرومانية واليونانية والعبرانية (يسوع الناصري ملك اليهود) وعلقوها على الصليب

وكان المتولون امر الصلب اربعة من الجنود وهولاء من حقهم اقتسام ثياب المجرم ولذلك لم يكادوا يفرغون من الصلب حتى بادروا فاخذوا ثيابه وجعلوها اربعة اقسام لكل منهم قسم وكانت عبارة عن ردائه وغطاء رأسه ومنطقته ونعله ولما كانت هذه الاقسام متفاوتة فاقترعوا على ما يأخذ الواحد منهم اما قميصه فكان غير مخيط بل منسوجا كله من فوق فقالوا فيما بينهم لا نشقه ولكن نقترع عليه لمن يكون وحينئذ تمت نبوة داود الملك القائل (اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقترعوا مزمور ٢١ : ١٩) ثم جلسوا هناك يحرسونه

اما اعداء يسوع فلم يكتفوا من تعذيبه بما تقدم بل استرسلوا في اهانته وشتمه فكان المارون به يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم ويقولون يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك ان كنت ابن

الله وانزل عن الصليب وهكذا روساء الكهنة كانوا يهذاؤن به فيما بينهم مع الكتبة والشيوخ قائلين خلص آخرين ونفسه لم يقدران يخلصها فليخلص نفسه ان كان هو مسيح الله المختار ان كان هو ملك اسرائيل فلينزل الان عن الصليب لنرى ونؤمن انه متكل على الله فلينقذه الان ان كان راضيا عنه لانه قال انا ابن الله وكان الناس وقوفا ينظرون اليه ويسخرون منه مع الروساء وكان الجند ايضاً يهذاؤن به ويضحكون عليه ويقدمون له خلا ويقولون ان كنت انت ملك اليهود فخلص نفسك وكذلك اللصان اللذان صلبا معه كانا يعيرانه وهما ايضاً يهوديان

وكان احد المجرمين المصلوبين يجدف عليه قائلا ان كنت انت المسيح فخلص نفسك وايانا فاجابه اللص الاخر منتهراً وقال الا تخشى الله وترهب الموت وانت مشترك في هذا القصاص اما نحن فبعدل لاننا نانا ما نستوجبه اعمالنا واما هذا فلم يصنع شيئاً من الشر ثم مال بنظره الى يسوع وقال يارب اذكرني اذا جئت في ملكوتك فقال له يسوع الحق اقول لك انك اليوم تكون معي في الفردوس »

وكان واقفاً عند صليب يسوع امه واخت امه مريم امرأة كلاوبا ومريم المجدلية وكان معهن يوحنا التلميذ الشاب الذي كان يحبه فلما رآهن يسوع مع ذلك التلميذ المحبوب الذي لم ير سواه من تلاميذه قال لامه « ياامرأة هذا ابنك» ثم قال للتلميذ «هذه امك» فاسرع يوحنا واخذ مريم ام يسوع الى خاصته وكانت اذ ذاك الساعة السادسة فحدثت ظلمة على وجه الارض كلها الى الساعة التاسعة وكانت الشمس مظلمة وفي الساعة التاسعة

صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا « ايلي ايلي لما شبقتني اي الهي الهي لماذا تركتني » فسمع قوم من الذين كانوا حاضرين فقالوا هاانه ينادي ايليا وبعد هذا راى يسوع ان كل شيء قد تم فلكي يتم الكتاب قال يسوع « انا عطشان » وكان اناء موضوعا مملوءا خلا فاسرع واحد وملأ اسفنجة من الخل وجعلها على قصبة وسقاه فقال له بعضهم دع لننظر هل ياتي ايليا وينجيه فاجابهم بل دعوا لننظر هل ياتي ايليا وينزله عن الصليب

اما يسوع فلما اخذ الخل قال « قد تم » ونادى بصوت عظيم قائلا « ياابت في يديك استودع روحي » ولما قال هذا امال راسه واسلم الروح واذا حجاب الهيكل قد انشق اثنين من فوق الى اسفل والارض تزلزلت والصخور تشققت وكان ذلك آيات تدل على ان الفادي قد مات

فلما راى صاحبنا كرميليوس الذي قد اتم كل ماتم مرغماً هذه الخوارق مجد الله قائلا في الحقيقة كان هذا الرجل صديقا في الحقيقة كان هذا الرجل ابن الله وكذلك الجند الذين كانوا معه يحرسون يسوع لماراوا الزلزلة وما حدث من الاهوال خافوا جدا وقالوا في الحقيقة كان هذا ابن الله

ولما كان ذلك اليوم يوم التهيئة فئلا تبقى الاجساد على الصليب فى ذلك اليوم العظيم وبقاوها يخالف لرسم الناموس القائل:

(اذا وجدت على انسان جريمة حقها القتل فقتل وعلق على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل في ذلك اليوم تدفنه لان المعلق ملعون من الله فلا تنجس ارضك التي أعطاك الرب الهك ميراثا تثنية ٢١ : ٢٢) لاجل هذا تقدم الرؤساء الى بيلاطس والتمسوا منه ان تكسر سيقان المصلوبين تعجيلا

لموتهم ودفنهم وتوقيرا للسبت ومراعاة للناموس ولا سيما لان ذلك السبت كان عظيما اذ كان واقعاً في عيد الفصح اما بيلاطس فسمح لهم بذلك وللحال نقل الامر الى الجنود الذين كانوا يحرسون الصلبان فبادروا الى اللصين وكسروا سيقانهما ولما انتهوا الى يسوع المصلوب راؤه قد مات فلم يكسروا ساقيه لكن واحداً من الجند طعن جنبه بحربة مخافة ان يكون فيه رمق من الحياة فخرج للوقت دم وماء وبهذا تم الكتاب القائل (انه لا يكسر له عظم خروج ١٢ : ٤٢) والقول الآخر (وافيض على بيت داود وعلى سكان اورشليم روح النعمة والتضرعات فينظرون اليَّ انا الذي طعنوه ذكريا ١٢: ١٠)

الفصل الثمانون

الدسيسة

دخل كرميليوس على بيلاطس ليقص عليه امر الدسيسة فقاطعه بيلاطس لانشغاله بامر يسوع الا ان كرميليوس هذا اذ عاد الى بيلاطس حزيناً ناقماً على اليهود رأى ان يحرك عواطفه للانتقام منهم فدخل عليه وقال مولاي ان البري قد مات

قال قد علمت ذلك من اهوال هذه الزلازل وتبديل نور النهار بالظلام فلبثت جزعا جداً وخائفاً من هول هذا الحكم الجائر الذي نفذناه على هذا البار قال فاسمح لي ان اقص عليك امر الدسيسة قال وأي دسيسة تعني ؟؟

قال التي جئتك لاجلها في صباح اليوم فقاطعتني لاشتغالك بامر يسوع

قال حسناً فقد تذكرت وما هي هذه الدسيسة

قال انت تعلم يامولاي ان الله قد جمع شملنا بعد طول الشتات فعثرت على امي واخي واختي ونحن ما زلنا نقيم في دار واحده

قال اعلم ذلك جيداً وانكم في حمى الشريف الروماني انطونيوس

قال فان اختي رفقه قد عرفت يسوع الناصري في بيت لعاذر وعرفها واحد من تلاميذه يدعى يهوذا الاسخريوطي

قال حسناً وماذا

قال فان هذا الشقي قد هجم في غلس هذا اليوم مع بعض الاشقياء على بيتنا فدخلوه عنوة وهم ينادون رفقه فقابلهم الشريف انطونيوس وروميليوس بالسلاح فطعنوا واحداً منهم وفر الباقون وهذا المطعون علمنا منه ان اسمه شاؤول وعلمنا انه كان من اصدقاء ابي يهوذا واذ عرفته امي دافعت عنه واعترضت انطونيوس وروميلوس والا لاجهزا عليه وقد اخبرنا انه كان متفق مع يهوذا الاسخريوطي على خطف رفقه لان يهوذا هذا كان مغرماً بها ولعلمه انها بحماك راى ان لا سبيل للوصول اليها الا اذا حدثت ثورة في اليهوديه فارتأى ان يسلم يسوع لاعدائه طمعاً بالشعب الذي اظهر له كل الميل فيثور علينا وفي هذه الاثناء يتمكن من خطف رفقه وتوهم بعد ان اسلم سيده لاعدائه ان الشعب قد ثار فهجم على دارنا فلاقى ما لاقاه واننا لفي جزع من هذا الشرير وعصابته فاسالك الاذن بالقبض عليهم والاقتصاص منهم

قال قد اذنتك واذنت لك ان تقتله مع عصابته ان ظفرت بهم فسلم وخرج بعد ان اصطحب معه عدداً من الجند وما كاد يخرج من حضرة بيلاطس

حتى دخل عليه شيخ كث اللحية ابيضها وارتمى على قدميه وهو يبكي وينوح فقال له بيلاطس ما حاجتك يا يوسف الرامي

قال انا يوسف الذي من الرامة احد شورى دولتك اسالك بان تسمح لي بدفن جسد يسوع الذي حكم عليه بالموت ظلماً

وما انتهى الشيخ من كلامه حتى سمع بيلاطس من الخارج انين ونواح نسوة فقال له ومن هاته النسوة اللواتي ينحن خارجاً قال انهن من الثاكلات يسوع يبكينه ويندبنه

فاغرورقت عينا بيلاطس بالدموع وقال له فليكن لك حسب طلبك ايها الشيخ وهنذا آمر جنودي بذلك بواسطة كاتبي مانيلوس الذي لا آمن سواه على تنفيذ أوامري بما يتعلق بيسوع واشار للحال الى كاتبه فسار مع يوسف حيث كان قد اشترى كتاناً واصطحبه معه وسارا الى الجلجلة ولما بلغوها وجدوا رجلاً يدعى نيقوديمس ومعه حنوط من مرٍّ وصبر فتعاونوا على انزال جسد يسوع ولفوه في لفائف كتان نقي مع الاطياب على حسب عادة اليهود في دفن موتاهم وكان في الموضع الذي صلب فيه يسوع بستان وفي البستان قبر كان يوسف الرامي قد سبق وحفره لنفسه وهو جديد لم يدفن فيه احد فوضعوا يسوع هناك ثم دحرج يوسف حجراً عظيماً على باب القبر ومضى ومعه نيقوديموس وعاد مانيليوس كاتب الولاية ليخبر سيده بما كان

اما بيلاطس فبعد ان سمح ليوسف بانزال الجثة ودفنها عاد لهواجسه واضطراباته وكان كمن قد جنَّ اومسه خبل وبينما هو ساه يفكر بكل ما

مضى عليه في بياض يومه واذا بكرميليوس عائد وهو يقول مولاي قد كفانا يهوذا شره اذ يئس من نيل امانيه فشنق نفسه

قال كيف علمت ذلك

قال لما انتهيت الى الهيكل لاسال عن مقر يهوذا الاسخريوطي قابلني خادم الهيكل وقال انه مات خنقاً قال وكيف ذلك

قال بعد ان عاد الروساء في صبيحة هذا اليوم الى الهيكل على اثر ارسالهم الناصري الى دار الولاية دخل عليهم يهوذا وهو يقول لقد اخطات اذ سلمتكم دماً ذكياً فاجابوه بازدراء ماذا علينا نحن انت ابصر بامرك

اما هو فاذ سمع جوابهم البارد هذا طرح الفضه في الهيكل ومضى فحملني حب الاطلاع على تأثره فتبعت خطواته فاذا هو قد اجتاز المدينة ووصل الى الخلاء حيث خنق نفسه وانشق من وسطه واندلقت امعاؤه كلها (اعمال الرسل ١ : ١٨) ولما عدت الى الهيكل علمت ان الكهنة لم يبالوا بما قاله يهوذا ولم يهمهم امره بل اخذوا الفضه وقالوا لا يحل ان نجعلها في بيت التقدمة لانها ثمن دم فتشاوروا واقروا ان يبتاعوا بها حقل الفخار ويجعلوه مقبرة للغرباء

فلما سمعت يامولاي كلمات الخادم وعلمت انها حقيقية بعد ان كررت الاسئلة عليه عدت اليك وانا منثلج الصدر اذ لاقى هذا الخائن جزاءه وقد أمنا شره

فتبسم بيلاطس تبسم الخائف وقال ياللالهة من هول يوم جوبتير اذا كان يسوع من ابنائه او اخصائه ووضع راسه بين يديه واطرق الى

الارض صامتا وانصرف كرميليوس الى بيته

وفي صباح اليوم التالي اجتمع روساء الكهنة والفريسيون واقروا ان يطلبوا من بيلاطس ختم القبر واقامة الحراس عليه لانهم سمعوا عن تلاميذه انهم يقولون انه سيقوم من بين الاموات في اليوم الثالث فخافوا ان يسرقوه ويعلنوا انه قد قام فيغتر عامة الشعب ويؤمنون به وللحال قصدوا بيلاطس وعرضوا عليه ملتمسهم فقال لهم ان عندكم حراساً فاذهبوا واختموا القبر كما تعلمون فمضوا وختموا القبر بختم الحجر واقامة الحراس وعادوا آمنين على يسوع ومن مكر تلاميذه على مايزعمون

الفصل الواحد والثمانون

قيامة المسيح

فلنعد الآن الى ساره واهل بيتها فقد تركناهم منذ يوم الاحد الا انهم كانوا ايضاً ككل ساكن في اورشليم ونازل بتلك المدينة المقدسة مهتمين بامر يسوع وحوادثه وكانت راحيل لا تفتر عن ذكر يسوع والذهاب لبيت بيلاطس لتشجيع امرأته على معارضة كل عمل يأتيه اليهود ضد هذا البار وكنّ جزعات اتم الجزع عليه وكان روميليوس بالاخص كالمجنون لانه كان متعلقاً بيسوع ويحفظ له اكبر جميل حيث نال الصحة على يديه ولم يكن متأثراً بعوامل الكراهة ليسوع التي كان يبثها رؤساء الكهنة وشيوخهم في نفوس الشعب

وفي صبيحة يوم الجمعة اذ حدث ما حدث من هجوم يهوذا وشاوول لخطف رفقه ازداد القوم اضطراباً واقروا على مبارحة اورشليم ولم يكن



كرميليوس في البيت وعندما حضر وقصوا عليه ما كان ذهب تواً لاخبار بيلاطس بينما كانوا يعدون عدتهم لمبارحة المدينة وهكذا قضوا بياض يوم الجمعة في اعداد معدات الرحيل وهالهم ما شاهدوه من الزلازل التي كادت تدكدك المدينة والظلام الذي خيم عليها في الوقت الذي كان فيه يسوع معلقاً على الصليب وعند منتصف الليل عاد كرميليوس الى البيت وقص

عليهم كل ماتم وجرى فقضوها ليلة نواح وعويل

وفي صباح السبت ذهب الجميع الى دار بيلاطس للوداع وهناك علموا ان رؤساء اليهود طلبوا ان يختم القبر فسمح لهم بيلاطس بذلك وبعد ان لبثوا عنده حتى الظهر وتناولوا طعام الغذاء عادوا الى البيت وكان روميليوس منذ الصباح يجد ويسعى ليجد المكارين فعانى بذلك الامرين لان لم يكن من اليهود من يقبل بالسفر في يوم السبت وايام العيد واخيراً توفق الى ايجاد من يسير بهم بنفوذ الوالي ودفع الاجور الباهظة لان راحيل وساره ورفقه ابين الا الارتحال من بلد فيها ظلم الصديق وقتل البار وقبل ان ينبثق نور الفجر كانوا جميعاً على ظهور الخيل وقد صدرت الاوامر ففتحت لهم ابواب المدينة ولم يخرجوا حتى رأوا وراءهم نسوة يسرن بسرعة وهنّ نائحات فتقدمت منهن راحيل وهي على ظهر جوادها وسألتهنّ عن وجهتهنّ فقلن لها نحن اخصاء يسوع الناصري المصلوب ولقد اشترينا حنوطاً وذاهبات لنحنطه

فسألتهنّ راحيل ان كنّ انسباء يسوع أوذوي قرباه فقالت لهن احداهنّ انا ادعى مريم المجدلية وهذه مريم ام يعقوب وتلك سالومه ابنتها قالت اجمل الله عزاءكنّ يابنات اسرائيل وتركتهنّ وعادت الى رفاقها وقالت ما علينا لو تأثرناهنّ وزرنا ضريح هذا المظلوم قبل الرحيل

فوافق الجميع على هذا الرأي وتبعوهنّ فسمعوهن يقلنَ ان الحجر الذي دحرجوه على قبر يسوع عظيم جدا فمن يدحرجه لنا ياترى؟؟

واذ سمع الركب هذه الكلمات تقدم ابرهيم ابن ساره وقال لاتخفن

فنحن معكنّ نقوم بهذا العمل وحينئذ ترجل الركب وساروا مع النسوة وما كادوا يقربون من ذلك البستان المدفون فيه يسوع حتى سمعوا صوت زلزال هائل فها لهم ذلك وتوقفوا قليلاً عن المسير ثم اذ عاد السكون استأنفت النسوة السير حتى دخلن البستان وبلغن القبر فوجدن الحجر قد دحرج فاضطربن وصحن قائلات يالأله اسرائيل فانهم قد سرقوه وتركتهن مريم المجدليه وعادت مسرعة الى المدينة وبينماهنّ متحيرات من كل هذا الذي جرى واذا برجلين قد وقفا امامهنّ وكان عليهما لباس براق فهبنهما واطرقن الى الارض ثم رفعن ابصارهن فرأين شاباً جالساً عن اليمين عليه لباس ابيض فابتدرهنّ بالخطاب قائلاً لا تخفن فانني قد علمت انكنّ تطلبن يسوع الناصري المصلوب لماذا تطلبن الحي بين الاموات انه ليس ههنا لكنه قد قام اذكرن كيف كلمكن وهو في الجليل اذ قال « انه ينبغي لابن البشر ان يسلم لايدي اناس خطأة ويصلب ويقوم في اليوم الثالث » فذكرن كلامه ثم قال لهن تعالين وانظرن الى المكان الذي كان مضطجعاً فيه الرب فتقدمن من القبر وتعهدنه وحينئذ استأنف محدثهن الكلام قائلاً اسرعن الى المدينة واخبرن تلاميذه ولبطرس انه قد قام وهو يسبقكم الى الجليل وهناك ترونه كما قال لكم ها انا قد قلت لكن

اما الركب فانهم لبثوا خارج البستان وكانوا مندهشين ومزعورين فلما رأوا المجدلية خارجة تقدموا منها وسألوها مرارات فقالت انهم قد سرقوا يسوع وهنذا ذاهبة لاخبر تلميذيه يوحنا وبطرس فلبثوا واقفين ينتظرون مجيء التلميذين وبعد قليل خرجت النسوة فتقدموا منهنّ وسألوهنّ عما

كان فلم يجبنهم ينبت شفة لان الفرح كان قد لعثم السنتهن فتأكد الركب حينئذ ان يسوع قد سرق فاستأنفوا المسير في طريقهم

اما الركب الذي سافر من اورشليم قاصداً رومية فكان يتألف من ساره وابنتها رفقه ومربيتها راحيل وابنها ابرهيم والشريف انطونيوس وروميليوس مربي رفقه وخطيبها

وكانت مريم المجدلية قد انطلقت لبيت يوحنا الحبيب حيث كان بطرس هناك فأخبرتهما بأن المسيح قد سرق فسارا مسرعين ودخلا البستان واذ وصلا الى القبر دخلاه فوجدا الاكفان موضوعة والمنديل الذي كان على رأسه غير موضوع مع الاكفان بل موضوعا في موضع على حدته فعادا مندهشين

الخاتمة

اما كرميليوس فانه ظل في اورشليم بعد ان وعد امه بالتخلص من الخدمة واتباعهم وبقي معه شاوول الجريح على ان يرحل معه الى رومية ايضا

ولم يمض الشهران حتى كان كرميليوس في روميه ومعه شاوول فوجد ان اهله جميعاً يقيمون في بيت الشريف انطونيوس وقد اخبرهم بان يسوع لم يكن مسروقا بل انه في الساعة التي سمعوا فيها الزلزال وهم خارجون من اورشليم قد نزل من السماء ملاك الرب وجاء ودحرج الحجر عن الباب اذ كان المسيح قد قام من بين الاموات وسار الى الجليل وظهر لكثيرين من تلاميذه ومريديه وان اتباعه يكثرون رويداً رويداً في عموم اليهودية

وبعد قليل احتفل روميليوس باقترانه برفقه ودخلوا جميعاً م

الشريف انطونيوس في دين المسيح وكانوا اول عائلة مسيحية في رومية

وكان شاوول قبل مبارحته اورشليم قد اجتمع باخصاء يسوع ولا سيما مريم المجدلية وهي نفس راحيل عشيقة ابن هيرودس التي كانت زانية ثم تابت وعامت هذه منه انه قاصد رومية فوعدته انها ستسير الى رومية ايضاً وهناك سيكون اجتماعهما اجتماعاً طاهراً نقياً وبالفعل بعد ثلاثة اشهر سارت هذه المرأة التائبة الى رومية بعد ان وعظت وعامت كثيرين في اورشليم واجتذبتهم الى الدين المسيحي وبوصولها الى ام المدائن رومية العظمى نزلت في ضيافة الشريف انطونيوس وهناك اجتمعت بعشيقها الاول اجتماعا لم يكن فاسداً كما رأيناهما على رأس الجبل بل مقدساً يراد منه خدمة المسيحيين ونشر الانجيل وبوصولها أخذت تقص على الحاضرين ما تعلمه عن يسوع فقالت

تعامون اني كنت مع النسوة حاملات الطيب اللواتي سرن الى قبر السيد ليطيبنه وانا بحال وصولنا الى القبر رأيناه مفتوحاً فحسبنا ان جسد السيد قد سرق اما انا فعلى الفور رجعت ادراجي لاخبر بطرس ويوحنا اللذين اسرعا الى القبر ولبثت قليلا عند ام السيد اعزيها ثم لم اتمالك ان اتبعتهما فلما وصلت الى القبر لم أر احداً فلبثت وحدي ابكي ثم انحنيت على القبر فرايت ملكين بثياب بيضاء جالسين حيث وضع جسد السيد وقالا لي يا امراة لم تبكين ؟ ؟

فقلت انهم اخذوا ربي ولا اعلم اين وضعوه قلت هذا والتفت الى الوراء فرأيت يسوع واقفا ولم اعلم انه يسوع فقال لي « يا امراة لم

حملته فقل لي اين وضعته وانا آخذه قلت هذا واعدت نظري الى القبر



واخرجهم خارجاً الى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم وفيما هو يباركهم انفرد عنهم

وأُصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم (لو ٢٤ : ٥٠)

واذا بالسيد يناديني فالتفت وقلت يامعلم وانطرحت على قدميه اقبلهما فابتعد عني السيد وقال « لا تلمسيني لاني لم اصعد بعد الى ابي بل امضي الى اخوتي وقولي لهم اني صاعد الى ابي وابيكم والهي والهكم » قال هذا وتوارى للحال فطرت على اجنحة الفرح لاخبر بقيامة المسيح سيدي

بيسوع لاقانا وقال « سلام لكنّ » فدنونا منه وسجدنا له فقال لنا « لا تخفن اذهبن وقلن لاخوتي ليذهبوا الى الجليل وهناك يرونني » ثم توارى عنا فاسرعنا الخطى الى المدينة واخبرنا الاحد عشر رسولا بقيامة الرب وظهوره وكانوا في بيت يوحنا مع ام يسوع فلم يصدقونا

اما الحراس الذين كانوا على باب القبر فانهم اذ حدث الزلزال اصبحوا كالاموات ولم يتمالكوا روعهم حتى كان الحجر قد تدحرج عن باب القبر وقام المسيح وتوارى عن ابصارهم وعند ذلك اسرعوا الى المدينة واخبروا روساء الكهنة بكل ماحدث فاجتمعوا هم والشيوخ وتشاوروا واعطوا الجند فضة كثيرة وامروهم ان يذيعوا بين الناس ان تلاميذه اتوا ليلا وسرقوه وقد علمنا ذلك من الاشاعات التي شاعت في اورشليم

وفي ذلك اليوم ايضاً ظهر يسوع لبطرس وهذا اخبر رفاقه فازدادوا تيقنا بقيامة الرب وبعد ذلك تراءى بهيئة اخرى لاثنين منهم وكانا سائرين من اورشليم الى قرية عمواس ثم ظهر للاحد عشر رسولا في علية صهيون فبينما كانوا يتحدثون في عشية ذلك اليوم والابواب مغلقة جاء يسوع ووقف في وسطهم وقال لهم « السلام عليكم انا هو لاتخافوا » فاضطربوا وظنوا انهم يرون روحاً فقال لهم « مابالكم مرتعدين ولماذا ثارت الاوهام في قلوبكم انظروا يديّ ورجليّ اني انا هو جسوني وانظروا فان الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لي » ففرح التلاميذ حين ابصروا الرب وا كل معهم ليلتئذ ثم ظهر لرسله مرة ثانية في العلية وظهر في الجليل للرسل وعموم التلاميذ ثم ظهر اخيراً في اورشليم في اليوم الاربعين بعد قيامته على

وعدهم بارسال الروح القدوس

وفي يوم الخمسين بينما كان الرسل وعموم التلاميذ والنسوة مجتمعين في العلية حلَّ عليهم الروح القدس بشبه اسهم نارية فغدوا يتكلمون بلغات مختلفة وانطلقوا يبشرون باسمه في كل الارض وهكذا جئت اليكم بعد ان تجولت في بلاد كثيرة وبشرت كثيرين وعمدتهم باسم يسوع

وبعد ان قصت المجدلية خلاصة ما جرى للسيد قالت الا ان بيلاطس قد ندم اشدَّ الندم على ما فرط منه بتسليم السيد للموت ولذلك اخذ ينتقم من اليهود بصرامة فذبح منهم كثيرين وزج كثيرين في اعماق السجون فبذلنا نحن معاشر المسيحيين كل ما في الوسع لردعه عن غيه فلم نفلح ولذلك لا بدَّ لي من ان اشكوه الى قيصر لاننا لا نحب الانتقام وقد علمنا السيد الصفح بمواعظه وبعمله ايضاً وهو معلق على الصليب قالت هذا ومالت الى انطونيوس وطلبت منه ان يقدمها الى طيباريوس قيصر ففعل وكانت هذه المرأة على مسحة من ذلك الجمال القديم وقد زادتها نعمة الايمان بيسوع فصاحة وهيبة فلما مثلت بين يدي قيصر الرومانيين قدمت له بيضة مصبوغة صبغة حمراء وقالت له المسيح قام وليعش طيباريوس قيصر

فاندهش طيباريوس بهذه اليهودية الجميلة كما اندهش من شكل هديتها وقال لها ما المراد بهذه البيضة ؟

فاجابت انها بشرى خير يا مولاي فان هذه البيضة تشير الى حياتنا على الارض وقيامتنا في السماء فحياة الانسان على الارض تشبه حياة الطائر في البيضة وحرارة الرقاء على البيضة تمكن الفرخ من طرح القشرة

الزائلة الضيقة ويبلغ الحياة الدائمة المفرحة تلزمه حرارة ايمان ولا ايمان الا الايمان بالفادي الحبيب الذي سال دمه على الصليب فان هذا الدم الذكي الذي نرمز اليه بصباغ البيضة خولنا نحن اتباعه حياة الابد ثم فان المسيح قد قام وان يكن مات على الصليب ظلماً بامر بيلاطس عاملك على اليهودية ومن شرّ روسائنا الاسرائيليين الذي عملوا على اهلاكه ليبقى لهم هذا التسود على الشعب

فازداد طيباريوس اندهاشاً مما قالت وقال قصي عليَّ باجلى بيان مظلمة هذا الذي تسمينه يسوع

فاخذت مريم المجدلية بطلاقة تقص على الامبراطور ما كان من امر يسوع والحكم عليه بالموت الى ان قالت والغريب ان بيلاطس كان عالماً ببراءة يسوع وسمو تعاليمه وكرم اخلاقه ومع كل هذا امر بصلبه لاغيرة على صوالح السلطنة الرومانية ولا تحسباً من شيء يمس بحاسياتك ايها القيصر الجليل القدر بل لمجرد احتراسه على صوالحه الشخصية حيث خاف ان يدس عليه اليهود بانه خان قيصر في امر يسوع ولم يعلم هذا المسكين ان الحاكم الظالم هو اول خائن لملكه الذي اعطي السلطة من العلاء هذا وان بيلاطس عرف غلطته واقرَّ بذنبه ولكنه اراد ان يتلافى ما فرط لا بالرصانة والتوبة بل بالطيش وسفك الدماء فظن انه بسفك دماء اليهود ينتقم ليسوع منهم والحال ان هذا الوالي لم يسمع كلمة من يسوع على اعدائه الالداء وبلغه ولا شك انه صفح لهم وصلى من اجلهم وهو على الصليب واذ اخذ يسفك دماء اليهود وينزل في رقابهم حد السيف تقدمنا نحن اتباع يسوع الى امرأته التي دخلت في ديننا وحرضناه

بواسطتها على الرفق بالناس والايمان بالمصلوب الذي قام من الموت فلم يرتدع والان انا اطلب منك ايها المولى الجليل لا الانتقام من بيلاطس بل ردعه عن المظالم شفقة على العباد فاننا نحن معاشر التابعين ليسوع نكره سفك الدماء والافتراء على الناس ونحب العدل والسلام وعمل الخير مع الجميع لان سيدي يسوع المسيح علمنا ذلك واوصانا ايضاً ان نحب اعداءنا ونحسن لمن اساء الينا وبما اننا نبشر بقيامة سيدنا يسوع المسيح وندعو الكبير والصغير الى الايمان به فانا الذليلة احسب نفسي سعيدة بالمثول امامك واستلفات نظر عظمتك الى تعاليم سيدنا وطهارة سيرة اتباعه لعلك تحقق ان تعليم يسوع يخول الامم والشعوب والممالك سعادة الدارين فتصير قدوة صالحة للشعوب الخاضعين للمملكة الرومانية ولجلالتك

فلما سمع طيباريوس هذه الكلمات وقعت في نفسه اعظم وقع فطيب خاطرها ووعدها بعزل بيلاطس وانعم عليها بهدية سنية وصرفها

وبعد ايام اقترنت شرعيا بشاوول واصبح كلاهما زوجين لاهمَّ لهما الا نشر تعاليم المسيح بين الرومانيين

وبعد هذه الحوادث بنصف الحول قدم عليهم من اليهودية يعقوب وهو خادم ساره الامين الذي انضم الى اتباع يسوع انتهى

انتهت رواية شهيد الجلجلة وهي الحلقة الثانية من تاريخ النصرانية الاكبر وتليها رواية الاناء المصطفى وبطلها القديس بولس رسول الامم

وكان الفراغ من تسويد الحلقة الثانية في يوم الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٠٥ بمدينة مصر المحمية بيد الفقير اليه تعالى عبد المسيح انطاكي صاحب جريدة العمران والحمد لله أولا وآخرا

ت فلم
طس
سوع
الخير
حب
سيح
يدة
يرة
ادة
ك
ب
لما
ب
ية
م
ة

DATE DUE

